

مَسَائِدٌ وَلَطَائِفٌ  
مِنْ  
الْأَحْزَانِ الْبَيْتَانِيَّةِ  
لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

الاستاذ الدكتور  
فَضْلُ خَسْرٍ خَمَّارٍ عَمَّارٍ  
رحمه الله



دار الفائس  
للنشر والتوزيع - الأردن

لِمَسَاتٍ وَطَائِفٍ  
مِنْ  
الْحِجَازِ الْبَنِيَانِيَّةِ  
لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ



حقوق الطبع محفوظة ©

١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م

الطبعة الأولى

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

٢٠١٥/٤/١٤٨٣

٢٢٧,٤

عباس، فضل حسن

مسات ولطائف من الإعجاز البياني للقرآن الكريم / فضل حسن عباس ط.ا.-  
عمان دار النفائس للنشر والتوزيع، ٢٠١٥

( ) ص.

ر.ا. ٢٠١٥/٤/١٤٨٣

الوصفات: / إعجاز القرآن // القرآن الكريم /

تنويه مهم



تحت طائلة المسائلة القانونية يمنع تصوير

هذا الكتاب أو استخدامه بأنواع النشر كافة.



العبدلي - مقابل مركز جوهرة القدس

ص.ب 927511 عمان 11190 الأردن

هاتف: 5693940 00962 6

فاكس: 5693941 00962 6

Email: [alnafaes@hotmail.com](mailto:alnafaes@hotmail.com)

[www.al-nafaes.com](http://www.al-nafaes.com)



دار النفائس

للنشر والتوزيع - الأردن



9 789957 802073

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



## مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله رب العالمين، حمداً يوافي نعمه ويكافئ مزيده، أنزَلَ على عبده الكتاب ولم يجعل له عِوَجاً قَبِيحاً، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، خير عباد الله وأشرف خلقه، صلاة وسلاماً تامين، دائمين، متلازمين إلى يوم الدين، وعلى آله وصحبه، الذين كانوا صورة صادقة لهذا القرآن، في آدابه وأوامره ونواهيه، ومن اتبعهم على هذا النهج... أما بعد.

فإن من أعظم نِعَمِ الله على الناس بعامة، والمسلمين بخاصة، هذا القرآن الذي أُرسل به سيدنا محمد ﷺ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (١٧) ﴿[الأنبياء: ١٠٧]، وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِّلْمُسْلِمِينَ﴾ (٨٩) ﴿[الأنبياء: ٨٩]، هذا القرآن الذي تكفل الله بحفظه ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَنَافِعُونَ﴾ (١) ﴿[الحجر: ٩]، فهو يستعصي على كل المحاولات، التي تبغيه عوجاً، وهذا معنى الحديث الصحيح، الذي أخرجه الإمام مسلم، وهو ما قاله الله لنبيه: «وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء، تقرأه نائماً ويقظاناً»<sup>(١)</sup>. فلقد كان القرآن بحقُّ باعث نهضة، وأساس حضارة، ولكنها نهضة نظيفة من كل الشوائب والمكدرات، وحضارة لا يمكن أن تشيب أو تهرم.

ولا عجب -إذن- أن توجَّه له الأمة، في أوج حضارتها، وعلى اختلاف أزمته كذلك، كل ما مُنِحَتْه من إمكانات، تستنتج منه آداباً، وتغذي به ألباباً، وتفجر ينباع حِكْمِهِ وأحكامه، وتهدي بمناراته وأعلامه، وترشد إلى ما فيه من

---

(١) صحيح مسلم، ٢٨٦٥ (٦٣).

إشارات العلم، وقضايا الكون. وهو مع ذلك كله لا يفتأ يمدّها بجديد، كلما أضاءت شمس، وأثار قمر، ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلِمَتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ (١٠٩) ﴿[الكهف: ١٠٩].

ومع هذه الجهود المخلصة الطيبة، التي لم تكن لكتاب سوى القرآن، رأينا على النقيض من ذلك، جهوداً أُغيت ذويها، وهم يَكِدُّون أذهانهم، ويُجهدون أفكارهم وأقلامهم؛ ليجدوا فيه ثغرةً وخللاً، ولكنهم لم يورثوا بعملهم إلا سامةً ومللاً.

ومن أبرز القضايا القرآنية، قضية الإعجاز، التي بحثها العلماء قديماً وحديثاً، على اختلاف أعصارهم وأمصارهم، ولا زالت يَكْرَأُ، تُتَمَتَّعُ فِكْرًا، وتُخْرِجُ تَبْرًا، وتسطع نوراً، وقضية الإعجاز ليس الهدف منها ردّ شبهات الحاقدين، ودحض جهالات الجاهلين، وإنما مع ذلك وقبله، بيان روائع الكتاب الخالد، في مجالات الحياة المتعددة؛ ولذا كانت كتب الإعجاز في كل عصر تحمل جديداً للناس.

وشاء الله لي أن أكرّم وأشرف لأسهم بنصيب - وإن كان جهد المقل - في هذا المضمار. وهذا الكتاب يشتمل على الإعجاز البياني. ولقد حاولت أن أسلك فيه طريقاً، خالياً من كل وُعورة، بريئاً من كل ما يعسر على القارئ، بعيداً عن كل تكلف وتمحل، راجياً أن يجد فيه كل قارئ، أياً كانت ثقافته، ومهما كانت، أن يجد فيه بُغيته، ومتعته الفكرية والروحية، والفوائد العلمية، ولا أنكر أنني أفدت من جهود السابقين، سواء كان ذلك من حيث المنهج والأسلوب، فتجنبت المواضيع التي تصعب على القارئ، من غير ذوي الاختصاص، أم من حيث المادة العلمية، ولكن معظم هذا الكتاب - كما سيرى القارئ - إنما كان نتيجة لإجالة نظر في كتاب الله تعالى، مما فتح الله المتان به، والله الحمد والمنة في الأولى والآخرة وهو الفتح العليم.

ولقد اشتمل هذا الكتاب على فصول متعددة، ولما كان الإعجاز البياني مرجعه النظم، فلقد كان لزاماً أن أتحدث عن النظم وتعريفه أولاً، ثم عن الكلمة

وما لها من منزلة وعرضت بادئ بدء قضيتين هامتين، وهما قضيتا الغريب والمترادف، ولما كان هذا الكتاب لا يقف عند الدراسة النظرية للإعجاز، بل هو يقوم في معظمه على الدراسة الميدانية العملية، كان لا بد أن نذكر أمثلة كثيرة للكلمة القرآنية من حيث اختيارها في جملها، بما يقنع ويمتع، وفيه ويكفي إن شاء الله.

ثم تحدثت فيما بعد عن رسالة الحرف في كتاب الله تعالى، وهو فصل أرجو أن يجد فيه القارئ القول الفصل، في روعة القرآن وإعجازه. ثم تحدثت عن الجملة القرآنية بعد ذلك، من حيثيات متعددة، وجهات مختلفة، وبعد الحديث عن الجملة، كان لا بد من الحديث عن الفقرة القرآنية، ومثلت لذلك، بشيء من القرآن المكي والمدني، ليتبين القارئ أن أسلوب القرآن في رفعته وروعته، مكيه ومدنيه سواء. ثم تحدثت عن السورة القرآنية، وما ينتظمها من وحدة عضوية، ومثلت لذلك بسور من المكي والمدني كذلك، وتحدثت بعد ذلك عن الصلة بين السورة والسورة من كتاب الله. وبعد ذلك تحدثت عن القرآن في مجموعه.

ولما انتهيت من هذه الفصول، ذات البناء التصاعدي -كما رأيت- عرضت لفصول ذات صلة بهذه الموضوعات، فتحدثت عن الأسلوب القرآني وخصائصه، وعقدت فصلاً للفاصلة القرآنية، وآخر للتكرار، وفصلاً لقضية الزوائد والحذف، وهو ذو أهمية؛ وذلك لما اكتنفه من منزلقات كثيرة، كانت نتيجة قواعد صناعية، ناشئة عن مذاهب النحويين واللغويين، وختمته بتحليل سورتين من كتاب الله، إحداهما مكية، والأخرى مدنية، تحليلاً موضوعياً.

والله أسأل أن يكون خالصاً لوجهه، وأن يكون في ميزان حسناتي وحسنات والدي، وأصحاب الحقوق عليّ. رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه، وأصلح لي في ذريتي، إني تبت إليك وإني من المسلمين، واجعلنا اللهم من الذين تتقبل عنهم أحسن ما عملوا وتتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون.



رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء، ربنا اغفر لي  
ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب، وصلّ اللهم وسلّم وبارك على سيدنا محمد  
النبي الأمي، وعلى آله وصحبه، واجزِ اللهم سيدنا محمد ﷺ خير ما تجزي نبياً عن  
أمته، وآل سيدنا محمد وصحبه.

الدكتور  
فضل حسن عباس

# مَهَيِّدٌ

## النظم

تجمع المعاجم العربية على أن النظم إنما يرجع إلى ضم الأشياء بعضها إلى بعض، ولقد وضعه العرب كعادتهم للأمور المحسوسة، فأطلقوه على نظم اللؤلؤ والخرز في العقد الواحد، ثم استعمل في ضم الكلام وجمع بعضه إلى بعض، وتأليفه في جمل وفقرات وموضوعات.

وحينما نتحدث عن نظم القرآن الكريم فسوف لا نقف عندما وقف عنده بعض الناس، الذين يحسبون أن النظم إنما يشمل الجملة الواحدة فلا يتعداها إلى غيرها، لكننا نعني بالنظم ما هو أوسع دائرة، وأشمل موضوعاً، فإذا كان النظم: تأليف الكلام على وجه مخصوص، فمن الطبيعي أن ينتظم هذا المعنى الجملة المؤلفة من كلمات، والآية المكونة من أكثر من جملة، والسورة المؤلفة من آيات، وأخيراً القرآن الكريم المكوّن من هذه السور، المتناسق بعضها مع بعض، وحجبتنا فيما ذهبنا إليه قوله سبحانه: ﴿الرَّكَتَبُ أَحْكَمْتُ ۖ إِنَّنِي ثُمَّ فُصِّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [مود: ١].

حديثنا عن النظم -إذن- يشمل الموضوعات التالية:

- أولاً: اختيار الكلمة.
- ثانياً: الجملة القرآنية.
- ثالثاً: السورة القرآنية.
- رابعاً: ما بين السورة والسورة.
- خامساً: القرآن في مجموعه.

وإذا كان الإعجاز البياني إنما يرجع في لبه وجوهره إلى النظم، وإذا كان القرآن الكريم كتاب الإنسانية جميعها عربها وعجمها، منذ أن أنزله الله وسيبقى ما دامت الحياة والأحياء، إذا كان ذلك كذلك فليس من المنطقي أن يكون هذا النظم خاصاً بالعرب وحدهم، وإنما غلط من غلط في هذه القضية لأنهم ظنوا أن الإعجاز البياني إنما هو حديث عن الصورة التي تمتع العواطف وتلذذا النفس، وترهف الحس، الصورة التي تقوم على الاستعارة والكناية والتشبيه، وهذه تختلف عند كل قوم باختلاف بيئتهم، ولكن النظم ليس كما حسبه، وإنما نعني بالإعجاز البياني الذي يقوم على النظم: ذلكم الترتيب الذي كان لكلمات القرآن في جملها من جهة، واختيار هذه الكلمات من جهة أخرى، ثم ترتيب الجمل والآيات في السورة، وتلك قضية كان يدركها العربي عند نزول القرآن بذوقه وسليقته، أما العرب اليوم فإنما يدركونها بالفكرة لا بالفطرة بعد أن تُفسَّر لهم وتبين لهم دقائقها، وهم وغيرهم في ذلك سواء؛ فإذا أدرك العربي أن قوله سبحانه: ﴿وَأَرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ﴾ [النساء: ٥٠] اختيرت فيه كلمة (في) على كلمة (منه) لأمر اقتصادي وهو أن رزق أولئك ينبغي أن يكون مما ينتجه المال، لا من أساسه ورأسه، فإن غير العربي يمكن أن يعرف هذا حين تفسر له معاني القرآن.

وإذا أدرك العربي أن قوله سبحانه: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ [المائدة: ١٤] استعملت فيه كلمة الإغراء دون الإلقاء لتدل على الإلصاق والدوام، فإن هذا يمكن أن يدركه غير العربي حينها يفسر له؛ ولا أدل على ذلك من وضعنا نحن اليوم، فنحن مع كوننا عرباً، ولكن بعدنا عن العربية سليقة، يجعلنا لا ندرك هذه الدقائق ولا نتذوق معانيها إلا إذا فسر لنا، فنحن العرب وغيرنا سواء.

إن المحققين من العلماء - كما عرفت من قبل - ذهبوا إلى أن الاستعارة والتشبيه وأنواع البديع، ليست من جوهر الإعجاز القرآني، ولكن النظم وحده هو جوهر هذا الإعجاز، والنظم كما بينا في الجزء الأول له جانبان اثنان، فكري ونفسي؛



لذا فإن القول بأن الإعجاز البياني خاص بالعرب وحدهم -مع أنه يكاد يكون من المسلمات- بحاجة إلى إعادة نظر. ولم أجد من نبّه على هذه القضية من قبل.

وأنا على يقين من أن قضية النظم حينما تجد لها من يحسن شرحها ويسر فهمها للناس، فإنها ستكون من خير الروافد العلمية والإيمانية على السواء، وأنا أقرر هذا نتيجة تجربة عملية، ولا فرق بين العرب اليوم وبين غيرهم في هذا المضمار، وأرجو أن يجد القارئ في هذا الكتاب مصداقية، وبرهاناً عملياً وشاهد حق لهذا الذي قررته.

ولا بد قبل الحديث عن النظم وما يتعلق به، أن نحدثك عن أثر القرآن الكريم في اللغة العربية، ثم نتحدث عن الكلمة التي هي أساس النظم، مستمدتين العون من الله، والله ولي التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.



## الفصل الأول

### أثر القرآن الكريم

#### في اللغة العربية

لقد كرم الله اللغة العربية بهذا القرآن ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الزخرف: ٣]، ومن أجل ذلك كانت العربية تتمتع بخصائص، قل أن توجد في غيرها من اللغات، وهذه الخصائص لا تظهر في جهة واحدة من جهات العربية، بل هي في جهات كثيرة متعددة، فهناك الخصائص التي تمتاز بها الحروف العربية، من سعة في المخرج، وتعدد في هذه المخارج، حتى لا يطغى بعض هذه الحروف على بعض، وهناك خصائص للكلمات تظهر في سهولة النطق من جهة، وفيما بين هذه الكلمات من وشائج وصلات من جهة ثانية، وفيما بينها وبين المعنى الذي تدل عليه من مناسبة من جهة ثالثة.

أما التراكيب العربية، فإن من أبهى خصائصها هذا الإيجاز، الذي يجمع المنصفون<sup>(١)</sup> على أنه مما تمتاز به هذه اللغة على غيرها من اللغات، وهذا الإيجاز لا بد له من الدقة والإحكام، وتلك لعمر الحق صفات العربية الجوهرية الأولى.

وهذه الميزات للعربية جوهرية تنبع من ذاتها ورئيسة لا تخرج عن أصلاتها، ومع هذه الخصائص الأصيلة الرئيسة، فإن هناك خصائص مكتسبة، اكتسبتها العربية من ذلك الكتاب الذي خصها الله به وخصه بها، هذه الخصائص التي لا تقل عن الميزات الأولى، وإن ما أفادته العربية من كتاب الله تعالى لا ينحصر في زاوية واحدة، ولا ينحصر في جدول واحد.

(١) أحمد حسن الزيات، دفاع عن البلاغة، ص ١٠٣، عالم الكتب، الطبعة الثانية، سنة ١٩٦٧.



١ - فلقد كان لهذا القرآن الكريم الفضل في أن جمع العرب على لغة واحدة، بعد أن كان لكل قبيلة منهم لهجتها ولغتها، وقد اجتمعوا فيما بعد على هذا القرآن، وكان من نتيجة ذلك أن حفظ القرآن لهم هذه اللغة، دون أن تتشعب بها الأودية أو أن تختلف بها الألسن، كما أنها حافظت بفضل هذا القرآن على أصالتها، وهذا لو تأملته لوجدته من أعظم ما أسداه القرآن العظيم إلى هذه اللغة.

٢ - ومن أوجه تأثير القرآن في اللغة، هذه الأساليب البديعة والتراكيب الرصينة، التي كان لها فيما بعد الأثر في تطور النقد، ورقّي الأساليب العربية، فأنت إذ تأملت مواطن إيجازه، ورائق مضامينه، ودقة معانيه، والأساليب التي عبر بها عن ذلك مما يلججه العرب وإن وقفوا في بعضه على بعض أبوابه، وجدت من ذلك الكثير، تجد هذا في أساليب الاستفهام وأنواعه، والكنائيات وأقسامها، وإنك واجد ذلك كذلك في جدره وقصصه، ووعدده ووعدده.

ولا تعدو الحقيقة حينها تزعم أن ما وصل إليه العرب فيما بعد من أبحاث لغوية على تنوعها، يرجع الفضل فيها إلى القرآن، ليس هذا فحسب، بل إن القرآن هذب طباعهم، وثقف ألسنتهم، حتى إنك لتشعر بتلك النقلة العظيمة بين الذي كان لهم قبل القرآن الكريم، وبين الذي كان لهم بعد نزوله، يقول ابن خلدون في الفصل الذي عقده لبيان أن حصول الملكة بكثرة الحفظ: «ويظهر لك من هذا الفصل وما تقرر فيه سر آخر، وهو إعطاء السبب في أن كلام الإسلاميين من العرب أعلى طبقة في البلاغ وأذوقها من كلام الجاهلية في منشورهم ومنظومهم، فإننا نجد شعر حسان بن ثابت وعمر بن أبي ربيعة والخطبة وجرير والفرزدق ونصيب وغيلان ذي الرمة والأحوص وبشار ثم كلام السلف من العرب في الدولة الأموية وصدرًا من الدولة العباسية في خطبهم وترسيلهم ومحاوراتهم للملوك أرفع طبقة في البلاغة من شعر النابغة وعنترة وابن كلثوم وزهير وعلقمة بن عبدة وطرفة بن العبد ومن كلام الجاهلية في منشورهم ومحاورتهم، والطبع السليم والذوق الصحيح

شاهدان بذلك للنقاد البصير بالبلاغة، والسبب في ذلك أن هؤلاء الذين أدركوا الإسلام سمعوا الطبقة العالية من الكلام في القرآن والحديث اللذين عجز البشر عن الإتيان بمثليهما لكونها ولجت في قلوبهم، ونشأت على أساليبها نفوسهم فنهضت طباعهم، وارتفعت ملكاتهم في البلاغة عن ملكات من قبلهم من أهل الجاهلية ممن لم يسمع هذه الطبقة ولا نشأ عليها، فكان كلامهم في نظمهم ونثرهم أحسن ديباجة وأصفى رونقاً من أولئك، وأرصف مبنى وأعدل تثقيفاً بما استفادوه من الكلام العالي الطبقة»<sup>(١)</sup>.

ويقول الرافعي رحمه الله : «ولقد كان هذا النظم عينه هو الذي صفى طباع البلغاء بعد الإسلام، وتولى تربية الذوق الموسيقي اللغوي فيهم، حتى كان لهم من محاسن التركيب في أساليبهم -مما يرجع إلى تساوق النظم واستواء التأليف- ما لم يكن مثله للعرب من قبلهم، حتى خرجوا عن طرق العرب في السجع والترسل على جفاء كان فيهما، إلى سجع وترسل تتعرف في نظمها آثار الوزن والتلحين، على ما يكون من تفاوتهم في صفة ذلك ومقداره، ومبلغهم من العلم به، وتقدمهم في صنعته، ولولا القرآن، وهذا الأثر من نظمه العجيب، لذهب العرب بكل فضيلة في اللغة، ولم يبق بعدهم للفصحاء إلا كما بقي من بعد هؤلاء في العامية، بل لما بقيت اللغة نفسها»<sup>(٢)</sup>.

٣- ومما منحه القرآن هذه اللغة بحق، أنه أمدّها بماء الحياة والنضارة، فهي باقية ما بقي القرآن، لا تموت كما ماتت كثير من اللغات واللهجات، ولا تهرم كذلك، بل تبقى نضرة في شبابها، لا تهرم ولا تبلى.

(١) مقدمة ابن خلدون، ٥٧٩، ٥٨٠، الطبعة الرابعة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

(٢) الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة التاسعة، سنة ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣، ص ٢١٥.

٤- ومع هذه الميزات والخصائص التي نذكرها على سبيل الإجمال دون تفصيل، نجد أن القرآن الكريم قد نقل هذه اللغة الثرية في أساسها، من جو الصحراء الذي لم يمكنها فيه أن تستغل ثروتها استغلالاً تاماً إلى مشارق الأرض، حيث أثبتت قدرتها على التصرف، وجدارتها بكل ما يعرض لها ويلقى عليها من معارف وأحداث واكتشافات.

لقد كان العرب يحصرون هذه اللغة الثرية في التعبير، عما هو حولهم من أمور البداوة، قضايا الصحراء وأشائها، كانوا يستغلون اللغة في ذلك، ومع هذا كان بوسع هذه اللغة أن تَبَّ وثبات قوية سريعة، لو أنها وجدت إمكانات التصنيع شأنهم وشأنها كالأمم التي تملك ثروات طبيعية، ولكنها لا تستطيع استغلالها واستثمارها، ولا تحسن ذلك، فلما جاء القرآن وجدت اللغة فيه ضالتها، واكتشفت ذاتيتها، وإذ بها تنتقل من الحديث عن الأطلال والفيافي، والغربان والحشرات، والقيصوم والشيخ<sup>(١)</sup>، لتصبح لغة الدقة في الحياة كلها، لغة العلم والمصطلحات، لغة العقل والعاطفة، لغة الحياة بكل ما فيها من أسرار، وكما كان فضل الإسلام على العرب، لولاه لم يكونوا شيئاً يذكر، ولكانت مواطنهم ومواقعهم وبيئتهم سماء من غير أضواء، وأصواتاً من غير أصداء، ومساكن من غير أحياء، كذلك كان فضل القرآن على هذه اللغة رضي من رضي، وأبى من أبى.

وإذا كانت هذه اللغة قد مرت قبل نزول القرآن بأكثر من طور من أطوار التهذيب، فلقد كان أعظم هذه الأطوار وآخرها هو ما أفادته من هذا الكتاب<sup>(٢)</sup>، وما على القارئ إلا أن ينظر في بعض آثار العرب قبل هذا الكتاب، وفي هذا القرآن نظرة واعية، فإنه يدرك دون جهد هذا العطاء السخي الذي منحه القرآن لهذه اللغة.

---

(١) وذلك هو حال أمتنا اليوم.

(٢) مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب اللغة العربية، ج ٢، ص ٦٠، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، الطبعة الثالثة، سنة ١٣٧٣هـ / ١٩٥٣م.

## الكلمة:

يميز الناس بين الكلام الذي تنشرح له صدورهم، وبين ما تنقبض منه نفوسهم، بالطريقة التي يتبعها الكاتب، والأسلوب الذي يصوغ فيه موضوعه، الذي يخرج للناس، وإذا كان هذا الأسلوب يقوم على دعائم متعددة، فإن الذي يهمننا -هنا- من هذه الدعائم أولها وأولها بالتقدير، ونعني بها الأصالة.

وأول لبنة في هذه الأصالة الكلمة، ذلك أن اللفظة الجيدة تدل على المعنى المراد، ووقوعه في المكان المناسب. يقول ستيفن أولمان:

وفي أي نقد يوجه إلى اللغة تكون الكلمة عرضة لأن ينظر إليها، على أنها السبب الأساسي في هذا النقد، وليس ثمة ما يثير الدهشة أو الغرابة في هذه المكانة التي تنفرد بها الكلمات، فهي أصغر «نوافل» المعنى أو أصغر الوحدات ذات المعنى في الكلام المتصل، أضف إلى ذلك أن الكلمات هي أسماء الأشخاص والأشياء، وهي أول خطوة يقوم بها الطفل في سبيل تعلم اللغة، وللکلمات كيان مستقل في الكتابة والطباعة، وتمتع بذاتية ومكانة مستقلة في المعجم، وهي فوق هذا وذاك تخضع في استعمالها لعدد لا يحصى من القيود والعادات الخرافية، حتى إنها في كثير من الحالات كانت موضع العبادة والتقديس، لهذا كله لم يكن من الغريب أن تنفرد الكلمات باهتمام خاص من نقاد اللغة<sup>(١)</sup>.

والكلمة أصل الدقة في التعبير، والوضوح في المعنى، والصدق في الدلالة، لأن الكلمة إذا تمكنت في موضعها الأصل دلت على المعنى كله، فإذا حشرت حشراً، أو قسرت قسراً، دلت على بعض المعنى أو ألبأت إلى غيره. وفي اختيار الكلمة الخاصة بالمعنى إبداع، والكلمة في الجملة كالقطعة في الآلة إذا وضعت في موضعها على الصورة اللازمة، والنظام المطلوب، تحركت الآلة، وإلا ظلت جامدة.

---

(١) ستيف أولمان، دور الكلمات في اللغة، ص ٣، ترجمة وتعليق: د. كمال محمد بشر، سنة ١٩٦٢.

«وللكلمات أرواح» كما قال «موباسان»، فإذا استطعت أن تجد الكلمة التي لا غنى عنها، ولا عوض منها، ثم وضعتها في الموضع الذي أُعِدَّ لها، وهندس عليها ونفخت فيها الروح التي تعيد لها الحياة، وترسل عليها الضوء، ضمنت الدقة والقوة والصدق والطبيعة والوضوح، وأمنت الترادف والتقريب والاعتساف<sup>(١)</sup>.

لا عجب إذن أن نجد العرب في عصورهم الأولى يجهدون أنفسهم في اختيار هذه الكلمات والبحث عنها وانتقائها، مجتدين لها كل ما منحوه من طاقات العقل ودفقات الشعور وجيل الأحاسيس. فلقد كانوا في جاهليتهم، يدركون ما للكلمة من شأن، أو ما تحدثه من أثر سلبي فيقبلونها أو يردونها نتيجة معرفة وذوق.

سمع طَرْفَةُ بْنُ الْعَبْدِ بَيْتَ الْمُسَيَّبِ بْنِ عَلَسٍ:

وقد أَتَنَاسَى الْهَمَّ عِنْدَ اذْكَارِهِ      بِنَاجٍ عَلَيْهِ الصَّيْعَرِيَّةُ مُكْدَمٍ

فقال: استنوق الجمل، لأن الصَّيْعَرِيَّةَ: سمة في عنق الناقة لا البعير<sup>(٢)</sup>.

ومن ذلك ما يروى عن حسان حينما أنشد:

لَنَا الْجَفْنَاتُ الْغُرُّ يَلْمَعْنَ فِي الضُّحَى      وَأَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ مِنْ نَجْدَةِ دِمَا

ف قيل له: لو قلت: (يسطعن في الدجى)، ولو قلت: (يجرين)، لكان أولى<sup>(٣)</sup>.

---

(١) الأستاذ أحمد حسن الزيات، ١٣٠٢-١٣٨٨هـ/١٨٨٥-١٩٦٨م، مقدمة دفاع عن البلاغة، مطبعة النهضة، ١٩٦٧.

(٢) د. أحمد مطلوب، د. حسن البصير، البلاغة والتطبيق، الجمهورية العراقية، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، الطبعة الأولى، ١٩٨٢م/١٤٠٢هـ ص ١١.

(٣) الأستاذ مصطفى صادق بن عبدالرزاق بن سعيد بن أحمد بن عبدالقادر الرافعي، ١٣٥٦هـ/١٨٨١م، تاريخ آداب العرب، ضبطها وصححها: محمد سعيد العريان، مطبعة الاستقامة بالقاهرة، الطبعة الثالثة، ١٣٧٣هـ/١٩٥٣م.

فإذا تجاوزنا العصر الجاهلي وجدنا ذلك واضحاً في العصر الإسلامي من ذلك: ما روي عن أفصح العرب وأبلغهم سيدنا محمد ﷺ وهو يوجه معلماً، مبنياً لأصحابه ﷺ ولمن بعدهم مكانة الكلمة وأصالتها: «لا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: خَبِثْتُ نفسي، ولكن ليقُل: لَقِستُ نفسي»<sup>(١)</sup>.

وكذلك ما روي عنه، وهو يعلم أحد صحابته، البراء بن عازب ﷺ أن يقول: «آمنت بكتابك الذي أنزلت، ونيك الذي أرسلت» فقال البراء: «ورسولك الذي أرسلت» فقال الرسول ﷺ: «ونيك الذي أرسلت»<sup>(٢)</sup>. وما روي عن سيدنا عمر في قوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، «لو شاء الله لقال: أنتم، فكنا كلنا، ولكن قال: كنتم في خاصة أصحاب رسول الله ﷺ ومن صنع مثل صنيعهم، كانوا خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر»<sup>(٣)</sup>.

وفي العصر العباسي، كان للكلمة منزلتها كذلك، وما يروى في ذلك: أن رجلاً أنشد ابن هرمة بيته:

بِاللهِ رَبِّكَ إِن دَخَلْتَ فَقُلْ لَهَا      هَذَا ابْنُ هَرْمَةَ قَائِماً بِالْبَابِ  
فَقَالَ لِلرَّجُلِ: مَا كَذَا قُلْتَ: أَكُنْتَ أَتَصَدَّقُ؟ (أَسْأَلُ) قَالَ: فَمَاذَا؟ قَالَ: وَاقِفًا،  
ثُمَّ قَالَ: لَيْتَكَ عَلِمْتَ مَا بَيْنَ هَٰذَيْنِ مِنْ قَدْرِ اللَّفْظِ وَالْمَعْنَى<sup>(٤)</sup>.

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، ٥١/٨، كتاب الأدب، باب: لا يقل: خبت نفسي، عن عائشة ؓ، وأخرجه مسلم في صحيحه، ١٧٦٥/٤، كتاب الألفاظ، باب كراهة قول الإنسان: خبت نفسي، ورقمه ٢٢٥٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، ٨٤/٨، كتاب الدعوات، باب: إذ بات طاهراً، وأخرجه مسلم في صحيحه، ٢٠٨١/٤، باب: ما يقول عند النوم وأخذ المضجع، حديث رقم ٢٧١٠.

(٣) محمد بن جرير بن يزيد الطبري، أبو جعفر، ٢٢٤-٣١٠هـ/٨٣٩-٩٢٣م، جامع البيان في تفسير القرآن، ٢٩/٤، المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق، مصر.

(٤) الدكتور شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، مصر، الطبعة الثانية، ص ٣٦.

والمتتبع لأدب العرب ومساجلاتهم في أسواقهم يجد كثيراً من ذلك، والحق أن الذوق السليم يجد فرقاً شاسعاً بين الكلمة الجيدة وغيرها من الكلمات المموجة، وجميل أن أنقل هنا كلمة ابن الأثير، قال: «ومن يبلغ جهله إلى أن لا يفرق بين لفظة (الغُصْن) ولفظة (العُسلُوج) وبين لفظة (المُدَامَة) ولفظة (الإِسْفَنْط) وبين لفظة (السيف) ولفظة (الحَنْشَلِيل) وبين لفظة (الأسد) ولفظة (الفَدَوَكْس)، فلا ينبغي أن يخاطب، ولا يجاب بجواب، بل يُترك وشأنه، كما قيل: اتركوا الجاهل بجهله ولو ألقى الجَعْر في رَحله، وما مثاله في هذا المقام إلا كمن يسوي بين صورة زنجية سوداء شوهاء الخلق، ذات عين محمرة، وشفة غليظة كأنها كلوة، وشعر قطط كأنه زبيبة، وبين صورة رومية بيضاء مشربة بحمرة، ذات خد أسيل وطرف كحيل، ومَبْسَم كأنها نُظْمٌ من أقاح، وطرة كأنها ليل على صباح»<sup>(١)</sup>.

وإذا كان هذا في كلام الناس، فهو في كلام الله المتناهي في البلاغة أكثر وضوحاً، وأشدّ ظهوراً، ويقول الإمام ابن عطية رَحِمَهُ اللهُ: «وكتاب الله تعالى لو نزعته منه لفظة، ثم أدير لسان العرب على لفظة غيرها لم يوجد، ونحن يتبين لنا البراعة في أكثره، ويخفى علينا وجهها في مواضع، لقصورنا عن مرتبة العرب - يومئذ - في سلامة الذوق، وجودة القرينة»<sup>(٢)</sup>.

وما قاله ابن عطية، كلام حري بالتقدير، جدير بالدراسة، ذلك أن المفردات القرآنية لها خصائص ومميزات، جمال وقعها، واتساقها الكامل مع المعنى، واتساع دلالتها لما لا تتسع له عادة دلالات الكلمات الأخرى.

(١) نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجرزي، أبو الفتح، ضياء الدين المعروف بـ «ابن الأثير» الكاتب، ٥٥٨-٦٣٧هـ/١١٦٣-١٢٣٩م. المثل السائر، طبع البابي الحلبي سنة ١٩٣٩، ج١، ص١٤٩.

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية، مقدمة التفسير.

فالمفردات القرآنية إذن مفردات مختارة منتقاة، ولا أدل على ذلك من أننا حين ننظر في المعاجم اللغوية نجد لها زاخرة بالألفاظ الكثيرة، ولكل مادة اشتقاقاتها الكثيرة المتعددة، وهي من حيث الفصاحة والخفة ليست سواء أولاً، وقد تدار الكلمات الكثيرة على معنى واحد ثانياً، أما كتاب الله فيخص كل لفظ بمعنى لا يتعداه.

قال الراغب<sup>(١)</sup>: «فألفاظ القرآن هي لب كلام العرب وزيدته، وواسطته وكرائمه، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحججهم، وإليها مفرع حذاق الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم، وما عداها وعدا الألفاظ المتفرعات عنها والمستقات منها هو بالإضافة إليها كالقشور والنوي بالإضافة إلى أطايب الثمرة، وكالحثالة والتبن بالإضافة إلى لبوب الحنطة»<sup>(٢)</sup>.

ومن هنا كانت مفردات القرآن الكريم قليلة -نسبياً- إذا قيس بتلك المفردات التي ذكرتها المعاجم، فأكثر ألفاظ القرآن تنتمي إلى أصول ثلاثية<sup>(٣)</sup>، وقليل من هذه الألفاظ ينتمي إلى أصل غير ثلاثي، ففي القرآن الكريم ألف وستمائة وأربعون (١٦٤٠) أصلاً ثلاثياً، يتفرع منها ما يزيد على خمسين ألف لفظة، وهي تزيد على نسبة ثمان وتسعين بالمئة (٩٨٪) من مفردات القرآن<sup>(٤)</sup>، وغير الثلاثي لا يزيد على ثمانمائة لفظ، وإن نظرة يسيرة في لسان العرب، والقاموس المحيط تجعلنا ندرك أن المفردات القرآنية كانت بمثابة فرائد ودرر إذا قيست بغيرها من المفردات.

وثلاثية المفردات اللغوية بعامة والقرآنية بخاصة، هو ما استقرت عليه كلمة العلماء منذ القرون الأولى، ومن هؤلاء القاضي ابن الباقلاني في إعجاز القرآن، ومع

---

(١) أبو القاسم حسين بن محمد بن الفضل المعروف بالراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ).

(٢) المفردات في غريب القرآن، تحقيق وضبط: محمد سيد كيلاني، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، سنة ١٣٨١هـ / ١٩٦١م، ص ٦ المقدمة.

(٣) أي مادة.

(٤) مجلة الدوحة، قطر، سنة ١٩٧٧م.



هذا وجدنا حديثاً من ينازع في هذه القضية، يقول الدكتور عبدالروؤف مخلوف<sup>(١)</sup>: «أما ما ذهب إليه الباقلاني من ثلاثية المفردات في اللغة العربية، فمسألة نقف منها وقفة متأملّة، وحين ننعم النظر في واقع اللغة العربية نستطيع أن نقول: إن المفردات المكونة من ثلاثة أحرف تكاد تكون قلة في اللسان العربي، والمتتبع لأية قطعة لغوية -ولتكن مما كتب الباقلاني ذاته، أو من القرآن الكريم- يشهد بذلك، قلة قليلة من المفردات هي التي تأتي على ثلاثة أحرف.

وأما فكرة الثلاثية التي نجده عند علماء اللغة العربية يردون الكلمات إلى أصول مكونة من ثلاثة أحرف، فإنها نشأت لما أرادوا أن يصنعوا المعاجم التي تجمع مفردات اللغة، واحتاجوا أن يستقرئوها ليضعوا بإزاء كل كلمة معناها. إنهم افترضوا لكل مجموعة من المشتقات أصلاً هو المصدر أو هو الفعل الماضي مجرداً من الزيادات -على خلاف بينهم في أيهم أولى باعتباره أصلاً- وذلك الافتراض إنما كان ليتيسر لهم عن طريق حصر جميع الكلم المستعملة، والذي ليست في كثرته ولا في جملة على ثلاثة أحرف، عند الاستخدام والاستعمال.

على أنه ينبغي ألا يغيب عن ذهن الباحث عندما نتكلم في ثلاثية اللغة وعدم ثلاثيتها، أن ليست اللغة هي هذه الحروف التي نكتبها، إذ هذه ليست إلا رمزاً للغة، وحقيقة اللغة إنما هي الأصوات التي تنطق على نحو مخصوص متواضع عليه فتسمع فيدرك السامع معناها أو توضع لهذا هذه الرموز التي نسميها حروفاً فيراها القارئ ويدرك ما تدل عليه «... وعلى هذا التصور يكون القول بثلاثية المفردات في اللغة العربية فيه تسامح، أو فيه عند التحقيق العلمي ذهاب عن الوجه الصحيح، إذ العبرة في اللغة بأصواتها وليست بالحروف التي تصورها وترمز لها، والعبرة فيها بالمستعمل منها والدائر على الألسنة، وليست بالأصول التي نفترضها أو نرد إليها

---

(١) الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن، ص ١٥١-١٥٣.

مستعملها والجاري على السنة المتكلمين بها حين نريد جمعها وتدوينها، فإن ذلك كله مجرد اصطلاح للتيسير»<sup>(١)</sup>.

إن مما يستدعي العجب ويثير الاستغراب بحق ما يباري فيه الكاتب من ثلاثية أكثر الأصول العربية، وهي قضية بدهية ما كان ينبغي أن يباري فيها أحد.

إن كون أكثر الأصول العربية تتكون من ثلاثة أحرف، أمر يشهد به الحس، كما يشهد له الواقع، وهذه بحق من خصائص العربية.

وليست العربية أصواتاً فحسب، وإن أصحاب المعاجم حينما بنوا معاجهم على الأصول الثلاثية لم يفترضوا - كما قال الكاتب - أصولاً، سواء كانت هذه الأصول المصادر أم غيرها تتكون منها الكلمات، وإنما فعلوا ذلك بعد استقراء واستقصاء، فهي حقيقة عقلية لغوية، وما أبعد الافتراض عن الحقيقة.

إن الألفاظ العربية منها ألفاظ مجردة، وهذه أكثرها أصول ثلاثية، ومنها ألفاظ مزيدة، هذه الزيادات تختلف باختلاف الصيغ التي يريدتها المتكلم، وقد تكون هذه الزيادات في الأفعال أو الأسماء، وقد يكون للمادة الواحدة من الصيغ ما ينيف على العشرين والثلاثين، خذ مثلاً فعلاً ماضياً وحاول أن تدخل عليه الحروف المزيدة، وأن تستقصي المعاني لهذه الحروف، وستجد نفسك أمام زمر متعددة من الألفاظ والمعاني جمعها أصل واحد، فلا يمكن لأصحاب المعاجم أن يذكروا هذه الصيغ جميعاً، لأن من شأن هذا أن يوسع مساحة المعاجم بما لا طائل تحته، فأمر هذه الصيغ يمكن أن يستخرجه كل باحث، بل كل طالب علم، بل هو أمر يكاد يكون متركزاً في الطبائع، وما يقال عن الأفعال، يقال عن الأسماء كذلك.

أما ما مثل به الكاتب من كلمة «قلم» وقاسه على اللاتينية (Kalamon) فلا نقبله منه، ولا نسلّمه له، ولو أننا وجهنا هذا السؤال لتلميذ صغير: ما هذا؟ فإنه

---

(١) الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن، ص ١٥١-١٥٣.

يقول «قلم» فنحن لا نقف على التنوين في العربية، وإذا أخذنا كلمتي «آسٍ» و«آسن» في قوله تعالى: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ [عمد: ١٥]، وكلمة «راعٍ» و«راعن» من الرعونة، فإننا نجد أن اللفظ واحد، ولكن مادتي الكلمتين مختلفتان، فكلمة آسٍ الأولى من الأسى، أما الثانية هي آسِنَ الماء بمعنى تغير، وكلمة راعٍ الأولى من رَعَى، والثانية من رَعَنَ، ومثل هذا كثير في العربية، اتحد الصوت فيه، ولكن المعنى يختلف اختلافاً كبيراً، ليست اللغة -إذن- أصواتاً فحسب.

وأخيراً فلا أود أن أسترسل في هذه القضية البديهية، وإن ما ادعاه الكاتب من التشكيك والمهارة في ثلاثية الأصول العربية، لا أقول فيه شيء من التسامح، بل هو ذهاب عن الوجه الصحيح.

## الفصل الثاني

### الكلمة وأثرها في الدراسات اللغوية

#### عناية العلماء بالدراسات القرآنية :

لقد كانت الدراسات القرآنية بعامة الشغل الشاغل لعلماء الأمة، فهي خير ميدان يتنافس فيه المتنافسون، حيث كانت حلق العلم في المساجد تجمع بين المعرفة اللغوية وروايات التفسير المأثور، وما يتصل بذلك من روايات الشعر، وأحاديث القصاص، ونقل الأخبار، وحمية التطور أمر لا بد منه، لذلك تشعبت هذه الدراسات القرآنية، هذه الشعب الثلاث تشمل جهود المفسرين واللغويين وعلماء البيان.

أما المفسرون، فكانوا يعتمدون على الروايات عن الرسول ﷺ، أو المنقولة عن الصحابة أو التابعين. فما رُوِيَ عن النبي ﷺ يسمونه مرفوعاً، وما رُوِيَ عن الصحابة يسمونه موقوفاً، أما ما روي عن التابعين فهو المقطوع، وغاية المفسر أن يبين المعنى القريب للآية القرآنية، وأن يزيل ما يكتنفها من غموض.

أما اللغويون، فكانت غاية جهدهم لا تقف عند ما يعنيه المفسرون، فهم يبحثون في الكلمات القرآنية من حيث الأفراد والتركيب، وهي أبحاث انتظمتها فيما بعد فروع كثيرة، كمتن اللغة والصرف والاشتقاق والإعراب.

أما علماء البيان فهم وإن كانت حاجتهم ماسة إلى اللغويين والمفسرين، فإن الزاوية التي كانت تشغلهم وتفقههم طويلاً روعة الأسلوب، وجمال الصورة، وبراعة اللفظ، ودقة المعنى، وهو ما انتظمه فيما بعد ما سمي علوم البلاغة والنقد.

والذي يعنينا من هذا كله «الكلمة القرآنية»، فلقد كان من الطبيعي أن تحظى قبل غيرها - لكونها الأساس والأصل واللبنة الأولى - بجهد العلماء وعنايتهم،

وأن يقفوا أمامها ليوضحوا مدلولاتها، ويكشفوا عما ترشد إليه من معنى أولاً، وليبينوا صيغتها واشتقاقها والفصيصة اللغوية التي تنتمي إليها ثانياً، وليظهروا جمال موقعها وأصالتها في موضعها، وما لها من حلاوة جرس، وما تحدثه من إرهاف في الحس ثالثاً.

ولئن كانت هذه الجهات جميعاً تبدو لأول وهلة متداخلة لما بينها من وشيجة قري، وعظيم صلة، ولأن بعضها يكمل بعضاً، فإن لكل منها ميدانه ولونه ومباحثه الخاصة، وبخاصة بعد أن استقرت الدراسات القرآنية وأصبح لكل علم شخصيته التي تميزه عن غيره.

كانت الجهة الأولى من الجهات الثلاث مهمة المفسرين، والثانية وظيفة اللغويين، والثالثة ميدان علماء البيان، هؤلاء جميعاً جندوا كل طاقاتهم للكلمة القرآنية، ومع ما بذلوه من جهد، وما أولوها من عناية مشكورين فستظل الكلمة القرآنية شمس هداية يشع منها النور، لا تفقد من جوهرها ما تفقده الشمس كل يوم.

وإذا كان هذا البحث معنياً بالحديث عن أثر الكلمة القرآنية في الدراسات اللغوية، فلا بد من كلمة عن جهود اللغويين بين يدي فصوله الثلاثة التي أشرنا إليها من قبل.

لما دخل الناس في دين الله أفواجاً، واختلط العرب بغيرهم، وكان كثير منهم من غير العرب، صارت الحاجة ماسة إلى حفظ لغة القرآن، فهرع كثير من العلماء إلى أخذ هذه اللغة من مظانها ومصادرها، ولقد كانت المفردات القرآنية من أخطر ما وجه إليها العلماء عنايتهم، وضربوا لها أكباد الإبل، بل كانت أيضاً من أول ما حاولوا تحصيله وتحقيقه والبحث عنه، وفي ظني أن ذلك نتيجة عاملين اثنين:

عامل ذاتي أو داخلي: ونعني به معرفة المعنى القرآني معرفة تزيل الشبه وتمحو الشكوك، فتفسير القرآن الكريم يحتاج، بل يتوقف على تحديد مدلول اللفظ.

وأما العامل الآخر، فهو عامل خارجي: ونعني به ذلك الهجوم الشرس من قِبَل الشعوبيين على ابنة عدنان لغة القرآن<sup>(١)</sup>، من أجل ذلك وجدنا العلماء يقفون موقف المدافع المنافع، وهم يصلون الليل بالنهار، هاجرين الأهل والديار، باحثين في لغة البادية التي لم يتطرق إليها اللحن بعد، ولم تفسدها العجمة.

وبدهي أن يكون الأعراب - وهم أقل اختلاطاً بغيرهم - أحفظ للغة، فعندما يفدون إلى سوق المربد والبصرة والكوفة يلتقي بهم العلماء؛ ليأخذوا عنهم ويفيدوا منهم، وبقي الأمر كذلك حتى إذا اختلط أولئك الأعراب بغيرهم أصبحوا غير معول عليهم.

ظلت - إذن - ثقة الناس بالأعراب ما بقيت لهم صفاتهم التي فُطروا عليها، وطالما كانت ألسنتهم مستمسكة بسليقتها، ولقد بلغوا في جودهم على هذه الفطرة مبلغه في أول عهدهم، فلما طال مكث الأعراب في الحضر، لانت جلودهم، وطاعت ألسنتهم بشوائب العجمة، لاحظ الجاحظ ذلك فقال<sup>(٢)</sup>: «كان بين يزيد بن كثرة يوم قدم علينا البصرة وبينه ويوم مات بون بعيد على أنه قد كان وضع منزله في آخر موضع الفصاحة وأول موضع العجمة»<sup>(٣)</sup>، لأجل ذلك كان لا بد أن يرحل كثير من العلماء إلى البادية؛ ليأخذوا عن أهلها الذين لم يختلطوا بغيرهم من الشعوب المتعددة.

وبدأت حركة الجمع والتأليف، وكانت أول مرحلة من مراحل هذا الجمع تدوين كل ما يسمع من كلمات مهما تعددت موضوعاتها، وكانت المرحلة الثانية جمع الكلمات التي تتعلق بموضوع واحد، كأن يجمعوا الكلمات التي تتعلق بالمطر أو

---

(١) ذلك الهجوم الذي لا يشبهه من حيث العنف والحقد والخروج عن الحق إلا ما نجده في أيامنا هذه من حلات ظالمة على هذه اللغة، والفرق بين الأمس واليوم أن الهجوم في هذه الأيام من أبنائها.

(٢) البيان والتبيين، لعمر بن بحر بن محبوب الكناي (ت ٢٥٥هـ)، طبعة الاستقامة سنة ١٣٦٦هـ / ١٩٤٧م، وطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، سنة ١٩٤٢م، ج ١ ص ١٧٤.

(٣) رواية اللغة، الدكتور عبد الحميد الشلقاني، مدير مكتبة الإسكندرية، الناشر: دار المعارف بمصر، القاهرة، ص ٧٩.

بالخيل أو اللبن أو النخل، وكانت المرحلة الثالثة جمع هذه الموضوعات كلها في معجم واحد.

ولم تقتصر مهمة العلماء على السؤال عن معنى الألفاظ، بل كانت تتعداها إلى قضايا الاشتقاق والإعراب.

«فقد سئل أبو عمرو بن العلاء عن اشتقاق الخيل فلم يعرف، فمر أعرابي مُحَرَّم<sup>(١)</sup>، فأراد السائل سؤال الأعرابي، فقال له أبو عمرو: دعني فأنا ألطف منك بسؤاله وأعرف، وسأله، فقال الأعرابي: اشتقاق الاسم من فعل المسمى، فلم يعرف من حضر ما أراد الأعرابي، فسألوا أبا عمرو عن ذلك فقال: ذهب إلى الخيلاء التي في الخيل والعُجْب، ألا تراها تمشي العِرَضَنَة خيلاء وَتَكْبُرًا<sup>(٢)</sup>».

هذا في الاشتقاق، أما الإعراب، فيقول الأصمعي: «جاء عيسى بن عمر الثقفي، ونحن عند أبي عمرو بن العلاء، فقال: يا أبا عمرو: ما شيءٌ بلغني أَنَّكَ تجيزه؟ قال: وما هو؟ قال: بلغني عنك أَنَّكَ تجيز: ليس الطيبُ إلا المسكُّ بالرفع»، فقال أبو عمرو: نمت يا أبا عَمْرٍ وأدلع الناس، ليس في الأرض حجازي إلا وهو ينصب، وليس في الأرض تميمي إلا وهو يرفع، ثم قال أبو عمرو: قم يا يحيى -يعني اليزيدي- وأنت يا خلف -يعني خلف الأحمر- فاذهبا إلى أبي المهدي فَلَقَّناهُ الرفع فإنه لا يرفع، واذهبا إلى المنتجع التميمي وَلَقَّناهُ النصب فإنه لا ينصب، قال: فذهبت أنا وخلف فأتينا، أبا المهدي وإذا هو يصلي، وكان به عارض، وإذا هو يقول: احسانان عني، ثم قضى صلاته والتفت إلينا، وقال: ما خطبكم؟ قلنا: جئناك نسألك عن شيء، قال: هاتيا فقلنا: كيف تقول: ليس الطيبُ إلا المسكُّ؟ فقال: تأمراني بالكذب على كِبَرَةٍ سَنِي، فأين الجادي؟ وأين بَنَةُ الإبل الصادرة؟ فقال له:

(١) أي فصيح لم يخالط الحضر.

(٢) طبقات النحويين واللغويين، أبو بكر الإشبيلي، محمد بن الحسن، (ت ٣٧٩هـ/ ٩٨٩م)، طبعة السعادة، ١٣٧٣هـ، ص ٣٩.

خلف الأحمر: ليس الشرابُ إلا العسلُ، فقال: فما يصنع سودان هَجَرَ؟ ما لهم شراب غير هذا التمر، قال اليزيدي: فلما رأيتُ ذلك منه، قلت له: ليس مِلاكُ الأمر إلا طاعةُ الله والعملُ بها، فقال: هذا كلام لا دَخَلَ فيه، ليس مِلاكُ الأمر إلا طاعةُ الله والعملُ بها، فقال اليزيدي: ليس مِلاكُ الأمر إلا طاعةُ الله والعملُ بها، فقال: ليس هذا لحنِي ولا لحن قومي، فكتبنا ما سمعناه منه، ثم أتينا المتتبع فأتينا رجلاً يَعْقِل، فقال له خلف: ليس الطيبُ إلا المسكُ، «بالنصب»، فلقناه النصب وجهدنا فيه، فلم ينصب وأبى إلا الرفع<sup>(١)</sup>.

وسيداً الحديث عن المباحث الثلاثة التي حددتها من قبل وهي:

الأول: ما يتعلق باللفظ.

الثاني: بالمعنى.

الثالث: بالصيغة.

وسنجد أن للقرآن الكريم في هذه الدراسات إثراء ونهاء، وغاية وهدفاً.

---

(١) إسماعيل بن القاسم أبو علي القالي، الأماي ومعه ذيل الأماي والنوادر، طبعة دار الكتب، ١٩٣٦م، ذيل الأماي، ص ٣٩.



## المبحث الأول

### جانب اللفظ

أما جانب اللفظ فتتحدث فيه عن موضعين اثنين متصل كل منهما بصاحبه: الغريب والنوادر، وهما أول ما بحثه العلماء ودَوَّنوه، يدلنا على ذلك أن أول من كتب في الغريب: أبو عبيدة، والأصمعي، وأبو بكر السجستاني، وابن قتيبة، وهم من علماء القرنين الثاني والثالث للهجرة، كذلك النوادر كتب فيها: أبو زيد الأنصاري، والأصمعي، وأبو مسحل الأعرابي.

#### أولاً: الغريب:

أما الغريب: فلقد كان له شأن عند العلماء، يقول الأصمعي: توسَّلت بالملح ونلت بالغريب<sup>(١)</sup>؛ وقد «قالوا: إن الأصمعي عمل قطعة كبيرة من أشعار العرب ليست بالمرضية عند العلماء لقلة غريبها...»<sup>(٢)</sup>.

وذكر صاحب مراتب النحويين عن عبد الصمد بن المعذل<sup>(٣)</sup> قال: رأيت الأصمعي وقد جاءه الأحمر الكوفي<sup>(٤)</sup> فألقى عليه مسائل من الغريب، فجعل يجيبه، وكان الأحمر كأنه مجنون من سؤاله وحركته... ثم سأله الأصمعي عن بيت فلم

---

(١) أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي (ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م)، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج ١، ص ١٨٦.

(٢) الفهرست لابن النديم، ٧٩/١.

(٣) عبد الصمد بن المعذل بن غيلان من شعراء الدولة العباسي بصري المولد والمنشأ وقد روي عنه كثير من اللغة والأخبار وقليل من الحديث.

(٤) هو علي بن الحسن صاحب الكسائي، بغية الوعاة، ١/١٥٨.

يجبه، فسأله عن ثان فلم يجبه، فسأله عن ثالث فلجلج... فقال الأحمر ما تعرض لك في اللغة إلا مجنون<sup>(١)</sup>.

وقد يتساءل القارئ ما معنى ورود الغريب في كتاب الله، ونحن نعلم أن الغرابة وصف في الكلمة ينافي الإبداع والفصاحة؟  
وللإجابة عن هذا التساؤل نقول:

لقد عرفت كلمة الغريب في الصدر الأول، أخرج البيهقي من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «أعربوا القرآن والتمسوا غرائب» وأخرج مثله عن عمر وابن عمر وابن مسعود موقوفاً<sup>(٢)</sup>.

وهذا ترجمان القرآن، عبدالله بن عباس رضي الله عنه يقول: «إذا سألتموني عن غريب القرآن فالتمسوه في الشعر، فإن الشعر ديوان العرب»<sup>(٣)</sup>، وكان يأمر صاحبه أن يخرج للناس -وقد اجتمعوا على بابه- ليقول لهم: «من أراد أن يسأل عن العربية والشعر والغريب من الكلام فليدخل»<sup>(٤)</sup>.

---

(١) عبدالواحد بن علي أبو الطيب اللغوي كان من علماء القرن الرابع النحويين واللغويين. مراتب النحويين، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ص ٩٠.

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب، وابن أبي شيبة والحاكم، قال الحاكم: صححه جماعة ولكن الحافظ الذهبي والهيثمي والعراقي أجمعوا على ضعفه، فيض القدير للمناوي، ج ١، ص ٥٥٨.

(٣) أبو عبدالله محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١هـ) الجامع لأحكام القرآن مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٧٢هـ/ ١٩٥٢م، ج ١، ص ٢٤.

(٤) أحمد بن عبدالله بن أحمد الأصبهاني، أبو نعيم (٤٣٠هـ/ ١٣٠٨م)، حلية الأولياء، مطبعة السعادة، ١٩٣٢م، ج ص ٣٢٠-٣٢١.

والغريب في هذه الآثار يختلف عن الغرابة، التي ذكرها علماء البلاغة من بعد، فاللفظة الغريبة عندهم ما كانت غير ظاهرة في معناها، ولا مأنوسة في استعمالها، تثقل على السمع، وينفر منها الطبع»<sup>(١)</sup>.

أما الغريب في كتاب الله تبارك وتعالى فهو الذي إذا سمعه السامع تحفز وتشوق لمعرفة معناه، وبدهي أن الناس جميعاً ليسوا سواء في معارفهم، فما يسهل على بعضهم، نجده يصعب على آخرين ممن هم أوسع ثقافة، وأكثر علماً.

من هذا ما روي عن ابن عباس رضي الله عنه قال: «ما كنت أدري ما فاطر السموات والأرض حتى جاء أعرابيان يختصمان في بئر، قال أحدهما: أنا فطرتها»<sup>(٢)</sup>.

وما روي عن سيدنا عمر رضي الله عنه وقد سأل وهو على المنبر عن معنى التخوف، وذلك في كتاب الله ﴿أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ٤٧].

فقام شيخ من هذيل فقال: هذه لغتنا. التخوف: التنقص، قال: فهل تعرف العرب ذلك في أشعارها، قال: نعم. قال شاعرنا وأنشد:

تَخَوُّفَ الرَّحْلِ مِنْهَا تَأْمَاقِرداً      كما تخوف عُودُ النَّبَةِ السَّفَنُ  
فقال عمر: أيها الناس عليكم بديوانكم لا يضل، قالوا: وما ديواننا؟ قال: شعر الجاهلية، فإن فيه تفسير كتابكم<sup>(٣)</sup>.

---

(١) مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والسنة النبوية، الناشر، دار الكتاب العربي، بيروت، ص ٥٣.

وانظر: الدكتور محمد رجب البيومي، المدرس بكلية اللغة العربية، جامعة القاهرة، البيان القرآني السنة الثالثة، الكتاب الواحد والثلاثين ربيع الثاني، ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م، ص ١١٦ وما بعدها، دار النصر للطب.

(٢) جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج ١ ص ١١٣.

(٣) الدر المصون، للسمين الحلبي، ٧/ ٢٢٥.

إذن لا بد من وجود الغريب في كتاب الله تبارك وتعالى بمعناه اللغوي، وهو ما لا يستوي في فهمه جميع مستمعيه، لا بمعناه في مصطلح البلاغين، وهذا الغريب ليس كثيراً، لا كما عده السيوطي<sup>(١)</sup> رحمه الله فلقد أحصيت ما عده السيوطي في الإتيان فبلغ ما يزيد على سبعمائة وخمسين كلمة، ونحن لا نعد الغرابة تختلف باختلاف العصور، وإلا كانت ألفاظ القرآن جلّها غريبة، وليس الأمر كذلك فمقياس الغرابة إذن هو: ذوق ومعرفة أولئك الذين نزل القرآن فيهم.

### أسباب الغرابة:

١- وإذا تلمسنا أسباب هذه الغرابة فسنجد في مقدمتها ورود كلمات في كتاب الله تعالى من غير لغة قريش، ولا أقول من غير لغات العرب، والذي يقرأ كتب التفسير وعلوم القرآن يجد ذلك مبثوثاً فيها على نطاق واسع -نعني لغات القبائل العربية- وقد عقد السيوطي باباً ذكر فيه الكلمات التي جاءت في كتاب الله تعالى من غير لغة قريش، وكلمة سيدنا عمر رضي الله عنه : «الشعر ديوان العرب» -وهو يرشد إلى فهم ألفاظ القرآن من الشعر- خير دليل على ما ذهبنا إليه، لأن جلّ الشعراء لم يكونوا من قريش.

٢- ومن أسباب الغرابة كذلك نقل الكلمة من معناها اللغوي المتبادر إلى وضع جديد قصد إليه الشارع، وذلك: كلفظ (الظلم) مثلاً الذي توسع في مدلوله فقصد به الشرك، وغيره من الألفاظ الكثيرة التي جاءت في كتاب الله تعالى<sup>(٢)</sup>.

(١) جلال الدين السيوطي، الإتيان، ج ١، ص ١١٤.

(٢) جلال الدين السيوطي، المزهرة في علوم اللغة وأنواعها، النوع العشرون: الألفاظ الإسلامية، ج ١ ص ٢٩٤، دار الفكر، بيروت، شرحه وضبطه وصححه وعنون موضوعاته: محمد جاد المولى، علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم.

٣- وثمة سبب ثالث، وهو أن تكون الكلمة قد استعملت استعمالاً دلت القرائن على أن المعنى اللغوي لهذه الكلمة غير مقصود، وذلك ككلمة (مبصرة) في قوله تعالى: ﴿وَأَيْنَا نُمُودَ النَّاقَةِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ٥٩]، فمعنى ﴿مُبْصِرَةً﴾ غير عمياء، وما نظن أحداً يقصد هذا المعنى من الآية الكريمة، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَالْتَمِعْ قُرْآنَهُ﴾ (١٨) [القيامة: ١٨].

٤- وأخيراً - وليس آخراً- قد ترد الكلمة الغريبة في كتاب الله، وذلك لغرابة المعنى الذي جاءت من أجله، مثل كلمة (التناوش) في قوله سبحانه: ﴿وَقَالُوا أَمَئَاتٌ بِهِ وَأَتَى لَهُمُ التَّنَاشُتُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ (٥٤) [سبا: ٥٢]، وكلمة (ضيزى) في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ إِذْ أَوَّسَمُ ضِيزَى﴾ (٢٢) [النجم: ٢٢].

ومن هنا فإن سلاسة ألفاظ القرآن، وعدم غرابتها الغرابة التي تحدث عنها علماء البلاغة، لم ينافع فيها أحد من الناس، وهذا يؤيد ما قلته من قبل من أن مقياس الغرابة: هو ذوق ومعرفة أولئك الذين نزل القرآن فيهم.

ونقف ونحن نتحدث عن الغريب أمام كتب ثلاثة، لا لتحدث عنها ونحللها، فذلك ليس من موضوعنا، ولكن لنلاحظ ما في هذه الدراسة المتتابعة من تطور لمفهوم الغريب.

أول هذه الكتب: كتاب أبي عبيدة «مجاز القرآن»، وهو الذي سماه بعضهم «غريب القرآن» كذلك، وأطلق عليه بعضهم «معاني القرآن»، وآخرون «إعراب القرآن»، وكلها أسماء لمسمى واحد، والذي يعيننا من الكتاب هو ما فيه من الغريب، أما ما بعد ذلك من موضوعات عرض لها أبو عبيدة فليس لنا الآن فيه شأن.

والكتاب الثاني: «غريب القرآن» لأبي بكر السجستاني، والثالث: «غريب القرآن» لابن قتيبة.

والذي يعرض لهذه الكتب الثلاثة بالبحث والتقد، يمكنه أن يخلص إلى هذه النتيجة، وهي فيما أرى نتيجة منطقية حتمية، وخلاصتها أن النظرة للغريب، كانت تتطور، وتتسع رقعتها شيئاً فشيئاً، وأكتفي هنا بنقل ما ذكره أبو عبيدة في غريب سورة فاتحة الكتاب، قال أبو عبيد:

«الرحمن» مجازه: ذو الرحمة، و«الرحيم» مجازه: الراحم، وقد يقدرون اللفظين من لفظ واحد والمعنى واحد، وذلك لاتساع الكلام عندهم.

وقد فعلوا مثل ذلك، فقالوا: ندمان ونديم، واستشهد لذلك بأبيات من الشعر لا نرى ضرورة لذكرها.

«رب العالمين»: أي المخلوقين، قال لييد بن ربيعة:

ما إن رأيت ولا سمعت بمثلهم في العالمينا

وواحدهم: عالم، قال العجاج:

فخندف هامة هذا العالم

«الدين» الحساب والجزاء، يقال في المثل: «كما تدين تدان».

وقال ابن نفيل:

واعلم وأيقن أن ملكك زائل      واعلم بأن كما تدين تُدان

«الصراط»: الطريق، المنهاج الواضح، قال:

فصدَّ عن نهج الصراطِ القاصِدِ

وقال جرير:

أمير المؤمنين على صراطٍ      إذا اعوجَّ المواردُ مستقيم

والموارد: الطرق، ما وردت عليه من ماء، كذلك القرى، وقال:

وَطِئْنَا أَرْضَهُمْ بِالْخَيْلِ حَتَّى تَرَكَنَاهُمْ أَذَلَّ مِنَ الصَّرَاطِ<sup>(١)</sup>

هذا كل ما ذكره أبو عبيدة عن غريب سورة الفاتحة. أما ما عدا ذلك، فهو إما من مباحث الإعراب، أو من مباحث الزيادة التي تستهوي أبا عبيدة دائماً، ونجده هنا يقرر زيادة (لا) في قوله تعالى: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧]<sup>(٢)</sup>.

أما الكتابان الآخران فرقة الغريب فيهما تتسع، هذه واحدة، وأخرى حرية بالتسجيل، وهي الاستشهاد بكلام العرب الذي وجدناه عند أبي عبيد، وهو ما لا نجده بهذه الصفة عند الذين جاؤوا من بعده.

### ثانياً: النوادر:

ومما هو قريب الصلة بالغريب النوادر، النوادر: جمع نادرة، وليست هي الطرفة، إنما هي ما ندر من الكلام، والذي يستقرئ ما ذكره من النوادر يمكنه أن يدرك أن المقصود بالنوادر الفروق الدقيقة بين الكلمات، والكلام منه الفصيح، ومنه الشواذ، والشوارد والنوادر، ولعل: النوادر أقرب ما تكون إلى جمهرة الكلام الفصيح.

ولا بد أن نسوق هاهنا بعض الأمثلة على النوادر لنقرب المسألة من الأذهان، جاء في إصلاح المنطق «وما كان على «مِفْعَل» و«مِفْعَلَه» مما يُعْتَمَل به، فهو مكسور الميم، نحو، مَحْرُزٌ وَمِقْطَعٌ، وَمَبْضَعٌ، وَمَسْلَةٌ، مَحْدَّةٌ، وَمِصْدَغَةٌ، مَحْلَاةٌ، إلا أحرفاً جاءت نوادر بضم الميم والعين، وهي: مُسْعَطٌ، وكان القياس مُسْعَطٌ، وَمُنْخُلٌ وَمُدْقٌ، وَمُدْهَنٌ، وَمُكْحَلَةٌ وَمُنْصَلٌ»<sup>(٣)</sup>.

(١) مجاز القرآن، عارضه بأصوله وعلق: الدكتور محمد فؤاد سزكين، الطبعة الثانية، ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م، مكتبة الخانجي، دار الفكر، ج ١، ص ٢٠، ٢٥.

(٢) المرجع السابق، ج ١، ص ٢٥.

(٣) الخطيب التبريزي، تهذيب إصلاح المنطق، ص ٥٠٦، تحقيق: د. فخر الدين قباوة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الأولى، سنة ١٤٠٣هـ سنة ١٩٨٣م.

«وما كان على (فَعَلَ يَفْعُلُ) فإن مصدره إذا جاء على (مَفْعَل) مفتوح العين، وكذلك المَوْضَع مفتوح، نحو قولك: دَخَلَ يَدْخُلُ مَدْخَلًا، وهذا مَدْخُلُهُ، وَخَرَجَ يَخْرُجُ مَخْرَجًا، وهذا مَخْرُجُهُ، إلا أحرَفًا جاءت نواذر بكسر العين، هي: مَفْرِقُ الرَّأْسِ، وكان القياس مَفْرَقٌ، ومَطْلِعٌ ومَشْرِقٌ ومَغْرِبٌ ومَسْقِطٌ ومَسْكِنٌ، وقد يقال: مَسْكَنٌ، ومَنْبِتٌ ومَحْشِرٌ، وقد يقال: مَحْشَرٌ، ومَسْجِدٌ ومَنْسِكٌ ومَجْزَرٌ، فإن هذه جاءت على غير القياس، ومنها ما يقال بالفتح، ومنه ما لا يُفْتَحُ»<sup>(١)</sup>.

وقد نقل السيوطي في الزهر عن ابن هشام ما يوضح المقصود بالنواذر فقال: «اعلم أنهم يستعملون غالباً وكثيراً ونادراً وقليلًا ومطرّدًا، فالمطرّد لا يتخلف والغالب أكثر الأشياء، ولكنه يتخلف، والكثير دونه، والقليل: دون الكثير، والنادر: أقل من القليل، فالعشرون بالنسبة إلى ثلاثة وعشرين غالبها، والخمسة عشر بالنسبة إليها كثير لا غالب، والثلاثة قليل، والواحد: نادر، فعلم بهذا مراتب ما يقال فيه ذلك»<sup>(٢)</sup>.

يقول الدكتور عزة حسن: إن نظرية ابن هشام في النواذر قائمة على مخالفة اللفظ للقياس، وخروجه عليه، وهي نظرية صحيحة ثابتة، تؤكد لها الأمثلة الكثيرة المبثوثة في كتب اللغة، ولكن هذه النظرية على الرغم من ذلك لا تحل لنا مشكلة النواذر، ولا تعللها تعليلًا تامًا، لأننا نجد كثيرًا من الألفاظ جاءت مخالفة للقياس، وهي مع ذلك فصيحة مشهورة، لا تعد من النواذر في حال من الأحوال، فينبغي لنا والحالة هذه أن نجد تعليلًا آخر يتمم نظرية ابن هشام، ويفسر لنا ما لم تستطع أن تفسره<sup>(٣)</sup>.

(١) إصلاح المنطق، لابن السكيت، ص ٢١٩-٢٢٠، تحقيق: أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة، ط ٤، ١٩٤٩ م.

(٢) عبدالرحمن السيوطي، الزهر في علوم اللغة وأنواعها، ج ١، ص ٢٣٤.

(٣) مقدمة كتاب النواذر لأبي مسحل الأعرابي، ص ٢٠، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٣٨٠هـ/ ١٩٦١ م.



ثم قال: «وبعد فهل كانت هذه الألفاظ التي نراها في كتب النوادر، والتي أوردتها الرواة والعلماء على أنها نوادر، هل كانت جميعها من النوادر، خلاف الفصيح حقاً؟ ولا يسعنا إلا أن نجيب بالنفي على هذا السؤال، ونحن نستمد هذا الجواب من كتب النوادر نفسها، لأن كثيراً من الألفاظ التي وردت فيها لا يمكن لنا أن نعدّها من نوادر اللغة وغريبها في حال من الأحوال، بل هي تكاد تكون أفصح من الفصيح.

والسبب في ذلك على ما نرى، تباين وجهات النظر عند علماء اللغة أنفسهم، واختلاف معاييرهم في تقدير فصاحة الألفاظ أو غرابتها»<sup>(١)</sup>.

وقد كتب في النوادر كثير من العلماء منهم: أبو زيد الأنصاري<sup>(٢)</sup>، وابن الأعرابي<sup>(٣)</sup>، وأبو عمرو الشيباني<sup>(٤)</sup>، وفي جمهرة ابن دريد<sup>(٥)</sup>، وغريب أبي عبيدة أبواب معقودة للنوادر.

وقد يتساءل القارئ: ما صلة النوادر بالدراسات القرآنية؟ وكلمات القرآن هي أفصح الكلمات وهو تساؤل مقبول. والجواب عنه سهل ويسير كذلك.

فالذين كتبوا في النوادر تتبعوا الكلمات، ورأوا ما بينها من فروق، فوجدوا أن الكلمات القرآنية جميعاً بعيدة كل البعد عن دائرة النوادر إذا كان المقصود بها الشاذ من القول، اللهم إلا ما كان من لغتين كلغة الحجازيين والتميميّين، أو ما كان قراءة

---

(١) د. عزة حسن، مقدمة النوادر، ص ٢٢.

(٢) أبو زيد سعيد بن أوس بن ثابت الأنصاري (١١٩-٢١٥هـ/٧٣٧-٨٣٠م)، أحد أئمة الأدب واللغة.

(٣) محمد بن زياد، المعروف بابن الأعرابي، أبو عبدالله (١٥٠-٢٣١هـ/٧٦٧-٨٤٥م)، راوية، نسابة، علامة باللغة.

(٤) إسحاق بن مرار الشيباني -بالولاء- أبو عمرو (٩٤-٢٠٦هـ/٧١٣-٨٢١هـ) لغوي أديب.

(٥) محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، من أزد عمان من قحطان، أبو بكر، (٢٢٣-٣٢١هـ/٨٣٨-٩٣٣م)، من أئمة اللغة والأدب.

شاذة، ولا يشمل هذا بالطبع ما عدّه بعض العلماء من النوادر، وكان - رأياً - خاصاً بهم، كما روي عن الأصمعي من أنه كان يفرق بين حَزَنَ وأَحْزَنَ، فيعد حَزَنَ فصيحاً، وأحزن ليس كذلك وكأنه يعدّه من النوادر، والأمر ليس كذلك، لأن كلتا اللفظتين قراءة متواترة «يَحْزُنُكَ، وَيَحْزُنُكَ».

فالحديث عن النوادر إذن كان ذا صلة وثيقة بالدراسات القرآنية، مكتملة لما سبقها من دراسة الغريب، وفي الأمثلة التالية ما يبين ذلك:

فمن اختلاف اللغتين ما نقله السيوطي في المزهري، قال يونس<sup>(١)</sup> في نوادره: «أهل الحجاز (يَبْطُش)، وتميم (يَبْطُش). تميم (هَيْهَات) وأهل الحجاز (أَيْهَات)، أهل الحجاز (مِزِيَة)، وتميم (مِزِيَة)، أهل الحجاز (الْحِجَّ) وتميم (الْحِجَّ)، أهل الحجاز (تَحَذت ووخذت) وتميم (اتخذت)، أهل الحجاز (رِضْوَان) وتميم (رُضْوَان)، أهل الحجاز (سَل رَبك) وتميم (سأل) أهل الحجاز (ما رأيته منذ يومين، ومنذ يومان) وتميم (مذ يومين ومذ يومان)، فيتفق أهل الحجاز وتميم على الإعراب، ويختلفون في (مذ ومنذ) فيجعلها أهل الحجاز (بالنون) وتميم (بلا نون)، أهل الحجاز (لاته عن وجهه يليتة) وتميم (ألاته يُليتة)، أهل الحجاز (قد عَرَض لفلان شيء تقديره: علم) وتميم (عَرَض له شيء، تقديره: ضرب)<sup>(٢)</sup>.

وقال أبو محمد يحيى بن المبارك اليزيدي في أول نوادره<sup>(٣)</sup>.

«أهل الحجاز (أنا منك براء) وسائر العرب (أنا منك بريء)، أهل الحجاز (ينخفون: الهذّي يجعلونه كالرّمي) وتميم (يشددونه يقول: الهديّ كالعشيّ والشقيّ)

(١) يونس بن حبيب الضبي بالولاء، أبو عبد الرحمن، ويُعرف بالنحوي، علامة بالأدب، وكان إمام نحاة البصرة في عصره، (ت ١٨٢ هـ / ٧٩٨ م).

(٢) السيوطي، المزهري، ج ٢، ص ٢٧٥.

(٣) يحيى بن المبارك بن المغيرة العدوي أبو محمد اليزيدي، ١٣٨ - ٢٠٢ هـ / ٧٥٥ - ٨٩٨ م، عالم بالعربية والأدب.

أهل الحجاز (تركته بتلك العدو وأوطأته عَشْوَةٌ ولي بك إِسْوَةٌ وَقِدْوَةٌ) وتميم (تضم أوائل الأربعة) أهل الحجاز (لَعْمَرِي) وتميم (رَعْمَلِي)، أهل الحجاز (الشَّفْعُ والْوَتْر - بفتح الواو) وتميم (الْوَتْر - بكسر الواو) أهل الحجاز (الْوَلَايَةُ في الدين والتولي - مفتوح -، وفي السلطان - مكسور - [يعني ولاية]) وتميم: (تكسر الجميع)<sup>(١)</sup>.

ولم يصل إلينا إلا ثلاثة كتب من كتب النوادر، نوادر أبي زيد الأنصاري، وهو من البصريين، ونوادر أبي مسحل الأعرابي<sup>(٢)</sup> وهو من الكوفيين، والكتب الثالث لأبي علي القالي، وهذا الكتاب أقرب إلى كتب الأدب منه إلى ما نحن بصدده.

والناظر في الكتابين الأول والثاني يجد تأكيد ما قلته من قبل، ففي نوادر أبي مسحل نجد قوله تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ [النور: ١٥]، وفي قراءة لعائشة رضي الله عنها (إِذْ تَلَقَّوْنَهُ) - بفتح التاء وكسر اللام وضم القاف - من وَلَقَى - يَلِقُ، كوعد يعد، وقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥] وهي قراءة العامة [أي القراءة المتواترة، قراءة الجمهور، وفي قراءة شاذة] (وَأَذْكُرْ بَعْدَ أُمَّةٍ)، وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جُبُلًا كَثِيرًا﴾ [يس: ٦٢] [وهي قراءة روح عن يعقوب، وهي قراءة متواترة]، وقوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي جَنَّتٍ وَنَهْرٍ﴾ [القمر: ٥٤]، بضم النون والهاء، [أي: ونهر جمع نَهْرٍ، وهي قراءة ابن حيصن، وهي قراءة شاذة]<sup>(٣)</sup>.

أما أبو زيد فنجده يستشهد بكثير من الآيات الكريمة في نوادره<sup>(٤)</sup>.

(١) السيوطي، المزهر، ج ٢، ص ٢٧٧.

(٢) عبد الوهاب بن حريش الأعرابي، أبو محمد الملقب بأبي مسحل، نحو ١٧٠ - ٢٣٠ هـ / ٧٨٦ - ٨٤٥ م، غزير العلم باللغة، عارف بالنحو والقراءات.

(٣) كتاب النوادر، عني بتحقيقه الدكتور عزة حسن، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٣٠ هـ / ١٩٦١ م.

(٤) كتاب النوادر في اللغة مع تعاليق عليه، لمصححه: سعيد الخوري الشرتوني، اللبناني، المطبعة الكاثوليكية للآباء المرسلين اليسوعيين، بيروت، ١٨٩٤ م. ففي ص ٨ استشهد بقوله تعالى: =

ثم تتابعت المؤلفات في هذا الموضوع، فمنها على سبيل المثال: كتاب «الألفاظ» و«إصلاح المنطق» لابن السكيت<sup>(١)</sup>.

ذكر في الكتاب الأول «الألفاظ» موضوعات متعددة، وذكر في كل موضوع الألفاظ التي تدل عليه.

وذكر في الكتاب الثاني: -وهو بحق سفر ضخمة- الألفاظ المتقاربة في الأوزان، وما بينها من اتفاق واختلاف في المعنى.

والواقف على هذا الكتاب يجد ابن السكيت استشهد على كثير مما ذكره بآي القرآن الكريم، ففي باب (فَعَلَ وفَعُل) بفتح الفاء وكسرها. باختلاف المعنى، يستشهد على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ [فصلت: ٥] ويقول تعالى: ﴿فَالْحَمِلَتِ وَقْرًا﴾ [الذاريات: ٢] ويقول: ﴿إِلَّا يَشِقُّ آلَآنْفُسُ﴾ [النحل: ٧]، وقوله: ﴿وَقَدِيتُهُ بِذِيحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٧].

وفي باب (فَعَلَ، وفَعُل) -بكسر الفاء وفتحها- باتفاق معنى يستشهد بقوله: ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [بكر الحاء - [الفرقان: ٥٣]، (حَجْرًا مَحْجُورًا) بفتح الحاء.

= ﴿مُجِدُّهُ عِنْدَآللهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا﴾ [الزمل: ٢٠]، وفي ص ١١ بقوله تعالى: ﴿خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ [يوسف: ٨٠]، وقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ﴾ [البقرة: ٧]، وص ١٥ بقوله: ﴿وَسَلَّى الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]، وص ٢٦ بقوله: ﴿شَفَا جُرْفٍ هَاكِرٍ﴾ [التوبة: ١٠٩]، وص ٣٧ بقوله: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ [البقرة: ١٨٦]، وص ٣٨ بقوله: ﴿يُرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ﴾ [المؤمنون: ١١]، ﴿وَلَطِي مَدُودٍ﴾ [الواقعة: ٣٠]، ﴿إِنَّ الْمُنْفِقِينَ فِي ظُلُلٍ وَعُيُونٍ﴾ [الرسات: ٤١]، وص ٥٧ بقوله: ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨]، وص ٦٤ بقوله: ﴿فِيمَا نَقُصُّهُمْ يَسْتَفْهَمُ﴾ [الأنعام: ١٣]، وص ١٩٠ بقوله: ﴿عَطَاءٌ حِسَابًا﴾ [النبا: ٣٦]، وص ٢٥٥ بقوله تعالى: ﴿مُذَاهِمَاتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٤].

(١) هو أبو يوسف يعقوب بن السكيت (١٨٦هـ - ٢٤٤هـ)، وكتابه: إصلاح المنطق، شرح وتحقيق: أحمد محمد شاكر، وعبد السلام محمد هارون، دار المعارف بمصر. أما كتاب الألفاظ، فحققه د. فخر الدين قباوة، مكتبة لبنان ناشرون، ط ١، ١٩٩٨ م.

وفي باب (فَعَلَ) - بفتح الفاء وسكون العين - و(فَعَلَ) - بفتح الفاء والعين - باختلاف معنى، يستشهد بقوله تعالى: ﴿إِذْ نَفَسْتُمْ فِيهِ غَسْمُ الْقَوْمِ﴾ [الأنبياء: ٧٨]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾ [٣٣] [المرسلات: ٣٢]، وقوله سبحانه: ﴿سَلَفُكُمْ بِالسِّنَةِ جِدَادٍ﴾ [الأحزاب: ١٩]، وقوله: ﴿وَعَدُوا عَلَىٰ حَرْبٍ قَدِيرٍ﴾ [٢٥] [القلم: ٢٥].

وفي باب (فَعَلَ وَفَعَلَ) - بفتح الفاء وضمها وكسرها وسكون العين - باتفاق معنى، يستشهد بقوله تعالى: ﴿إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ﴾ [آل عمران: ١٤٠] و(قَرْحٌ)، وقوله: ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠]. وقرأ العدوي البصري [يعني أبا السَّيَّالِ قنْب بن أبي قنْب]: (في سُمِّ الخياط) [وهي قراءة شاذة] قال يونس: أهل العالية يقولون: السُّمُّ، وتميم تقول: السَّمُّ.

وفي باب (فَعَلَ) - بفتح الفاء وسكون العين - و(فَعَلَ) - بفتح الفاء والعين - من الْمُعْتَلِّ، يستشهد بقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَيْنَهُمَا بِأَيِّدٍ﴾ [الذاريات: ٤٧]، وقوله: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدًا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ﴾ [ص: ١٧]، بعد قوله: وهو الأيدُ والآدُ للقوة، إلى غير ذلك.

حتى الأبواب التي لم يستشهد فيها بشيء من القرآن نجد أنه يستند فيما كتبه إلى النص القرآني المحكم، ففي آخر باب من الكتاب، وهو باب (فَعَلَ) - بضم الفاء وفتح العين - يقول ابن السكيت: «واعلم أنه ما جاء على (فَعَلَ) - بضم الفاء وفتح العين - من النعوت فهو في تأويل فاعل، وما جاء على (فُعَلَة) - ساكنة العين - فهو في معنى مفعول به، تقول: «هذا رجل ضَحَكَةٌ» كثير الضَّحِكِ، و«لُعْبَةٌ» كثير اللعب، و«لُعْنَةٌ»: كثير اللعن للناس. و«رجل هُرْأَةٌ»: يهزأ من الناس.

... ورجل هُمَزَةٌ لُحْمَزَةٌ: يهز الناس ويلمِزهم، أي: يعيبهم، قال الشاعر:

ثُلِّي بُوْدِي إِذَا لَا قَيْتَنِي كَذِبًا      وَإِنْ أَغَيَّبَ فَأَنْتَ الْهَامِزُ اللَّمَزَةُ

ولم يذكر قوله سبحانه ﴿وَيَلْ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُحْمَزَةٍ﴾ [١] [الهمزة: ١] <sup>(١)</sup>.

(١) إصلاح المنطق، ص ٤٧٤-٤٧٥.

ومن هذه الكتب: كتاب «الفصيح» لثعلب<sup>(١)</sup>، ذكر فيه: اللفظ الفصيح، وقد يكون هذا الفصيح من لغة أو لغتين أو أكثر، وقد شَرَحَ كثيرٌ من العلماء هذا الكتاب.

وهذه النهضة اللغوية لا يمكننا أن نستوعب الحديث عنها، فالمقام لا يسمح من جهة، ولا يعيننا التفصيل من جهة أخرى، لكن الدافع لها بحق كان كتاب الله تعالى، من أجل حفظ ألفاظه، أو من أجل الاستشهاد بألفاظه على الفصيح الذي ينبغي أن يسجل وينطق به.

---

(١) أحمد بن يحيى بن زيد بن سيار الشيباني بالولاء، أبو العباس، المعروف بثعلب (٢٠٠-٢٩١هـ/٨١٦-٩٠٤م)، إمام الكوفيين في النحو واللغة.

## المبحث الثاني

### مدلول اللفظ

وهو لا يقل شأنًا وخطراً عن سابقه، فمدلول اللفظ حري به أن يوجّه إليه العلماء همهم، ذلك أن الألفاظ إنما هي قوالب للمعاني.

من نافلة القول -إذن- أن تكون حُرِّيَّةً بالتقدير، من أجل هذا كان البحث عن هذه المعاني مزامناً مع البحث في الألفاظ، يدلنا لذلك أن الأضداد وما يتصل بها لم تكن متأخرة عن غيرها مما تحدثنا عنه.

وستحدث في هذا الفصل عن المشترك بنوعيه، أعني المشترك اللفظي، والمشارك المعنوي (الترادف).

#### أ- المشترك اللفظي:

والمشارك اللفظي أن يتحد اللفظ ويتعدد المعنى، أي أن يشترك أكثر من معنى في كلمة واحدة، وعلى العكس من ذلك المشارك المعنوي، فهو اشتراك أكثر من كلمة في معنى واحد. ولقد كان للقرآن الكريم الأثر الكبير في هذين الجانبين من الدراسة، وقد ظهر ذلك في دراسات علوم الفقه وأصوله فضلاً عما نجده من أثر في التفسير وعلوم القرآن.

والناظر في هذه العلوم جميعها لا يجد عناءً في إدراك ما أحدثته هذه المباحث من ثراء علمي، بل لا أغالي إذا زعمت بأن أثرها قد امتد إلى أنواع كثيرة من المعارف، حيث أفادت الدراسات النقدية والبلاغية والنحوية والدراسات الفقهية والكلامية كذلك، وقد يقال: إن وجود المشترك اللفظي ليس أمراً مجتمعاً عليه عند العلماء، ومع صحة هذا القول، فإن هذا لا يقلل من شأن هذه القضية، فجمهرة العلماء ومن يعتد بهم من ذوي الشأن، من أئمة التفسير والأصوليين، أصول الدين

وأصول الفقه، والفقهاء، لا يرتابون في وجود المشترك اللفظي، فهم يعدونها ظاهرة لغوية، وأقل من القليل هم الذين ماروا في وجود المشترك اللفظي.

إن وجود المشترك اللفظي في اللغة من الأمور المبكرة التي أشار إليها العلماء، فهذا أبو العميثل عبدالله بن خلود بن سعد (ت ٢٤٠هـ) يُخرج لنا كتاباً فيما اتفق لفظه واختلف معناه، ومن بعده المبرد محمد بن يزيد نجده يكتب فيما اتفق لفظه واختلف معناه في كتاب الله، وهو كتيب طُبع في المطبعة السلفية للأستاذ محب الدين الخطيب رحمته الله.

ولا نكاد نجد كتاباً من كتب التفسير واللغة وغيرهما إلا وفيه إشارات كثيرة مبثوثة، تتحدث عن المشترك اللفظي يقول الطبري رحمته الله عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَاللّٰهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ بَيْنَ وَحَفْدَةٍ﴾ [النحل: ٧٢]: «واختلف أهل التأويل في المعنيين بالحفدة، فقال بعضهم: هم الأختان، اختان الرجل على بناته؟، وقال آخرون هم أعوان الرجل وخدمه، وقال آخرون هم ولد الرجل وولد ولده، وقال آخرون: هم بنو امرأة الرجل من غيره...» ثم قال: «ولم يكن الله تعالى دَلَّ بظاهر تنزيله ولا على لسان رسول الله ﷺ ولا بحجة عقل على أنه عنى بذلك نوعاً من الحفدة دون نوع منهم، وكان قد أنعم بكل ذلك علينا لم يكن لنا أن نوجه ذلك إلى خاص من الحفدة، دون عام إلا ما اجتمعت الأمة عليه أنه غير داخل فيهم، وإذا كان ذلك كذلك فلكل الأقوال التي ذكرنا عمن ذكرنا وجه في الصحة ومخرج في التأويل»<sup>(١)</sup>.

وكلمة مسحر في قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾<sup>(١٣٣)</sup> [الشعراء: ١٥٣، ١٨٥] يقول ابن جرير: اختلف أهل التأويل في تأويله فقال بعضهم: معناه

---

(١) الإمام محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠)، جامع البيان، ١٤/٩٦-٩٩، الطبعة الأولى، المطبعة الكبرى الأميرية، سنة ١٣٢٨هـ.



إنما أنت من المسحورين، وقال آخرون: معناه من المخلوقين، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ (١٥٣) قال: من المخلوقين، واختلف أهل المعرفة بكلام العرب في معنى ذلك، فكان بعض أهل البصرة يقول: «كل من أكل من إنس أو دابة فهو مسحور وذلك لأن له سَحَرًا يَقْرِي (أي: يجمع) ما أكل فيه، واستشهد على ذلك بقول لبيد:

فإِنْ تَسَالَيْنَا فِيمَ نَحْنُ فَإِنَّا عَصَافِيرُ مِنْ هَذَا الْأَنَامِ الْمُسَحَّرِ  
وقال بعض نحويي الكوفيين نحو هذا، غير أنه قال: أخذ من قولك: انتفخ سَحْرُك، أي: إنك تأكل الطعام والشراب فَتُسَحَّرُ به وتُعَلَّل، وقال: معنى قول لبيد: من هذا الأنام الْمُسَحَّر، من هذا الأنام المعلل المخدوع، قال: ويروى أن السَّحْر، من ذلك لأنه كالخديعة».

«والصواب من القول في ذلك عندي القول الذي ذكرته عن ابن عباس، أن معناه إنما أنت من المخلوقين الذين يُعَلَّلون بالطعام والشراب مثلنا»<sup>(١)</sup>.

فالمُسَحَّر كما رأينا من باب المشترك اللفظي، لأنه إما أن يكون من السَّحَر، فيكون معناه المسحور الذي اختلط في عقله، وإما أن يكون من السَّحْرِ -بفتح السين على غير القياس بمعنى الرئة-، ومنه قول السيدة عائشة رضي الله عنها فيما أخرجه الإمام مسلم: «توفي رسول الله ﷺ وهو بين سَحْرِي وَنَحْرِي». فالمُسَحَّر على هذا التفسير ذو الرئة الذي يأكل ويشرب، ولقد أشار الزمخشري في كشفه إلى هذين القولين فلم يرجح أحدهما على الآخر، قال: «المسحر الذي سَحَرَ كثيراً حتى غلب على عقله، وقيل: هو من السَّحَر: الرئة وأنه بشر»<sup>(٢)</sup>.

(١) الطبري، جامع البيان، ١٩/٦٣.

(٢) الإمام محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٢٨هـ)، الكشف عن حقائق غوامض التنزيل، ٣/٣٢٨، الطبعة الأولى، مطبعة الاستقامة بالقاهرة، سنة ١٣٦٥هـ/١٩٤٦م.

ثم جاء الرازي (ت ٦٠٦هـ) ونقل هذه الأقوال كذلك، وكان صنيعه مثل الزمخشري فلم يرجح قولاً على قول<sup>(١)</sup>، وهؤلاء هم أئمة التفسير أعني الطبري والزمخشري والرازي، وتفاسيرهم هي الأصول التي أفاد منها المفسرون، فهم كما رأينا يذكرون الأوجه المحتملة لكلمة مُسَحَّرٌ، وهي من المشترك اللفظي، والطبري وحده هو الذي رجح أحد الأقوال، وهو أن المسحر الذي يأكل ويشرب.

والذي يترجح لي في هذه الكلمة تفسيرها في كل موضع بما يتسق مع السياق والنظم، فلقد وردت الكلمة مرتين، كلتاها في سورة الشعراء، الأولى حديثاً عن قوم صالح عليه السلام: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ۝١٥٣﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ ۖ هَٰآ شَرِبَ وَلَكِنَّ شَرِبَ يَوْمَ مَعْلُومٍ ۝١٥٥﴾ [الشعراء: ١٥٣-١٥٥]، والثانية عن قوم شعيب عليه السلام: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ۝١٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ۝١٨٦﴾ [الشعراء: ١٨٥-١٨٦].

فالكلمة في الآية الأولى معناها، إنما أنت بشر تأكل وتشرب، أما في الآية الثانية فتعني المسحور من السحر، أي: المختلط في عقله، وإنما ذهبت هذا المذهب في تفسير الآيتين الكريميتين.

أولاً: لخلو الموضع الأول من الواو، ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ وهذا ما يسميه علماء البلاغة فصلاً، ومن مواضع الفصل أن تكون الثانية تأكيداً للأولى، وذلك مثل قوله سبحانه: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ۝٣١﴾ [يوسف: ٣١]، فليس بين الجملتين تغاير، لذلك ترك العطف.

(١) الفخر الرازي، التفسير الكبير، ٢٤/١٥٩، الطبعة الأولى، المطبعة البهية المصرية.

أما في الموضع الثاني فقد جاءت الواو ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ (١٨٥) وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴿، والعطف يقتضي التغاير، فكونه مسحراً يختلف عن كونه بشراً، وهذا هو الذي لمح الزمخشري دون أن يفصل القول فيه.

ثانياً: وإذا هناك مرجحاً بيانياً فإن هناك مرجحاً تاريخياً كذلك، إن أمر السحر لم يكن معروفاً في القبائل العربية الأولى عاد وثمود، لذا لم نجد تهمة السحر توجه إلى الأنبياء، كل الذي كان يوجهه القوم إلى أنبيائهم أنهم بشر يأكل مما يأكلون ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا نَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا نَشْرَبُونَ﴾ (٣٣) ﴿[المؤمنون: ٣٣].

وهكذا نجد البحث في المشترك اللفظي ذا فوائد متعددة، تتصل بإعجاز القرآن وبأسرار كثيرة من كتاب الله تبارك وتعالى.

ومن هذا اختلافهم في كلمة (الْقَدْر) في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١]، فالقدر يمكن أن يكون الشرف والمنزلة، ويمكن أن يكون من التقدير، ويمكن أن يفسر بالضيق، وهو ضد البسط، قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد: ٢٦] والكلمة في الآية محتملة لهذه الوجوه، فَلَيْلَةُ الْقَدْرِ ذات الشرف والمنزلة، أو التي تقدر فيه الأشياء، أو التي تضيق فيها الأرض من كثرة الملائكة، وهذا كثير جداً، وإنما أحببت الإشارة إليه فحسب.

وليس هذا مقتصراً على تفسير كتب الله تعالى، بل نجده في غيره كذلك، فقد عرض الشريف المرتضى لمعنى كلمة أمير المؤمنين علي عليه السلام: «من أحبنا أهل البيت فليستعد للفقير جلباباً أو تحفاناً، فبعد أن ينقل قولي أبي عبيد القاسم بن سلام وابن قتيبة في معنى الفقر»، يذكر معنى ثالثاً، فيقول: «ويمكن أن يكون في الخبر وجه ثالث تشهد بصحته اللغة، وهو أن أحد وجوه معنى لفظة الفقر أن يحز أنف البعير حتى يخلص إلى العظم أو قريب منه، ثم يكوى عليه حبل يذلل بذلك الصعب [من الإبل]. يقال: فقره يفقره فقراً إذا فعل ذلك به، وبعير مفقور وبه فقرة، وكل شيء

حززته وأثرت فيه فقد فقرته تفقيراً، ومنه سميت الفاقة، وقيل سيف مُفَقَّر فيحمل القول على أنه ﷺ أراد: من أحبنا فليزم نفسه وليخطمها وليقدها إلى الطاعات، ويصرفها عما تميل طباعها إليه من الشهوات، وليذلها على الصبر عما كره منها، ومشقة ما أريد منها، كما يُفعل ذلك في البعير الصعب، وهذا وجه في الخبر ثالث لم يذكر.

وليس يجب أن يستبعد حمل الكلام على بعض ما يحتمله إذا كان له شاهد من اللغة وكلام العرب، لأن الواجب على من يتعاطى تفسير غريب القرآن والشعر أن يذكر كل ما يحتمله الكلام من وجوه المعاني، فيجوز أن يكون أراد المخاطب كل واحد منها منفرداً، وليس عليه العلم بمراده بعينه، فإن مراده مغيب عنه، وأكثر ما يلزمه ما ذكرناه من ذكر وجوه احتمال الكلام<sup>(١)</sup>.

ولقد تعددت الجهات التي بحثها العلماء في المشترك اللفظي، فمن ذلك بحثهم في الأضداد والملاحن، والمسلسل والمشجر والمداخل، ويعنون به تسلسل الألفاظ وتداخلها وشرحها، وبيان ما بينها من صلات ووشائج، فتفسر اللفظة بكلمة، ثم تفسر الكلمة بأخرى وهكذا، وهذه كلها مباحث لغوية لا تخص القرآن وحده.

وهناك مباحث خاصة بالقرآن الكريم، وهي ما عُرف عند الكاتبين في علوم القرآن بالوجوه والنظائر والأفراد، وسنقتصر من هذه المباحث على ما هو ألصق بالدراسات القرآنية.

### أولاً: الأضداد:

والأضداد قسم من المشترك اللفظي، ذلكم لأن الكلمة التي لها أكثر من معنى قد يمكننا الجمع بين معانيها، كما رأينا في الأمثلة السابقة، فنحمل اللفظ على كل ما قيل في معناه، وقد يكون ذلك متعذراً، لأن المعنيين متضادان.

---

(١) أمالي المرتضى، ١/ ١٨.

والحق أن البحث في الأضداد كان من أول ما استرعى انتباه العلماء، فشمروا عن سواعدهم باحثين محاولين استقصاء هذه الكلمات أو التنبيه عليها، وبين أيدينا أكثر من كتاب يحمل هذا العنوان (الأضداد).

ولعل أولها كتاب الأصمعي<sup>(١)</sup>، وقد استشهد على أكثر ما ذكره بآيات من القرآن الكريم، والأصمعي: محافظ كما نعرف، فهو يتحرج كثيراً أن يبدي في القرآن رأياً، وهذا هو المنهج الذي نجده في كتابه يتحدث عن كلمة (قرء) بأنها قد يراد بها: الطهر، وقد يراد بها: الحيض، ويستشهد على ذلك بشيء من الشعر، ويتحدث بعد ذلك عن كلمة (شعب) يقال: شعبت الشيء: بمعنى: أصلحته، وشعبته: بمعنى فرقة.

وكذلك كلمة (عسّس): يمكن أن تفسر بمعنيين متضادين: أقبل أو أدبر، ويتحدث عن كلمة (أقوى): فالمقوي من لا زاد عنده، ولا متاع، والمقوي: كثير المال. وكذلك كلمة (عفا) يقال: عفا الشيء: إذا درس، وعفا: إذا كثر.

وهذه الكلمات كلها في كتاب الله تعالى. قال تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَرْزِقْنَ بَأْنَفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَأَيُّلَ إِذَا عَسَّسَ﴾ [التكوير: ١٧]، وقال تعالى: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ﴾ [الواقعة: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَفَوْا﴾ [الأعراف: ٩٥]<sup>(٢)</sup>.

(١) هو سعيد بن عبد الملك بن قريب بن عبد الملك بن علي بن أصمع المعروف بالأصمعي، صاحب لغة ونحو وإمام في الأخبار والنوادر والملح والغرائب (ت ٢١٧هـ / ٩٣٢م).

(٢) ثلاثة كتب في الأضداد، للأصمعي والسجستاني وابن السكيت، دار الشرق، بيروت، نشرها: الدكتور أوغست هفتر، أستاذ العربية في كلية انسيروك، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، كتاب: الأضداد عن الأصمعي، ص ٥-٨.

والكتاب الثاني من كتب الأضداد لابن السكيت<sup>(١)</sup> وهو شبيه بكتاب الأصمعي، كأنها رواية ثانية له: فهو يبدأ بكلمة (القرء) كما بدأ الأصمعي ويذكر كلمة الأقواء، كما ذكرها الأصمعي.

والكتاب الثالث هو (الأضداد) لأبي بكر السجستاني<sup>(٢)</sup>، وكان من حقه ومن حقنا أن نعهده الكتاب الثاني لأنه متقدم على ابن السكيت، ولكن لما كان كتاب ابن السكيت نسخة عن كتاب الأصمعي، وكان كتاب السجستاني يمثل طوراً جديداً في دراسة الأضداد، آثرنا إغفال العامل الزمني.

أفاد السجستاني كثيراً من أستاذه الأصمعي، ولكنه لم يقف عند ما وقف عنده، وهو يبين لنا الغرض من تأليفه كتابه، ونلاحظ أن الدافع على تأليفه خدمة كتاب الله تبارك وتعالى، يقول: «حملنا على تأليفه أننا وجدنا من الأضداد في كلامهم، والمقلوب شيئاً كثيراً، فأوضحنا ما حضر منه، إذ كان يجيء في القرآن الظنُّ يقيناً وشكاً، والرجاء خوفاً وطمعاً، هو مشهور في كلام العرب، وضدُّ الشيء خلافه وغيره، فأردنا أن يكون لا يرى من لا يعرف لغات العرب أن الله عز وجل حين قال: ﴿وَأَنهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (٥٥) الَّذِينَ يَظُنُّونَ ﴿[البقرة: ٤٥-٤٦] مَدَحَ الشَّاكِّينَ فِي لِقَاءِ رَبِّهِمْ، وإنما المعنى يستيقنون، وكذلك في صفة من أوتي كتابه بيمينه من أهل الجنة: ﴿فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَأُوا وَكُنِيَّةٌ﴾ (١٩) إِنِّي ظَنَنْتُ ﴿[الحاقة: ١٩-٢٠] يريد: إني أيقنت، ولو كان شاكاً لم يكن مؤمناً، وأما قوله: ﴿قُلْتُمْ مَا نَنْدَرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ [الجاثية: ٣٢] فهو لاءُ شكٍّ كفار»<sup>(٣)</sup>.

(١) سبقت ترجمته.

(٢) هو سهل بن محمد عثمان بن يزيد أبو حاتم الجشمي السجستاني (١٦٥هـ-٢٥٥هـ)، من ساكني البصرة، كان إماماً في علوم القرآن واللغة والشعر، وكان كثير التصانيف في اللغة، وصنّف في النحو والقراءة.

(٣) ثلاث كتب في الأضداد، كتاب الأضداد للسجستاني، ص ٢.

«... رجاء: قال أبو حاتم: يكون طمعاً، ويكون خوفاً، وفي القرآن في معنى (الطمع) ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَرْجُونَ أَنْ يُلْقَى إِلَيْكُمُ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكُم﴾ [القصص: ٨٦]، وقوله سبحانه: ﴿وَلِمَا تَعْرِضْنَ عَنْهُمْ نُبَيِّغَ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ [الإسراء: ٢٨]، قال كعب بن زهير «البيسط»: أرجو وأمل أن تَذْنُو مَوَدَّتِهَا وما إخال لدينا منك تنوِيلُ أراد الطمع، وأراد: وما لدينا منك تنوِيلُ إخال، فالغى إخال، وفي الحديث «لو وُزِنَ رجاءُ المؤمن وخوفُهُ بميزانٍ تریص لا اعتدلاً».

والتریصُ: المُقَوِّمُ تقوياً. قال الشاعر: (وهو ذو الإصبع العدواني) في نَبْلٍ مُقَوِّمَةٌ (المسرح):

قَوِّمَ أَفْوَاقَهَا وَتَرَصَّهَا      أَتَبَّلَ عَذْوَانُ كُلِّهَا صَنَعَا  
أنبل: أحذق، وقال بشر بن أبي خازم: «الوافر»

فَرَجَّيْ خَيْرَ وَانْتَظِرِي إِيَّاي      إِذَا مَا الْقَارِطُ الْعَنْزِيَّ أَبَا  
ويقال: رَجَوْتُ وَرَجَّيْتُ «مشددة» وارتجيتُ في المعنيين: طَمِعْتُ وَخَفْتُ وقال: «الرجز»

وما تُرَجِّي إِذْ تُلَاقِي الدَّائِدَا      أَسْبَعَةً لَاقَتْ مَعاً أُمَ وَاحِدَا  
أي: ما تَخَاف ولا تُبَالِي، وهي في لغة هُذَيْل وَكِنَانَة وَنَضْر وَخَزَاعَة في معنى: المبالاة، والرجاء: في القرآن في معنى (الخوف) كثير، قال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ١١٠]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِيكَ لَا يَرْجُوكَ لِقَاءَنَا﴾ [يونس: ٧]، وقوله: ﴿وَأَرْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [العنكبوت: ٣٦]، وهو كثير، قال أبو ذؤيب: «الطويل»

إِذَا لَسَعَتْهُ النَحْلُ لَمْ يَرْجُ لَسْعَهَا      وَخَالَفَهَا فِي يَتِّ ثَوْبٍ عَوَامِلِ

أَثَّ النحل وهي لغة، والتذكير: جيد، وَبَيَّتُ النحل: الجَبْحُ والخلية، والجمع: الجَبَاحُ والخلايا، والنُّوبُ: جمع نَائِب، ونُوبٌ: أراد أنها تختلف، وتأتي بالشمع والعسل، وليس قول أبي عبيدة: أراد أنها سود مثل ألوان النوبة لجنس من الحبش بشيء، وزعم أنه يقال: النُّوبَةُ واللوبة، والنُّوبِيُّ، واللوبيُّ واللابَةُ: الحرَّة، وهي أرض كأنها فرشت بالحجارة، والجمع اللابُ واللُوبُ، كما يقال: دارةٌ من الرمل، ودُورٌ ودار، ولا يُقال: لُوبَةٌ ولُوب، وإن كان الأصمعي قد ذكر ذلك، فإنه لم يصح عندنا من وجه آخر، كما لا يقال: دُورَةٌ ودُورٌ، وإنما هي: دارة ودُورٌ، وقول العجاج «الرجز»:

مَنْ الدَّبِيلِ نَاشِطًا لِلدُّورِ

يعني: لداراتِ الرمل، والدَّبِيل: رمل معروف، والناشط: الذي يقطع من موضع إلى موضع آخر، وهو هاهنا: ثور وحشي، قال النابغة: «الطويل»

مَجَلَّسَتْهُمْ ذَاتُ الْإِلَهِ وَدِيْنَهُمْ قَوِيْمٌ فَمَا يَرْجُونَ غَيْرَ الْعَوَاقِبِ<sup>(١)</sup>

«... خاف: وكان أبو عبيدة يقول: خاف: من الخوف، ومن اليقين، وكان

يقول: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا نَعْدِلُوا﴾ [النساء: ٣] يريد: أيقنتم، ولا علم لي بهذا، لأنه قرآن وإنما نحكيه عن رب العالمين، ولا ندرى لعله ليس كما يَظُنُّ»<sup>(٢)</sup>.

«... أسر: وقال أبو عبيدة: أسررت الشيء: أخفيتُه وأظهرته أيضاً، وكان

يقول في هذه الآية ﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ﴾ [يونس: ٥٤] أظهروها، ولا أتق بقوله في هذا، والله أعلم، وقد زعموا أن الفرزدق قال: «الطويل»

فَلَمَّا رَأَى الْحَجَّاجُ جَرَدَ سَيْفِهِ أَسَرَ الْحَرُورِيَّ الَّذِي كَانَ أَضْمَرَ

(١) كتاب الأضداد للسجستاني، ص ٨٠.

(٢) المرجع السابق، ص ٨٨.



ولا أثنى أيضاً بقول الفرزدق في القرآن، ولا أدري لعله قال: «الذي كان أظهرًا أي: كتم ما كان عليه، والفرزدق: كثير التخليط في شعره، وليس في قول نَظِيرِهِ جرير والأخطل، شيء من ذلك، فلا أثنى به في القرآن»<sup>(١)</sup>.

ويمكن أن نستخلص الحقائق التالية:

١ - إن أبا حاتم: لا يرى التوسع في نظرية الأضداد في اللغة، وخاصة في لفظ القرآن، فهو لا يرى التسليم بما قاله المفسرون واللغويون من قبل، بل ينقد آراءهم ويفندها مخطئاً كثيراً منها.

٢ - الاقتصار في الألفاظ الأضداد على ما جاء منها مما لا يحتمل الشك ويؤيده السياق والشواهد الصحيحة.

٣ - رجع باقي ما جاء منها إلى أصولها، من تصحيف وتغاير في اللهجات أو مجرد أخطاء وقع فيها الشعراء نتيجة الاختلاط بالمولدين، أو أخطاء في الشعر نفسه نتيجة تداول السنة الرواة.

ويهمنا أن نرجع إلى أصل هذا الرأي - القول بعدم التوسع في الأضداد - في القرآن خاصة، وهو واضح في كتابه، ذلك أن التوسع فيها لا يسلم من العثرات ولا ينبغي لمفسر القرآن التهادي وراءها، يقول: «وكل شيء من هذا الباب في القرآن فتفسيره يُتَّقَى، وما لم يكن في القرآن فهو أيسر خطباً».

٤ - إرجاع بعض ما جاء في الأضداد إلى حالات خاصة ملازمة اللفظ، كالتفاوت، أو التشاؤم.

٥ - الاكتفاء في بعضها بذكر ما جاء في تفسير العلماء مع الوقوف بين الآراء المتعارضة موقفاً وسطاً<sup>(٢)</sup>.

(١) المرجع السابق، ص ١١٤.

(٢) الدكتور محمد زغلول سلام، أثر القرآن في تطور النقد العربي إلى آخر القرن الرابع الهجري، قدم له: الأستاذ محمد خلف الله أحمد، دار المعارف، مصر، الطبعة الثالثة، ص ١٧٢ - ١٧٣.

## الأضداد: لابن الأنباري<sup>(١)</sup>:

وهو الحلقة الثالثة من كتب الأضداد، يقول في مقدمته: «هذا كتابٌ ذُكِرَ الحروف، التي تُوقَّعُها العرب على المعاني المتضادة، فيكون الحرف منها مؤدياً عن معنيين مختلفين، ويظن أهل البدع والزيغ والإزراء بالعرب أن ذلك كان منهم لنقصان حكمتهم، وقلة بلاغتهم، وكثرة الالتباس في محاوراتهم عند اتصال مخاطباتهم، فسيألون عن ذلك، ويحتجون بأن الاسم مُنبئ عن المعنى الذي تحته، ودال عليه، وموضح تأويله، فإذا اعتور اللفظة الواحدة معنيان مختلفان، لم يعرف المخاطب أيهما أراد المخاطب، وبطل بذلك معنى تعليق الاسم على المسمى، فأجيبوا عن هذا الذي ظنوه، وسألوا عنه بضروب الأجوبة:

أحدُهن: أن كلام العرب يصحَّح بعضُه بعضاً، ويرتبط أوله بآخره، ولا يُعرَف معنى الخطاب منه إلا باستيفائه، واستكمال جميع حروفه، فجاز وقوع اللفظة على المعنيين المتضادين لأنها يتقدمها، ويأتي بعدها ما يدل على خصوصية أحد المعنيين دون الآخر، ولا يراد بها في حال التكلم والإخبار إلا معنى واحد»<sup>(٢)</sup>.

الواضح إذن: أن ابن الأنباري قصد بكتابه الرد على الشعوبيين أولاً، وخدمة العربية، لغة القرآن ثانياً، وهذان العاملان أشرت إليهما في أول الباب، ويمثل بعد ذلك بألفاظ ذوات معانٍ متضادة، يحدد السياق المعنى المقصود لكل لفظة، واستشهد لذلك ببعض الشعر، ثم قسم الكلام إلى أربعة أقسام لبيان خطورة الأضداد<sup>(٣)</sup>.

---

(١) محمد بن القاسم بن محمد بن بشار أبو بكر الأنباري، (٢٧١-٣٢٨هـ / ٨٨٤-٩٤٠م) من أعلم أهل زمانه بالأدب واللغة ومن أكثر الناس حفظاً للشعر والأخبار.

(٢) الأضداد في اللغة، اعتنى بضبطها بالشكل وتصحيحها الشيخ محمد عبدالقادر سعيد الرافعي، والعلامة اللغوي أحمد الشنقيطي، طبع بالمطبعة الحسينية المصرية، بكفر الطماعين بمصر، ص ٢.

(٣) المرجع السابق، ص ٦.

١ - ألفاظ لا تعني إذا وردت في الكلام إلا معنى واحداً، لا يتغير بتغير السياق، كالرجل والمرأة، والجمل والناقة، واليوم والليلة، وقام وقعد، وتكلم وسكت، وهذا هو الكثير الذي لا يحاط به.

٢ - ألفاظ لا يفهم معناها إلا بالسياق، ولا يمكن أن تختلط في المدلول، مثل لفظ (حَمَلَ) بمعنى ولد الضأن، و(حمل) بمعنى اسم الرجل.

٣ - ألفاظ يقع اللفظان منها أو أكثر على المعنى، كقولك: البر والحنطة، أو العير والحمار، والذئب والسِّيد، وجلس وقعد.

٤ - ألفاظ يختلف معناها باختلاف السياق، وهذا القسم يضم الأضداد، وهو القسم المهم في هذا البحث، لأنه القليل الظريف من كلام العرب.

وبين بعد ذلك: أن ما كُتِبَ قبله في الأضداد لم يكن تاماً، فأراد أن يجمعه ويزيد عليه، وأول ما يذكره (الظن) يقول:

فأول ذلك (الظن) يقول على معاني أربعة:

معنيان متضادان، أحدهما: الشك، والآخر: اليقين الذي لا شك فيه، فأما معنى: الشك، فأكثر من أن تُحصى شواهد، وأما معنى: اليقين فمنه قول الله عز وجل: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا﴾ [الحج: ١٢].

معناه: علمنا، وقال جل اسمه ﴿وَرَأَى الْمَجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا﴾ [الكهف: ٥٣]، معناه: فعلموا بغير شك...<sup>(١)</sup>.

«... والمعنيان اللذان ليسا متضادين: أحدهما: (الكذب)، والآخر: (التهمة)، فإذا كان (الظن) بمعنى الكذب، قلت: ظن فلان، أي: كذب، قال الله عز وجل: ﴿وَأَن هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨] فمعناه: إن هم إلا يكذبون، ولو كان على معنى

(١) الأضداد في اللغة، ص ١١.

الشك، لاستوفى منصوبيه أو ما يقوم مقامهما، وأما معنى: التهمة، فهو أن تقول: ظننت فلاناً، فتستغني عن الخبر، لأنك اتهمته، ولو كان بمعنى: الشك المحض لم يُقْتَصَر به على منصوب واحد<sup>(١)</sup>.

«... وقال بعض أهل اللغة: رجوت: حرف من الأضداد، يكون بمعنى: الشك والطمع، ويكون بمعنى: (اليقين)، فأما معنى: الشك والطمع فكثير لا يحاط، ومنه قول كعب بن زهير:

أَرْجُو وَأَمَلُ أَنْ تَدْنُو مَوَدَّتْهَا وَمَا إِخَالُ لَدِينَا مِنْكَ تَنْوِيلُ  
معناه: وما لدينا منك تنويل، وأخال: لغو.

وأما معنى (العلم) فقوله عز وجل: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ [الكهف: ١١٠]. معناه: فمن كان يعلم لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً، وقولهم عندي غير صحيح، لأن الرجاء لا يخرج أبداً من معنى: الشك، أنشدنا أبو العباس: فَوَا حَزَنِي مَا أَشْبَهَ الْيَأْسَ بِالرَّجَا وَإِنْ لَمْ يَكُنَا عِنْدَنَا بِسَوَاءٍ  
والآية التي احتجوا بها: لا حجة لهم فيها، لأن معناها: فمن كان يرجو لقاء ثواب ربه، أي: يطمع في ذلك، ولا يتيقنه.

وقال سهل السجستاني: معنى قوله: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ فمن كان يخاف لقاء ربه، وهذا عندنا غلط، لأن العرب لا تذهب بالرجاء مذهب الخوف إلا مع حروف الحجد، وقد استقصينا الشواهد لهذا، ويقال: ارتجيت ورجيت بمعنى<sup>(٢)</sup>.

ويواصل ابن الأنباري حديثه عن الأضداد، ونود أن نسجل هنا أن دراسة الأضداد طراً عليها ما طرأ على دراسة الغريب مما تحدثنا عنه من قبل:

(١) المرجع السابق، ص ١٢-١٣.

(٢) الأضداد في اللغة لابن الأنباري، ص ١٣-١٤.

١ - فهذا ابن الأنباري يكمل ما بدأه مَنْ قبله، موافقاً حيناً، وراداً حيناً آخر.

٢ - إن الغالب على مادة الأضداد، كونها من كتاب الله تبارك وتعالى، وهذا يدل خير دلالة على عناية أولئك الأئمة -رحمهم الله تعالى- بالكلمات القرآنية وتعيين مدلولاتها حتى لا يكون حرج أو اختلاف.

### ثانياً: الملاحن:

ومن أقسام المشترك الملاحن، وهي مشتقة من اللحن، وللحن أكثر من معنى، ولكن المعنى الذي يتصل بها نحن بصدد الفطنة والذكاء والتعريض، ومنه قول النبي ﷺ: «لعلَّ أحدكم أن يكون ألحن بحجته» [أخرجه البخاري ومسلم].

وقول القتال الكلابي:

ولقد وحيث لكم لِكُنْما تَفْطَنُوا وَلَحْنْتُ لِحْناً ليس بالمرتَابِ

وقول مالك بن أسماء بن خارجة الفزاري:

وحديثُ أَلْذُهُ هُوَ مِمَّا يَنْعَتُ النَّاعِتُونَ يوزَنُ وزناً

منطقُ صائِبٍ وتَلَحَّنُ أحياءُ نأ وخيرُ الحديثِ ما كان لِحْناً<sup>(١)</sup> <sup>(٢)</sup>

أخذ بعض العلماء والمتأدبين على الجاحظ وابن قتيبة تفسيرهما اللحن بأنه الخطأ في القول. وإنما المقصود بالبيت وصفها بالظرف والفطنة وأنها توري بما قصدت له<sup>(٣)</sup>.

---

(١) حديث معطوف على ما قبله، أي لها وجه ولها حياة، ولها حديث ما مثل ذلك وقوله: (ألذه) أي استلذه، يقال: «لذذت به ولذذته»، وقوله: «مما ينعت الناعتون» أي مما ينعت الناعتون، وقوله: «يوزن وزناً» أي موزوناً، فهو في موضع الحال.

(٢) الشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي (ت ٤٣٦هـ)، الأمالي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ١/ ١٤، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه.

(٣) الشريف المرتضى، الأمالي، ١/ ١٥.

فالمقصود من الملاحن -إذن- أن تكون اللفظة لها معنيان توري بأحدهما عن الآخر، فكلمة لعبت يمكن أن تكون من اللعب، ويمكن أن تكون من اللعاب.

ومن الذين كتبوا في الملاحن ابن دريد محمد بن الحسن الأزدي (ت ٣٢٠هـ)، يقول في مقدمة كتابه: «هذا الكتاب ألفناه ليفزع إليه المجبر المضطهد على اليمين المكره عليه، فيعارض بما رسمناه، ويضمّر خلاف ما يظهر، ليسلم من عادية الظالم، ويتخلص من حيف الغاشم، وسميناه كتاب (الملاحن) واشتققنا له هذا الاسم من اللغة العربية الفصيحة... لأن اللحن عند العرب: الفطنة، ومنه قول النبي ﷺ: «لعل أحدكم ألحن بحجته من بعض» أي أفطن لها، وأغوص عليها، وذلك أن أصل اللحن أن تريد شيئاً فتتوري عنه بشيء آخر»<sup>(١)</sup>.

بقي مما هو وثيق الصلة بهذه الأنواع قسمان يجب التنبيه لهما، والعناية بهما، فلئن كانت الأقسام السابقة عامة في القرآن وغيره، فإن هذين يختص بهما كتاب الله تبارك وتعالى، ونعني بهما: (الوجوه) أولاً، و(الأفراد) ثانياً.

### ثالثاً: الوجوه:

أما الوجه: فإن يكون للكلمة الواحدة معاني كثيرة، وفي كتب علوم القرآن فصول لهذا النوع، من ذلك كلمة (الهدى) جاءت في كتاب الله تعالى على تسعة عشر وجهاً، أي تسعة عشر معنى، وهذه المعاني هي:

الثبت ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦].

والبيان ﴿أَوَلَيْكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٥].

والدين ﴿إِنَّا لَهْدَىٰ هُدًى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٧٣].

---

(١) مقدمة كتاب الملاحن، لابن دريد، الطبعة السلفية، سنة ١٣٤٧هـ.

والإيمان ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم: ٣٦].

والدعاء ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧]، ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الأنبياء: ٧٣]

وبمعنى: الرسل والكتب ﴿فَأَمَّا يَا تَبِيتُكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨].

والمعرفة ﴿وَبِالْتَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦].

وبمعنى: النبي ﷺ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدًى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩].

وبمعنى القرآن ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدًى﴾ [النجم: ٢٣].

وبمعنى التوراة ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدًى﴾ [غافر: ٥٣].

وبمعنى: الاسترجاع ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧].

والحجة ﴿لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، بعد قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبراهيمَ فِي رَبِّهِ﴾ أي لا يهديهم حجة.

والتوحيد ﴿إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدًى مَعَكَ﴾ [القصص: ٥٧].

والسنة ﴿فِيهِدْنَاهُمْ أَفْتَدَةً﴾ [الأنعام: ٩٠]، ﴿وَأَنَا عَلَى عَاقِبَتِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢].

والإصلاح ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِبِينَ﴾ [يوسف: ٥٢].

والإلهام ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠] أي: ألهمهم المعاش.

والتوبة ﴿إِنَّا هَدَيْنَاكَ إِلَيْنَا﴾ [الأعراف: ١٥٦].

والإرشاد ﴿أَنْ يَهْدِيَ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [القصص: ٢٢] <sup>(١)</sup>.

ومن ذلك الصلاة تأتي على وجوه كثيرة منها:

الصلوات الخمس، وصلاة العصر، وصلاة الجمعة والجنائز والدعاء، والدين والقراءة، والرحمة والاستغفار، ومواضع الصلاة.

ومن ذلك الرحمة، وردت على أوجه منها: الإسلام، والإيمان، والجنة، والمطر، والنعمة، والنبوة، والقرآن، والرزق، والنصر، والفتح، والعافية، والمودة، والسعة، والمغفرة، والعصمة <sup>(٢)</sup>.

#### رابعاً: الأفراد:

ويعنون بالأفراد: أن يأتي اللفظ في كتاب الله تعالى في مواضع كثيرة، فيكون معناه واحداً في جميعها، ولكنه يخرج عن هذا المعنى في موضع واحد، لذلك سمي هذا النوع بالأفراد، لأن اللفظة في موضع واحد تبيء بمعنى غير الذي جاءت له في مواضع كثيرة.

من ذلك مثلاً «كلمة (البروج) فحيثما وردت في كتاب الله تعالى، فمعناها الكواكب أو المنازل، قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ [البروج: ١]، ﴿نَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ [الفرقان: ٦١]، ولكنها جاءت في موضع واحد تختص بمعنى

---

(١) من أراد المزيد، فليرجع إلى: الإتيان للسيوطي، ١/ ١٤١. والبرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل، إبراهيم الطبعة الأولى، ١٣٧٦-١٩٥٧م، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه للإمام بدر الدين محمد بن عبدالله بن بهادر الزرك.

(٢) وأول من كتب في الوجوه مقاتل بن سليمان المتوفى سنة مائة وخمسين للهجرة وقد طبع كتابه بتحقيق: الدكتور عبدالله شحادة، ويليهِ كتاب يحيى بن سلام، وقد طبع بتحقيق: الدكتور هند شلبي، وأوسع منها كتاب الدامغاني، وهو مطبوع كذلك، وكتب الوجوه والنظائر كثيرة.



آخر، وهي قوله سبحانه: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨]، فالبروج: هنا تفسر بالقصور.

ومن ذلك كلمة (أسف) فلقد وردت في كتاب الله في مواضع كثيرة، ولكنها تفسر بالحزن، قال تعالى: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يَؤُسَفَ﴾ [يوسف: ٨٤].

وقال: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسَفًا﴾ [الأعراف: ١٥٠]، ولكنها جاءت في موضع واحد لغير هذا المعنى، وهذا الموضع قوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا أَتَيْنَا أَهْلَنَا وَكُنَّا فِيهَا كَاغِبِينَ﴾ [الزخرف: ٥٥]، فإنها لا يجوز هنا أن تفسر بالحزن، إنها تفسر بالغضب، أي: فلما أغضبونا ومن ذلك كلمة (فحشاء) فحيث وردت في كتاب الله، فيقصد بها الزنا، وما عظم من الفواحش، إلا أن موضعاً واحداً فسرت فيه هذه الكلمة بالبخل وهو قوله سبحانه: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا﴾ [البقرة: ٢٦٨] فالفحشاء، هنا: البخل: ومن كتب في الوجوه والأفراد ابن فارس<sup>(١)</sup>.

#### ب- المشترك المعنوي:

ونعني به الترادف، والترادف عند مثبتيه أن يكون للكلمتين أو الكلمات معنى واحد، ويظهر أن الحديث عن الكلمات التي تبدو لأول وهلة أنها مترادفة، وتلمس ما بين هذه الكلمات من فروق دقيقة ظهر مبكراً، فقد تقدم لنا من قبل قول ابن هرمة:

هَذَا ابْنُ هَرْمَةَ قَائِماً بِالْبَابِ

وكيف أن ابن هرمة أنكر على منشد هذا البيت وصوبه له «هذا ابن هَرْمَةَ واقفاً بالباب» وبين له أن الفرق بين الكلمتين فرق شاسع.

(١) راجع: الإتيان، للسيوطي، ١/١٤٣.

ومن هذا ما رواه عن النضر بن شميل من أنه دخل على المأمون، فقال له: اجلس مرتين أو ثلاث فقال النضر: يا أمير المؤمنين إنما يكون الجلوس بعد اتكاء، وذكره بما جاء في السنة عن بعض الرواة، حيث كان النبي ﷺ يعظ أصحابه ويعلمهم فنهاهم عن الشرك بالله وعقوق الوالدين، قال راوي الحديث وكان متكئاً وجلس، ثم قال: «ألا وقول الزور»، قال المأمون: فماذا أقول -إذن- قال: قل: اقعد فأعجب المأمون ذلك.

وعما هو أصل في موضوعنا هذا واشتهر بين العلماء كلمة الجاحظ.

«وقد يستخف الناس ألفاظاً ويستعملونها وغيرها أحق بذلك، ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العقاب، أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر والناس لا يذكرون السغب ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة، وكذلك ذكر المطر، لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام، والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وبين ذكر الغيث، ولفظ القرآن الذي عليه نزل أنه إذا ذكر الأبصار لم يقل الأسماع، وإذا ذكر سبع سموات لم يقل الأرضين، ألا تراه لا يجمع الأرض أرضين ولا السمع أسماعاً، والجاري على أفواه العامة غير ذلك، لا يتفقدون من الألفاظ ما هو أحق بالذكر وأولى بالاستعمال، وقد زعم بعض القراء أنه لم يجد ذكر لفظ النكاح في القرآن إلا في موضع الترويح»<sup>(١)</sup>.

ولقد كان لهذه الملاحظات وما يشبهها أثر غير خفي في تفسير كتاب الله تبارك وتعالى فيما بعد، فلماذا استعملت كلمة القيام في مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ [البقرة: ٢٠٠] بينما استعملت كلمة الوقوف في مثل قوله سبحانه: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٣٠]، ﴿وَقَفُّهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ (٢٤) [الصافات: ٢٤] ولم استعمل مادة

(١) أبو عثمان عمرو بن بحر الشهير بالجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، البيان والتبيين، تحقيق: وشرح عبد السلام هارون، دار الجليل، ٢٠ / ١.

القعود كثيراً في كتاب الله في مثل قوله سبحانه: ﴿وَقَالُوا أَذْرَانًا كُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ (٨٦) [التوبة: ٨٦]، ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدًا لِّلسَّمِيعِ﴾ [الجن: ٩]، ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [النور: ٦٠]، على حين لم تستعمل مادة الجلوس إلا في آية واحدة ﴿إِذَا قِيلَ لَكُم تَقْسَحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَأَقْسَحُوا يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [المجادلة: ١١]؟ ولم استعملت كلمة الفعل في آيات، وكلمة العمل في آيات أخرى؟ إلى غير ذلك من أبحاث شيقة مفيدة تحدد لكل لفظ معناه الذي لا يشترك معه غير فيه. وهذا ما سنحدثك عنه في موضوع الإعجاز البياني.

ولا بد أن نقرر هنا بأن عدم التحديد المنضبط لمفهوم الكلمة القرآنية قد حرم الناس من فوائد كثيرة، وحال بينهم وبين إدراك متكامل لدلول الكلمة القرآنية، وسد أمامهم أبواب الوعي الدقيق لكثير من الآيات الكريمة ونعترف أن كثيراً من كتب التفسير والمعاجم اللغوية كانت سبباً في ذلك كله حيث التقت هذه الكتب والمعجمات على أن تعطي المعنى القريب للكلمة القرآنية، فتشبه المعاني، وتختلط بعضها ببعض.

وإذا كان بعض العلماء يعد الترادف من خصائص اللغة ومفاخرها، فإن كثيرين وقفوا من الترادف موقف السلبية والإنكار<sup>(١)</sup>، وقد فطن بعض العلماء والباحثين لهذه القضية الخطرة، وما يمكن أن تحدثه من أثر سلبي في فهم المعنى وإدراكه، فطرحوا قضية الترادف للبحث ولم يقتصر ذلك على الأقدمين فحسب، بل تجاوزوه إلى المحدثين كذلك، وهذه خلاصة لأرائهم وأقوالهم:

#### ١- أبو هلال العسكري:

وهذا الإمام اللغوي أبو هلال العسكري<sup>(٢)</sup> رحمه الله صاحب الصناعتين في كتاب «الفروق اللغوية» يذكر في مقدمته: «أنه ألّف كتابه في الفروق بين معاني

(١) انظر: مجلة الثقافة، الأستاذ علي عبدالواحد وافي، سنة ١٩٧٣.

(٢) الحسن بن عبدالله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري، أبو هلال (ت ٣٩٥هـ/ ١٠٠٥م)، عالم بالأدب.

الألفاظ، لأنه لم يجد من كتب قبله في هذا الموضوع، ويبيّن أنه سيذكر ما جاء من ذلك في كتاب الله تعالى، وفي كلام العرب».

وفي الباب الأول من الكتاب، نقل كثيراً من أقوال المحققين مستشهداً على عدم وجود الترادف في العربية، وما نقله حري بنا أن نقتطف منه بعض العبارات لأنه جدير بأن يذكر ويسجل.

قال رحمه الله: «وكما لا يجوز أن يدل اللفظ الواحد على معنيين، فكذلك لا يجوز أن يكون اللفظان يدلان على معنى واحد، لأن ذلك تكثير للغة بها لا فائدة فيه...»<sup>(١)</sup>.

ثم قال رحمه الله تعالى: «ولهذا المعنى أيضاً، قال المحققون من أهل العربية: إن حروف الجر لا تتعاقب، حتى قال ابن درستويه: في جواز تعاقبها إبطال حقيقة اللغة، وإفساد الحكمة فيها، والقول بخلاف ما يوجب العقل والقياس، قال أبو هلال رحمه الله: وذلك أنها إذا تعاقبت خرجت عن حقائقها، ووقع كل واحد منها بمعنى الآخر، فأوجب ذلك أن يكون لفظان مختلفان لهما معنى واحد، فأبى المحققون أن يقولوا بذلك وقال به من لا يتحقق المعاني».

ثم أورد أبو هلال ما يتوهمه بعضهم من ضرورة وجود الترادف في العربية، أورده ورّده رداً مقنعاً مفحماً، قال: «ولعل قائلًا يقول: إن امتناعك من أن يكون للفظين المختلفين معنى واحد ردّ على جميع أهل اللغة، لأنهم إذا أرادوا أن يفسروا اللب قالوا: هو العقل، أو الجرح: قالوا: هو الكسب، أو السكب، قالوا: هو الصب، وهذا يدل على أن اللب والعقل عندهم سواء، وكذلك الجرح والكسب، والسكب والصب، وما أشبه ذلك، قلنا: نحن أيضاً كذلك نقول، إلا أننا نذهب إلى قولنا: اللب، وإن كان هو العقل فإنه يفيد خلاف ما يفيد قولنا: العقل، ومثل ذلك

---

(١) الفروق اللغوية، ضبطه وحققه: حسام الدين القدسي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، سنة ٢٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ص ١٢.

القول، وإن كان هو الكلام، والكلام هو القول، فإن كل واحد منهما يفيد بخلاف ما يفيد الآخر، وكذلك المؤمن، وإن كان هو المستحق للثواب، فإن قولنا: مستحق للثواب يفيد خلاف ما يفيد قولنا: مؤمن، وكذلك: جميع ما في هذا الباب...»<sup>(١)</sup>.

## ٢- ابن فارس:

ومن هؤلاء الإمام اللغوي أبو الحسن أحمد بن فارس (ت ٣٩٥هـ) في كتابه «الصاحبي في فقه اللغة العربية وسنن العرب في كلامها» فهو ينكر قضية الترادف بين الكلمات يقول: «يسمى الشيئان المختلفان بالاسمين المختلفين، وذلك أكثر الكلام كرجل وفرس، وتسمى الأشياء الكثيرة بالاسم الواحد نحو: عين الماء وعين السحاب، ويسمى الشيء الواحد بالأسماء المختلفة نحو: السيف والمهند والحسام، والذي نقوله في هذا إن الاسم واحد وهو السيف، وما بعده من الألقاب صفات، ومذهبنا أن كل صفة منها فمعناها غير معنى الأخرى.

وقد خالف في ذلك قوم فزعموا أنها - وإن اختلفت ألفاظها - فإنها ترجع إلى معنى واحد، وذلك قولنا: سيف وعَضْبٌ وحسام، وقال آخرون: ليس منها اسم ولا صفة إلا ومعناه غيرُ معنى الآخر، قالوا وكذلك الأفعال، نحو: مضى وذهب وانطلق، وقعد وجلس، ورقد ونام وهجع، قالوا: ففي (قعد) معنى ليس في (جلس) وكذلك القول فيما سواه، وبهذا نقول، وهو مذهب شيخنا أبي العباس أحمد ابن يحيى ثعلب واحتج أصحاب المقالة الأولى: بأنه لو كان لكل لفظة معنى غير الأخرى لما أمكن أن يعبر عن شيء بغير عبارته، وذلك أنا نقول في ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢]: لا شك فيه، فلو كان الريب غير الشك لكانت العبارة عن معنى الريب بالشك خطأ، فلما عُبرَ عن هذا بهذا علم أن المعنى واحد، قالوا وإنما يأتي الشعر بالاسمين المختلفين للمعنى الواحد في مكان واحد تأكيداً ومبالغة كقولهم: «طويل»

---

(١) ص ١٣-١٤.

وهُنْدُ أَتَى مِنْ دُونِهَا النَّأْيُ وَالْبُعْدُ

قالوا: فالنأي هو البعد، قالوا، وكذلك قول الآخر: «عَمَّ الْحَبْسِ وَالْأَصْرِ»، فإن الحبس هو الأصر.

ونحن نقول إن في (قعد) معنى ليس في (جلس)، ألا ترى أنا نقول: قام ثم قعد، وأخذه المقيم والمُقْعَدُ، وَقَعَدَتِ المرأة عن الحيض.

ونقول لناس من الخوارج قَعَدُ، ثم نقول: كان مضطجعا فجلس، فيكون القعود عن قيام، والجلوس عن حالة هي دون الجلوس، لأن الجلُوسَ: المرتفع، فالجلوس ارتفاع عما دونه وعلى هذا يجري الباب كله.

وأما قولهم إن المعنيين لو اختلفا لما جاز أن يُعَبَّرَ عن الشيء بالشيء فلنا نقول: إنما عُبِّرَ عنه من طريق المشاكلة، ولسنا نقول: إن اللفظتين مختلفتان فيلزمنا ما قالوه، وإنما نقول: إن في كل واحدة منهما معنى ليس في الأخرى<sup>(١)</sup>.

وإذا كان هذا موقف هذين الإمامين اللغويين من الترادف، فإن هناك موقفاً آخر يمثله أحد رجال الفقه وأصوله، ذلكم هو الإمام الشوكاني، فبعد أن عرف الترادف وفرق بينه وبين المؤكد قال: «وقد ذهب الجمهور إلى إثبات الترادف في اللغة العربية، وهو الحق، وسببه إما تعدد الوضع أو توسيع دائرة التعبير وتكثير وسائله، وهو المسمى عند أهل البيان بالافتتان أو تسهيل مجال النظم والنثر وأنواع البديع فإنه قد يصلح أحد اللفظين المترادفين للقافية أو الوزن أو السجعة دون الآخر، وقد يحصل التجنيس والتقابل والمطابقة ونحو ذلك، وبهذا دون هذا، وبهذا يندفع ما قاله المانعون لوقوع الترادف، في اللغة، من أنه لو وقع لَعَرِيَ عن الفائدة لكفاية أحدهما فيكون الثاني من باب العبث ويندفع أيضاً ما قالوه من أنه تكون من تحصيل الحاصل، ولم يأتوا بحجة مقبولة في مقابلة ما هو معلوم بالضرورة من وقوع

(١) أبو الحسين أحمد بن فارس، الصحاح في فقه اللغة، تحقيق: مصطفى البهي، ص ٩٦-٩٧.

الترادف في لغة العرب، مثل: الأسد والليث، والحِنَّطة والقمح، والجلوس والقعود، وهذا كثير جداً، وإنكاره مُباهته.

وقولهم: إن ما يُظَنُّ أنه من الترادف هو من اختلاف الذات والصفة، كالإنسان والبشر، أو الصفات كالخمر لتغطيته العقل، والعقار لِعُقْرِهِ أو لمعاقرته، أو اختلاف الحالة السابقة كالقعود من القيام، والجلوس من الاضطجاع، تكلف ظاهر، وتعسف بحث، وهو إن أمكن تكلفُ مثله في بعض المواد المترادفة، فإنه لا يمكن في أكثرها، علم هذا كل عالم بلغة العرب، فالعَجَبُ مِن نسبة المنع من الوقوع إلى مثل ثعلبٍ وابن فارسٍ مع توسعهما في هذا العلم<sup>(١)</sup>.

ونحن ننازع الشوكاني في كثير مما ذهب إليه، ننازعه أولاً في نسبته إثبات الترادف للجمهور، اللهم إلا أن يكون جمهور الفقهاء والأصوليين، مع أن هؤلاء كذلك مختلفون في هذا الأمر، وقد تقدم لنا قول الجاحظ وأبي هلال وابن الأعرابي وابن فارس، وابن درستويه وأبي علي الفارسي، وهؤلاء أئمة في البيان واللغة والنحو، وننازعه كذلك في أن الترادف يكون للافتنان، أو تسهيل مجال النظم والنثر، ولو كان الأمر كما قال لذهب كثير من معاني الشعر والنثر، فكم من كلمة اختارها الشاعر لإكمال قافيته كان مما عابه العلماء والنقاد.

وننازعه كذلك فيما رمى به منكري الترادف من التكلف والمباهته وخير ما يرد به عليه كتاب الله تبارك وتعالى، وعلى سبيل المثال ما نقلناه من الآيات الكريمة التي استعملت فيها الكلمات استعمالاً دقيقاً، حيث جاءت مادتا القيام والوقوف، والجلوس والقعود، والشك والريب، والعمل والفعل، مما يظن ترادفه، جاءت كل كلمة في مكانها حيث لا يغني عنها غيرها ولا يسد مسدها، ولعل الذي يوازن بين كلامه وبين كلام سابقيه من أئمة اللغة يطمئن إلى ما قاله اللغويون.

---

(١) الإمام محمد بن علي الشوكاني، إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، ص ١٨، القاهرة، ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٧م، مطبعة مصطفى الحلبي.

### ٣- السيوطي:

وقد ذكر الحافظ السيوطي رحمته الله هذه المسألة، وبين حجج الفريقين، وأحسب أن الذي يقرأ ما ذكره السيوطي يترجح لديه قول من أنكر الترادف.

ذكر السيوطي عن عز الدين بن جماعة قال: حكى الشيخ القاضي أبو بكر بن العربي بسنده عن أبي علي الفارسي قال: كنت بمجلس سيف الدولة بحلب وبالحضرة جماعة من أهل اللغة، منهم: ابن خالويه، فقال: احفظ للسيف خمسين اسماً، فتبسم أبو علي، فقال: ما أحفظ إلا اسماً واحداً، وهو السيف، قال ابن خالويه: فأين المهند والصارم وكذا وكذا؟ فقال أبو علي: هذه صفات، وكأن الشيخ لا يفرق بين الاسم والصفة<sup>(١)</sup>.

وحري بالدارس لكتاب الله تعالى أن تكون له هذه النظرة ذات الدقة والشمول، حتى لا يطغى بعض المعاني على بعض، ولا تخرج الكلمة من حيزها الذي ينبغي لها ألا تتعداه.

وحديثاً وجدنا من الباحثين من يتحدث عن الترادف، محاولاً أن يعالج هذه القضية بأسلوب حديث.

### ٤- الأستاذ مصطفى صادق الرافعي:

ومن هؤلاء الأستاذ مصطفى صادق الرافعي رحمته الله فبعد أن ذكر أقوال العلماء في الترادف، ويبيّن أنهم اختلفوا فيه على أربعة أقوال: منهم: المنكرون له، وهم كثرة من أئمة اللغة، كابن الأعرابي وثعلب، وابن فارس، فهؤلاء عدوا المترادفات أسماء، كل منها يمتاز عن غيره ببعض الفروق.

(١) انظر: المزهري في علوم اللغة وأنواعها، للسيوطي، ج ١، ص ٤٠٥.



والمذهب الثاني «عد المترادفات صفات، لما اشتهر من الأسماء، فالسيف هو الاسم، وما أطلق عليه بعد ذلك، كالصارم والبتار والمهند، فإنها هي صفات، وهذا هو مذهب أبي علي الفارسي، كما يقول الرافعي رحمته الله، وقد تقدم لنا أن أبا علي أنكر الترادف.

المذهب الثالث: وهو مذهب الأصوليين، ولكنهم يخصونه بإقامة لفظ مقام لفظ آخر لمعانٍ متقاربة يجمعها معنى واحد، كقولهم: أصلح الفاسد، ولم الشَّعَثَ، وَرَتَّقَ الْفَتَقَ، وَشَعَبَ الصَّدْعَ<sup>(١)</sup>.

المذهب الرابع: إثباته الترادف مطلقاً دون قيد.

وبعد أن ينقل الرافعي رحمته الله هذه المذاهب يقول: «والصحيح من ذلك كله أن أوضاع العرب تختلف؛ لأنهم متصرفون في اللغة، لا يعرفون لها قيوداً اصطلاحية، وما من عربي إلا وهو في حكم العرب كلهم باعتبار الفطرة اللغوية التي يرجع إليها أصل الوضع، لأن اللغة مفردات وضعها أفراد، وقد كانت لهم أشياء كأنها مظاهر الطبيعة المتسلطة عليهم بمعانيها المتناقضة، وصفاتها المتباينة، لبلوغها الغاية في مألوفهم من اللذة والألم، والمنفعة والمضرة، وهذه يراها كل عربي، ويحدث عنها ويصفها على ما يجد في نفسه من أثرها، وعلى ما يراه من صفاتها المختلفة، فلا جرم اختلفت الألفاظ الموضوعات لها بحسب ذلك.

ومن هذه الألفاظ ما يكون أسماء من وضع القبائل المتعددة، ثم تسمع كل قبيلة لغة الأخرى، فيأخذ بعضها عن بعض استطرافاً وتوسعاً في الكلام.

ومنها ما يكون صفات يتصرف في وضعها أفراد كل قبيلة، فلا تختص بالوضع الواحد، لما عِلِمَت من اختلاف السبب الحامل على اشتقاقها، ثم تنزل هذه الصفات منزلة الحقائق العرفية بعد أن تكون قد فشيت في الاستعمال، وتلتحق

---

(١) وهذا ليس من الترادف الذي نعينه هنا، لأن هذه عبارات، وحديثنا عن الكلمات المفردة.

ألفاظها بأصل اللغة، وهذا هو القسم الأكبر من المترادفات، كثرت عندهم أسماؤه وصفاته لما أشرنا إليه آنفاً<sup>(١)</sup>.

#### ٥- الأستاذ علي الجارم:

وقد عرض لقضية الترادف الأستاذ علي الجارم، فبعد أن نقل آراء العلماء الأقدمين، نراه يتخذ موقفاً وسطاً، فهو يذكر أن المنكرين للترادف والمثبتين له مبالغون، أما مبالغة المنكرين فتظهر في إنكارهم الترادف بين ألفاظ لا يسوغ إنكار الترادف فيها، وأما مبالغة المثبتين، فقد أتوا بألفاظ عدوها مترادفة وهي في واقع الأمر ليست كذلك، ومثل لذلك بكلمة كبح وكمح.

ونحن مع الأستاذ الجارم فيما أخذه على القائلين بالترادف، لأن الباء والميم يتعاقبان، ومن ذلك: لازم ولازب، ومكة وبكة وراكب وراكم، وبنه الأستاذ الجارم في نهاية بحثه إلى أن الواجب الأول على دارسي الترادف هو القيام ببحث دقيق لمعاني الكلمات التي يُظنّ أنها من الترادف، ويقيني بأننا إذا اتبعنا هذا المنهج بدقة وموضوعية، فإننا سنخلص إلى القول بعدم الترادف في جلّ كلمات اللغة إن لم يكن في كلماتها جميعها.

#### ٦- الدكتور إبراهيم أنيس:

ومن الذين عرضوا لهذه القضية الدكتور إبراهيم أنيس، فقد بدأ باستعراض آراء السابقين وخلص إلى القول بوجود الترادف، واستدل على ذلك بما روي عن النبي ﷺ أنه وقعت منه السكين فقال لأبي هريرة: ناولني السكين، عدة مرات فلم يجب، ثم قال له أبو هريرة، ألمدية تريد؟ فقال النبي ﷺ: نعم<sup>(٢)</sup>، وبما روي أن رجلاً من عرب الشمال ذهب إلى أحد ملوك من ملوك حِمير في اليمن، فكان الملك فوق

(١) تاريخ آداب العرب، ج ١، ص ١٩١-١٩٢.

(٢) انظر: صحيح البخاري، ٣٤٢٧. مسلم، ١٧٢٠.

السطح، فأطلع الرجل إليه، فقال له الملك: ثُبْ، أي: اقعد، فوثب الرجل من علٍ فتكسر، فقال الملك: ما بصاحبكم؟ فقالوا: إنه لا يعرف الحميرية.

وما مثل به الدكتور أنيس خارج عما نحن بصده، ولا بد من تحرير محل النزاع كما يقول علماء المناظرة، فحديثنا عن الترادف وجوده وعدمه في البيئة الواحدة، وليس في بيئات متعددة، وذلك كالشك والريب مثلاً، والقعود والجلوس، فهذه كلمات مستعملة في لغة قريش.

ويفرق الدكتور أنيس بين النظرة التاريخية والنظرة الوصفية في دراسة الترادف، فيقول: إن المنكرين للترادف قد نظروا إليه من الزاوية التاريخية، حيث إن الكلمات في القديم كانت لها معانٍ مختلفة ومن ثَمَّ لا ترادف بالمعنى الحقيقي، أما المثبتون فقد نظروا إليه من الناحية الوصفية الخاصة بفترة معينة، وفي هذه الفترة تلاشت هذه الفروق في المعاني بين الكلمات، وعليه فليس هناك ما يسمى الترادف.

ويذكر الدكتور أنيس أن بعض العرب أوردوا أمثلة من الترادف هي في الواقع وحقيقة الأمر ليست منه في شيء، ومثل لذلك بما نقلناه عن الأستاذ علي الجارم.

#### ٧- الدكتور رمضان عبد التواب:

ومن المحدثين الذين عرضوا لقضية الترادف كذلك، الدكتور رمضان عبد التواب في كتابه: «فصول في فقه اللغة» فلقد عقد فصلاً خاصاً بالترادف، ذكر فيه ما لافته هذه القضية من أقوال العلماء ما بين مقل ومكثر، ومقر ومنكر، كما تحدث عن أهم أسباب الترادف في اللغة، والتي نوجزها فيما يلي:

١ - تعدد أسماء الشيء الواحد في اللهجات المختلفة.

٢ - أن يكون للشيء الواحد في الأصل اسم، ثم يوصف بصفات باختلاف خصائص ذلك الشيء، وإذا بتلك الصفات تستخدم في يوم ما استخدام الشيء، وينسى ما فيها من الوصف أو يتناساه المتحدث باللغة.

٣- التطور اللغوي في اللفظة الواحدة.

٤- الاستعارة من اللغات الأجنبية.

وهذه الأسباب التي ذكرها الدكتور رمضان لا نشك في أنها من أقوى الحجج لأولئك الذين ينكرون الترادف بمعناه الدقيق بين الكلمات العربية، وبخاصة إذا كانت هذه الكلمات من لغة واحدة، ولقد أحسن الدكتور رمضان وهو ينقل عن الأئمة شروطاً إذا تحققت أمكن القول بالترادف وهي:

١- الاتفاق في المعنى بين الكلمتين اتفاقاً تاماً.

٢- الاتحاد في البيئة اللغوية.

٣- الاتحاد في العصر.

٤- ألا يكون أحد اللفظين نتيجة تطور صوتي آخر<sup>(١)</sup>.

وهيئات أن تتحقق هذه الشروط، وبقيننا أن تتحقق هذه الشروط صعب إن لم يكن متعسراً، ولا بد من ملحوظة أسجلها هنا على ما ذهب إليه الدكتور رمضان من أن القائلين بالترادف كانوا يتحمسون لهذا القول، ويدافعون عنه في بعض كتبهم على حين كانوا يتخلون عنه في كتب أخرى، ويضرب لذلك مثلاً بأبي هلال صاحب كتاب «الفروق» الذي أشرت إليه آنفاً، فبينما هو يشدد بحزم على عدم وجود الترادف في كتاب «الفروق» يعترف به في مكان آخر، يقول الدكتور: «وبما أن أبا هلال العسكري يبالغ في هذا الكتاب في منع الترادف، ويحاول جاهداً البحث عن الفروق بين الألفاظ المترادفة فإنه في كتابين آخرين له ينسى هذا المبدأ، ويذكر الألفاظ المترادفة بلا اعتراض عليها أو محاولة للتفريق بينهما»<sup>(٢)</sup>.

---

(١) فصول في فقه اللغة العربية، الدكتور رمضان عبدالتواب، أستاذ العلوم اللغوية بكلية الآداب، جامعة عين شمس، الطبعة الثانية، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ص ٣١٦، ٣١٨.

(٢) فصول في فقه اللغة العربية، ص ٣١٥، ذهب إلى هذا الرأي تبعاً للدكتور عبدالتواب صاحب (رواية اللغة)، الدكتور عبد الحميد الشلقاني، ص ٢٢٥.

والكتابان اللذان يقصدهما الكاتب، كتاب «التلخيص في معرفة أسماء الأشياء» وكتاب «المعجم في بقية الأشياء»، وما نظن الأمر كذلك.

إن أبا هلال بنى نظريته في إنكار الترادف على أسس تحدث عنها في كتاب الفروق، ودافع عنها بقوة، ولذا فإن ما ذكره في كتابيه اللذين استنتج منهما الكاتب نسياناً لنظريته أو عدوله عنها غير مسلم له، لأن طبيعة البحث في الكتابين المذكورين لا تتطلب ولا تستدعي أن يبين الفروق الدقيقة بين الكلمات، ولعل عنوان الكتابين شاهد على ذلك.

والذي نحاول أن نخلص إليه أن الذين أنكروا الترادف في العربية بعامية، والقرآن بخاصة، يقيمون من الأدلة ما يقنع العقل، نحن على يقين من أن وجود الترادف في كتاب الله تعالى أمر غير منسجم مع قدسية القرآن وأحكامه وروعة بيانه، ودقة معانيه، وما رُوي عن الماضي من أنه سمع أبا سوار الغنوي يقرأ (وإذ قتلتم نسمة فاداراتم فيها) فقال له الماضي: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ [البقرة: ٧٢] فقال الغنوي: «النسمة والنفس سواء»<sup>(١)</sup> أمر غير مقبول، ذلك لأنه لا يجوز لأحد أن يغير في ألفاظ القرآن، كما يحلو له، ولا يقبل ذلك من مؤمن فضلاً عن أن يكون عارفاً بكلام العرب، ونحن ندرك ما بين النفس والنسمة من بون.

#### ٨- الدكتورة عائشة عبدالرحمن:

أما الدكتورة بنت الشاطي فبعد أن نقلت آراء الأقدمين واختلافهم في هذه القضية تقول: «وظلت القضية فيما أعلم معلقة، لم يستقر فيها أصحاب العربية على رأي، حتى بعد أن اتصلت دراساتنا اللغوية الحديثة بجديد البحوث في علوم اللغة والصوت والاجتماع.

---

(١) ص ٣١٦. وأمالى القالي، طبعة القاهرة، ١٩٥٤، ٧٦/٢. وعنها في المزمهر، ٤١٣/١. وكذلك الأضداد لابن الأنباري، ص ٧. والمزمهر، ٣٩٩/١.

وإن كان مذهب القول بالترادف هو الذي غلب وراجَّ في العصور المتأخرة، ويقول به اليوم عدد من أصحاب التخصص في فقه اللغة وعلم الاجتماع اللغوي أذكر منهم: الدكتور علي عبدالواحد الذي نشر في مجلة الثقافة سنة ١٩٦٣ مقالاً في مزايا لغتنا العربية، التي انفردت بشرف نزول الوحي بها، فكان مما عدد من مزاياها أنها تستطيع لثرائها أن تؤدي المعنى الواحد بعشرات الألفاظ.

والأستاذ الدكتور إبراهيم أنيس، قطع في كتابه «دلالات الألفاظ» بوجود الترادف في العربية، فلم يلمح فرقاً أي فرق، بين أن تقول مثلاً: «لم يسمع وفي أذنيه صمم، وفي أذنيه وقر»، وذكر الآية الكريمة شاهداً: ﴿وَإِذَا نُتِلَّى عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ وَقْرًا ۚ﴾ [لقمان: ١٧].<sup>(١)</sup>

وإلى عهد قريب كانت قضية الترادف من بين ما شغلَّ به المجمع اللغوي في القاهرة، وقد اقترح أحد السادة الأعضاء، أن نتخفف من ثقل المترادفات فنصنف

---

(١) والحق أن هناك فرقاً كبيراً بين قولنا: «لم يسمع» وبين ﴿فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ وفي كتاب الله تعالى آيتان ذكرت إحداهما، الجملتان معاً ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ [لقمان: ٧] واكتفت الثانية بذكر الجملة الأولى ﴿يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ نُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ [الجاثية: ٨]، صحيح أن الجملة الثانية جاءت تأكيداً للأولى، لأنه لم يأت بينهما حرف العطف، وهي مما استشهد به الشيخ عبدالقاهر في موضوع الفصل والوصل، ولكن ليس معنى التأكيد الخلو من معنى جديد، فقد يكون عدم السماع لأكثر من علة، أما الوقر في الأذنين، فهو تنصيص على علة معينة، لذا فنحن لسنا مع القول بترادف العبارتين ونستدل لذلك بسباق كل من الآيتين الكريمتين، فسياق آية لقمان كان حديثاً عن الذي يشترى هو الحديث ليضل الناس، فجريمته مزدوجة ضلال وإضلال، لكن آية الجاثية جاءت في شأن الذي يسمع الآيات ويعرض عنها، فضرره مقتصر على نفسه، وهذه من أسرار الكتاب الخالد، وحكمته البيانية والاجتماعية.

معجماً لألفاظ العربية، يستبعد في المعنى الواحد ما زاد على لفظ واحد يختاره المجمعون من حشد الألفاظ المترادفة<sup>(١)</sup>.

وهي تحسن صنعاً، وتصيب كبد الحقيقة، إذ تبين أن القرآن الكريم ينبغي أن يكون لنا المرجع في ذلك ليحسم لنا الخلاف في هذه القضية التي كثر فهي الخلاف وطال.

ومن خلال تجوالنا يظهر لنا أن أقوى ما يستند إليه القائلون بالترادف أمران اثنان: وجود لغات مختلفة في الكلمة الواحدة، كان تضع إحدى القبائل لفظة (سكين) والأخرى: لفظة (مدية)، وهذا ما يروى عن أبي هريرة: حينما قدم إلى النبي ﷺ مسلماً، وقال له النبي ﷺ: «أعطني السكين فلم يعرف ما السكين»<sup>(٢)</sup>.

والأمر الثاني: أن العرب وضعوا للمعنى الواحد لفظين وأكثر، ليدلوا على اتساع في لغتهم.

أما الحجة الأولى: فنحن لا ننازع فيها أحداً أبداً، وهذا ما يشهد به الواقع، فنحن نرى اليوم مسميات كثيرة لشيء واحد، اختلفت باختلاف الأقطار حتى باختلاف البلاد من قطر واحد، لكن الذي ننازع فيه هو الأمر الثاني.

وعلى كل حال فإن كتاب الله تعالى هو الفيصل في ذلك، والمتدبر للألفاظ القرآنية لا يسعه إلا أن ينكر القول بالترادف، فالشك والريب: كلمتان مستعملتان في كتاب الله تعالى، ولا نستطيع أن نجزم بأنهما من لغتين اثنتين، ومع ذلك فنحن ننكر أن تكونا قد وضعتا للدلالة على اتساع العربية، إنما لكل كلمة مدلولها الخاص بها.

---

(١) الدكتور عائشة عبدالرحمن (بنت الشاطي)، أستاذة الدراسات القرآنية بدار الحديث وكلية الشريعة، جامعة القرويين، المغرب، الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، دار المعارف، مصر، ص ١٩٧-١٩٨.

(٢) انظر: صحيح البخاري، ٣٤٢٧. مسلم، ١٧٢٠.

وتعجبني كلمة ابن الأعرابي: «كل حرفين أوقعتهما العرب على معنى واحد في كل واحدٍ منهما معنى ليس في صاحبه، ربما عرفناه فأخبرنا به، وربما غمض علينا فلم نلزم العرب جهله»<sup>(١)</sup>.

ومن الحق أن أقرر هنا أن إثارة قضية الترادف بين العلماء كان لها حظ وافر في شأن الإعجاز القرآني، فلقد كان تحديد مدلول الكلمات من أعظم روافد الإعجاز، وذلك يظهر في دقة الفروق بين الكلمات، وكيف أن كل كلمة إنما استعملت في مكانها الخاص بها، نلاحظ ذلك في حديث العلماء عن الفروق بين هَلُمَّ وتعال، والخشية والخوف، والقعود والجلوس، والعمل والفعل، والزوج والمرأة، والفرض والكتب، والقرآن والكتاب، وغير ذلك كثير مما عدّ من المترادفات: وهي من أولى وأول ما يجب أن توجه إليه جهود العلماء لإعطاء معاني خاصة تنسجم مع السياقات القرآنية.

وهكذا نجد أن البحث في مدلول الألفاظ، كان المرجع فيه القرآن الكريم، وكانت الغاية منه القرآن الكريم كذلك، وهي بحق أبحاث غنية ثرية، كانت ذات أثر في كثير من الموضوعات العلمية كالفقه والأصول، والأدبية كالنقد والبلاغة، وكان لذلك كله آثار طيبة في محاولة الفهم الدقيق لكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ.

ومن المفيد أن نتساءل في نهاية هذا المبحث، أي نوعي المشترك كان له الأثر الأكبر في إثراء الدراسات القرآنية بعامة، ودراسات الإعجاز بخاصة، ومع يقيننا في أن كلا من النوعين أسهم في هذه الدراسات، فإننا نرى أن المشترك المعنوي - الترادف - كان له النصيب الأوفر في هذه الدراسات، ذلك لأن تحديد المعاني الدقيقة للكلمات التي يظن أنها مترادفة أبرز لنا كثيراً من مكنونات الموضوعات القرآنية.

---

(١) فصول في فقه اللغة، ص ٣١٣.



والتأمل لكتاب الله تعالى يجد من ذلك ما يجتلب الأذهان، ويختلب الأذان، فكلمتا الشك والريب استعملت كل منهما في مواضع، ونحن إذا أنعمنا النظر في الآيات التي استعملت فيها كل من الشك والريب نجد أن كلاهما لا تصلح مكان الأخرى، فقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢] لا تصلح فيه كلمة الشك، وقوله تعالى: ﴿إِن كُنْتَ فِي شكٍ مِمَّا أُنزِلْنَا إِلَيْكَ﴾ [يونس: ٩٤] لا تصلح فيه كلمة الريب، ذلك لأن الشك تردد النفس بين أمرين، أما الريب، فإن فيه زيادة على هذا التردد فهو تردد مع ريبة وتهمة.

كذلك كلمة العمل والفعل، والخوف والخشية، والكتاب القرآن، وغير ذلك وهو كثير ما عد مترادفاً، تدلنا النظرة الفاحصة الواعية على أن كل كلمة إنما جاءت مستقرة في مكانها.

ويطول بنا المقام إذا أردنا أن نبين هذه المواضع جميعها، لذلك كان لهذا النوع أثره في الدراسات القرآنية.

أما المشترك اللفظي فغالباً ما يكون مع الكلمة قرينة تبين المراد منها أو ترجح هذا المراد، ولقد ذكرنا من قبل كلمة مُسَحَّرٌ، وعرفنا أن لها معنيين، ووجدنا أن هناك مرجحات تاريخية وبلاغية لبيان المعنى المراد من كل منهما.

خلاصة القول: موضوع المشترك في الدراسات اللغوية كان للكلمات القرآنية الأثر في توجيهه، بل في تطور هذه الدراسات اللغوية كذلك.

وحرّى بالدارس لكتاب الله تعالى أن تكون له هذه النظرة ذات الدقة والشمول حتى لا يطغى بعض المعاني على بعض، ولا تخرج الكلمة من حيزها الذي ينبغي لها ألا تتعداه. وهذا ما سنحدثك عنه حديثاً ميدانياً بعد المبحث الثالث إن شاء الله.

## المبحث الثالث

### اللفظة من حيث الصيغة

كان النوع من هذه الدراسات متزامناً كذلك مع ما ذكرناه من قبل، وهذا إن دل على شيء فإنما يدلنا على قضية حرية بالتقدير، جديرة بالتسجيل، وهي أن أئمتنا اللغويين لم يكونوا من ذوي النظرة الضيقة في مباحثهم، وإنما كانت نظرتهم شمولية وهم يقفون أمام ما يبحثون، فلم يشغلهم البحث في غرابة اللفظة، أو كونها نادرة عن مدلول اللفظة غريبة كانت أم غير غريبة، نادرة كانت أم غير نادرة، ولم يكن هذا أو ذاك يشغلاهم عن الصيغ المتعددة للفظ الواحد، فقد تكون للأسماء صيغ كثيرة، كالمصدر والصفة والتفضيل، وكذلك الأفعال، فهل مدلول هذه الصيغ واحدة؟ لقد ذكر العلماء مثل هذا.

فهذا أبو عبيدة في مجاز القرآن يحدثنا عن بعض هذه الصيغ فيقول عند قوله سبحانه: ﴿فَأَمْطَرَ عَلَيْهِمْ جُحَاشًا مِنْ السَّمَاءِ﴾ [الأنفال: ٣٢]: مجازة: أن كل شيء من العذاب فهو (أمطرت) بالألف، وإن كان من الرحمة فهو (مَطَرَت) <sup>(١)</sup>. فهو يفرق إذن بين صيغتي (فَعِلَ) و(أَفْعِلَ).

ثم رأينا فيما بعد كتباً تؤلف في صيغتي (فَعَلْتُ) و(أَفْعَلْتُ) هل هما شيء واحد؟ وكثيرون الذين كتبوا في هاتين الصيغتين منهم: الأصمعي، وأبو زيد وأبو حاتم السجستاني.

ولقد كان الخلاف بين العلماء في هاتين الصيغتين ينمُّ عن معرفة بلغات العرب، أو عن التزام بما جاء في كتاب الله تعالى، يدلُّنا على ذلك ما كان بين الأصمعي وأبي زيد من خلاف في هاتين الصيغتين.

(١) مجاز القرآن، ج ١، ص ٢٤٥.

فهذه مادة الكاف والنون تأتي منها صيغتان للماضي (كَنَّ) و(أَكَنَّ)، فكان الأصمعي يرى أن لكل من هاتين الصيغتين معنى يختلف عن الأخرى.

فصيغة (كَنَّ) بدون همزة تدل على الحفظ والصون، أما صيغة (أَكَنَّ) فتدل على الإخفاء والستر.

لكن أبا زيد -وهو معاصر الأصمعي ونذّه- كان يرى أنها تأتيان لمعنى واحد، كل ما في الأمر أن إحداهما: لغة الحجاز، والأخرى: لغة نجد.

أما الأصمعي فكانت حجته مستمدة من كتاب الله تعالى، فلقد جاء في التنزيل في سورة الواقعة: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ۖ كَأَمْثَلِ اللَّوْلُوفِ الْمَكْنُونِ ۖ﴾ [الواقعة: ٢٢-٢٣]، ومعناه: المصون، ومكنون: اسم مفعول للفعل الثلاثي (كَنَّ). أما الصيغة الثانية: فقد جاءت في قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٥]. ولا شك أن معناه: أخفيتم.

وقريب من هذا ما ذكروه في صيغة (فَعَّلَ) و(أَفَعَّلَ) مستدلين لذلك بما جاء في كتاب الله تعالى من فعلي (نَزَّلَ) و(أَنْزَلَ) فقالوا: إن (أَنْزَلَ) إنما تُستعمل لما نزل جملة واحدة، وأما (نَزَّلَ) فإنما تستعمل لما كان متفرقاً، واستدلوا لهذا بمثل قوله تعالى: ﴿الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ [آل عمران: ١-٣].

ومن هذا القبيل كذلك اختلاف صيغ المبالغة حيث تُعطي كل صيغة معنى خاصاً بها. قال أبو هلال العسكري:

«وقال المحققون من أهل العربية: لا يجوز أن تختلف الحركتان في الكلمتين ومعناهما واحد، قالوا: فإذا كان الرجل عدةً للشيء، قيل فيه (مِفْعَل) مثل: مِرْحَمٍ ومِحْرَبٍ. وإذا كان قوياً على الفعل قيل: فَعُولٌ، مثل: صَبُورٍ وشكُورٍ، وإذا فَعَلَ الفِعْلَ وقتاً بعد وقت، قيل: فَعَّالٌ مثل: عَلَّامٌ وصَبَّارٌ، وإذا كان ذلك عادةً له قيل: مِفْعَالٌ مثل: مِعْوَانٍ ومِعْطَاءٍ ومِهْدَاءٍ. ومن لا يتحقق المعاني يظن أن ذلك كله يفيد

المبالغة فقط، وليس الأمر كذلك بل هي مع إفادتها المبالغة تفيد المعاني التي ذكرناها<sup>(١)</sup>.

واختلاف صيغ المصادر، فلقد أوصل سيبويه<sup>(٢)</sup> صيغ هذه المصادر إلى نيّف وثلاثين، وكذلك ربما يكون للفعل أكثر من مصدر، لكن كل مصدر يُستعمل في وضع خاص، وشأن خاص.

ومن هذه النوع: اختلاف القراءات في كلمة واحدة مثل قوله سبحانه: ﴿وَلِنَّا لَجَمِيعٌ حَذِرُونَ﴾ [الشعراء: ٥٦]، وفي قراءة (حَذِرُونَ). فالحذر: المتيقظ، والحاذر: القوي في السلاح، والذي يُجَدِّد حِذْرَه. ومن له إلمام بالقراءات فسيُمتّع نفسه بكثير من هذا.

ولقد ألّف كتب كثيرة لهذه الصيغ، فللأخفش<sup>(٣)</sup> والأصمعي كتاب في (الاشتقاق)، ولأبي حاتم (اشتقاق الأسماء) ولهذين الأخيرين كتاب في (المذكر والمؤنث)، وللنضر بن شُمَيْل<sup>(٤)</sup> كتاب (المصادر).

---

(١) الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري، ص ١٣.

(٢) عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، أبو بشر الملقب: سيبويه (١٤٨-١٨٠هـ / ٧٦٥-٧٩٦) إمام النحاة، وأول من بسط علم النحو، وُلِدَ في إحدى قرى شيراز، وقدم البصرة، فلزم الخليل بن أحمد ففاقه، وصنف كتاباً كثيرة، رحل إلى بغداد وناظر الكسائي، وأجازته الرشيد بعشرة آلاف درهم، وغادر إلى الأهواز، وتوفي بها، وقيل: توفي بشيراز. «الأعلام»، ٨١ / ٥.

(٣) سعيد بن مسعدة المجاشعي بالولاء، البلخي، ثم البصري، أبو الحسن، المعروف بالأخفش الأوسط (ت ٢١٥هـ / ٨٣٠م) نحوي، عالم باللغة والأدب، من أهل بلخ، سكن البصرة، وأخذ العربية عن سيبويه، وصنف كتباً كثيرة. «الأعلام»، ١٠٢ / ٣.

(٤) النضر بن شُمَيْل بن خرشة بن يزيد المازني، التميمي، أبو الحسن، (١٢٢-٢٠٣هـ / ٧٤٠-٨١٩م) أحد الأعلام بمعرفة أيام العرب ورواية الحديث، وفقه اللغة. وُلِدَ بمرو، وانتقل إلى البصرة مع ابنه، وأصله منها فأقام بها زمناً، وعاد إلى مرو، فولي قضاءها، واتصل بالمأمون العباسي فأكرمه وقرّبه. «الأعلام»، ٨ / ٣٣.

وهكذا نجد أن دراسة الصيغ قد استوعبها العلماء استيعاباً تاماً، وفي علمي الصرف والاشتقاق خير دليل على ذلك.

ولا يظن أحد أن جهود اللغويين كانت منحصرة فيما ذكرناه، وأشرنا إليه من قبل، فالذي ذكرناه كان خاصاً باللفظة المفردة. ولعلماء اللغة جهود لا تقف عند اللفظة القرآنية، بل تتعداها إلى التراكيب والجمل، كبحوثهم، وكتبهم في معاني القرآن وما يتفرع عنها من إعراب، وهي كتب كثيرة تجلُّ على الحصر<sup>(١)</sup>.

ولقد لاحظنا مما سبق أن هذه المباحث كان جلُّ ما تسعى إليه صحَّة الكلمة من حيث المعنى والاستعمال والصيغة، ولا يعينها بعد ذلك شيء آخر.

فهذا الفراء في (معاني القرآن) يقول في تفسيره قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ [الانشقاق: ٢٣]، الإيعاء: ما يجمعون في صدورهم من التكذيب والإثم. والوعي لو قيل: والله أعلم بما يُعُونَ، لكان صواباً، ولكنه لا يستقيم في القراءة<sup>(٢)</sup>.

---

(١) فمنها: معاني القرآن للفراء والأخفش والزجاج، ولابن درستويه كتاب توسط فيه بين الفراء والأخفش.

الفراء: هو يحيى بن زياد بن عبدالله بن منظور الديلمي، مولى بني أسد، أو بني منقر، أبو زكريا المعروف بالفراء (١٤٤-٢٠٧هـ / ٧٦١-٨٢٢م) إمام الكوفيين وأعلمهم بالنحو واللغة والأدب، كان يقال: الفراء أمير المؤمنين في النحو. وُلد بالكوفة وانتقل إلى بغداد، توفي في طريق مكة، وكان فقيهاً متكلماً عالمياً بأيام العرب وأخبارها. الأعلام، ٨/ ١٤٥.

الزجاج: إبراهيم بن السري بن سهل أبو إسحاق الزجاج (٢٤١-٣١٨هـ / ٨٥٥-٩٢٣م) عالم بالنحو واللغة، وُلد ومات في بغداد. كان في فتوته يخرط الزجاج، ومال إلى النحو فعلمه المبرد، أدب ابن وزير المعتضد العباسي، وكانت للزجاج مناقشات مع ثعلب. وله تصانيف كثيرة. الأعلام، ١/ ٤٠.

ابن درستويه: عبدالله بن جعفر بن محمد بن درستويه ابن المرزيان، أبو محمد، (٢٥٨-٣٤٧/ ٨٧١-٩٥٨م) من علماء اللغة، فارسي الأصل، اشتهر وتوفي ببغداد، وله تصانيف كثيرة، منها تصحيح الفصح، ونقض كتاب العين. الأعلام، ٤/ ٧٦.

(٢) معاني القرآن للفراء، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثانية سنة ١٩٨٠، ج ٣، ص ٢٥٢. لسان العرب، ١٥/ ٣٩٦، مادة (وعي). الدر المنصون للسمين الحلبي، ١٠/ ٧٤١.

المانع من مجيء كلمة (يَعُون) عند الفراء مع صحتها لغةً، عدم استقامة القراءة، ويعني بها عدم انسجام الفاصلة مع ما قبلها وما بعدها، فإن ما قبلها، (يؤمنون) (يسجدون) وبعدها (يكذبون)، وكلمة (يَعُون) -بياء مفتوحة وعين مضمومة- لا تنسجم مع هذه الفواصل، لأنها أقل منها حروفاً.

وما ذكره الفراء نخالفه فيه، فكم من فاصلتين جاءت إحداهما أطول من الأخرى، وأذكر على سبيل المثال: ﴿وَقَفُّهُمْ إِنَّمَا مَسْئُولُونَ﴾ (٢٤) مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ [الصفحات: ٢٤-٢٦]، مع أن الكلمة التي ذكرها الفراء، وهي كلمة (تَعُون) إحدى القراءات الشاذة<sup>(١)</sup>.

نحن لا نوافق الفراء إذن، وإنما نرى أن كلمة (يوعون) لم تأت من أجل الجرس فقط، إنما مع الجرس شيء آخر، وهو دقة المعنى الذي يتفق مع السياق، فالسياق هنا سياق إيعاء (أي: جمع) وليس سياق (الوعي)، وهذا ما يلحظه علماء البيان في بحوثهم. وهذا ما سنخصص له بحثاً خاصاً نتحدث فيه عن جهود علماء البيان قديماً وحديثاً.

سائلين الله تعالى أن يهدينا سواء السبيل، وهو حسبنا ونعَم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

(١) البحر المحيط لأبي حيان، ٣٣٦/٨، طبعة دار الفكر. الدر المصون للسمين الحلبي، ٧٤١/١٠. وقراءة الجمهور ﴿يُوعُونَ﴾ من أوعى يُوعى، وقرأ أبو رجاء (يَعُون) من وعى يَعى، وهي قراءة شاذة.



## الفصل الثالث

### بلاغة الكلمة في كتاب الله تعالى

بعد أن حدثناك عن الكلمة القرآنية، وعناية العلماء بها، وبعد أن حدثناك من رأي العلماء بالترادف، نحدثك عن الكلمة القرآنية حديثاً ميدانياً عملياً، تدرك فيه الدقة والموضوعية والإحكام، وعدم الترادف بين كلمتين من كلمات القرآن. وقد قسمته إلى مبحثين.



## المبحث الأول

### كلمات يظن أنها مترادفة

#### ١ - الخوف والخشية:

لا يكاد اللغوي يفرق بينهما، ولا شك أن الخشية أعلى منه، وهي أشد من الخوف، فإنها مأخوذة من قولهم: شجرة خشية، أي: يابسة، وهو فوات بالكلية، أي لا فائدة فيها.

والخوف من قولهم: ناقة خُوفاء، أي: بها داء، وهو نقص، وليست بفوات.

ولذلك خُصَّت الخشية بالله تعالى في قوله: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٢١] وفرق بينهما أيضاً: بأن الخشية تكون من عِظَمِ الْمُخْتَشَى، وإن كان الخاشي قوياً، والخوف يكون من ضعف الخائف وإن كان المَخُوف أمراً يسيراً.

ويدل لذلك أن (الخاء، والشين، والياء) في تقاليبها تدل على العظمة نحو: شيخ: للسيد الكبير، وخيش: لما غُلِظَ من اللباس.

ولذا وردت الخشية غالباً في حق الله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤]، ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

وأما ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠] ففيه نكتة لطيفة، لأنه وصف الملائكة، ولما ذكر قوتهم وشدة خَلْقِهِمْ عَبرَ عَنْهُمْ بالخوف؛ لبيان أنهم وإن كانوا غلاظاً شداداً فهم بين يديه تعالى ضعفاء، ثم أردفه بالفوقية الدالة على العظمة، فجمع بين الأمرين، ولما كان ضعف البشر معلوماً لم يحتج إلى التنبيه عليه<sup>(١)</sup>.

---

(١) جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م)، معترك الأقران في إعجاز القرآن، تحقيق: علي محمد البجاوي، ملتزم الطبع والنشر، دار الفكر العربي، ج ٣، ص ٦٠٢. =

وهذا الوجه الأخير هو الذي اقتصر عليه الراغب الأصفهاني حيث قال: «الخشية: خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بها يخشى منه». ولكن السيد رشيد رضا رحمته الله لم يرتض ما ذكره الراغب، قال رحمه الله: «إن القيد الذي ذكره الراغب لا يظهر في كل الشواهد التي وردت من هذا الحرف في القرآن وكلام العرب». وبعد أن استشهد على ذلك بشيء من أقوال العرب قال: «فإن كان بين الخوف والخشية فرق فالأقرب عندي أن تكون الخشية هي الخوف في محل الأمل، ومن دقق النظر في الآيات التي ورد فيها حرف الخشية يجد هذا المعنى فيها، ولعل أصل الخشية مادة: خَشَتِ النخلة تخشوا، إذا جاء ثمرها دقلاً (رديناً) وهي مما يرجى منها الجيد».

وإذا تتبعنا الآيات القرآنية الكريمة، ندرك الفروق سواء ما ذكره الراغب، أم غيره، فلا ضير أن يكون هناك أكثر من فرق بين الكلمتين، فقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] يشهد لما قاله صاحب المنار، من أن الخشية خوف في محل الأمل، ومن أحق من العلماء بهذا الخوف وبذلك الأمل، ولا يتنافى مع ما قاله الراغب، من أن الخشية: خوف يشوبه التعظيم. والعلماء حقيقون بهذا التعظيم، حريصون عليه.

كذلك قوله سبحانه: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ [البقرة: ١٥٠]، وقوله: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ [المائدة: ٣]، ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَأَلَّهْ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٣].

= والبرهان في علوم القرآن، الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، ٧٩٤هـ / ١٣٩١م، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة الأولى، ١٣٧٨هـ ١٩٥٩م ج ٤، ص ٧٨.

هذه الآيات جميعها ينسجم مفهوم الخشية فيها، مع ما ذكر من قبل، من أن الخشية ليست خوفاً فحسب، فقد يتحقق الخوف دون الخشية، ولنقرأ هذه الآيات الكريمة، نجد فيها خير بيان، وأوضح دليل، على الفروق بين هاتين الكلمتين.

قال تعالى يصف المنافقين: ﴿ أَشْحَهَ عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْتَنى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالسِّتَةِ حِدَادٍ ﴾ [الاحزاب: ١٩]، وقال تعالى: ﴿ أَفَى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [النور: ٥٠]، وفي سورة الروم المكية: ﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْتَكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ [الروم: ٢٨]، فهذه الآيات تتحدث عن خوف نتيجة الضعف، والخوف كما قلنا من قبل ناشئ عن ضعف الخائف، بينما الخشية ناشئة عن عظم المُخْشَى، ولعل ما يوضح لنا هذا الأمر توضيحاً تاماً، حديث القرآن عن الشيطان الرجيم، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفُتَاتِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٨﴾ ﴾ [الأنفال: ٤٨]، وفي آية أخرى: ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [الحشر: ١٦]. فهذا خوف لا يشوبه أمل أبداً، وهكذا نجد الآيات الكريمة، تارة تكون الخشية فيها خوفاً في محل الأمل، وتارة تكون خوفاً يشوبه التعظيم، إلا أنها جميعاً يلمح فيها عظم المُخْشَى منه.

أما قوله سبحانه: ﴿ إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يَخَوْفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾ [آل عمران: ١٧٥] فلا ينافي ما قلناه؛ لأن معنى الآية الكريمة:

الشيطان يخوفكم أوليائه، وهذا الخوف لا يمكن أن يكون ناتجاً عن تعظيم لأولياء الشيطان، وإنما سببه الضعف، بخاصة إذا عرفنا أن الآية نزلت بعد غزوة أحد،

وهكذا قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ فهي للمؤمنين عن أن يضعفوا أمام أولياء الشيطان، وليكن هذا الشعور بالضعف من قوة الله وحده، ولا نستطيع أن نسترسل لتحدث عن كل ما جاء في هذين الموضوعين، ونرجو أن يكون فيما ذكرنا الغنية والكفاية.

وإذا كنا قد تحدثنا عن: الخوف والخشية في كتاب الله تعالى، فيجمل بنا أن نذكر بعض الألفاظ التي تشبه هاتين الكلمتين، والتي كثيراً ما تفسر بمعنى واحد.

فمن ذلك كلمة (الإشفاق) والكثيرون يفسرونها: بالخوف، ولكننا حينما ننعم النظر في آي القرآن الكريم نجد بوناً بينهما شاسعاً.

فهذه الكلمة: (الإشفاق): تكاد تقتصر استعمالها على عباد الله تبارك وتعالى، ملائكة وغير ملائكة، ﴿وَهُمْ مِنْ خَشِيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ (٢٨) ﴿[الأنبياء: ٢٨]، وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ [الشورى: ١٨]، أي: الساعة.

ومن هنا كان الإشفاق عناية مشوبة بخوف، وقد يغلب جانب هذا أو ذاك - أعني العناية أو الخوف - حسبما يقتضيه السياق ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ (١٦) ﴿[الطور: ٢٦] يغلب فيه جانب العناية، ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِّ جُبُونَكُمْ صَدَقْتُمْ﴾ [المجادلة: ١٣]، يغلب فيه جانب الخوف<sup>(١)</sup>.

وما أجمال ما قاله ابن فارس من أن: (الشين، والفاء، والقاف) أصل واحد يدل على رِقَّة في الشيء، ثم يشتق منه، فمن ذلك قولهم: أشفقت من الأمر، إذا رَقَقْتَ وحاذرت<sup>(٢)</sup>.

---

(١) الراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ / ١١٠٨م) المفردات في غريب القرآن، تحقيق: محمد سيد كيلاني، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، طبعة ١٣٨١هـ / ١٩٦١م، ص ٢٦٤.

(٢) أحمد بن فارس بن زكريا (ت ٣٩٥هـ / ١٠٠٤م)، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، طبعة دار إحياء الكتب العربية، طبعة أولى، ج ٣، ص ١٩٧.

ومن ذلك كلمة: (وجل)، فهذه الكلمة التي تفسر بالخوف، كذلك نجدتها في كتاب الله تعالى تستعمل في سياق أخص من الخوف، فالوجل: هو استشعار الخوف. وهو حالة نفسية تعرض للنفس عند بداية شيء ما.

وحينما ننعم النظر فيما يشبه هذه المادة، بخاصة في حرفيها الأولين، ندرك دقة المعنى للكلمة من جهة، وما بين الكلمات العربية من وشائج القربى، وذلك مثل كلمات وجس: وهي الإحساس بالشيء، ووجد، ووجف. فالوجل: أحد مقدمات الخوف قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنفال: ٢].

والقرآن الكريم وهو يأسرنا بروعة بيانه - وإن من البيان لسحراً - وهو يحدثنا عن قصة إبراهيم عليه السلام يذكر: الوجل تارة، والخوف تارة أخرى. وإجالة للفكر بعض الشيء، نجد أن كلاً من الكلمتين استعملت في مكانها اللائق بها الذي لا يصلح فيه غيرها، إليك ذلك:

ففي سورة الحجر ﴿ وَنَبِّئُهُمْ عَنْ صَيفِ إِبْرَاهِيمَ ٥١ ﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَمًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ٥٢ ﴿ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَالِمٍ ٥٣ ﴾ [الحجر: ٥١-٥٣]، وفي سورة الذاريات: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثَ صَيفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِ ٢٤ ﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَمًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ٢٥ ﴿ فَرَأَى إِلَيْكَ أَهْلِيهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ٢٦ ﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ٢٧ ﴿ فَأَوْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَالِمٍ ٢٨ ﴾

[الذاريات: ٢٤-٢٨].

لفظة (الوجل) كما رأينا ذكرت عند دخولهم وتسليمهم عليه، ولكن لفظة (الإيجاس) بالخوف جاءت في السياق القرآني بعد ذلك كله حينما امتنعوا عن الأكل. وهكذا نجد أن كلاً من الوجل والخشية والإشفاق، لا يمكن أن تفسر بالخوف، بل لكل منها مكانها الخاص بها الذي لا ينبغي أن تتخطاه، واستعمالها الذي ينبى عن الدقة والموضوعية.

٢- ومن الكلمات القرآنية التي يظن أنها بمعنى واحد هاتان الكلمتان: جاء وأتى.

فالكلمة الأولى: تسند غالباً إلى الجواهر والأعيان، بينما تسند الكلمة الثانية: إلى المعاني والأزمان.

والمستبع للآيات القرآنية يجد ذلك واضحاً كل الوضوح، قال تعالى: ﴿وَلَمَن جَاءَهُ يَوْمَ يُجْزَىٰ جُزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [يوسف: ٧٢]، أي: بصواع الملك ﴿وَجَاءَهُ عَلَىٰ قَيْصِيَّةٍ يَدُهُ كَدِبٌ﴾ [يوسف: ١٨]، ﴿وَجَاءَهُ يَوْمَ يُنْفَخُ الْأَشْجَارُ﴾ [الفجر: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿أَفَأَمَرَ اللَّهُ فَلَا تَسْتَعِجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]، ﴿أَتَمَّهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ [يونس: ٢٤].

وقد اجتمعت الكلمتان في قوله تعالى في سياق قصة لوط عليه السلام ﴿قَالُوا بَلْ جِئْتَنَا بِمَآ كَانُوا يَجْعَلُونَ فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ (١٣) ﴿وَأَتَيْنَكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ﴾ (١٤) [الحجر: ٦٣-٦٤]، فالذي جاؤوا به العذاب، وهو أمر مشاهد، والذي أتى به الحق. وقد ذهب الراغب إلى أن الإتيان إنما هو: المجيء بسهولة، فهو أخص من مطلق المجيء، ومنه قيل: للسليل المار على وجهه: أتى وأتاوي<sup>(١)</sup>.

أما قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾ [هود: ٦٦]، وقوله سبحانه: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (٢١) [الأعراف: ٣٤].

فإن المتحدث عنه في الآية الأولى هو: العذاب. وفي الآية الثانية هو: الموت وكأنه أمر مشاهد، ولذا يعبر القرآن الكريم عنهم بالحضور<sup>(٢)</sup>.

(١) الراغب، المفردات، ص ٨.

(٢) البرهان في علوم القرآن للزركشي، ج ٤، ص ٨٠.

٣- وهناك كلمتان في كتاب الله تعالى هما بحق مظهر من مظاهر إعجازه، وأعني بهما: الفعل والعمل. ويظهر أن الفرق بينهما من جهتين اثنتين:

أما أولاً: فإن لفظ (عمل) يستعمل لما يمتد زمانه.

وأما لفظه (الفعل) فعلى العكس من ذلك، فهو لما يكون دفعة واحدة.

والاستعمال القرآني يؤيد هذا الفرق. والآيات الكريمة تشهد له خير شهادة قال تعالى: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ﴾ [سبا: ١٣]، ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا﴾ [التوبة: ١٠٥].

أما استعمال مادة الفعل، فليس لها زمان مستمر، وإنما تحدث دفعة واحدة، ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ [الفجر: ٦]، ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ [الفيل: ١]، ﴿وَفَعَلْتَ فَعَلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ﴾ [الشعراء: ١٨].

وهذا الفرق هو الذي اقتصر عليه السيوطي رحمه الله<sup>(١)</sup>.

وهناك فرق آخر لا يقل عنه دقة وروعة. وهو ما ذكره الراغب رحمه الله حيث قال: «العمل: كل فعل يكون من الحيوان بقصد، فهو أخص من الفعل، لأن الفعل قد ينسب إلى الحيوانات التي يقع منها فعل بغير قصد، وقد ينسب إلى الجمادات»<sup>(٢)</sup>. ولم يذكر الراغب رحمه الله من الآيات ما يعدّ تطبيقاً لهذا الفرق، وهو ما سنذكره بعون الله.

فالتأمل في الذكر الحكيم يجد ما يطمئن به قلبه، وتطيب به نفسه، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْخَرُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَفَتْ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور: ٤١]. وقال تعالى: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾

(١) الإتيان للسيوطي، ٣٦٦/٢.

(٢) الراغب، المفردات، ص ٣٤٨.

[الأنبياء: ٦٣]، وقال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَتِيبِينَ ﴿١١﴾ يَعْمَلُونَ مَا تَقَعْلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الأنفطار: ١٠-١٢].

أما الآية الأولى والثانية: فأمرهما ظاهر، فالفعل أَسَدَ إلى الحيوان من طير وغيره في الآية الأولى، وإلى الجماد في الآية الثانية.

وأما الآية الثالثة: فإنه يلوح لنا منها سر رائع، فتعالى المنزل، وجَلَّ الصانع، حيث لم يقل: يعملون ما تعملون. لا من أجل غرض لفظي فحسب، وهو ما بين الفعلين: يعملون وتعملون، من تقارب وتشابه في الأحرف، وإنما لما هو أعمق من ذلك وأدق. وهو أن هؤلاء الملائكة لا يعملون ما تقصدون إليه من عمل فقط، وإنما يعملون ما وراء ذلك من خلجات النفوس، وطرفة العين، والخواطر والهواجس، وكل ما لا يقصده المرء. فما أبدع الجمال القرآني! وما أجل بديع كلماته!

ويظهر لي أن هذا يشبه قول الله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ١٨]، حيث عبّر بالقول دون الكلام.

ولا شك أن الكلام يشمل ما هو مفيد فقط، أما القول: فيشمل المفيد وغيره<sup>(١)</sup>.

ومن خير الشواهد التي توضح الفرق بين (الفعل) و(العمل) ما قصه الله علينا من نبأ موسى وفرعون. قال تعالى: ﴿وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾﴾ [الشعراء: ١٩-٢٠]. والفعل: هنا هي قتل موسى عليه السلام للقبطي، وقد كان دفعة واحدة لا تدرج فيه من جهة، كما أنه من جهة أخرى كان أمراً غير مقصود ولا مراد لموسى عليه السلام، فكل الذي حدث منه، وكز القبطي، والوكز عادة لا يقتل، لذلك سمّاه القرآن فعلاً.

(١) أبو الفتح عثمان، بن جني (٣٩٢هـ/ ١٠٠٢م)، الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، طبعة دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت، طبعة ثانية، ج ١، ص ٧.



وفي قصة البقرة عن بني إسرائيل ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ (البقرة: ٧١)، والمعنى النظر في أي القرآن يجد من ذلك ما يثلج الصدر.

٤ - ومن هذا القبيل كلمتا: القعود والجلوس.

من طريف ما يروى أن أحدهم دخل على المأمون، فقال: اجلس، لكنه استمر واقفاً، قال: اجلس مرتين أو ثلاث، فقال له: يا أمير المؤمنين، إنما يكون الجلوس بعد اتكاء، وإنما يكون بعد القيام القعود. وهو يشير بذلك إلى الحديث «وجلس وكان متكئاً»<sup>(١)</sup>.

والتأمل لأي القرآن الكريم، واستعمال هاتين الكلمتين، يدرك روعة العربية من جهة، وإعجاز الكتاب الخالد من جهة ثانية، فالقعود إنما يستعمل لما فيه لبث ومكث، أما الجلوس فيستعمل فيما ليس كذلك. قال تعالى: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [النور: ٦٠]، ﴿وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ (٦١) [التوبة: ٤٦]، ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ﴾ [المؤمنون: ٥٥]، ﴿وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدًا لِّلسَّمْعِ﴾ [الجن: ٩]، وهذا يبين حرصهم على استراق السمع.

أما مادة: جلوس، فلم تأتِ إلا في قوله تعالى: ﴿إِذَا قِيلَ لَكُم تَقْسَمُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمُ﴾ [المجادلة: ١١]. وهذه المجالس عادة لا يطول المكث فيها. ومنه الحديث الشريف «مثل المجلس الصالح والسوء»<sup>(٢)</sup> والحديث الآخر «ياكم والجلوس على الطرقات»<sup>(٣)</sup>.

(١) محمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ / ٨٧٠م)، صحيح البخاري، كتاب الشهادات، باب: ما قيل في شهادة الزور، مطبوعات محمد علي صبيح وأولاده، القاهرة.  
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الذبائح والصيد، باب: المسك.  
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: المظالم، باب: أفنية الدور والجلوس فيها.

ومن أسرار العربية أن (القاف، والعين، والذال) تدل على اللبث والثبات فمنها مادة: قعد التي تحدثنا عنها من قبل، والدقعاء: للتراب الكثير الدائم الذي يبقى في مسيل الماء، ومنه: العقد الذي يستعمل لعقدة النكاح، والعقيدة: وهي قضايا ثابتة.

أما (الجيم، واللام، والسين) فعلى العكس من ذلك، ففيه الحركة، ومنه: السجل للشيء المتحرك الذي لا يبقى عند صاحبه.

والطريف أنهم ضموا عين المضارع في قولهم: «يقعد» وكسروها في قولهم: «يجلس» والكسرة أخف من الضمة، فاستعملوها لما فيه الحركة، واستعملوا الضمة الأثقل لما فيه المكث.

#### ٥ - الإعطاء والإيتاء:

مع ما بين هاتين الكلمتين من تشابه في اللفظ، واتحاد في الاستعمال عند كثير من الناس، إلا أن بينهما فروقاً من حيث الحقيقة، ويشهد لذلك الاستعمال القرآني، فما هي الفروق بين الإيتاء والإعطاء يا ترى؟

ينقل صاحب البرهان عن الجويني -رحمهما الله تعالى- إن الإيتاء أقوى من الإعطاء في إثبات مفعوله، لأن الإعطاء له مطاوع ولا كذلك الإيتاء، وما ليس له مطاوع أقوى في إثبات مفعوله، ألا ترى أنك تقول: كسرتة فانكسر. وهذا هو المطاوع ولكنك لا تقول: قتلته فانقتل، ومن هنا كان الإيتاء أقوى من الإعطاء.

وهناك فرق آخر بين الإعطاء والإيتاء، وهو أن الإعطاء إنما يكون على جهة التمليك، قال تعالى: ﴿ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٣٩) وقد لا يكون الإيتاء على جهة التمليك.

وفرق ثالث: وهو أن الإيتاء لا يكون إلا للشيء الكثير، والعظيم الشأن، وقد يكون الإعطاء للقليل، قال تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ﴾ (٣٣) وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى ﴾ (٣٤)

[النجم: ٣٣-٣٤].

ويمكننا أن نتدبر الآيات القرآنية على ضوء هذه الفروق التي ذكرناها. وأول ما يخطر للفكر معرفته ليلمح فيه الفرق بين هاتين الكلمتين قوله سبحانه: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [النور: ٥٦]، وقوله: ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (٢٩) [التوبة: ٢٩].

فانظر كيف عبّر عن كل من الزكاة والجزية، فبجانب الزكاة استعملت كلمة الإيتاء، فيمكن أن نلمح الفروق التي ذكرناها من قبل، فهي عطاء على سبيل التملك من جهة، وهي أكثر قوة في إثبات مفعولها كذلك، لأن المؤمنين يخرجونها خالصة من قلوبهم، ولا كذلك الجزية. ولقد استعمل الإيتاء كذلك بجانب الملك والحكمة، قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٦٩]، ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيحًا﴾ (١٢) [مريم: ١٢]، ﴿وَأَتَيْنَهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ (٥٤) [النساء: ٥٤].

أما الإعطاء، فيكفي أن نقرأ فيه هذه الآية: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ (٥٨) [التوبة: ٥٨]، وإعطاء المنافقين لا لكونهم يستحقونه، يقول الرسول ﷺ «إني لأعطي الرجل، وغيره أحب إليّ منه»<sup>(١)</sup>.

وقد يتساءل بعضهم: ماذا تقول في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ (١) [الكوثر: ١]، ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ (٥) [الضحى: ٥].

والجواب عن ذلك: أن هذا الذي أعطيه النبي ﷺ، هو قليل في حقه، وهو قليل كذلك إذا قيس إلى ما هو أعظم منه.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الزكاة، باب: قول الله تعالى: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَاقًا﴾ [البقرة: ٢٧٣].

## ٦ - الكمال والإتمام:

من الكلمات التي تصعب التفرقة بينها، كلمتا الكمال والإتمام، وكثير من جعلهما ذواتي معنى واحد، لكن ورودهما في آية واحدة يشعر أن بينهما فرقاً، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة: ٣]، فقد عطف الإتمام على الإكمال، والعطف يقتضي التغاير، لذلك قالوا: إن الإتمام: إزالة نقصان الأصل، أما الإكمال: فهو إزالة نقصان بعض الصفات العارضة للأصل، فإذا قلنا: تم الشيء، فمعنى ذلك أنه زال نقص في ذاته، وإذا قلنا: كمل الشيء فمعنى ذلك أنه زال نقص فيه غير ذاتي، وعلى هذا حملوا الآية الكريمة ﴿تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٦] قالوا: ولم يقل (تامة) لأن التمام إزالة نقصان الأصل، والأصل هنا قد كمل بقوله (عشرة) فيحتمل أن تكون غير كاملة في ثوابها فقال: كاملة.

وهناك فرق آخر: وهو أننا إذا قلنا: هذا شيء تام، فإن ذلك يشعر بنقص كان فيه من قبل، وإذا قلنا: كامل فلا يشعر بذلك النقص، وعلى هذا يمكن أن نفهم الآية الكريمة ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ فلم يكن هناك نقص في الدين، وإنما كان المسلمون يطالبون بما نزل عليهم، فمن مات قبل أن تفرض الزكاة أو تحول القبلة، لم يقل إنه مات، وفي الدين نقص، وهذا معنى ما قالوه بأن كمال الشيء لا يشعر بنقصه، أما إتمام النعمة فلقد أكرم الله المسلمين بالأمن. فالآية نزلت في حجة الوداع كما نعلم، حيث آمن المسلمون في حجهم، وذهابهم، وإيابهم، وهذا أمر لم يكن متوافراً لهم من قبل، والله أعلم بمراده.

## ٧ - وهاتان كلمتان استعملتا في كتاب الله تعالى، وهما كلمتا: شك وريب:

والعجب كل العجب من الذين يحتجون على وجود الترادف في اللغة بقولهم: لو لم يكن هناك ترادف ما صحَّ أن نفسر: الريب بالشك<sup>(١)</sup>.

(١) الزهر للسبوطي، حققه: محمد جاد المولى والبجاوي وأبو الفضل، ج ١، ص ٤٠٤.

وإنما نعجب من أمره لأننا لا ندري كيف يفسر الريب بالشك، واستعمال القرآن شاهد لما بينهما من فرق، بل فروق. القرآن الكريم ينفي الريب دائماً عن القضايا الكبرى الكتاب والساعة، كما أنه ينفيه عن المؤمنين في جميع أحوالهم، ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢]، ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ [الحج: ٧]، ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ [الحجرات: ١٥]، ﴿وَلَا يَرْثَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: ٣١].

وعندما تستعمل كلمة الشك مسندة إلى الكافرين، فإنها غالباً ما توصف بكلمة مريب، ﴿وَالَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَقِيَ شَكٌّ مِنْهُ مُرِيبٌ﴾ [الشورى: ١٤]، ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [إبراهيم: ٩].

وقد نجد أن كلمة الشك، إذا ذكرت وحدها مسندة إلى الكافرين فإنه يضرب عنها، وينتقل إلى ما هو أكثر منها ضللاً، وأشد منها سوءاً، قال تعالى: ﴿بَلِ أَذْرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل: ٦٦]، واستعمل الشك، دون وصف في قول الله تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ [يونس: ٩٤].

وهذه الآيات الكريمة تجعلنا غير مترددين في أن الريب شيء أكثر من الشك. «فالريب ينم عن القلق في النفس وما يختلج فيها من أسباب الغيظ»<sup>(١)</sup>، ومن تهم تنافي الطمأنينة، وهذا بعيد عن ساح المؤمنين، فضلاً عن قلبه الشريف ﷺ لذلك حيل بينه وبين أن يسند إليه الريب.

أما الشك فمع بعده عنه ﷺ إلا أن الشك ليس فيه ما في الريب من محاذير، ذلك أنه -أي الشك- تردد بين شيئين، قال الراغب: «الشك: وقوف النفس بين شيئين متقابلين بحيث لا يترجح أحدهما على الآخر بأمانة، والمرية: التردد في

(١) محمود الألوسي (ت ١٢٦٠هـ / ١٨٥٤م)، روح المعاني، الناشر: المطبعة النيرية، ج ١، ص ١٠٦.

المتقابلين، وطلب الأمانة: من مَرَى الضرع، أي: مسحه للدر، والريب: أن يتوهم في الشيء، ثم ينكشف عما توهم فيه<sup>(١)</sup>.

ونزيد هنا أننا نجد هذه المادة، يوصف بها المنافقون، وأن هذا الفعل يسند إليهم، قال تعالى في سورة براءة في سياق الحديث عن المنافقين: ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآزَنَاتٌ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: ٤٥]، وقال سبحانه عن الذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَتُهُمْ الَّذِي بَنَى رَيْبَهُ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ١١٠].

وفي التنزيل آية جمعت الكلمتين معاً، وتدبرها يدل على ما بينهما من بون شاسع، قال تعالى في سورة المؤمن وهو يحكي لنا خطاب هذا المؤمن الذي سميت السورة باسمه وقوله لآل فرعون: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ نَبْعَثَ اللَّهَ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ [٢٤] الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَنَّهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ [غافر: ٣٤-٣٥]. ونرى من السياق الكريم الفرق الشاسع بين الكلمتين، حيث جاءت كلمة الشك مطلقة دون وصف، لا يفهم منها أكثر من ترددهم فيما جاءهم به ﷺ. أما كلمة مرتاب المشتقة من الريب فقد ذكرت مقترنة بالإسراف والإضلال، إلى غير ذلك من الأوصاف التي تنم عن سوء أولئك الذين استقر في قلوبهم الريب. ولو أننا وقفنا مع الآيات القرآنية التي ذكرت فيها إحدى هاتين الكلمتين لوجدنا أن كل كلمة لا يمكن أن تصلح مكان أختها.

(١) الراجب، المفردات، ص ٢٠٥.

## ٨- السَّنةُ والعام:

ونقرأ في كتاب الله تعالى آية ذُكِرَ فيها كلمتان اثنتان جاءت كُلٌّ في موضعها، لا أقول الذي يناسبها فحسب، ولكن أقول الذي لا يناسبها غيره، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤]، وتأملًا في كل من الكلمتين على حدة نستنتج أن هناك أكثر من فرق بينهما.

فالسنة: تلقي من منطوقها ظلال الشدة والقحط والصعوبة. والعام: على العكس من ذلك. قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ٤٩]، وفي الأثر «سنين كسني يوسف»<sup>(١)</sup>.

وهناك فرق آخر وهو أن السنة تُستعمل أكثر ما تُستعمل في السنة الشمسية على حين يُستعمل العام للقمرية، ونحن نعلم أن بينهما أحد عشر يوماً تقريباً، ومن هنا فلا عجب أن تدهشنا روعة التعبير في اختيار الكلمات، حيث ذُكرت السنة فيما قضاه نوح عليه وعلى نبيّنا وأنبياؤه صلوات الله وسلامه، وذكرت كلمة: العام بجانب المدة التي استثنيت من ذلك، وفي هذا تصوير لما عاناه ﷺ من شدة في الأمر، ومقارعة لأعداء الله، وطول أمد، وإذا تدبرنا كتاب الله تعالى، فإننا لن نجد أي كلمة منه تشبه غيرها، فضلاً عن أن تسد مسدّها.

## ٩- وهاتان كلمتان: كتاب وقرآن:

وإذا أجلنا الفكرة ورجعنا البصر كرتين فسيظهر لنا أن الاستعمالات لكلمة: «كتاب» إنما قصد به تعيين هذه الكلمة، وكذلك كلمة «قرآن» ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الاستسقاء، باب: دعاء النبي ﷺ «اجعلها عليهم سنين كسني يوسف».

ومسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت ٢٦١هـ / ٨٧٥م)، صحيح مسلم، مطبوعات محمد علي صبيح وأولاده، مصر، كتاب المساجد، باب استحباب القنوت في جميع الصلاة، ج ٢، ص ١٣٥.

رَبِّهِ فِيهِ ﴿البقرة: ٢﴾، ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠٠]، ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿٨٩﴾ [النحل: ٨٩].

ويلحظ التالي لهذه الآيات الكريمة أن كلمة الكتاب تشير إلى ما يستنبط منه من أحكام، وما فيه من قواعد ومبادئ، وما اشتمل عليه من تشريع وحكم، وما ضمه من علوم ومعارف، وما يوصل إليه من رفعة.

أما كلمة «قرآن» فنجدها في هذه الآيات الكريمة ﴿وَرِثِلَ الْقرآنَ تَرْتِيلًا﴾ ﴿٤﴾ [الزمل: ٤]، ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ﴾ [الإسراء: ١٠٦]، ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ ﴿٧٨﴾ [الإسراء: ٧٨]، ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَجَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِلَاخِرَةٍ حِجَابًا مَّشْهُورًا﴾ ﴿١٥﴾ [الإسراء: ٤٥].

وهذه الآيات جميعاً إنما تشير إلى قضية القراءة والتلاوة، ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَالْتَفِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ [القيامة: ١٦-١٨].

وهكذا نجد أكثر المواضع التي ذكرت فيها كلمة: القرآن.

التعبير بالقرآن إذن إنما يكون في سياق القراءة والتلاوة، على حين نجد آيات ذكر فيها القرآن والكتاب معاً، ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ نَصَدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٣٧﴾ [يونس: ٣٧]. فالكتاب في الآية الكريمة يعني بها -والله أعلم- الكتب المتقدمة على القرآن في نزولها. وأما قول الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٩] فلا ينافي ما قلناه؛ لأن الآية الكريمة جاءت بعد ذكر الكتاب الذي أُعطيهِ موسى عليه السلام، وقبل الكتاب الذي سيأخذه كل إنسان يوم القيامة. فالآية الأولى التي ذكرت قبل هذه الآية ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الإسراء: ٢] والآية التي ذكرت بعد الثانية ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِّزَمْنَهُ لَطِيفَةٌ فِي غُفْوَةٍ وَنُفْخِ لَهْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾



﴿١٣﴾ أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ [الإسراء: ١٣-١٤] توسطت كلمة القرآن بين كتابين، فناسب أن يذكر بينهما القرآن الذي جعل هداية للناس جميعاً.

#### ١٠- كتب وفرض:

وما دمنا نتحدث عن الكتاب، يجمل بنا أن نعرض إلى ما جاء من هذه المادة كثيراً في كتاب الله تعالى وبخاصة في جملة التكاليف التشريعات ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٧٨]، وبعدها ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ [البقرة: ١٨٠]، ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣]، ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ [البقرة: ٢١٦]. ونلاحظ أن هناك فرقاً بين الكتابة وبين الفرض في حس القرآن. فالكتابة ملحوظ فيها الإيجاب والروح الجماعية، أعني كونها أمراً جماعياً لا يختلف باختلاف الناس.

أما الفريضة فيراعى فيها جانب القطع والتحديد، ولذا نلاحظ تفاوت الناس فيها كفرائض الموارث، أو ما شرعه الله لنبيه ﷺ أو للمؤمنين في بعض حالاته ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ [الأحزاب: ٣٨]، ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٥٠].

وأستأنس لهذا الفرق بشاهد من خير الشواهد في هذا المضمار، وهو ما روي عن سيد البشر وأفصحهم في الحديث الصحيح «أن تصلي الصلاة المكتوبة، وتؤدي الزكاة المفروضة»<sup>(١)</sup>. فانظر كيف خُصَّت الصلاة بما لم تُوصَف به الزكاة، ونحن نعلم الفرق بين الشعيرتين، وأن الصلاة يتساوى فيها المسلمون جميعاً حرهم وعبدهم، غنيهم وفقيرهم، عاجزهم وغيره. وليست الزكاة كذلك الطبع.

(١) مسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: بيان الإيمان ما هو وبيان خصاله، ج ١، ص ٣٠.

## ١١- الفلاح والفوز:

وقد كثر استعمالهما في كتاب الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١) ﴿[المؤمنون: ١]﴾،  
﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّى﴾ (١٤) ﴿[الاعل: ١٤]﴾، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٥) ﴿[البقرة: ٥]﴾، ﴿فَأُولَئِكَ  
هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (٢١) ﴿[النور: ٥٢]﴾.

وكثير من المفسرين يعطون الكلمتين مدلولاً واحداً فيقولون في معنى: أفلح، فاز.  
والذي يلوح لنا من ذلك، -والله أعلم بأسرار كتابه- أن الفلاح لغة: الشَّقُّ،  
ومنه المثل: «والحديد بالحدديد يفلح»<sup>(١)</sup>، بل هذه المادة اللغوية التي تبدأ بهذين  
الحرفين (الفاء، واللام) تدل على ذلك، كالفلق والفلج وغيرهما، فالفلاح لا بد فيه  
إذاً من حركة ومشقة، ولهذا نجد الآيات التي ذكر فيها الفلاح في كتاب الله تعالى  
جاءت جامعة لكثير من التكليف والأوامر، محذرة من كثير من النواهي. مثل قوله  
تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١)، حيث ذكر أوصافاً كثيرة، منه: البدني والنفسي والمالي،  
ونهى عن غيرها، وكذلك قوله تعالى في سور البقرة ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٥)  
وفي غيرها من الآيات.

وأما الفوز فيلاحظ فيه جانب السلامة والنجاة، ولعل الأصل اللغوي ما  
يشير على ذلك من قولهم (مفازة) لما كان سبب الهلاك غالباً.

## ١٢- وهاتان كلمتا: جبل وعلم:

استعملت كل منهما مُشَبَّهًا به في سياق البحر، فالسفن شبهت بالأعلام،  
والموج شبه بالجبال، ﴿وَلَهُ أَمْجَارُ الْمُنْشَاتِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ (٢٤) ﴿[الرحمن: ٢٤]﴾، وقوله:  
﴿وَمِنْ تَجَرَّى بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ (٤٢) ﴿[مرو: ٤٢]﴾.

(١) أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم النيسابوري الميداني، (ت ٥١٨هـ / ١١٢٤م)، مجمع الأمثال،  
تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السنة المحمدية، سنة ١٩٥٥، ج ١، ص ١١.

وما أجهل التعبير، وأعظم الروعة، حيث استعمل العَلَمَ في مقام الإنعام والآلاء، وفيه من الإيناس ما لا يخفى، واستعمل الجبلُ في مقام الشدة والبطش.

١٣- وما دمنا قد تحدثنا عن البحر فإننا نجد أن الكتاب الكريم استعمل كلمة اليم، وهي كلمة يظهر أنها مشتركة بين العربية والفرعونية، لذا لم يستعملها القرآن الكريم إلا في شأن موسى عليه السلام وقوم فرعون، قال تعالى: <sup>(١)</sup> ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَكَأَلِفِيهِ فِي الْيَمِّ ﴾ [القصص: ٧].

#### ١٤- الحلف والقسم:

وردت كلمة (الحلف) في كتاب الله تعالى في مواضع كثيرة، منه قوله سبحانه: ﴿ ذَٰلِكَ كَفَرَةٌ أَتَمَنِّكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ﴾ [المائدة: ٨٩]، وردت مسندة إلى المنافقين في آيات كثيرة، ذكر كثير منها في سورة براءة ﴿ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَوْكُمْ ﴾ [التوبة: ٦٢]، ﴿ سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتَعْرِضُوا عَنْهُمْ ﴾ [التوبة: ٩٥]، ﴿ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا ﴾ [التوبة: ٧٤]، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة، في السور المدنية التي تتحدث عن المنافقين. وورد في سورة القلم المكية ﴿ وَلَا تَطْعُ كُلَّ حَلَا فِي مَهِينٍ ۖ ﴾ [القلم: ١٠].

أما كلمة القسم، فقد وردت في السور المكية والمدنية مسندة إلى الكافرين والمنافقين ومن ورودها في السور المكية قوله سبحانه: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا ﴾ [النحل: ٣٨]، وقوله سبحانه: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا

---

(١) اكتشف هذا التشابه -وهو كثير بين اللغتين- علامة الآثار المصري أحمد باشا كمال.  
انظر: محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم الشهير بالمنار، الناشر: دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، طبعة ثانية، ج ٩، ص ٦٤.

نُفُورًا ﴿٤٢﴾ [فاطر: ٤٢]، وآية ثالثة مكية ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ [الأنعام: ١٠٩] <sup>(١)</sup>.

ومن مجيئها في السور المدنية قوله سبحانه: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾ [النور: ٥٣].

ويقينا أن الحلف والقسم ليسا شيئاً واحداً، وهو ما ترشد إليه الآيات الكريمة، ولكن ما الفرق بينهما؟

تري الدكتور بنت الشاطي <sup>(٢)</sup>: أن الحلف لا يكون إلا فيما هو كذب، ومن هنا أسند الحلف كثيراً إلى المنافقين، كما ذكر في كفارة اليمين ﴿ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾.

وأما القسم فإنما يكون لليمين الصادق بها صاحبها.

وما نظننا نوافقها على هذا الذي ذهبت إليه، والذي يظهر لي أن الحلف قد يكون صاحبه صادقاً أو كاذباً، وهذا ما تشهد به الآية التي مرت معنا، والتي ذكرناها من قبل، فأية المائدة تتحدث عن كفارة اليمين للمؤمنين الذين لا يحلفون إلا صادقين، ولكنهم يريدون أن يكفروا عن حلفهم، وتلك سنة النبي ﷺ: «إذا حلف ووجد أن من الخير أن يعود لما حلف عليه فليعد وليكفر عن يمينه» <sup>(٣)</sup>.

(١) نختار في تفسير هذه الآية أن المتحدث عنهم: هم الكافرون وليس المؤمنون كما يرى بعض المفسرين.

(٢) الدكتور عائشة عبدالرحمن بنت الشاطي، الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرقي، دار المعارف، مصر، ص ٢١٢.

(٣) أخرج البخاري في صحيحه، كتاب: الإيمان والنذور، باب: قول الله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥]، قول النبي ﷺ: «وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فكفر عن يمينك واثبت الذي هو خير».

أما الْقَسَمُ فإنها يأتي في معرض التأكيد، والصيغ التي ذكرت في كتاب الله تعالى جميعها كانت عن المنافقين والكافرين - كما قلت من قبل - ولم تأت آية منها حديثاً عن المؤمنين. وهذا بالطبع لا يشمل الآيات التي أقسم بها ربنا تبارك وتعالى كقوله: ﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۝١﴾ [القيامة: ١]، وكأن الكافرين والمنافقين أرادوا أن يغلظوا الإتيان ليخفوا وراءها ما يتفاعل في نفوسهم من كذب وخديعة.

## ١٥ - الحمد والشكر:

بدأ الله كتابه قوله ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة: ٢]، ولقد ذكرت هذه الجملة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ مرات عديدة فاتحة لسور عديدة، ولكن كلمة الشكر ذكرت أكثر من كلمة الحمد. قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ۝١٥٦﴾ [البقرة: ١٥٦]، ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۝١٥٧﴾ [إبراهيم: ٧]، ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدَيَّْ﴾ [النمل: ١٩]. ولقد ذهب بعض المفسرين على أن الكلمتين ذواتا معنى واحد، والمحققون ذهبوا غير هذا المذهب، وإذا كان من فرق بين الحمد والشكر فإن الحمد يكون باللسان، أما الشكر فلا يختص به اللسان وحده، وإنما يكون بالقلب والجنان.

أَفَادْتُكُمُ النِّعْمَاءَ مِنْ بِي ثَلَاثَةَ يَدَيِّ وَلِسَانِي وَالضَّمِيرَ الْمُحْجَبَ وَهناك فرق آخر بين الحمد والشكر، وهو أن الشكر لا يكون إلا مقابل نعمة، أما الحمد فإنها يكون لأي شيء حسن، فأنت قد تحمد إنساناً لشجاعته أو كرمه دون أن ينالك منه شيء، ومن أجل هذا اختيرت كلمة (حمد) في فاتحة الكتاب العزيز.

## ١٦ - النأي والبُعد:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ ۝٨٣﴾ [الإسراء: ٨٣]، وقال سبحانه: ﴿وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۝٤٢﴾ [التوبة: ٤٢]، فالبعد الذي هو ضد القرب قد

يكون زمانياً أو مكانياً، ولكن النأي كما تشير إليه الآيات الكريمة إنما يعني الإعراض مع كبر.

## ١٧- زوج وامرأة:

ومن الكلمات التي جاءت في كتاب الله تعالى، ويحسب بعض الناس لأول وهلة أنها متحدة في المعنى: «زوج» و«امرأة»، ومع أن الزوج يصدق على كل رجل وامرأة إلا أن القرآن الكريم يستعمل هذه الكلمة - أعني كلمة الزوج - أكثر ما يستعملها للمرأة، قال تعالى: ﴿وَأَن تَاكُفُّوا شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ [المتحة: ١١]، ﴿يَتَأْتِيهَا النَّيُّ قُلْ لَا زَوْجَكَ﴾ [الأحزاب: ٢٨]، ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ﴾ [المؤمنون: ٦]، ﴿كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ [الدخان: ٥٤]، فإذا كان الحديث عن الرجال، فقد يستعمل القرآن الكريم كلمة: بعل، قال تعالى حكاية عن امرأة إبراهيم عليه السلام: ﴿وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ [مرد: ٧٢]، وقال سبحانه: ﴿وَيُعَوِّلْنَهَا عَلَىٰ رَيْدِي﴾ [البقرة: ٢٢٨].

والذي يظهر لي من هذا أن المرأة أحوج إلى الزوجية وأمس وألصق فهي أحوج من الرجل، وأكثر إلحاحاً، ولا عجب في ذلك، فهي أقل من الرجل حيلة وقدرة على التصرف في كثير من أمور الحياة.

أما ما نحن بصده من التفرقة ما بين زوجة وامرأة، فقد فرقت بينهما الدكتورة بنت الشاطي<sup>(١)</sup> بما يلي:

«كلمة زوج تأتي حيث تكون الزوجية هي مناط الموقف، حكمة وآية، أو تشريعاً وحكماً، فإذا تعطلت آيتها من السكن والمودة والرحمة بخيانة أو تباين في العقيدة فهي امرأة لا زوج»، وما جاء في آيات الله تبارك وتعالى لا يشهد لهذا الذي قالته.

(١) الدكتورة عائشة عبدالرحمن «بنت الشاطي»، الإعجاز البياني للقرآن، ص ٢١٢.

وبعد الوقوف مع الآيات الكريمة وتدبرها نستنتج أن هناك فرقين بين هاتين الكلمتين:

أولاً: أن امرأة تطلق على الأُنثى من الناس حتى لو لم تكن ذات بعل، فكأنها هي تأنيث: مرء. قال تعالى: ﴿وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ [القصص: ٢٣]، وهما بنتا الشيخ الكبير، كانتا غير متزوجتين، وقال تعالى: ﴿وَأَمْرَأَةٌ مُؤْمِنَةٌ إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٠]. أما زوج فلا تكون إلا حينما يكون رباط الزوجية قائماً، فكل زوج امرأة، وليس كل امرأة زوجاً.

ثانياً: تطلق كلمة زوج حينما يناط أمر بين الزوجين، أي حينما تكون قضية مشتركة بينهما ﴿أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥]، ﴿يَتَأَيَّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ﴾ [الأحزاب: ٥٩]، ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، ﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ [المتحنة: ١١].

فنحن نرى في هذه الآيات الكريمة أن هناك قضايا مشتركة بين الزوجين، سواء كانت هذه القضية تبليغاً أم إنجاباً أم أمراً آخر.

أما قول الكاتبة بأن المرأة تستعمل حينما تعطل آيتها من السكن والرحمة والمودة بخيانة أو تباين عقيدة، فشيء نعجب منه، فلئن جاز في امرأة نوح، وامرأة لوط، فإنه لا يجوز في غيرهما. قال تعالى يحدثنا عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ﴾ [مرد: ٧١]، وعن زكريا ﴿وَكَاَنَتْ امْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ [مريم: ٨].

## ١٨ - الشح والبخل:

جاء في كتاب الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١) [الحشر: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَأُخْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨]، وقال سبحانه: ﴿إِنْ يَسْتَلْكُمُوهَا فَيُخْفِئْكُمْ بِخُلُوعِهِمْ وَيُخْرِجْ أَضْفَانَكُمْ﴾ (٣٧) هَآأَنَّهُ هَآؤُلَآءِ تَدْعُونَ لِئَنفِقُوا

فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَن نَّفْسِهِ ۗ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ ۖ وَأَن تَكُونُوا  
الْفُقَرَاءُ ﴿٣٧﴾ [عمد: ٣٧-٣٨].

وعلى هدى من الآيات السابقة ندرك أن الشح يختلف عن البخل، فالشح من لوازم النفوس، ولهذا يحتاج إلى رياضة النفس حتى يتخلص منه صاحبه، أما البخل فإنما هو أمر يعرض للنفس، ويمكنها أن تتغلب عليه، وتتخلص منه. وهذا ما ترشد إليه الآية الكريمة ﴿إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُخْفِئْكُمْ بِبَخْلِكُمْ﴾، فهم يبخلون إذا أحفي عليهم بالسؤال، فطلب منهم أن ينفقوا جميع أموالهم أو أكثرها، وهذا ما أرشدت إليه الأحاديث النبوية الشريفة مثل قوله ﷺ: «إياكم والشح، فإنما هلك من كان قبلكم بالشح، أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا»<sup>(١)</sup>. ولهذا كان الشح شر ما يتصف به الإنسان<sup>(٢)</sup>.

#### ١٩ - النعيم والنعمة:

تذكر الدكتور بنت الشاطي<sup>(٣)</sup>: إن النعمة هي ما كانت دنيوية فحسب، وإن النعيم ما كان أخروياً فقط. وإن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨] إنما يقصد به النعيم الأخروي، أي حينما يرون الجحيم يسألون عن النعيم الذي ضيعوه.

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الزكاة، باب: في الشح، عون المعبود شرح سنن أبي داود، الطبعة الثالثة ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩، نشر: دار الفكر، ج ٥، ص ١١٥.

(٢) يذكر بعض الكاتبين من الترادف كلمات ذات أصل واحد مثل: أسقى وسقى، وخطف وتخطف، ومدّ وأمدّ، وإنس وإنسان. ويظهر لي أن هذه ليست من باب المترادف فهي كلمات ذات أصل واحد، وإنما يفرق بينها، إما بزيادة ونقص في بعض الأحرف، وإما في الحركات. ولهذا لم أذكر شيئاً منها في هذا الباب.

(٣) الإعجاز البياني، بنت الشاطي، ص ٢١٨.



وهذا الفرق الذي ذكرته يختلف عما يتبادر من فهم الآية الكريمة، وما روي في تفسيرها من آثار، فإن الذي نحسبه -والله أعلم- أن النعمة تختلف عن النعيم من حيث هي واحدة، أما النعيم: فكأنها هو اسم لجملة من النعم، وإنما لم يسألنا الله عن النعمة لأننا نعيش في أنعم كثيرة ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤].

فكأن النعيم يدل على ما فيه زيادة على ما تقتضيه ضرورات الحياة، ثم إن النعيم جاء موصوفاً، ونظن أن وصف النعيم في مثل قوله تعالى: ﴿وَجَنَّتْ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٢١] لا يؤيد ما ذهب إليه، لأن وصف النعيم بالمقيم في الآخرة يدل على أن هناك نعيماً في الدنيا ليس كذلك.

وأيضاً فلقد استعملت كلمة (نعيم) مقصوداً به النعيم الدنيوي في قول لبید: «وكل نعيم لا محالة زائل». لذلك استثنى منه نعيم الجنة -والله تعالى أعلم-.

٢٠- يدع ويذر:

هذان الفعلان استعملت منهما صيغة المضارع والأمر، والذي جاء في كتاب الله تعالى، وفي كثير من الآيات الثانية منهما. قال تعالى: ﴿أَنْذَعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ [الصافات: ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَنْتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾ [الأعراف: ١٢٧]، وقال سبحانه: ﴿قُلِ اللَّهُ تَعَزَّاهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١]، ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨].

وإذا كانت الكلمتان تستعملان في معنى الترك، إلا أن الأولى منهما هي: ترك مع عناية وتلهف، ومن ذلك (ما وَدَعَكَ رَبُّكَ) [الضحى: ٣] هي قراءة غير متواترة.

أما الكلمة الثانية: فهي ترك مع إغراض وإهمال للشيء، وعدم اعتداد، وقلة اعتناء به، ومنه الودرة: وهي قطعة من اللحم تترك لعدم الاعتداد بها، لقلة جودتها. ولذلك استعملت الكلمة الثانية كثيراً في كتاب الله عز وجل.

ذلكم هو البيان القرآني الرائع، وتلكم هي ألفاظه، ذات المفهوم المحدد.

وقد يتساءل بعض الناس -وَحَقَّ لَهُمْ ذَلِكَ- كيف نفهم قول الله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]، وقول النبي ﷺ: «ذروني ما تركتكم»<sup>(١)</sup>، وهل يمكن أن نجرىها على الأصل الذي ذكرت.

وأقول في الجواب: نعم، ونلمح في ذلك لطيفة بيانية بديعة!

أما الآية الكريمة: فقد وردت في شأن عدة المتوفى عنها زوجها، ونلاحظ من السياق القرآني هذا البيان الرائع، فلم يقل القرآن: «واللاتي توفي بعولتهن»، وإنما ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾، ولم يقل: يدعون أو يتركون<sup>(٢)</sup>. ذلك لأن المتوفى لا يعبأ بما وراءه، لأن في الآخرة ما يشغله، ولأن الله سبحانه يبدله أهلاً خيراً من أهله، وداراً خيراً من داره، ونحن نعلم أن الآية تتحدث عن المؤمنين. هذا أولاً.

وأما ثانياً: فلأن الآية وردت في شأن العدة، وهي المدة التي تمنع المرأة فيها من الزواج، فالآية الكريمة إذن جاءت تأمر المرأة بأن تتربص بنفسها، وتغالّب ما يدور في خلدّها، وتصبّر في هذه المدة. ولذا استعمل في سياق الحديث عنها كلمة (تذر).

فلما كان الحديث عن الذرية لم تستعمل هذه المادة، وإنما استعملت كلمة أخرى، قال تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا﴾ [النساء: ٩].

فاستعملت كلمة الترك كما رأينا، ذلك لأن قلق الإنسان على ذريته، أمر جبلي طبيعي، أما المرأة فقد تنتقل إلى بعل آخر. هذا هو السر الذي يظهر لي في الآية الكريمة.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الفضائل، باب: توقيره ﷺ وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه، أو لا يتعلق به تكليف، وما لا يقع، ونحو ذلك، ج ٤، ص ١٨٣١.

(٢) أورد الراغب رحمه الله هذا السؤال في مقدمته ووعد أن يجيب عليه في كتاب آخر من كتبه، ولم نحظ بهذا الكتاب.

أما الحديث الشريف، -وسيدنا رسول الله ﷺ أعطى جوامع الكلم- فالسياق الذي جاء فيه يحتم استعمال هذه الكلمة، لأنه نهي للمسلمين عن أن يسألوا عما سكت عنه الله ورسوله، كأنها يقول لهم: لا تعتدوا، ولا توجهوا عنايتكم إلا لما طولبتم به، أما ما وراء ذلك فذروه حتى لا تعتتوا أنفسكم.

وأكتفي بما ذكرت في هذا المبحث عن تلك الألفاظ التي يظن أنها مترادفة متحدة المعنى. ولندع الكلام في هذا الفصل، ولا أقول نذره، لننتقل إلى مبحث آخر، وإلى روضة قرآنية جديدة، وعلى الله التكلان، ومنه التوفيق، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

## المبحث الثاني

ألفاظ مختلفة جاءت في مواضع متشابهة

واختصاص كل موضع بما يلائمه

وهذا الموضوع يختلف عن سابقه، فلقد كانت دراستنا في الموضوع الأول عن الفروق الدقيقة بين الكلمات، أما هذا الموضوع فالحديث فيه عن ألفاظ مختلفة في المعنى، لكنها جاءت في مواضع متشابهة، واختص كل موضع بما يلائمه ويناسبه وسيتضح ذلك من الآيات الكريمة التي يكرمنا الله سبحانه بذكرها. ومن ذلك:

١ - كلمتا: الإلقاء والقذف: فقد وردت كل من الكلمتين في سياق الجهاد ومحاربة الأعداء، مسندتين إلى الله تبارك وتعالى المنعم على عباده بهذا الرعب إكراماً للمؤمنين، وبأساً على أعدائهم، قال تعالى في سورة الأنفال: ﴿سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ [الأنفال: ١٢]، وقال: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ [الحشر: ٢٠].

ومن كان له أدنى اطلاع ومعرفة في قضايا اللغة يدرك أن كلمة (القذف) تعطي من الدلالة، وتلقي من الظلال ما لا يوجد في كلمة (إلقاء).

فكلمة (القذف) إنما تستعمل لما فيه الشدة والقوة والضحامة، ولهذا يقال «هم بين خاذف وقاذف»، فالخذف: هو رمي الخذف، وهي الحصاة الصغيرة، أما القذف فلا يكون إلا بما كبر من الحجارة واشتد ضاربه فيه.

وحينما نقف أمام النصين الكريمين نتساءل متدبرين، لم جاءت كل كلمة في هذا المكان دون غيره؟ والسياق كفيل بالإجابة على هذا التساؤل، لذلك كان السياق أمراً لا بد منه لفهم الكتاب العزيز وتفسيره، وإذا كانت اللغة والمأثور لا غناء عنهما، فإن السياق كذلك. وإليك بيان ما نحن بصدده:

الإلقاء في سور الأنفال التي تحدثت عن غزوة بدر، والتي كانت بين المسلمين وبين قريش، وكان المشركون من أهل مكة يقفون ويتجمعون في ذلك الموضع، لا يجدون ما يتحصنون به إلا تروسهم وأسلحتهم، لكن كلمة القذف جاءت في سورة الحشر، سورة بني النضير، وهم الذين - كما حدثنا القرآن الكريم عنهم - كانت لهم حصونهم المنيعه الحصينة، القرآن الكريم يحدثنا عن ذلك، وهو يمتن على المؤمنين ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢].

كانت كلمة الإلقاء إذن في مكانها المناسب، وجاءت كلمة القذف حيث لا يصلح أن تستعمل كلمة الإلقاء... وهكذا تتجلى لنا الكلمة القرآنية بهاء ورواء.

٢- حادّ وشاقّ: هاتان كلمتان في كتاب الله، استعملت كل واحدة منهما في موضع معين، فقد استعملت الأولى في سياق الحديث عن المنافقين، واستعملت الثانية في سياق الكافرين، كما يشهد لذلك ما جاء في سورة براءة في سياق المنافقين ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [التوبة: ٦٣]، وفي سورة المجادلة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كَثُرُوا كَمَا كُنْتَ أَلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [المجادلة: ٥]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾ [المجادلة: ٢٠].

ووردت المشاقّة حديثاً عن الكافرين في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الأنفال: ١٣]، في سورة الأنفال حديثاً عن المشركين، وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الحشر: ٤]، في سورة الحشر حديثاً عن اليهود.

والسؤال: لم اختصت كل كلمة بموضعها؟ وللإجابة على ذلك نقول:

إن المشاقّة أن يكون كل من الفريقين في شق غير الذي فيه الآخر، ففيها معنى البُعد، أما المحادّة: فليس فيها هذا المعنى، إذ المتحادان يفصل أحدهما عن الآخر حدّ

-أي علامة- توضع بين الفريقين مثل حد الأرض، وهو ما فيها من علامات تميز بين الشركاء، وهكذا المنافقون يَدْعُونَ الإسلام بالسنتهم، فتجري عليهم أحكامه الظاهرة وليس الكافرون كذلك.

٣- التفكير والتذكر: كلمة التفكير، ذكرت كثيراً في كتاب الله تعالى ولكن المواضع التي ذكرت فيها جميعاً نجدها قضايا معقدة لا يسهل إدراكها وتصورها على كل فرد، بل هي في أمس الحاجة إلى قدرات عقلية ومعرفة وعلم، فكثيراً ما ترد في قضايا التناسل، وإخراج شيء من شيء، وتداخل الأشياء بعضها ببعض ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم: ٢١]، ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الرعد: ٢٣]، وفي سورة النحل يتحدث القرآن عن النحل: ﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النحل: ٦٩].

وقد ترد صيغة التفكير في معرض الاستنتاج والمقارنة بين الأشياء، ومعرض المثل، كما نرى ذلك في آيتي البقرة، آية الخمر والميسر اللذين فيها إثم كبير ومنافع، وإثمهما أكبر من نفعهما، وكذلك الآية التي ضربت مثلاً لمن عمل بالطاعات ثم تركها وهو أشد ما يكون حاجة إليها ﴿أَيُّودُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [البقرة: ٢٦٦].

كلمة التفكير إذن جاءت في هذه المواضع: آية الزوجية وما أودعه الله بين الزوجين، آية الأرض وما فيها من رواسي وأنهار، ونظام الزوجية في النبات، وفي كل

شيء ﴿يُغْشَى أَلْيَلُ النَّهَارِ﴾ [الأعراف: ٥٤] وفي آية الإنبات من الماء الواحد أشياء مختلفة، وفي آية النحل وما تأكله من الثمرات المختلفة، وكيف يتحول ذلك إلى شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس، كذلك جاءت كلمة التفكر في معرض التمييز بين الأشياء والمقارنة بين إيجابياتها وسلبياتها، وحسناتها وسيئاتها، وذلك يظهر في آية الخمر والميسر، وفي ذلك المثل الذي ضربه الله تبارك وتعالى في قوله: ﴿أَوَدُّ أَحَدُكُمْ﴾ والذي جاء في تفسيره عن ابن عباس رضي الله عنه حينما سأله عمر رضي الله عنه فقال: «ضربت مثلاً لمن عمل بالطاعات فلما كبر سنه، وكان أحوج ما يكون إلى الحسنة اجتالته الشياطين عن الحق». إن مثل هذا حري بالتفكر.

أما كلمة التذكر، فنجدها في مواضع تتسق معها، نقرأ مثلاً قول الله تعالى: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٣].

إن اختلاف ألوان النبات أمر لا يحتاج إلى كثير تفكير ولا كبير عناء، وإنما يحتاج إلى الذاكرة وحدها فحسب، وأما قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الروم: ٢٢] بجمع عالم، فقد جاءت في حديث خلق السموات والأرض، واختلاف الألسن والألوان قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَفَ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَنَكُمُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الروم: ٢٢]، لا شك أن هذه القضايا - أعني خلق السموات والأرض واختلاف الناس ألسنة وألواناً لا يفياها التذكر حقها، ولا بد فيها من علم ومعرفة.

وقد جاءت كلمة (عالمين) في موضعين في كتاب الله تعالى، في الآية التي معنا، وفي قوله سبحانه ﴿وَلِلَّهِ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣] وهذه الآية جاءت بعد المثل الذي ضرب به الله تعالى لمن يتخذ أولياء من

دون الله كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً، وتلك قضية -لعمر الحق- تحتاج أكثر ما تحتاج إلى الدراسة والعلم، وذلك كثير في كتاب الله تعالى.

وفي سورة المجادلة جاء قول الله تعالى: ﴿فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّ فَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ فَاِطْعَامُ سِتِّينَ مَسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَذَلِكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥١﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كَثُرُوا كَمَا كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَفَدَّ أَنْزَلْنَاهُ آيَةً يَنْتَبِهُ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٥٢﴾﴾ [المجادلة: ٣-٥].

فالآية الأولى جاءت للحث على تنفيذ حدود الله تبارك وتعالى وإخراج الكفار، أما الآية الثانية، فقد ذكرت في سياق أولئك الذين لا يقومون بتعطيل الحدود فقط بل يستبدلون بها غيرها مستهينين بها، ساخرين منها، وشتان بين الفريقين لذا ختمت كل آية بما يستحقه كل منهما، فالذي يترك الحدود لشهوة في نفسه يستحق العذاب الموجه الأليم، أما الذي يتركها استهانة بها، ويستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، كما نجد اليوم في مجتمعاتنا فأولئك يستحقون مع الألم الإهانة، لأن الجزاء من جنس العمل. ومثل هذا، ما جاء جزاء للذين يؤذون الله ورسوله، قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٥٧﴾﴾ [الأحزاب: ٥٧].

٤- وهاتان كلمتان في كتاب الله تعالى، وصفت بهما الأرض حيث ظهر فيها آثار القدرة الإلهية، كلمتا: هامة وخاشعة.

أما الأولى: ففي قول الله تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥٠﴾﴾ [الحج: ٥٠].

وأما الثانية: ففي قول الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴿٣٩﴾﴾ [فصلت: ٣٩].



فالأية الأولى: جاءت خاتمة لقوله سبحانه: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن تَرَابٍ...﴾ الآية [الحج: ٥]. فالهمود لا شك متنسق مع ذكر الموتى وهم جثث هامدة لا حراك فيها.

والآية الثانية: جاءت في سياق العبادة ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَلْتَلُّ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ [نصت: ٣٧]. فالخشوع متنسق ومتناسق مع ذكر العبادة<sup>(١)</sup>.

٥ - وهاتان كلمتان متجاورتان في سورة آل عمران:

إحدهما: في قصة زكريا عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٤٠].

والأخرى: في قصة مريم: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٤٧].

فلقد عبّر بالفعل ﴿يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ في الآية الأولى، لأن لفظ الفعل غالباً ما يجري على قانون الأسباب المعروفة. وعبّر بـ (الخلق) في الثانية ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾، فالخلق يجري في الإيجاد والإبداع. ولما كان إيجاد يحيى من زوجين كسائر الناس، عبّر عنه بالفعل. لكن إيجاد عيسى عليه السلام جرى على غير قانون الأسباب والمسببات فعبّر عنه بالخلق<sup>(٢)</sup>.

(١) سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، طبعة دار الشروق، ص ٩٧.

(٢) ولا ننسى أن قصة زكريا ذكر فيها الغلام، وقصة مريم ذكر فيها الولد، لأن قضية الولادة هي المعجزة. أما ذكر الغلام في سورة مريم: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ [مريم: ٨] فموافقة لجبريل حينما قال لها: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٩].

٦- وفي كتاب الله تعالى الكثير من هذا القبيل، بل كل كلمة في الحقيقة إنما تؤدي رسالتها الخاصة بها، فيدرك المتدبرون لكتاب الله تعالى الحكمة من كل كلمة وهي توجيههم في شؤون الحياة على اختلاف أغراضها.

تحدث القرآن الكريم عن المؤمنين بأن بعضهم أولياء بعض، وهذا كثير في كتاب الله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]، ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَرَىٰ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة: ٥١]، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ؕ لَا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣].

فماذا عن المنافقين؟ نقرأ قول الله تعالى: ﴿الْمُتَفَقِّهُونَ وَالْمُتَفَقِّهَاتُ بَعْضُهُمْ مِن بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٦٧]. هذا التعبير عن المنافقين توجيه رائع للمسلمين، يعلمون منه كيف يعاملون أعداءهم، المؤمنون أولياء؛ لأنهم أصحاب عقيدة صحيحة، والكافرون أولياء لأنهم يجتمعون على عقيدة فاسدة، ولكن المنافقين لا يجمعهم شيء، فهم مذبذبون بين ذلك، ويسيطر عليهم الجبن، ويهيمن عليهم البخل، فليس بينهم ولاية أبدًا، لذلك لم يفوا بوعدهم لليهود حينما قالوا لهم: ﴿وَلَن قُوتِلَنَّ لِنَصْرَتِكُمْ﴾ [الحشر: ١١].

لذا جاءت الكلمة القرآنية خير معبر، بأصدق لهجة، وبأوفى بيان عن حال أولئك المنافقين الذين لا تربطهم مودة، ولا تقودهم فكرة ثابتة.

٧- وما أروع كلمة: المودة في كتاب الله تعالى، يعبر بها في شؤون الزوجية، ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١] حيث أوثرت على كلمة الحب، لما في هذه الأخيرة من جموح العاطفة، وتأجج الهوى بين زيادة ونقص، وهكذا التعبير القرآني في ثبوته وقوته وحكمته وبيانه.

٨- وشبيه بهذا أننا نرى القرآن الكريم يضع المضمّر مكان الظاهر في بعض الآيات، بيان ذلك أن السؤال عن الساعة كان يسند إلى الضمير تارة، كما في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ [الأعراف: ١٨٧، النازعات: ٤٢]، ويسند إلى الاسم الظاهر تارة كما في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٦٣].

ولقد وقفت أمام هذه النصوص الكريمة باحثاً عن الحكمة، مستفسراً عن البيان القرآني، فوجدت أن السور المدنية كان يسند فيها السؤال دائماً إلى الضمير، وكذلك السور المكية، لكن هناك فرقاً بين السياقين. فسياق السؤال في الآيات المكية سياق تعنت واستهزاء ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾ [الأعراف: ١٨٧، النازعات: ٤٢]، ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ [الإسراء: ٨٥]، وربما عن ذي القرنين.

ولكن السؤال في الآيات المدنية إنما هو سؤال تعلم ونفع وفائدة، ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢١٥]، ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ﴾ [المائدة: ٤]، ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ [البقرة: ٢٢٢]. والسؤال عن الساعة في الآيات المكية جرى على هذه القاعدة.

أما سورة الأحزاب فهي مدنية، ولو أنه قيل: يسألونك عن الساعة، لتبادر إلى الذهن أن السائلين هم المسلمون. ولكنه غير الأسلوب هكذا ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ﴾ وما ذلك - والله أعلم - إلا لنتكة رائعة، وهي أن هؤلاء السائلين ليسوا المسلمين. ودليل ذلك: أن الآية الكريمة جاءت بعد الحديث عن المنافقين: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُؤْمِنُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦٠]، كما ذكر بعدها الكافرون ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكُفْرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٤].

لذا جرى الأسلوب فيها على ما رأيناه.

٩- الإغراء والإلقاء: ومما هو جدير بالتدبر، حريٌّ بأن تخشع له القلوب، هاتان الكلمتان من كتاب الله، وهما كلمتا الإلقاء والإغراء، ولتستمع:

في سياق الحديث عن أهل الكتاب ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيُّ أَخَذْنَا مِيثَقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: ١٤]، وفي آية أخرى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلِيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ كُلَّمَا أَقْدَوْا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [المائدة: ٦٤].

وقفت طويلاً عند هاتين الآيتين، أتساءل عن سر استعمال ﴿فَأَغْرَيْنَا﴾ في آية ﴿وَالْقَيْنَا﴾ في أخرى، وكنت على يقين من أن وجود كل من الكلمتين في موضعها، لا بد له من حكمة. والحقيقة أن الإعجاز البياني للقرآن الكريم لا يختص بالعرب وحدهم - كما بينته لك من قبل - إنما كل من فقه العربية من غير العرب، أو ترجمت له معاني الكتاب الكريم، فإنه سيقف على هذا الإعجاز، كما يقف عنده العربي ذو الطبيعة المسترسلة، والسليقة المتأصلة.

جاءت كلمة الإغراء حديثاً عن النصارى، أما كلمة الإلقاء فجاءت في سياق الحديث عن اليهود، وإن كان كثير من المفسرين ذهب إلى أن قوله تعالى: ﴿وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ أي بين اليهود والنصارى، وإذا أردنا تفسيراً قريباً للإغراء والإلقاء، فإن الإغراء ببساطة هو الإلصاق الذي تضعب إزالته، فهو مأخوذ من الغرأ (بفتح الغين) أو الغراء (بكسرها) وهي المادة المعروفة عند كثير من الحرفيين، أما الإلقاء فهو مجرد الطرح.

وبعد هذه المعرفة اللغوية، إذا أردت أن تتذوق البيان في الآيتين الكريمتين، فلا بد لك من التاريخ والواقع، فلقد حدثنا التاريخ أن العداء بين الأمم النصرانية مستحكم ملصق بهم، ويمكنك أن تقرأ التاريخ يحدثك عن تلك الحروب الطاحنة، بين الشعوب الأوروبية والطوائف النصرانية، ولقد كان آخرها شمولاً الحرب العالمية الثانية، وإننا قلنا: آخرها شمولاً؛ لأن هناك عداوات إقليمية بين الكنائس النصرانية، كما يحدث في إيرلندا وغيرها لا زال على أشده.

أما الإلقاء فهو مجرد الطرح - كما علمت -، فإذا كان الضمير في قوله تعالى: ﴿بَيْنَهُمْ﴾ راجعاً لليهود، فنحن نعلم أن هذه العداوة لم تصل إلى ما هي عليه عند النصارى، وإذا كان راجعاً لليهود والنصارى معاً - كما ذهب بعض المفسرين - فالأمر فيه ظاهر كذلك، فأمر العداوة لا يصل إلى ما هو عليه عند النصارى بعضهم مع بعض.

هذه شذرة من شذرات الإعجاز البياني، كما يصوره الكتاب الخالد، وصدق الله ﴿وَإِنَّهُ لَكَنَنْتُكَ عَزِيزٌ ۝٤١ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢﴾ [فصلت: ٤١-٤٢].

١٠ - الوليعة والبطانة: قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ [آل عمران: ١١٨]، وقال سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَةً﴾ [التوبة: ١٦].

والبطانة هو اللباس الذي يحاذي البشرة، ونحن نعلم أن ما يلبسه الإنسان منه ما يمس جلده ومنه ما يكون فوق ذلك، ويسمى الأول شعاراً، والثاني دثاراً، ومنه الأثر «الناس دثار والأنصار شعار»، وكلمة البطانة معروفة مشتهرة بين الناس، أما الوليعة فهي من الولوج، أي: الدخول، وربما كان دخولاً فيه ضيق.

قال الراغب الأصفهاني: «الولوج: الدخول في مضيق قال: ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠] وقوله: ﴿يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ﴾ [الحج: ٦١] فتنبه على ما ركب الله عز وجل عليه العالم من زيادة الليل في النهار وزيادة النهار في الليل، وذلك بحسب مطالع الشمس ومغاربها، والوليجة كل ما يتخذه الإنسان معتمداً عليه وليس من أهله، ومنه قولهم: فلان وليجة في القوم إذا لحق بهم وليس منهم، إنساناً كان أو غيره، قال: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَةً﴾ [التوبة: ١٦]، وذلك مثل قوله: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾ [المائدة: ٥١]، ورجل خُرْجَةٌ وَلِجَةٌ: كثير الخروج والولوج»<sup>(١)</sup>.

والآية الأولى جاءت في سياق يتحدث عن أهل الكتاب بدليل ما قبلها وما بعدها، فلقد جاءت تنهى المؤمنين أن يطيعوا أولئك ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فِرْعَانَ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بِغَدَائِبِكُمْ كَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠].

أما الآية الثانية فقد جاءت في سياق الجهاد، وإنهاء العهد للمشركين، فهي في سورة براءة، وهي السورة الأخيرة التي جاءت تبين أحكام القتال، فالآية الأولى تنهى المؤمنين أن يجعلوا خاصتهم من غيرهم. والآية الثانية تنهى المؤمنين أن يدخلوا غيرهم في مداخلهم الخاصة، ولما كان شأن الجهاد خطيراً لا يجوز للمؤمن أن يطلع غيره على أي سر من أسرارهِ أياً كان هذا السر، ولا على أي قضية من قضاياهِ؛ لذا جاءت كلمة وليجة لتؤدي هذا المعنى، فلعل بعض المسلمين يبيعوا لأنفسهم أن يدخلوا معهم غيرهم في حرب أعداء الله، فيستعينوا بغير المؤمنين. جاءت كلمة وليجة لتحذر المسلمين من ذلك.

(١) المفردات، الراغب، ص ٥٣٢.

ومن هذا تدرك أن ما قاله بعض المفسرين من تفسير الوليجة بالبطانة، فيه تساهل وتسامح.

١١- الدثار والتزمل: قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الْمُرْمَلُ ① قُرْ أَلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ②﴾ يَصْفَهُ أَوْ أَنْقَضَ مِنْهُ قَلِيلًا ③ أَوْزِدَ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ④ ﴿[المزم: ١-٤]، وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الْمُدَّتُّرُ ① قُرْ فَأَنْذِرْ ② وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ③﴾ [المدثر: ١-٣]. وكثيرون الذين يفسرون الدثار والتزمل بمعنى واحد، إلا أن اختيار الكلمة القرآنية في موضعها، يحتم علينا أن نبحث عن سر هذا الاختيار، فالدثار - كما مر معنا آنفًا - هو اللباس الذي يلي البشرة، أما التزمل فهو يعطي معنى زائداً على ما سبق، فالتزمل فيه معنى الثقل والكثرة، ومنه الزوامل التي تحمل الأحمال الثقيلة.

ولما كان الدثار أمراً لا بد منه لكل من يقابل الناس، جاء قوله سبحانه ﴿يَتَأْتِيهَا الْمُدَّتُّرُ ① قُرْ فَأَنْذِرْ ②﴾ ، ولما كان المتزمل، أي: المتلفف المتثقل بما يضعه على بدنه من ثياب وغطاء وغشاء - وهذا يكون في حالة نومه - جاء قوله سبحانه: ﴿يَتَأْتِيهَا الْمُرْمَلُ ① قُرْ أَلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ②﴾ .

وهكذا تجد الكلمات القرآنية، كل في موقعها الذي يصلح لها، وفي موضعها الذي لا تصلح هي إلا له.

١٢- جعل وخلق: ذكر الراغب أن جعل تأتي في كتاب الله على وجوه، وذكر لها معاني خمسة، والذي يعيننا الآن أننا نجد أن جعل، تارة تستعمل في مقابلة خلق، وتارة تستعمل في مقابلة أنزل، وثالثة في مقابلة سلك، فمن الأول نقرأ قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْقَرُوا رَبِّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١]، وقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ [الروم: ٢١]، ولكننا نقرأ في مواضع أخرى ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]، وفي آية أخرى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الزمر: ٦].

أ- في مقابلة خلق: وإذا فكرت في هذه المواضع جميعاً، وجدت أنه حينما يكون السياق حديثاً عن القدرة، ذكرت كلمة الخلق، وحينما يكون السياق حديثاً عن النعمة، تذكر كلمة الجعل، والسياق في كل آية خير دليل على ما ذكرته لك. فالآية الأولى أمرت بالتقوى، تقوى الله القادر على كل شيء، وحرى بمن كانت هذه قدرته أن يتقيه العباد، وكذلك الآية الثانية جاءت في ذكر آيات الله وعظيم قدرته ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ [الروم: ٢٠]، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [الروم: ٢١]، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الروم: ٢٢]، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [الروم: ٢٣]، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ [الروم: ٢٥].

أما المجموعة الثانية، فالآية الأولى تقول: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ فهذا الجعل فيه معنى التصيير، فهو يشبه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]، والآية الثانية جاء فيها عقب قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الزمر: ٦] ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنْ الْأَنْعَامِ ثَمِينَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر: ٦].

ألا تجد أن ذلك حديث عن النعمة.

وهذا مضطرد في كتاب الله، ومما يوضح ذلك هذه الدقيقة القرآنية واللطيفة البينانية أن تقرأ قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لَتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ وَكُلُّ شَيْءٍ فَضْلُنَا نَنْفِصِلًا﴾ [الإسراء: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِئَةً إِلَى جِوْنٍ﴾ [٨٠] وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ [النحل: ٨٠-٨١]، وقوله سبحانه: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الظُّلُمِ الْأَنْعَامِ مَا



تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ [الزخرف: ١٢]، وقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لَتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [غافر: ٧٩]، وقوله: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِي تُوْرًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا﴾ ﴿١٦﴾ [نوح: ١٦].

هذه الآيات جميعاً جاءت في سياق الحديث عن نِعَم الله تبارك وتعالى، فأية الإسراء وآية نوح، تحدثنا عن جعل الليل والنهار، والشمس والقمر، وآية النحل تحدثت عن جعل الظلال مما خلق الله، وجعل الأكنان من الجبال، كما تحدثت عن جعل البيوت سكناً، وجعل البيوت من جلود الأنعام، كما تحدثت آيتا الزخرف وغافر عن جعل الفلك والأنعام ركوبة للناس، وعمّا في الأنعام من منافع كثيرة لا تقف عند الأكل وحده.

ولكننا نقرأ قول الله تبارك وتعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٦﴾ [يس: ٣٦]، وفي السورة نفسها ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ ﴿٧١﴾ [يس: ٧١]، ونقرأ قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

فالآيتان الأولى والثانية في سورة يس، وسورة يس - كما تعلم - جاءت تتحدث عن البعث، وهذا البعث يحتاج في إثباته إلى بيان القدرة الإلهية، لذا جاءت الآيات - كما رأيت - معنونة بعنوان الخلق، والآية الثالثة في سورة الأنبياء تتحدث عن القدرة، وتلك لَعَمْرُ الحقِّ ومضة إعجاز مضيئة، حري أن يهتدى بنورها.

ب- جعل في مقابلة أنزل: تقرأ قوله الله تعالى: ﴿الرَّيْلُكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ تَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْءَانَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾ [يوسف: ١-٣]، ونقرأ قوله تعالى: ﴿حَمَّ﴾ ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُ فِي أُنْزَالِهِ لَكُنْزٌ لَدِينَا لَعَلَّيْ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ [الزخرف: ١-٤]. وإذا أردنا أن ندرك سر استعمال كل من الكلمتين في موضعها، فينبغي أن نتذكر أن الحديث بعد الآية

الأولى، آية الإنزال كان عن أحسن القصص الذي يقصه الله على نبيه ﷺ، مما لا سبيل لمعرفة إلا بخبر السماء.

السياق سياق إنزال -إذن- لكن الآية الثانية آية الجعل، ذكر عقبها ﴿وَأَنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلُّ حَكِيمٌ ۝﴾ فإذا كان أصل القرآن في أم الكتاب، وهو اللوح المحفوظ أو علم الله -كما يقول المفسرون- فإن من رحمة الله تعالى، أن جعل هذا الكتاب فيما بعد قرآناً عربياً، ولم يجعله قرآناً أعجمياً.

كلمة الجعل -إذن- جاءت لتفيد معنى التصيير، وهكذا تجد أن كلاً من الجعل والإنزال، جاءت حيث ينبغي أن تكون.

ج- جعل في مقابلة (سلك): قال الله تعالى: ﴿قَالَ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَصِلُ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ۝﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴿طه: ٥٢-٥٣﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْنَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ۝﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ ﴿الزخرف: ٩-١٠﴾.

وقفت طويلاً عند هاتين الآيتين، وقد رأيت أن الذين كتبوا في التشابه يرون أن مؤدى الكلمتين شيء واحد، ولكن إيماني بدقة اللفظة القرآنية، حال بيني وبين القناعة بما ذكروه، مع كل التقدير والإجلال لهم على ما صنعوه وبذلوه جزاهم الله عن كتابه وعن المسلمين خيراً.

ولعل الله أكرمنا بالهداية إلى سرٍّ من أسرار تلك الكلمات، وهذا يقتضيها أولاً أن نبحث عن الفرق بين الكلمتين -أعني كلمة السلك والجعل- وإذا كان الجعل الإيجاد أو التصيير، فإن السلك إنما يدل على نفاذ مرتب، وعلى عمق في الترتيب، وإبداع. ألا ترى أنهم يستعملون السلك في وضع الجواهر والخرز في العقد، وهذا يحتاج إلى بصيرة بعمق وإبداع في الترتيب.

وانظر إلى قوله سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ ﴾ [الزمر: ٢١]. إن سلك الماء ينابيع في الأرض، إنما هي بحاجة إلى اللطيف الخبير، الذي يعلم طبائع الأشياء، وما يصلح لبعضها دون الآخر، ثم تدبر قوله سبحانه: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ اللَّبَالِ يُونَا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ﴾ [النحل: ٦٨-٦٩]، وسل عما يقوله العلماء بطبائع النحل، تدرك سر استعمال الكلمة القرآنية، فإذا تأكدت أن هناك فرقاً بين الجعل والسلك...

بقي أن نتقل بك إلى القضية الثانية، وهي سر استعمال كل من الكلمتين في موضعها: كلمة جعل جاءت في سورة الزخرف في سياق خطاب أهل مكة من العرب، ولكن كلمة سلك جاءت في سورة (طه)، وعلى التحديد جاءت رداً من موسى عليه السلام على فرعون، وذلك على الأسئلة المتعنتة ﴿ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَىٰ ﴾ ﴿٦١﴾ ﴿ طه: ٤٩ ﴾، ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴾ ﴿٥١﴾ [طه: ٥١].

وأرجو أن يكون قد بدأ يلوح لك نور الكلمات، وسر البيان، كلمة السلك جاءت في سياق الخطاب لفرعون، وكلمة الجعل في سياق الحديث عن أهل مكة، ومن البدهي أن ما لمصر من حضارة بخاصة في تلك الأزمنة يقتضي ترتيباً وتنظيماً ودقة في إيجاد الطرق، زراعية وغير زراعية، لذا جاءت كلمة السلك.

أما عند العرب فلم يكن لأمر الطرق عندهم إلا الهداية في السير، ولذا جاء في الآية ﴿ وَجَعَلَ لَكُم فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ ﴿١٠﴾ [الزخرف: ١٠] وهذه الخاتمة التي خُتمت بها الآية تؤيد ما ذهبت إليه.

تلك كلمة واحدة من كتاب الله تعالى، كلمة جعل، جاءت تتناوب مع كلمات كثيرة - كما رأيت - ولا تظن أننا استوفينا ما لهذه الكلمة من حق، وإنما أردنا لك أن تتذوق، فإذا راقك ما تذوقت وهو كذلك، فتزود، والله يفتح الباب لمن صدق الطلب.

وهكذا يمكنك أن تفهم سر استعمال الكلمة القرآنية من السياق، الذي جاءت فيه، والله يتولى هداتنا وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

## الفَصْلُ الْإِلَّاهِي

### في الإفراد والتثنية والجمع

من عجيب أمر هذا القرآن أننا نجد فيه كلمات لم تُستعمل إلا مفردة، وأخرى ذُكرت في صيغة الجمع، وإن كان أكثر كلماته -ونعني بها الأسماء- ذُكرت بالصيغتين معاً.

ولقد ذكر الأئمة -رحمهم الله تعالى- بعض ما جاء من ذلك في كتاب الله تبارك وتعالى، كما فعل ابن القيم رحمته الله في كتابه «بدائع الفوائد» والسيوطي في أكثر من كتاب من كتبه، وسأحاول في هذا المبحث الإفادة مما ذكره مناقشاً حيناً، وراداً حيناً آخر، كما أحاول التقصي كذلك عن بعض الكلمات راجياً توفيق الله تعالى وفتحه، وهو خير الفاتحين.

- وأول ما يظهر للمتأمل في كتاب الله تعالى، أن إفراد الكلمة تكتنفه أسباب عدة:
- فقد تفرد الكلمة لعدم تحقق غيرها في الخارج، كالشمس والقمر وغيرهما مما لا تعدد لوجوده.
  - وقد يكون استعمال الكلمة مفردة، إشارة إلى الحكمة المقصودة من تلك الكلمة، وهي أنها لا تؤدي رسالتها إلا إذا كانت كذلك -مفردة-.
  - وقد يكون الإفراد، لسبب ثالث: وهو ثقل الجمع.
  - وثمة سبب رابع، وهو أن تكون الكلمة قصد منها تأدية معنى لا تشترك مع غيرها فيه.
- تلك أهم أسباب الإفراد -كما تبدو لي-.

وهناك أسباب للجمع كذلك، يتوخى فيها القرآن بياناً وحكمة كما مرّ بنا من قبل.

- فقد يكون هناك ثقل بالمفرد من حيث النطق.
  - وقد لا يكون للمفرد وحده رسالة يمكن أن تؤدي، ولا تؤدي إلا بالجمع.
- وهكذا يمكن أن نتلمس الأسباب للكلمات القرآنية الكريمة، من هذه الحيشة أو تلك.

#### ١ - وما ذكره العلماء في ذلك كلمتا: الريح والرياح.

فالرياح: تستعمل في سياق الرحمة، والريح: في سياق العذاب، مثل قوله تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ۝٤١﴾ [الذاريات: ٤١]، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيَذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ۝٤٦﴾ [الروم: ٤٦].

وأما قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا﴾ [يونس: ٢٢] حيث استعملت الريح في مقام الإنعام قالوا: إن لذلك سببين معنوياً ولفظياً.

أما الأول: فإنه ليس من مصلحة أهل الفلك أن تكون رياح كثيرة.

وأما الثاني: فإنها وصفت بطيبة.

٢ - وقد ذكروا من ذلك: السموات والأرض فقالوا: أفردت الأرض، ولم تُجمع لثقل الجمع، وأما السماء ففرد مفردة إن أريد الجهة، وترد مجموعة إن أريد التعدد والإحاطة والشمول وبيان القدرة، قال تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢﴾ [الذاريات: ٢٢]، ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۝٢٥﴾ [لقمان: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۝١٦٤﴾ [البقرة: ١٦٤]، آل عمران: ١٩٠.

وذهب ابن القيم<sup>(١)</sup> وهو يقارن بين آيتين مذهباً آخر، يقول عند قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبا: ٢٤]، وقوله سبحانه: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ [يونس: ٣١].

يقول رحمه الله وهو يقارن بين هاتين الآيتين: «إنه لما كان السؤال عن السموات تولى الله الإجابة: قل الله. ولما كان السؤال عن السماء كانت الإجابة منهم: فسيقولون الله. ذلك لعدم إقرارهم بوجود سبع سموات»<sup>(٢)</sup>.

وهذه بديعة من بدائع كتاب ربنا، حري بنا وبكل متأمل أن يقف خاشعاً مسبحاً عندها. هذه اللفظة الكريمة التي وردت فيها «السماء» مفردة تارة، ومجموعة أخرى.

في سورة آل عمران، نقرأ قول الله تعالى وهو يبين ما أعد لعباده، وما امتن به عليهم، وما أكرمهم به ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [٣٣] الَّذِينَ يُفْقُونَ فِي الشَّرَاءِ وَالْضَّرَاءِ وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿[آل عمران: ١٣٣].

(١) محمد بن أبي بكر الدمشقي المشتهر بابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ / ١٣٥٠م). بدائع الفوائد، إدارة الطباعة المنيرية، مصر، ج ١، ص ١١٧.

(٢) ولكن ما ذهب إليه رحمه الله غير مسلم له، فهو منتقض بما سبق بمثل قوله تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾، والذي يترأى لنا، أنهم تولوا الإجابة في الآية السابقة ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ لأن السؤال ليس عن الرزق فحسب، وإنما انتظم فيما انتظم أموراً كثيرة كملك السمع والأبصار وإخراج الحي من الميت والميت من الحي، وتدبير الأمر، ومن البدهي بأنه لا يقدر على هذه إلا الله وحده.

ونقرأ في سورة الحديد هذه الآية الكريمة: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ [الحديد: ٢١].

فالآية الأولى: جمعت فيها السموات، لكن الآية الثانية: أفردت فيها السماء وأدخل عليها (كاف) التشبيه.

والمنعم النظر في الآيتين الكريمتين يلمح هذا السر الرائع، ذلك أن الذين أعدت لهم هذه الجنة في الآية الأولى - وهم المتقون - ذكرت لهم أوصاف، كل وصف منها يستحق صاحبه أرفع المنازل لأنها أوصاف تدل على التجرد، وبند حظوظ النفس، وذلك يعسر على الكثيرين، ومن الذي يتغلب على نفسه فينشق في السراء والضراء؟ ومن الذي يتغلب على نفسه فيكظم غيظه ويعفو عن غيره؟ والناظر في عالمنا الإسلامي يجد أن ما أصابه من مرض عضال، وضعف حركة، وقلة بركة، يرجع أول ما يرجع إلى التخلي عن هذه الصفات. أما الآية الثانية: وهي التي أفردت فيها السماء، فقد ذكر فيها الإيثار وحده، لذلك اختلف التعبير في الآيتين الكريمتين.

بقي أن يقال: إذا كانت السماء جاءت مفردة تارة، ومجموعة أخرى، لكن الأرض لم تأت في كتاب الله تعالى مجموعة، وإنما جاءت مفردة فحسب، وسواء قلنا إن جمع السموات كان لما ذكرناه من قبل أم لأن لكل سماء طبيعتها الخاصة بها، فإن أفراد الأرض، إما لثقل الجمع، كما قالوا: وهو «أرضين»، أو لأنها ليس فيها هذا الاختلاف الذي يمكن أن يكون في السموات. وهذا ما نرجحه لأن أمر الثقل أمر نسبي، لذلك وجدنا هذا الجمع في حديث النبي ﷺ: «من أخذ شبراً من الأرض فإنه يطوقه يوم القيامة من سبع أرضين»<sup>(١)</sup>. وإلى قريب من هذا أشار صاحب

(١) انظر: البخاري في صحيحه، كتاب: بدء الخلق، باب: ما جاء في سبع أرضين، ج ٦، ص ٢٩٢.  
وانظر: مسلم في صحيحه، كتاب: المساقاة، باب: تحريم الظلم وغصب الأراضي، ج ٣، ص ١٢٣٠، حديث رقم ١٦١٠.

البرهان يقول ﷺ: «فمنه أنه حيث ورد ذكر الأرض في القرآن فإنها مفردة كقوله تعالى: ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]. وحكمته أنها بمنزلة السفلى والتحت ولكن وصف بها هذا المكان المحسوس، فجرت مجرى امرأة وزور، وضيع، فلا معنى لجمعها كما لا يجمع الفوق والتحت والعلو والسفل، فإن قصد المخبر إلى جزء من هذه الأرض الموطوءة، وعين قطعة محدودة منها خرجت عن معنى السفلى، الذي هو مقابلة العلو، فجاز أن تُثنى إذا ضُمَّتَ إليها جزءاً آخر، ومنه قوله ﷺ «يطوقه من سبع أرضين» فجمعها لما اعتمد الكلام على ذات الأرض، وأثبتها على التفصيل والتعيين لأحاديها دون الوصف بكونها تحت أو أسفل في مقابلة علو.

وأما جمع السموات، فإن المقصود بها ذاتها دون معنى الوصف، فلهذا جمعت جمع سلامة، لأن العدد القليل جمع القليل أولى به، بخلاف الأرض فإن المقصود بها معنى التحت والسفل، دون الذات والعدد.

وحيث أريد بها الذات والعدد أتى بلفظ يدل على التعدد كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢].

وأيضاً فإن الأرض لا نسبة إليها إلى السموات وسعتها، بل هي بالنسبة إليها كحصاة في صحراء، فهي وإن تعددت كالواحد القليل، فاختر لها اسم الجنس.

وأيضاً فالأرض هي دار الدنيا التي بالنسبة إلى الآخرة، كما يدخل الإنسان إصبعه في اليم، فما يعلق بها هو مثال الدنيا، والله تعالى لم يذكر الدنيا إلا مقللاً لها.

وأما السموات فليست من الدنيا على أحد القولين، فإذا أريد الوصف الشامل للسموات، وهو معنى العلو والفوق أفرد كالأرض، بدليل قوله تعالى: ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاوَاتِ أَنْ يُخْفِيَ بِكُمْ الْأَرْضَ﴾ [الملك: ١٦]، ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ [الملك: ١٧]. فأفرد هنا لما كان الوصف الشامل، وليس المراد سماء معينة.



وكذا قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [يونس: ٦١]، بخلاف قوله في سبأ: ﴿عَلِمَ الْغَيْبُ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٣]، فإن قبلها ذكر الله سعة علمه، وأن له ما في السموات وما في الأرض، فافتضى السياق أن يذكر سعة علمه، وتعلقه بمعلومات ملكه، وهو السموات كلها والأرض.

ولما لم يكن في سورة يونس ما يقتضي ذلك أفردتها إرادة للجنس.

وقال السهيلي: لأن المخاطبين بالافراد مقرون بأن الرزق ينزل من السحاب، وهو سماء، ولهذا قال في آخر الآية ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ [يونس: ٣١] وهم لا يقرون بها نزل من فوق ذلك من الرحمة والرحمات وغيرها، ولهذا قال في آية سبأ: ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ [سبأ: ٢٤] أمر نبيه ﷺ بهذا القول ليعلم بحقيقته.

وكذا قوله: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ [الأنعام: ٣]، فإنها جاءت مجموعة؛ لتعلق الظرف بها في اسم الله تبارك وتعالى من معنى الإلهية، فالمعنى: هو الإله المعبود في كل واحدة من السموات، فذكر الجمع هنا أحسن، ولما خفي هذا المعنى على بعض المجسمة قال: بالوقف على قوله: ﴿فِي السَّمَوَاتِ﴾ ثم يبتدئ بقوله: ﴿وَفِي الْأَرْضِ﴾.

وتأمل كيف جاءت مفردة في قوله: ﴿قَوْرَبِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ [الذاريات: ٢٣]، أراد لهذين الجنسيتين، أي: رب كل ما علا وسفل.

وجاءت مجموعة في قوله: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: ١] في جميع السور لما كان الإخبار عن تسبيح سكانها على كثرتهم، وتباين مراتبهم، لم يكن بد من جمع محلهم.

ونظير هذا جمعها في قوله: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ (١٩) ﴿[الأنبياء: ١٩]، وقوله: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ﴾ [الإسراء: ٤٤]، أي: تسبح بذواتها وأنفسها على اختلاف عددها، ولهذا صرح بالعدد بقوله: ﴿السَّبْعُ﴾.

وتأمل كيف جاءت مفردة في قوله: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ (٢٢) ﴿[الذاريات: ٢٢]، و(الرزق): المطر، ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾: الجنة. وكلاهما في هذه الجهة؛ لأنها في كل واحدة واحدة من السموات، فكان لفظ الأفراد اليق.

وجاءت مجموعة في قوله: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥] لما كان المراد نفي علم الغيب عن كل من هو في واحدة واحدة من السموات، أتى بها مجموعة، ولم يَجِئْ في سياق الأخبار بنزول الماء منها إلا مفردة حيث وقعت لما لم يكن المراد نزوله من ذاتها، بل المراد الوصف.

فإن قيل: فهل يظهر فرق بين قوله تعالى في سورة يونس: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ﴾ [يونس: ٣١]، وبين قوله: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ﴾ [سبا: ٢٤]؟

قيل: السياق في كل منها مرشد إلى الفرق، فإن الآيات التي في يونس سبقت للاحتجاج عليهم بما أقروا به من كونه تعالى هو رازقهم، ومالك أسماعهم وأبصارهم، ومدبّر أمورهم بأن يُخرج الحي من الميت، ويُخرج الميت من الحي، فلما كانوا مقرين بهذا كله حسن الاحتجاج به عليهم، إذ فاعل هذا هو الله الذي لا إله غيره، فكيف تعبدون معه غيره، ولهذا قال بعده: ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ أي: هم يقرون به، ولا يجحدونه، والمخاطبون المحتج عليهم بهذه الآية إنما كانوا مقرين بنزول الرزق من قبل هذه السماء التي يشاهدونها ولم يكونوا مقرين ولا عالمين بنزول الرزق من سماء إلى سماء حتى ينتهي إليهم، فأفردت لفظة (السماء) هنا لذلك.

وأما الآية التي في سبأ، فإنه لم ينتظم لها ذكر إقرارهم بما ينزل من السماء، ولهذا أمر رسوله بأن يجيب، وأن يذكر عنهم أنهم هم المجبيون، فقال: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ﴾ ولم يقل: «فسيقولون الله» أي: الله وحده الذي ينزل رزقه على اختلاف أنواعه ومنافعه من السموات<sup>(١)</sup>.

٣- وهذه كلمة عين، وردت مفردة في كتاب الله تعالى في مثل قوله: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦]، لما أريد التخصيص. ووردت مجموعة لما كان المقام يقتضي التهويل والتعميم، كما جاء في الحديث عن الطوفان ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾ [القمر: ١١-١٢]. ووردت كلمة عين بغير هذا المعنى وهو المبصرة مفردة ومجموعة كذلك، قال تعالى لنوح عليه السلام: ﴿وَأَصْنِعْ الْفُلَ كَمَا يَأْمُرُكَ رَبُّكَ فَتَنْصَحَ عَلَى عَيْنِي ﴿٣٩﴾﴾ [طه: ٣٩] وقال لخاتم الأنبياء سيدنا محمد ﷺ: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴿٤٨﴾﴾ [الطور: ٤٨]<sup>(٢)</sup>.

هكذا تأتي الكلمة القرآنية لتتلاءم مع المقام الذي ذكرت فيه دالة على المعنى أفضل دلالة، متمكنة من النفس خير تمكن، ومع روعة الإبداع نجد كذلك جمال الإيقاع، ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٦﴾﴾ [الفرقان: ٦].

٤- وذلك في كتاب الله تعالى لا يمكن حصره، فهذه كلمة: (ولي)، وردت مفردة في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ

(١) البرهان، الزركشي، ج ٤، ص ٦-٩.

(٢) ومن بديع النظم، ودقة المعنى، أننا نجد الجمع يختلف لكلمة (عين) باختلاف معناها، فالعين التي هي آلة الإبصار يأتي جمعها على أعين، قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يَّرْءُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٩٥] أما عين الماء، أي: الجارية، فتجمع على عيون، قال تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٢٤﴾﴾ [يس: ٢٤].

كَفَرُوا أَوْلِيَآؤُهُمُ الظَّالِمُونَ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ﴿البقرة: ٢٥٧﴾<sup>(١)</sup>، فولي المؤمنين الله وحده، أما الكافرون فأولياؤهم كثر.

٥- وهذه كلمة: الألباب لم تذكر إلا بهذه الصيغة، صيغة الجمع، أما المفرد وهو كلمة (لب) فإنها لم تذكر في كتاب الله تعالى، ولكن لم؟!

يقول الإمام السيوطي<sup>(٢)</sup> رَحِمَهُ اللهُ بَأَن عدم ذكرها يرجع إلى ثقلها، وهكذا يقول الرافعي رَحِمَهُ اللهُ كذلك<sup>(٣)</sup>.

وأقول: إن الكلمة القرآنية لا ينبغي أن ينظر إليها من حيثية واحدة، من حيث الخفة والثقل فحسب، بل يمكن أن تعطينا من أسرارها حينما نمعن النظر فيها عطاء لا ينتهي أثره.

وإذا سلّمنا ما ذكره هذان الإمامان: السيوطي والرافعي، يمكننا أن نجد سبباً آخر، فلا نقف عند هذه القضية اللفظية. بيان ذلك:

إننا نجد كلمة (حَجَر) بمعنى (العقل) ذكرت مفردة فحسب في كتاب الله تعالى ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرِ﴾ [الفجر: ٥]<sup>(٤)</sup>.

وأما الألباب: فقد وردت بصيغة الجمع - كما عرفنا من قبل - لأننا نظن - والله أعلم - أن هناك سراً بديعاً، وغاية رائعة قصد إليها.

---

(١) فالله وحده ولي المؤمنين، أما الكافرون فأولياؤهم كثر ولكنهم لا يغنون عنهم شيئاً.

(٢) معترك الأقران للسيوطي، ج ٢، ص ٥٩٨.

(٣) إعجاز القرآني للرافعي، ص ١٦٠. وفيه يقول الرافعي رَحِمَهُ اللهُ: لم تحي (لب) في القرآن مفردة بل جاء في مكانها (القلب)، وذلك لأن لفظ الباء شديد مجتمعة، ولا يفضي إلى هذه الشدة إلا من اللام الشديدة المسترخية.

(٤) أما ورودها مجموعة في قوله تعالى: ﴿وَرَبَّيُّكُمْ أَنِّي فِي حُجُورِكُمْ﴾ [النساء: ٢٣]، فإن الحجر هنا له معنى آخر، ولا بد من الجمع لأنه خطاب لجماعة المؤمنين.

نحن نعلم أن الحَجْر هو: المنع، أما (اللب) فهو: الثمرة والنتاج، وقضية الامتناع عن الوقوع في الردى، والابتعاد عن المساوىء والردائل وتجنب الهوى التي تعطىها كلمة (حَجْر) نعلم أن هذه قضية فردية، تخص أول ما تخص الفرد نفسه، لأنها ذات تعلق بميوله واتجاهاته واستعداداته.

أما كلمة (اللب) بما تحمله من معنى محدد، فهي في الواقع أمر يخص الجماعة أكثر من الفرد، لأن الجماعة من شأنها أن تنتج، وتجد ثمرة جهادها، من أجل ذلك نرجح -والله أعلم- أن كلمة (الحَجْر) لم ترد مجموعة بمعناها الدال على العقل كما أن كلمة (ألباب) لم ترد مفردة كذلك؛ لأن الحجر يتجلى فيها الجانب السلبي وهو ألصق بالفرد، ولأن اللب يتجلى فيه الجانب الإيجابي، وهو من شأن الجماعة، فكم من مقررات تتخذها الجماعات لا تنفذ لعدم التزام الأفراد بتنفيذها.

٦- ومن هذا، هذه الآية من كتاب الله تعالى: ﴿وَأَن هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، فهنا يعدل القرآن عن كلمة: (الصُّرْط) جمع صراط، لكونها أثقل من السُّبُل من جهة، ولكون الصراط يغلب عليه طريق الخير من جهة أخرى.

٧- وفي القرآن الكريم، تذكر لفظة الآية من آيات الله في هذا الكون مفردة تارة، ومجموعة أخرى، والمنعم النظر ينعم وينعم على هذا الإبداع.

من ذلك: ما جاء في سور الحجر بعد الحديث عن قوم لوط عليه السلام: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ (٧٥) وَإِنَّهَا لَيسَبِيلٌ مُّقِيمٌ (٧٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) ﴿

[الحجر: ٧٥-٧٧].

فانظر: كيف ذكرت الآيات أولاً لما كان الحديث عن المتوسمين الذين شاهدوا هلاك قوم لوط، وما أكثرها من آيات، فإهلاكهم آية، وإمطار الحجارة عليهم آية، وقلب قراهم آية... إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة المتعلقة بهم.

ولما كان الحديث عما بقي فيها من أثر يراه أهل مكة في طريقهم إلى الشام، ذكرت الآية مفردة، لأنها لا تتعلق إلا بآثارهم فحسب، وهي آية تكفي المؤمنين ليعتبروا بها.

وفي سورة النحل -وهي سورة النعم- يمن الله علينا بالإنبات، إنبات ما يصلح شؤوننا، ويمن علينا بعد ذلك بتسخير الشمس والقمر والليل والنهار والنجوم... إلخ.

وفي آية ثالثة يمن علينا بما ذرأ في الأرض مختلفاً ألوانه. هذه النعم الثلاث، ختمت الأولى والثالثة منها بلفظ آية إفراداً، أما الثانية: فقد ختمت بمجموعة بلفظ آيات.

قال تعالى: ﴿يُنِيبُ لَكُمْ فِيهِ الْزَرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِي إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [النحل: ١١-١٣].

فما أجل ختم كل آية بما يناسبها، وليس هذا غرضنا الآن، لكن الذي يعيننا أن التسخير أمر يختلف طبيعة وزماناً ومكاناً. فتسخير الليل والنهار له الأغراض التي ليست لتسخير الشمس والقمر، وكذلك النجوم عبر عنها هنا بجملة مستقلة ليست تابعة لما قبلها، كما جاء في سورة الأعراف ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فتسخيرها هنا أمر مستقل بذاته، منفرد عما قبله. من أجل ذلك كله ختمت هذه الآية بغير ما ختمت به قريناتها.

أما الإنبات وذرء ما في الأرض، فكلاهما شيء واحد. لذا ختم كل منهما بلفظ آية إفراداً غير جمع.

٨- وقد تجيء الكلمة القرآنية مفردة تارة ومثناه أخرى ومجموعة ثالثة: كالشرق والمغرب، نقرأ قول الله تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ ﴿١﴾ ﴿[المزمل: ٩]، ونقرأ قول الله تعالى في سورة الرحمن: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ ﴿١٧﴾ ﴿[الرحمن: ١٧]، أما سورة المعارج فنقرأ فيها قول الله تعالى: ﴿فَلَا أَقِيمُ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَدِيرُونَ﴾ ﴿٤٠﴾ عَلَى أَنْ نُبْدِلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ ﴿٤١﴾ [المعارج: ٤٠-٤١].

وقد ذكروا في الآية الأولى: أنها تعني مشرق الشمس ومغربها. أما آية الرحمن: فإنها تعني ذلك في كل من الصيف والشتاء؛ لأن لكل واحد منهما ما يخصه هو فضلاً عن أن سورة الرحمن ذكر فيها أشياء كثيرة، كل اثنين متقابلان معاً، كالشمس والقمر، والنجم والشجر، والسماء والأرض، والرفع والوضع، القسط والخسران، الفاكهة والنخل، الحب والعصف، والجن والإنس، والبحران العذب والملح، واللؤلؤ والمرجان. كما ذكر قول الله تعالى: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ ﴿٦٦﴾ [الرحمن: ٦٦].

أما آية المشارق والمغارب، فإنها تعني تعدد المطالع حسب الأزمنة والأمكنة. ولا ننسى أنها جاءت في سياق إثبات البعث<sup>(١)</sup> فهي أدل على قدرة الله تعالى<sup>(٢)</sup>.

(١) ولا يخلو وقت من الأوقات من وجود مشرق ومغرب.

(٢) ومن عجب أمر الفراء - عفا الله عنه - قوله: «إن العرب قد تذكر جنتين، وتريد واحدة» واستشهد لذلك ببيتين من الشعر. وهذا غير مقبول ولا جائز في كتاب الله تعالى. ونحن نقرأ فيما بعد من آيات ﴿فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ [الرحمن: ٥٠] ثم نقرأ: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢]. إن ما ذكره الفراء لا يتفق مع دقة كتاب الله وقديسيته.

انظر: يحيى بن زياد بن عبد الله الفراء (ت ٢٠٧هـ / ٨٢٢م)، معاني القرآن، تحقيق: أحمد يوسف نجاتي، ومحمد علي النجار، مطبعة دار الكتب المصرية، طبعة أولى، سنة ١٩٥٥، ج ٣، ص ١١٨.

٩- ومما جاء في صيغة الإفراد والتثنية والجمع، كلمة يد مضافة إلى الله تبارك وتعالى، ولا يعيننا أن نخوض مع أصحاب المذاهب الكلامية، فذلك ليس من منهجنا هنا.

جاءت كلمة (يد) مفردة في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِيكُ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَكَ اللَّهُ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠].

وجاءت مثناة رداً على رأسي الشر في الجن والإنس، أما رأس الشر في الجن وهو إبليس فإننا نقرأ قول الله تعالى مؤنباً له: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي﴾ [ص: ٧٥]، وأما رأس الشر في الإنس وهم اليهود فنقرأ قول الله تعالى ناعياً عليهم مكذباً لهم ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٦٤] ونقرأ هذه الكلمة مجموعة في قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَلَائِكَةٌ﴾ [يس: ٧١].

والمنعم النظر، يجد أن كل صيغة من هذه الصيغ جاءت بحيث لا يمكن أن يسد غيرها مسدها.

ففي مقام البيعة أفردت. وفي مقام الإنفاق ذكرت صيغة التثنية لأن شأن الجواد كذلك، ومن الأدب العربي<sup>(١)</sup> كثير من هذا، وكذلك ذكرت صيغة التثنية في شأن خلق آدم عليه السلام دالة على العناية والتعهد والإبداع، وأما صيغة الجمع، فقد ذكرت في سياق تعدد المخلوقات، والله أعلم بأسرار كتابه: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ [الأنعام: ١٨].

(١) قال الخليل بن أحمد الفراهيدي:

يَدَاكَ يَدُ خَيْرُهَا يُرْتَجَى وَأُخْرَى لِأَعْدَائِهَا غَانِظَةٌ  
وفي السنة المطهرة، في الحديث الصحيح «وكلتا يديه يمين» أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الإمارة، حديث رقم ١٨.



١٠- ومما جاء إفراداً وجمعاً في كتاب الله تعالى: السمع والبصر، حيث يفرد السمع، ويجمع البصر، وقد ذكروا في ذلك: أن السمع مصدر لا يُثنى ولا يُجمع، كما أن السمع تدرك به الأصوات فحسب.

أما الأبصار: فيدرك بها أكثر من شيء واحد كالأحجام والألوان، وقد جاء البصر مفرداً في كتاب الله تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، ذلك لأنها تتحدث في نطاق مسؤولية الفرد.

١١- ومن ذلك ألفاظ ليس في ذكر مفرداتها فائدة، لأن المقصود بها الجماعة، كلفظ اليهود والنصارى، إذ المقصود كونها جماعات خرجت عن جادة الحق، واتخذت موقفاً عدائياً من جماعة المؤمنين، وكذلك «المتنافقون».

١٢- وقد ورد لفظ الجنة في كتاب الله تعالى مفرداً ومجموعاً، أما النار، فلم ترد إلا بلفظ فرد، ذلك لأن الجنة رحمة، فما أجمل أن تتعدد مراتبها، كذلك لفظ الأزلام والأصنام، لأن التنفير كان عنها جميعها لا عن واحد معين.

١٣- ومن أروع ما ورد في كتاب الله، من ذلك جمع الشافعين وإفراد الصديق في قول الله تعالى: ﴿فَمَالًا مِنْ شَفِيعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الشراء: ١٠٠-١٠١].

وعلق الزمخشري<sup>(١)</sup> مبيناً الحكمة في ذلك، وهو كثرة الشافعين، وقلة الصديق، وذلك كثير في كتاب الله تعالى ليس من الغرض استقصاؤه وحصره.

والذي ينعم النظر في الكتاب العزيز يجد ما يثلج الصدر، وما يرقص له القلب.

١٤- ومنها حيث ذكر (الكأس) في القرآن كان مفرداً، ولم يجمع في قوله تعالى: ﴿يَا كُؤَابَ وَأَبَارِيْقَ وَكَأْسٍ ﴿الرائعة: ١٨﴾﴾، ولم يقل (وكؤوس) لأن الكأس إناء فيه

(١) الكشف، للزمخشري، ج ٣، ص ١١٩.

شراب، فإن لم يكن فيه شراب، فليس بكأس، بل قدح، والقدح إذا جعل فيه الشراب، فالاعتبار للشراب لا لإنائه لأن المقصود هو المشروب، والظرف اتخذ للآلة، ولولا الشراب والحاجة إلى شربه لما اتخذ، والقدح مصنوع والشراب جنس، فلو قال: «كؤوس» لكان اعتبر حال القدح، والقدح تبع، ولما لم يجمع، اعتبر حال الشراب وهو أصل، واعتبار الأصل أولى، فانظر كيف اختار الأحسن من الألفاظ.

وكثير من الفصحاء قالوا: دارت الكؤوس، ومالت الرؤوس، فدعاهم الجمع إلى اختيار غير الحسن، فلم يدخل كلامهم حد الفصاحة، والذي يدل على ما ذكرناه أن الله تعالى، لما ذكر الكأس واعتبر الأصل قال: ﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ (١٨) [الواقعة: ١٨]. فذكر الشراب، وحيث ذكر المصنوع، ولم يكن في اللفظ دلالة على الشراب جمع فقال: ﴿يَا كُؤَابَ وَيَا رِيْقَ﴾ ثم ذكر ما يتخذ منه فقال: ﴿مِّن فِصَّةٍ﴾ [الإنسان: ١٥] (١).

ويقول الأستاذ الرافعي رَحِمَهُ اللهُ: «إن لفظة كوب لم تأت مفردة في كتاب الله، لأنه لا يتهيأ فيها ما يجعلها في النطق من الظهور، والرقعة، والانكشاف، وحسن التناسب كلفظة أكواب التي هي الجمع» (٢).

### كلمات قرآنية ورد لها أكثر من جمع واحد:

يقسم اللغويون الجمع إلى: جمع سالم، وجمع تكسير. والأول: إما مذكر وإما مؤنث، والثاني: أما للقلة، وإما للكثرة. وصيغ جمع القلة أربع ذكرها ابن مالك رحمه الله في ألفيته بقوله (٣):

(١) البرهان، للزركشي، ج ٤، ص ٢٠.

(٢) الأستاذ مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص ٢٣٢.

(٣) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، بهاء الدين بن عقيل، توزيع دار القلم، بيروت، لبنان، ٧٦٩هـ / ١٣٦٧م، ج ٢، ص ٤٥٢.

أَفْعَلَةٌ أَفْعَلُ ثُمَّ فَعَلَهُ ثَمَّتْ أَفْعَالٌ جُمُوعٌ قَلَّةٌ  
وفي القرآن الكريم كلمات جمعت تارة جمعاً سالماً، وأخرى مكسراً:

- ١- فمن ذلك جمع راعع وساجد، فقد جاء في كتاب الله تعالى: ﴿التَّكِيُّوتُ  
الْعَبِيدُوتُ الْحَمِيدُوتُ السَّخِيحُوتُ الرَّكِيحُوتُ السَّجِدُوتُ﴾ [التوبة: ١١٢].  
ونقرأ في سورة الفتح وصفاً لأصحاب النبي ﷺ ﴿تَرَبُّهُمْ رُكْعًا سَجَدًا﴾ [الفتح: ٢٩]، كما  
نقرأ قوله سبحانه يحدثنا عن البيت العتيق ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا  
تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦].  
ولا يشك أحد في أن ما جاء في سورة الفتح، وما جاء في شأن البيت العتيق  
إنما قصد به الكثرة من حيث الكم، ومن حيث الكيف، أي كثرة الذين يقومون بهذه  
العبادات، وكثرة العبادة نفسها كذلك، وليس كذلك ما جاء في سورة براءة<sup>(١)</sup>.  
فإن قيل: كيف جمع الطائفين والقائمين جمع سلامة، والرُّكْع جمع تكسير؟

- (١) وإتماماً للفائدة نذكر هنا أنه قدم الطائفين؛ لأنهم يطوفون حول الكعبة -شرفها الله تعالى- فهم لا  
يلزمون مكاناً واحداً، وثنى بالقائمين؛ لأنهم يقفون في مكان معين، ثم ذكر بعده الركوع والسجود  
لأن الركوع والسجود لا يلزم منه أن يكون في الحرم، هذا أولاً.  
وأما ثانياً: فقد ذُكِرَ للساجد جمع ثلاثة:  
١- جمع المذكر السالم كما جاء في سورة براءة (الساجدون) وهو يتناسب مع الأوصاف التي  
ذكرت في الآية الأنفة الذكر.  
٢- الجمع الثاني: سجد وهو ما ذكر في سورة الحج، وهو يفيد مع حركة السجود، الخشوع  
والخضوع.  
٣- سُجِّدَ كما ذكر في سورة الفتح -لأنه يتعلق برؤية العين. ﴿تَرَبُّهُمْ رُكْعًا سَجَدًا﴾ [الفتح: ٢٩] العين  
لا ترى إلا الحركة الظاهرة، أما الخشوع فأمر لا يمكن رؤيته. ونلاحظ أنه لم يفصل بين  
السجود والركوع بحرف العطف، لأن الركوع لا يعتبر إلا إذا كان معه السجود.

والجواب: إن جمع السلامة أقرب إلى لفظ الفعل، فطائفون بمنزلة يطوفون ففي لفظه إشعار بصلة التطهير، وهو حدوث الطواف وتجده، ولو قال بالطواف لم يفد ذلك، لأن لفظ المصدر يخفي ذلك، وكذا القول في القائمين.

وأما الراكعون، فلما سبق أنه لا يلزم كونه في البيت ولا عنده، فلهذا لم يجمع جمع سلامة، إذ لا يحتاج فيه إلى بيان الفعل الباعث على التطهير كما احتيج فيما قبله<sup>(١)</sup>.

٢- ومن الكلمات التي جمعت جمع سلامة، وجمع تكسير، ما جاء في هذه الآية الكريمة: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ أَخَوَاتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١].

فانظر كيف جاء جمع الابن على أبناء في قوله: ﴿أَبْنَاءُ هَؤُلَاءِ أَوْ أَبْنَاءُ بُعُولَتِهِمْ﴾ وجمع سلامة في قوله: ﴿أَوْ بَنَاتِ إِخْوَانِهِمْ أَوْ بَنَاتِ أَخَوَاتِهِمْ﴾ فجمع السلامة أدل على العموم من جهة، ولفظ (بني) يطلق على من ينتسبون إلى الأب من طرق متعددة يقال «بنو آدم وبنو تميم» ولا يقال: «أبناء آدم وأبناء تميم».

إذا عرفنا هذا أدركنا سر مجيء كل من الكلمتين في موضعها، فأبناء الأزواج ينتسبون إلى الرجل من طريق واحد، وليس كذلك أبناء الإخوة وأبناء الأخوات فقد يكونون من أخ شقيق أو أخ لأب أو أخ لأم، وكذلك أبناء الأخت، أو أبناء أخ من الرضاع أو أخت من الرضاع... وهكذا جاء كل جمع في مكانه الذي يصلح له.

(١) البرهان، للزركشي، ج ٣، ص ٢٥٠.

فإن قيل: لقد جاء لفظ الأبناء مضافاً للإخوة والأخوات في حق أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن، قال تعالى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ أَخَوَاتِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٥].

ويبدو - والله أعلم - أن ذكر الأبناء هنا جاء على بابهِ لأن الآية خاصة، أما آية النور فعامّة، ولعل في الآية أسراراً غير ما ذكرت يفتح الله بها على من يشاء.

٣- ومن الكلمات التي جمعت جمعاً مكسراً تارة، وجمع سلامة تارة أخرى، كلمة نبي، فلقد جمعت جمع سلامة في بضع عشر موضعاً، وجمعت على أنبياء في خمسة مواضع، كان السياق فيها جميعاً تبكيتاً لليهود، ونعياً عليهم بصنيعهم السيئ، وكأنه قصد بهذا الجمع تكثير الأنبياء، والذين لحقهم الأذى من أولئك الذين جبلوا على الشر ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩١]، ﴿وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: ١١٢]، ﴿وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: ١٨١]، ﴿فِيمَا نَقُصُّهُمْ مِنْهُمْ وَيَتَنَفَّسُ اللَّهُ وَكُفِّرْهُمْ شَانَتْ إِلَهُ وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ﴾ [النساء: ١٥٥]، ﴿أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ [المائدة: ٢٠].

وهذا الموضع الأخير، وإن كان ظاهره امتناناً عليهم إلا أنه في النهاية كان تبكيتاً لهم، أما جمع السلامة فجاء في أكثر من سياق واحد ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ١٣٦]، ﴿وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

٤- ومن ذلك كلمة رسل جمع رسول، وقد ذكرت نيافاً وأربعين مرة، وكلمة مرسلين جمع مرسل، وقد ذكرت في ثلاث وثلاثين موضعاً.

ومن ينعم النظر في كل من الكلمتين يجد أن كلمة الرسل لا تذكر إلا لمن خصّه الله بالرسالة من البشر، وذكرت قليلاً في شأن الملائكة مثل قوله تعالى: ﴿يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ [هود: ٨١]، ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾ [الحج: ٧٥].

أما كلمة مرسلين، فلقد ذكرت في سياق أعم، فهي لا تخص الرسل وحدهم، وإنما تشمل غيرهم كذلك، مثل قوله سبحانه: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [يس: ١٤]، وهذا الحديث عن أصحاب عيسى عليه السلام، ولم يخصهم الله بالرسالة، من هذا قول ملكة سبأ: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهِدْيَةٍ فَأُظَاهِرُ بِمَ رَجْعِ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [النمل: ٣٥]، كما ذكرت كلمة مرسلين في سياق الحديث عن يوم القيامة ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأعراف: ٦]، ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [القصاص: ٦٥]، كما جاءت كلمة المرسلين في سياق التعميم حديثاً عن المكذبين ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الشعراء: ١٠٥] ﴿كَذَّبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الشعراء: ١٢٣]... إلخ الآيات.

٥- وهذه كلمة سنبله وردت مجموعة جمع تكسير في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَعًا سَنَابِلٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة: ٢٦١] وهو جمع كثرة، ولكنها وردت مجموعة جمعاً سالماً في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ﴿٤٣﴾﴾ [يوسف: ٤٣]. والآية الأولى وردت في سياق التكرير<sup>(١)</sup>، أما الثانية: فلقد قصد بها تحديد العدد نفسه، كما يدل عليه سياقها ﴿وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ﴿٤٣﴾﴾ و﴿سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ ﴿٤٣﴾﴾.

وعجيب شأن هذا القرآن إذ وردت فيه كلمات جمعت بصيغ جمع التكسير ولكن بصيغ متعددة.

(١) لأنها في مقام الحث على الإنفاق وجزاء المنفقين.

## جموع كثرة وقلّة ظاهرة :

وقبل أن أتحدث عن سر اختلاف هذا الجمع في كتاب الله تعالى أراني مضطراً أن أنبه لقضية هامة، وهي أن هناك جموعاً للقلّة والكثرة لا يحتاج الأمر في تتبعها إلى طول وقوف، وكثرة عناء، ذلك لأن الأمر فيها ظاهر بيّن.

من هذه كلمات: آلاf وألوف، وأشهر وشهور: فلقد وردت كل من هذه الكلمات في موضعها المراد منها، قلّة أو كثرة، ففي سورة آل عمران نقرأ قول الله تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمَدِّدَ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٤-١٢٥]. ونقرأ قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَخْلَبَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣]، ﴿إِنْ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ [التوبة: ٣٦]. ﴿فَيَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [التوبة: ٢] فالأمر في هذه الكلمات ظاهر بيّن، فالآلاف والأشهر: جاءت أكثر من ذلك، لكن الذي لا بد من أن نقف عنده وقفة تأمل. هو ما لا تظهر فيه مزية للعدد.

## جموع كثرة وقلّة تحتاج إلى تدبر :

١- من هذه كلمة نفس جمعت جمع كثرة في موضعين لا يوجد غيرهما في كتاب الله أولهما: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ [الإسراء: ٢٥]، والثانية: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير: ٧]. ولكل من الجمعين سببه، وعلى سبيل المثال: كلمة أنفـس في آية المطلقات جاءت بصيغة جمع القلة ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، ونلمح ذلك توجيهاً قرآنياً كريماً، وسراً بيانياً بديعاً، ومنهجاً تربوياً قوياً. فالطلاق علة اجتماعية، وآفة ذات أثر سيئ ومن هنا كان أبغض الحلال إلى الله.

لا عجب إذن أن نجد هذه الصيغة أنفـس في كتاب الله تعالى كأنها هي دعوة لإحكام صلات الزوجية وتوثيق عراها، ومن شأن ذلك تقليل الطلاق.

وهكذا إذا تتبعنا كلمة الأنفس في كتاب الله نجد لها هذا السر، وتلك الروعة.

أما كلمة النفوس فقد جاء تارة في سياق سعة علم الله تبارك وتعالى، وتارة في شأن يوم القيامة، ولا شك أن المقصود في هذين الموضعين: التعميم والشمول. ففي الآية الأولى: المقصود شمول علم الله لجميع النفوس من جهة، ولكل ما في النفس الواحدة من جهة أخرى، وفي الآية الثانية ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۖ﴾ ﴿٧﴾ عموم لا يدخله التخصيص، فهو حديث عن الخلق جميعاً يوم القيامة.

٢- وهذه كلمة بحر جمعت جمع قلة في مثل قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧] وجمعت جمع كثرة في سياق الحديث عن يوم القيامة ﴿وَإِذَا الْيَحَاؤُ فَجِرَتْ ۖ﴾ ﴿٦﴾ [التكوير: ٦]، ﴿وَإِذَا الْيَحَاؤُ فَجِرَتْ ۖ﴾ ﴿٢﴾ [الانفطار: ٣].

ففي الحديث عن مشاهد يوم القيامة جمع البحر جمع كثرة ليشمل البحار جميعها ما عرفناه وما لم نعرفه.

٣- وهاتان كلمتا عباد وعبيد: في قول ربنا تبارك وتعالى: ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ۖ﴾ [ق: ٢٩]، ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ۖ﴾ [ق: ٢٩].

وما أجل ما لمحاه الراغب رحمه الله بفكره الثاقب، وأشار إليه مما بين الكلمتين من فرق دقيق، فحينما ذكرت كلمة عبيد سلط حرف النفي على الظلم ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ۖ﴾ [ق: ٢٩] ولما كان الحديث عن العباد فقط سلط النفي على إرادة الظلم ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ۖ﴾ [غافر: ٣١]، وشتان ما بينهما، وصدق الله ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ۖ﴾ [الاسراء: ١٠٥].

أما السهيلي رحمه الله في الروض الأنف فقد ذكر أن كلمتي عبيد ونخيل تطلقان على الصغير والكبير. قال تعالى: ﴿وَزَرَعٌ وَيَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ﴾ [الرعد: ٤]،



﴿ يُوْثِقُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ ﴾ [النحل: ١١]. فإذا ذكر العباد والنخل فإنها يخصان الكبير، قال تعالى: ﴿ وَالنَّخْلَ بَاسِقَدٍ ﴾ [ق: ١٠]، ﴿ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ ﴾ [الأنعام: ١٤١]، ﴿ وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ ﴾ [الأنعام: ٩٩]، ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَنِسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَنٌ ﴾ [الإسراء: ٦٥].

٤ - وهذه كلمة أساور جاءت في سياق ذكر أهل الجنة في سور كثيرة من سور القرآن الكريم ﴿ يَحْمِلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ ﴾ [الكهف: ٣١]، وجاءت بصيغة أخرى في سياق الحديث عن بغي فرعون وطغيانه في هذه الدنيا<sup>(١)</sup> ﴿ فَلَوْلَا أَلْقَى عَلَيْهِ أَسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جِلَّةٍ مَّعَهُ الْمَلَكُ الْمُقَرَّنِينَ ﴾ [الزخرف: ٥٣] لأن أساور جمع كثر وأسورة جمع قلة.

٥ - وأخيراً هاتان كلمتان في كتاب الله تعالى وهما كلمة ضعفاء وضعاف، جاءت الأولى في قوله سبحانه: ﴿ أَيَوَّدُ أَحَدُكُمْ أَنَّ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضِعْفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ ﴾ [البقرة: ٢٦٦] وجاءت الثانية في قوله سبحانه: ﴿ وَلِيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ [النساء: ٩].

فالآية الأولى تتحدث عن أحد ﴿ أَيَوَّدُ أَحَدُكُمْ ﴾ بصيغة الإفراد، والثانية تتحدث عن الجمع ﴿ وَلِيَخْشَ الَّذِينَ ﴾ فالضعفاء أفراد الذرية الواحدة، والضعاف: أفراد ذريات متعددة كما يرشد سياق كل من الآيتين.

(١) ونحن نعلم أن صيغة أفعلة: جملة قلة وليست كذلك كلمة أساور.

ذلك غيـض من فيض بها في الكلمات القرآنية من سمو وجمال في التعبير، ودقة وروعة في البيان، ووفاء في المعنى، وغاية في القصد. وهناك الكثير، بل الأكثر مما لم أذكره اكتفاء بما ذكرت، أو قصداً لعدم الإطالة، وقد تكون كثير من الكلمات بحاجة إلى إجمالة نظر، وإطالة فكر، وعسى الله أن يلهمنا الصواب في إدراك ما لم ندركه، ويهيئ لكتابه من يفتح أكنام كلماته ليتنسّم أريجها، وتروح النفوس عبرها الشدى.

والعجيب أن هذا الكتاب الكريم تأتي الكلمة فيه بسياقها المتحدث عنه فيتجسد في النفس ذلك المعنى خوفاً أو طمعاً، تنفيراً أو تشويقاً، كما نجد ذلك في كلمة الشواظ في قوله سبحانه: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْاظٌ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن: ٣٥]، وكلمة الغاشية والغواشي في ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ [الغاشية: ١]، ﴿لَهُمْ مِّنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الاعراف: ٤١]. وكلمة عبوساً قمطريراً ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٠]. وفي مقابل ذلك نجد نضرة النعيم ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤] ونضرة وسروراً ﴿فَوَقَّهْمُ اللَّهُ شَرَ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّهْمُ نَضْرَةَ سُرُورٍ﴾ [الإنسان: ١١]، والرحيق والسلسبيل، قال تعالى: ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَّحِيْقٍ مَّخْتُومٍ﴾ [المطففين: ٢٥]، وقال: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا﴾ [الإنسان: ١٧-١٨].

وخلاصة القول إن استعمال القرآن الكريم للكلمة تقديماً أو تأخيراً، أو إفراداً أو جمعاً على اختلاف هذه المجموع، كل ذلك كان مراعى فيه الدقة والإبداع، فكلمتا المدثر والمزمل، اللتان يتوهم اتحادهما جاءت كل منهما في موضعها.

وتقديم كلمة أمر في قوله تعالى: ﴿فَتَنَزَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ [طه: ٦٢]، وتأخيرها في قوله تعالى: ﴿إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ [الكهف: ٢١]، وتقديم النور في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ [التحریم: ٨]، وتأخيرها في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾

[الحديد: ١٢] وغير ذلك. كان نتيجة نظام محكم، وغاية سامية مما ليس بطاقة الناس جميعاً أن يقدروا عليه مهما كان نصيبهم من بلاغة في القول، ودقة في التفكير. وقد لمح ذلك الجاحظ حينما قال: «وقد يستخف الناس ألفاظاً ويستعملونها، وغيرها أحق بذلك منها، ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع، إلا في موضع العقاب، أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر، والناس لا يذكرون السغب، ويذكرون الجوع في حالة القدرة والسلامة، وكذلك ذكر المطر، لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام، والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وذكر الغيث»<sup>(١)</sup>.

وقد عقد الأستاذ أحمد أحمد بدوي في كتابه «من بلاغة القرآن» فصلاً خاصاً بألفاظ القرآن، أسمح لنفسي أن أقتطع منه بعض العبارات الموجزة لكونها وثيقة الصلة بهذا الموضوع، قال: «يتألق أسلوب القرآن في ألفاظه... ولذلك لا تجد في القرآن ترادفاً، بل فيه كل كلمة تحمل إليك معنى جديداً. ولما بين الكلمات من فروق ولما يبعثه بعضها في النفس من إحياءات خاصة، دعا القرآن ألا يستخدم لفظاً مكان آخر فقال: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّا قُلُوبُنَا لَمْ نُوْمِنُوا وَلَكِنْ قَوْلُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤] فهو لا يرى التهاون في استعمال اللفظ، ولكنه يرى التدقيق فيه ليدل على الحقيقة من غير لبس ولا تمويه. ولما كانت كلمة (راعنا) لها معنى في العبرية مذموم، نهى المؤمنين عن مخاطبة الرسول بها فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا﴾ [البقرة: ١٠٤].

فالقرآن شديد الدقة فيما يختار من لفظ يؤدي به المعنى»<sup>(٢)</sup>.

(١) أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ، (ت ٢٥٥هـ / ٨٦٩م)، البيان والتبيين، تحقيق: عبدالسلام هارون، الناشر: مكتبة الخانجي بمصر، ومكتبة المثنى ببغداد، الطبعة الثانية، سنة ١٣٨١هـ / ١٩٦١م، ج ١، ص ٢٠.

(٢) أحمد أحمد بدوي، من بلاغة القرآن، الناشر: مكتبة نهضة، مصر ومطبعاتها، طبعة ثانية، ص ٥٧-٥٨.

## الْفَصْلُ الْخَامِسُ

### رسالة الحرف في كتاب الله تعالى

وإذا كنا نتحدث عن الكلمة القرآنية، فإنها نعني بها الكلمة باصطلاح اللغويين، اسماً كانت، أو فعلاً، أو حرفاً من حروف المعاني، لذلك كان لهذا الحرف نصيبه الأوفى، وحظه الأوفر في البيان القرآني، سواء كان ذلك من حيث حذفه وذكره، أم من حيث وضع حرف مكان حرف آخر.

وأحب أن أشير هنا إلى أن ما ذهب إليه كثير من العلماء من تناوب الحروف بعضها مكان بعض، قضية غير مسلمة أو مستساغة في كتاب الله تعالى، فكل حرف له مدلوله الخاص به. فإذا قال تعالى: ﴿وَلَأَصْلَحَنَّهُمْ فِي جُدُوعِ النَّحْلِ﴾ [طه: ٧١]، فإن حرف الجر (في) جيء به قصداً، ولا يسدّ غيره مسده<sup>(١)</sup>. وهكذا كل حرف في كتاب الله تبارك وتعالى، لا ينبغي أن نقول: إنه جاء عوضاً عن غيره ف (عن) في قوله تعالى: ﴿عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٥] ليس المقصود بها أن تكون بمعنى (في) أي في صلاته.

فلقد ذكر المحدث الخطابي<sup>(٢)</sup> بسنده إلى مالك بن دينار، قال: جمعنا الحسن - يعني البصري رحمه الله جميعاً - من أجل عرض المصاحف، وكان في المجلس أبو العالية، فسأله أحدنا عن قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ [الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ

(١) ذلك لأن هذا الحرف يصور لنا ما في نفس فرعون من حقد وغيظ على أولئك السحرة المؤمنين.

(٢) انظر: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص ٣٢.

سَاهُونَ ﴿٥﴾ فقال أبو العالية: هو الذي يسهو في صلاته، فقال الحسن: لا، يا أبا العالية: إن الله يقول: ﴿عَنْ صَلَاتِهِمْ﴾ ولم يقل: (في صلاتهم)<sup>(١)</sup>.

فنحن نرى أن الحسن البصري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو الذي أَرَضَعَ لَبَانَ النبوة فأكرمه الله أيما إكرام - أبى أن يستبدل الحرف القرآني بغيره.

والتأمل في كتاب الله تعالى يجد من ذلك ما يُطْمِئِنُّ القلوب، ويثلج الصدور. والحق أن الحرف في كتاب الله تعالى، حري بالدراسة الجادة، والبحث الدائب، وقد وقفني هذا الحرف في كثير من الآيات القرآنية، وأنا أبحث عن سر حذفه تارة، ووجوده تارة أخرى، وأهرع لكتب التفسير - جزى الله كاتبها خير الجزاء - ولكني أحياناً لا أجد البغية التي تشفي الغلة، وتبرئ العلة، وسأكتفي من ذلك ببعض الآيات الكريمة.

---

(١) وهذا هو رأي المحققين اللغويين كما نقله أبو هلال العسكري عن ابن درستويه.  
انظر: الفروق اللغوية، لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، ضبطه وحققه: حسام الدين القدسي، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، سنة ١٤٠١هـ / ١٩٨١م، ص ١٣.

## المبحث الأول حذف الحرف وذكره

١ - يقول تعالى: ﴿لَا يَزِيدُكُمْ إِلَّا وَلَا دِمَّةً يَرْضَوْنَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ  
وَكَثَرُهُمْ فَانْسِقُوتَ ﴿٨﴾ [التوبة: ٨] ويقول سبحانه: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ  
يُنْكِرُونَهَا وَكَثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾ [النحل: ٨٣].

وقفت طويلاً مع هاتين الآيتين الكريمتين، ابحث عن سر النظم، حيث جاء  
الخبر منكراً في الآية الأولى، معرفة في الآية الثانية، والحق أن الفرق بين المعرفة  
والنكرة في الخبر، فرق كبير من حيث المعنى، بيان ذلك:

أنك تستشعر الفرق بين قولك: «فلسطين أمانة» و«فلسطين الأمانة» وقولك:  
«اليهود أعداء» و«اليهود الأعداء». فقولك: «فلسطين أمانة» كل الذي أفاده هذا  
القول أن فلسطين أمانة ينبغي أن يحافظ عليها، ولا يجوز أن يفرط فيها، وهي أمانة  
كغيرها من الأمانات. وكذلك قولك: «اليهود أعداء» كل ما نفهمه منه أن عداوة  
اليهود أمر ثابت، ولا يجوز أن تهدم السدود التي تحول بيننا وبين هذه العداوة، أما  
قولنا: «فلسطين الأمانة» و«اليهود الأعداء» فإنه يفيد معنى آخر زائداً عن الأول،  
وهو أن فلسطين هي الأمانة التي ينبغي أن يكون للمسلمين بها عناية؛ لأنها ليست  
كغيرها من الأمانات، فهي الأمانة التي ينبغي أن توجه لها الأفكار والسواعد، وما  
ملكته الأمة. وكذلك قولنا: «اليهود الأعداء» يدل على أن عداوة اليهود لا تشبهها  
عداوة أبدأ، وكأنهم هم الأعداء لا غيرهم.

وأظنك بعد هذا التمهيد، تدرك الفرق بين الخبر المعروف، والخبر المنكر،  
ويمكننا أن نرجع إلى الآيتين الكريمتين ﴿وَكَثَرُهُمْ فَانْسِقُوتَ ﴿٨﴾ [التوبة: ٨]،  
﴿وَكَثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾ ولعل مما يساعدنا على كشف اللثام، وتفتق  
الأكمام لهاتين الآيتين الكريمتين، معرفة السياق الذي نزلت فيه كل منهما.

أما آية براءة، فقد نزلت في شأن أولئك، الذين كان بينهم وبين المسلمين عهد، والذين لا يرقبون في مؤمن إلاّ ولا ذمة، والآية مدنية - كما نعلم - وهذه الفئة واحدة من فئات كثيرة، كانت تناصب المسلمين العداء، كما أنها واحدة من الفئات الكثيرة التي تحدثت عنها السورة الكريمة، سورة براءة، فهناك المنافقون على اختلاف فئاتهم وأعمالهم، وهناك أهل الكتاب من يهود وغير يهود، وهناك المشركون من غير أولئك المعاهدين، وهؤلاء جميعاً يشتركون في الفسق، فلو أنه قيل في الآية الكريمة: (وأكثرهم الفاسقون) لكان تخصيصاً لهؤلاء بالفسق دون غيرهم، وذلك أمر غير مراد ولا مقصود، لذا جاء نظم الآية على ما هي عليه ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (٨) لأن هناك فئات كثيرة تشترك معهم في هذا الفسق.

أما الآية الثانية فلم تتحدث عن فئة خاصة، إنما كان حديثها عن الناس عامة، وسورة النحل سورة النعم، فهي تتحدث عن نِعَمِ الله تبارك وتعالى التي أنعم بها على الناس جميعاً، ويشهد لهذا السياق والآيات الكثيرة التي جاءت قبل هذه الآية، ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَرْفُقْكُمْ﴾ [النحل: ٧٠]، ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ [النحل: ٧١]، ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ [النحل: ٧٢]، ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ [النحل: ٧٨]، ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ [النحل: ٨٠]، ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا﴾ [النحل: ٨١]، وبعد هذه النعم جميعاً يقول الله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمَمِينُ﴾ (٨٢) يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمْ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾ [النحل: ٨٢-٨٣] ألا ترى أن التعريف هنا أمر لا بُدَّ منه، وبخاصة بعد هذه النعم جميعاً، ولو قال: «أكثرهم كافرون» لكان معنى هذا أن هناك فئات كثيرة تشترك معهم في هذا الكفر، وليس هذا مقصوداً في الآية الكريمة؛ لأن الحديث فيها ليس عن فئة دون فئة، وإنما هو حديث عن الناس جميعاً، لما عرفت من السياق المتقدم، بل لقد نُصِّرَ على ذكر

الناس في قوله سبحانه: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَفْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: ٦١].

٢- قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، وقال سبحانه: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥].

وقفت كثيراً مع هاتين الآيتين الكريمتين، أتأمل النظم، راجياً من الله أن يكرمني بنور الفهم، والفرق بين الآيتين من حيث النظم ظاهر لك، ففي الآية الأولى ذكرت (لا) مرتين ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾، ولكنها في الآية الثانية لم تذكر إلا مرة واحدة ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ﴾، ويعلم الله أن هذا القرآن يحمل حجته على أنه تنزيل رب العالمين، في كل آية من آياته، وأرجو أن تدبر الآيتين تدبراً جيداً، وما أظنك إلا أنك سيرقص قلبك طرباً، وتتيه نفسك، ويخشع فؤادك، ولقد وجدت ذلك كله -ويعلم الله صدق ما أقول-.

ولعله قد بلغ بك الشوق مبلغاً، لتدرك سر النظم في الآيتين الكريمتين، فالآية الأولى جاءت تحذر المؤمنين من أمرين اثنين: الوَهْنُ والحَزَنُ، والوهن والحزن أمران ليسا من الفضيلة ولا من الخير في شيء، فلا يجوز للمؤمنين أبداً أن يركنوا إلى واحدة من هاتين الصفتين، أو من هذين المرضيين الاجتماعيين، اللذين ينخران في جسم الأمة، فيحولان بينها وبين نعمة الأمن، وحلاوة الاستقرار، والقدرة على التحفز، ولذة المقاومة، ومقامة الشر.

أما الآية الثانية، فكان النهي فيها عن أمرين اثنين كذلك: الوهن، وهو ما تشترك فيه مع الآية الأولى، وهو الأمر الأول، أما الأمر الثاني فهو الدعوة إلى السَّلَمِ، ولكنه لم يقرن بحرف النهي (لا) الذي اقترن به الحزن؛ وما ذلك -والله أعلم بما ينزل- إلا لأن الحزن شر في كل وقت، أما الدعوة إلى السَّلَمِ فليس كذلك،



إنما هو شر حيناً، ولكن قد يكون خيراً حيناً آخر، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٦١]، ولكنه شر حيناً يكون استسلاماً، وحيناً يقترن بالضعف والوهن، كما هو الشأن في أيامنا هذه، فلو أنه قيل: «ولا تدعو إلى السلم» لكان السلم محرماً على المسلمين في كل حين وعصر، وليس هذا من شأن الإسلام. لكن نظم الآية على ما هو عليه ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ﴾ جاء يحرم على المسلمين الدعوة إلى السلم الناشئة عن الضعف، والتي هي خضوع وخنوع وذل لا يرتضيه الإسلام ولا يليق بالمسلمين.

أرأيت إلى بديع النظم، أرأيت إلى رسالة الحرف القرآني، التي يحملها للمسلمين - هذا الحرف - ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]، ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦].

٣- يقول تعالى حديثاً عن المتقين الذين يؤمنون بالغيب: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥]، ويقول حديثاً عن أولئك الذين لهم قلوب لا يفقهون بها: ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

فأنت ترى أن الآية الأولى وُسِّطَ فيها حرف العطف ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أما الآية الثانية فلقد خلت من هذا الحرف، ولقد جلى الزمخشري رحمه الله هذه الدقيقة البيانية، فذكر السر الذي من أجله وجد حرف العطف في الآية الأولى، وحذف في الثانية، وخلاصته ما ذكره في ذلك: أن الآية الأولى ذكرت وصفين مستقلين للمؤمنين: أولهما: أنهم على هدى من ربهم، فمسلكهم سوي، ومسيرتهم صحيحة، والثاني: أنهم مفلحون، وتلك هي غاية ونتيجة للوصف الأول، فإن فوزهم وفلاحهم إنما نشأ عن كونهم سائرين على الهدى.

أما الآية الثانية فليس الأمر فيها كذلك، فوصفهم بالغفلة إنما هو مؤكد لتشبيههم بالأنعام، فلو أنه جيء بالواو في هذه الآية لترتب على مجيئها خطأ يجبل عنه القرآن، مؤداه أن الأنعام ليست في غفلة، فلو قيل: وأولئك هم الغافلون، لكان هذا مغايراً لقوله: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ﴾، ويصير المعنى -كما قلت من قبل- إن لهم صفتين: فهم كالأنعام أولاً، وهم غافلون ثانياً، وعلى هذا لا تتصف الأنعام بالغفلة، وتلك غفلة يجلب عنها العقلاء.

٤- قال تعالى في سورة الشعراء يحكي لنا ما قاله المعاندون لأنبيائهم، فها هي ثمود التي استجبت العمى على الهدى يقولون لنبيهم صالح عليه السلام، وقد أمرهم بعبادة الله وحده وحذرهم: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ (١٥٣) ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (١٥٤) ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ (١٥٥) [الشعراء: ١٥٣-١٥٥]. وهذا شعيب عليه السلام كان له نصيبه من قومه نصيب أخيه صالح، فها هم أصحاب الأيكة يقولون له: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ (١٥٥) ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَذِبِينَ﴾ (١٥٦) [الشعراء: ١٥٥-١٥٦].

فنحن أمام آيتين متحدثين في الجواب:

إحداهما: وُسْطَ فيها حرف العطف، وترك من الثانية. فالشهاب الألوسي<sup>(١)</sup> رحمه الله وهو خاتمة المحققين في عصره، يرى أن سبب زيادة الواو يرجع إلى أن شعبياً عليه السلام كان خطيب الأنبياء عليه السلام فأحب القوم أن يجاروه فيها وهب من قول فزادوا هذه الواو.

ومن قبل الشهاب الألوسي رحمه الله يقول الكرمانى صاحب متشابه القرآن، ما هو قريب من هذا:

(١) انظر: تفسير الألوسي المسمى روح المعاني، ج ١٩، ص ١١٩.

إن شعيباً زاد في الحديث، فزادوا له في القول. وإن صالحاً قلَّ فَقَلَّوا له<sup>(١)</sup>.

وما أظن ذلك مقنعاً، ولا منسجماً مع بيان القرآن الكريم وروعته وإيجازه وإعجازه، فهل كان شعيب خطيب الأنبياء حقاً، وهل كان كلام صالح أقل من كلامه -عليهما السلام- ؟ لعل واقع الآيات التي جاءت كل من الجملتين بعدها لا يشهد لذلك ولا يقره.

وعلى التسليم بأن كلام صالح كان أقل -مع أنه ليس كذلك، كما قلت- فهل وجود الواو من شأنه أن يكن زيادة في الحديث تتفق مع بلاغة شعيب وخطابه؟! والعجب من الكرماني وغيره حيث عدَّ الجملة الأولى ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ بدلاً؛ والجملة الثانية: عطفاً مع اتحاد المعنى. مع أننا نعرف أن البدل والعطف متغايران، تماماً، فإذا قلنا «قام زيد وأخوك» و«قام زيد أخوك» ففي الجملة الأولى ينبغي أن يكون زيد ليس هو الأخ، أما الجملة الثانية: فإن زيدا فيها هو الأخ نفسه، إذن لا يمكن أن تكون إحدى الجملتين عطفاً، والأخرى بدلاً، ويكون المعنى واحداً.

والذي ظهر لي -والله الحمد والمِنَّة، والله أعلم بمراده- أن هنا شفافية من الإعجاز التاريخي والبياني معاً. ذلك أن كلمة مسحري يمكن أن تفسر بالمسحرين الذين أصيبوا بمس واختلط الأمر عليهم، ويمكن أن تفسر بمن لهم معدة ورثة، ويأكلون ويشربون. ومن هذا القبيل ما ورد عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «توفي رسول الله ﷺ وهو بين سَحْرِي ونَحْرِي»<sup>(٢)</sup>.

---

(١) محمود بن حمزة الكرماني (ت نحو ٥٠٥هـ/ ١١١٠م) متشابه القرآن، الذي غيّر محققه اسمه فسماه: أسرار التكرار، دراسة وتحقيق عبد القادر أحمد عطا، طبعة دار الاعتصام، طبعة ثانية، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م، ص ١٥٥.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب فضائل الصحابة، باب: في فضل عائشة رضي الله عنها بلفظ: «قالت: لما كان يومي قبضه الله بين سَحْرِي ونَحْرِي»، حديث رقم ٢٤٤٣، ٤/ ١٨٩٣.

والذي نراه هنا أن ما قاله قوم صالح عليه السلام إنما قصد به هذا المعنى الأخير، وإن ما قاله قوم شعيب عليه السلام إنما قصد به المعنى الأول، وحجة ذلك <sup>(١)</sup>:

إن كلمة مسحر: حينما تفسر بصاحب المعدة والرثة، الذي يأكل ويشرب، فإنها تكون مساوية للبشرية، أما إذا فسرت بالمسحور، فإنها لن تكون كذلك، بل كل منهما فيها معنى غير الذي في الأخرى. من هنا قال قوم صالح: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ <sup>(١٣٣)</sup> مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بَيِّنَاتٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ <sup>(١٣٤)</sup> ﴿. ونحن نعلم أن الجملة الثانية - كما يقرر علماء البلاغة - حينما تكون وصفاً أو بدلاً أو تأكيداً للجملة الأولى، فإنه لا يجوز أن يوسط بينهما حرف العطف، وهذا ما نراه هنا.

أما إذا كانت الجملة الثانية تفيد معنى جديداً فلا بد من حرف العطف، لأن العطف يقتضي التغاير، وهذا ما وجدناه فيما قاله قوم شعيب. هذا من حيث البيان. أما من حيث التاريخ:

فإننا ونحن نقرأ كتاب الله تعالى يحدثنا عما كان يدور بين الأنبياء عليهم السلام وأقوامهم، نجد أن التهمة بفرية السحر، لم تكن معروفة عند الأنبياء الأول، وإنما كانت متأخرة، وكان قضية السحر لم تكن مشتهرة عند القبائل الأولى: عاد وثمود، وكل الذي يجيبون به أنبياءهم متذرعين به أنهم بشر يأكلون ويشربون، وأنهم اتبعهم الأرذلون.

بعد هذا نلمح نوعي الإعجاز في الآيتين - أعني البياني والتاريخي - <sup>(٢)</sup> كما قرر من قبل، والله أعلم. ونسأله أن يلهمنا الصواب، وأن يفتح علينا في فهم كتابه.

(١) وليس في ذلك محذور أن تكون اللفظة الواحدة لها أكثر من معنى، وها هو أحد علماء اللغة وهو المبرد (ت ٢٨٥-٨٩٨م) يكتب كتاباً في هذا، وهو: «ما اتلف لفظه واختلف معناه في كتاب الله». (٢) فكلمة (مسحورين) التي قيلت لصالح تعني أنه يأكل ويشرب، وهذه هي البشرية بعينها، فليس هناك مكان للواو، أما ما قاله قوم شعيب عليه السلام، فهو من السحر، وهو زائد عن البشرية، لذا جاءت الواو.

٥- تحدث القرآن الكريم عما خص به أهل الجنة، وعما أنعم به على الناس في الدنيا، ففي سورة المؤمنون يمتن على الناس بقوله: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّحِيلٍ وَأَعْنَبٍ لَّكُم فِيهَا فَوَاحِشٌ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٩]، ونقرأ في سورة الزخرف ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [٧٢] لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [٧٣] [الزخرف: ٧٣]. فلم جاءت هذه الواو في الآية الأولى حديثاً عن نعم الله على الناس في هذه الحياة، وحذفت عندما كان الحديث عن الجنة وأهلها؟

إن أدنى تأمل يطلعنا ونحن نتدبر الآيتين الكريمتين على مواطن الإعجاز ودقائق البيان وسر التعبير وروعة التقدير، إن جنات أهل الدنيا ليست كلها معدة للأكل، فهناك أغراض كثيرة، لعل في مقدمتها التجارة، ومنها التصديق والإهداء.

أما فاكهة أهل الجنة فليست كذلك، فإن الهدف الرئيس والغرض الأساسي منها هو الأكل وحده، وأظنكم بدأتكم تدركون سر وجود الواو في الأولى، وحذفها في الثانية؟

إن الواو حرف عطف -كما تعلمون- ولا بد لها من معطوف ومعطوف عليه، من أجل ذلك كانت هذه الواو الدالة على أشياء معطوف بعضها على بعض، فكأنه قيل: أنشأنا لكم جنات، لتتجروا وتدخروا، وتتصدقوا، وتهدوا، ومنها تأكلون كذلك، كان لا بد من هذه الواو -إذن- في الحديث عن جنات الدنيا، لكننا لا نجد لها ضرورة في الآية الثانية، إذ وجودها يكون زيادة يحل النظم الكريم عنها، فإن أهل جنة الآخرة ليس لهم إلا الأكل.

ومن هنا جاءت هذه الواو ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ وهي تحكي لنا الفروق الشاسعة بين أهل الدنيا وأهل الآخرة، فهي بحق مظهر إعجاز، وعلامة إيجاز.

٦- وهاتان آيتان من كتاب الله تعالى:

الأولى: في سورة الحجر: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ۝٤﴾ [الحجر: ٤].

والثانية: في سورة الشعراء وهي قوله سبحانه: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ۝٢٠٨﴾ [الشعراء: ٢٠٨].

فقد ذهب المفسرون مذاهب شتى، واحتدم بينهم ما يكون بين العلماء، فذهب الرزخشري، وتبعه من اقتفوا أثره في مدرسته البيانية كالبيضاوي، إلى أن قوله تعالى: ﴿إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ۝٤﴾ صفة القرية، ووسطت الواو بين الصفة والموصوف. وتعقبه أبو حيان، -وهي عاداته دائماً- وليس من غرضنا هنا أن نخوض معهم هذا اللجج، أو أن ننصر بعضاً على بعض فيما أقاموه من حجج، فذلك لا يتعلق لنا به نهج، وإنما الذي نقصد إليه أن نأتي إلى الآية من أقرب أبوابها علماً نستطيع أن نمسها برقة كي نحظى بها تشير إليه من روعة ودقة، فالكتاب المعلوم: هو ما قدره الله لها من أجل، فالواو هنا جاءت في مكانها مزدانة غير قلقة ولا نابية ولا مقحمة ولا زائدة، وسامح الله الشهاب الألوسي الذي استدل بقراءة ابن أبي عبله «إلا لها كتاب معلوم» بحذف الواو، على أن الواو يمكن أن تكون زائدة، وما هي والله كذلك. فما أجمل هذه الواو في مكانها، فهي واو الحال<sup>(١)</sup>.

أما الآية الثانية: فقد جاءت بغير واو، ذلك لأن وجود المنذرين مما جرت به سنة الله تعالى، فالجمله في موضع الصفة، ولعل هذا ما لمح الشيخ زاده رحمته الله في حاشيته على البيضاوي من أن ما في الآية الأولى أمر عقلي، وأما الثاني فهو أمر عادي، فالكتاب المعلوم لا شك قبل الإهلاك؛ لأنه في علم الله الأزلي، وأما الإنذار فهو

(١) مجيء الحال من النكرة جائز عند بعض النحاة إذا كان لذلك سبب، وليست قراءة ابن أبي عبله متواترة حتى يستشهد بها على قضية خطيرة مثل هذه.

مقدمة مصاحبة لهذا الإهلاك، ملازمة له ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (١٥) [الإسراء: ١٥].

٧- وقد نجد هذه الواو في عطف بعض المفردات على بعض، وقد لا نجدها فإذا كانت الأوصاف جارية بعضها على بعض، جاءت جميعاً على نسق واحد بدون واو، أما إذا كان بينها شيء من التضاد الحقيقي، أو من حيث اللفظ فقط، نجد أن هذه الواو أمر لا بد منه، قال تعالى: ﴿التَّيْبُوتُ الْعِيدُوتُ الْحَمِيدُوتُ السَّخِيحُوتُ الرَّكِيحُوتُ السَّجِدُوتُ الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [التوبة: ١١٢]، وقال تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحشر: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: ٢٣]، ﴿مُسْلِمَتٍ مُؤْمِنَةٍ قَنِينَةٍ تَبْنِي عِدَدَاتٍ سَيِّحَتٍ تَبْنِي وَأَبْكَارًا﴾ [التحریم: ٥].

فلقد رأينا كيف جاءت هذه الواو فيما فيه تضاد حقيقي، مثل الوصفين الأخيرين ﴿تَبْنِي وَأَبْكَارًا﴾، أو ظاهري فقط مثل ﴿الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾ و﴿الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ﴾ وخلت منها الأوصاف الأخرى مثل: ﴿الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ﴾، ﴿مُسْلِمَتٍ مُؤْمِنَةٍ﴾، ﴿التَّيْبُوتُ الْعِيدُوتُ﴾ وصدق الله ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ [الزمر: ٢٨].

أما قوله تعالى: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقوله: ﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٤]. فلقد جاءتا خاليتين من الواو لأن الوصفين في كل آية لا يمكن تصور أحدهما بدون الآخر، فمن كان شديداً على الكفار لا بد أن يكون رحيماً على المؤمنين، ومن كان ذليلاً على المؤمنين لا بد أن يكون عزيزاً على الكافرين.

٨- وهذه لطيفة من لطائف أسرار التنزيل، نلمحها في الحرف، في وجوده، أو عدمه.

نقرأ قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ عَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٩]، وقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢]. فقد ذكرت الواو هنا (وإذ)، ولم تذكر في الآية السابقة (إذ). وإذا أردنا أن نقف على سر هذا الحرف وجوداً وعدماً، فلتتدبر السياق في كل من الموضوعين.

في سورة الأنفال يهيب القرآن بالمؤمنين ويرشدهم ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِشَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [٤٧] وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب ﴿٤٨﴾ إذ يقول المنفقون والذين في قلوبهم مرض عر هؤلاء دينهم ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم ﴿٤٩﴾ [الأنفال: ٤٧-٤٩]. الآية تتحدث عن تزوين الشيطان للكافرين أعمالهم وجاء بعدها الحديث عن المنافقين، دون أن يوسط بينهما حرف العطف، ذلك لأن تزوين الشيطان وقول المنافقين كانا في وقت واحد، وهذا معنى قولهم: إن قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ﴾ بدل من قوله: ﴿وَإِذْ زَيْنَ﴾ وكان ربنا يقول: وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم في الوقت الذي قال فيه المنافقون كذا وكذا.

ثم إن قول المنافقين ليس إلا من تزوين الشيطان، وهذا لا ينافي أن المزين لهم هم كفار مكة، ولو جاءت الواو هنا لتغير هذا المعنى الذي يقصد إليه القرآن، وهو أن قوى البغي جميعها تألبت على المؤمنين في وقت واحد، ولكنهم إن توكلوا على الله حق التوكل فإن الله عزيز حكيم، ولن يضرهم ذلك شيئاً.

أما آية الأحزاب التي جاءت فيها الواو، فلتتدبر ما جاء قبلها من آيات لنذكر الفرق بين السياقين. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَكُمْ



جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَتِ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ﴿١٣﴾ [الأحزاب: ٩-١٣].

لقد ذكرت (إذ) هنا خمس مرات، الأولين منهما بدون حرف عطف، ﴿إِذْ جَاءَكُمْ جُنُودٌ﴾، ﴿إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ﴾، والثلاثة وَسَطَ بينهما حرف العطف، وعدم ذكره في الأولين ظاهر، لأن النعمة في هذا المجيء الذي دفعه الله عن المؤمنين، والمجيء الثاني بدل من المجيء الأول، فلا يجوز أن يوسط بينهما حرف عطف فيقال: (وإذ جاءوكم من فوقكم).

أما الثلاثة الباقية: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ﴾، ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ﴾، ﴿وَإِذْ قَالَتِ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ﴾ فكل واحدة من هذه تعطي معنىً جديداً، فكانت حرية بأن تكون قضية مستقلة يذكر الله بها المؤمنين، فزيع الأبصار يختلف عن مجيء الجنود لأنه خاص بالمؤمنين، وكذلك قول المنافقين يختلف عن سابقيه، وهكذا لكل من هذه الأفعال فاعل خاص به، المجيء أسند للكافرين، وزيع الأبصار خاص بالمؤمنين والقول أسند للمنافقين، وهذا القول اختلف في موضعيه، فالقول الأول أسند للمنافقين والذين في قلوبهم مرض، والثاني أسند لطائفة منهم، وهكذا كان وجود هذه الواو أمراً لا بد منه.

٩- وهاتان آيتان في كتاب الله تعالى تتحدثان عن البحر، ولكن الأولى تحدثت عنه في مجال التسخير، وفي سياق نِعَمِ الله تبارك وتعالى على العالمين، فبعد الحديث عن إنزال الماء من السماء، وإنبات الزرع والشجر، وبعد الحديث عن تسخير الشمس والقمر، وما في الأرض مختلفاً ألوانه [الآيات: ١٠-١٣ من سورة النحل]، بعد هذا كله، نقرأ قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا

وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ مَوَآخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ  
وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ [النحل: ١٤].

أما الآية الثانية: فلقد كان حديثها عن البحر، ولكن في سياق آخر، فقد تحدثت الآيات في سورة فاطر عن الموازنة بين الذين يعملون الصالحات والذين يمكرون السيئات [الآيات: ٧-١٠]، كما تحدثت كذلك عن الموازنة بين الأعمى والبصير والظلمات والنور والظل والحرور، والأحياء والأموات [الآيات: ١٩-٢٢].

في هذا السياق نقرأ قول الله تعالى حديثاً عن البحر: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ، وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ فِيهِ مَوَآخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [فاطر: ١٢].

فالحديث عن البحر هنا إذن كان في سياق المثل، موازنة بين العذب الفرات والمالح الأجاج، لذلك جاء بعد هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [فاطر: ١٩-٢٢].<sup>(١)</sup>

(١) فالواو في آية النحل ﴿وَلِتَبْتَغُوا﴾ حرف عطف، أما الآية الثانية، أعني آية فاطر، فقد خلت من الواو ﴿لِتَبْتَغُوا﴾، فقد أكرم الله البشرية بهذين البحرين، اللذين نرى الفلك يجري في كل منهما. ومن كل واحد منهما تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية وهي اللؤلؤ والمرجان، وترى الفلك في كل مواخر، لتبتغوا من فضل الله، واللام للتعليل، أي فعل ما فعل لتبتغوا ولتشكروا. يقول صاحب درة التنزيل: «إن آية النحل مبنية على قصد الاعتبار وتعداد النعم، وقد اجتمع في قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ﴾ الآية، مجموع الأمرين من الاعتبار وإبداء النعمة بتسخير البحر وأكل اللحم الطري منه وإخراج الحلية للباس، وغر السفن إياه للمنافع والاكتساب. فهذه نعم جليلة وفي كل منها مجال للاعتبار ومتسع للتفكير والنظر، فلما كان من مقصود هذه الآية تعداد النعم، ناسب ذلك عطف بعضها على بعض، لأنه مظنة إطناب وتفصيل، فقليل: ولتبتغوا، والمجرور متعلق بفعل التسخير واستخراج الحلية وجري السفن.

إذا عرفنا هذا كله أدركنا سر تغاير الأسلوب في الآيتين.

١٠- زمر الكافرين والمؤمنين: نقرأ في التنزيل قول الله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ

كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ [الزمر: ٧١].

ونقرأ في شأن المؤمنين: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا

جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾

[الزمر: ٧٣].

فقد ذكرت الواو في جانب المتقين وحذفت في جانب الكافرين، ذلك لأن الكافرين يحيئون جهنم فيجدونها مغلقة الأبواب فينتظرون، وما أسوأ ما ينتظرون!

أما المؤمنون فيجئون إلى الجنة وقد فتحت أبوابها، وهذا ما يرشد إليه قوله

تعالى: ﴿جَنَّتٍ عَدْنٍ مُّفْتَحَةٌ لَهُمْ ۖ الْأَبْوَابُ ﴿٥٠﴾﴾ [ص: ٥٠].

فالواو هنا واو الحال، جاءت تؤدي رسالة وتبين أمراً لا بد من بيانه.

١١- حرف التوكيد في القرآن الكريم: الناظر في الآيات الكريمة يجد أن

بعض هذه الآيات تارة يجيء مؤكداً ببعض الحروف، وتارة خالياً من هذا التأكيد،

ولنقرأ قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ خَلْقَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ

لِيَسْبُلُوكُمْ فِي مَاءٍ اتَّكُمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأنعام: ١٦٥].

= أما آية سورة الملائكة، فبنيت على إبداء القدرة وجليل الحكمة... فهذا مقصود به الاعتبار والتعريف بانفراده سبحانه بخلق ذلك، إبداء النعم وجليل الإحسان... ثم تجرد باقي الكلام للتعريف بالأنعام والامتنان. فقال: ﴿وَمِنْ كُلِّ تَآكُلُونَ لَحْمًا طَرِيفًا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَبِيَّةً تَلْبَسُونَهَا وَرَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَآخِرُ لَتَنْبِقُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ فتعلق المجرور الذي هو لتبتغوا باسم الفاعل المجموع، أي سخره للابتغاء من فضله، ألا ترى أن مخر السفن كأنه ليس بشيء إلا الابتغاء، ٢٩٦/٢.

ونقرأ في سياق الحديث عن بني إسرائيل: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ١٧﴾ [الأعراف: ١٦٧].

فانظر كيف أكدت المغفرة والرحمة باللام في الآيتين ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، لكننا نجد أن آية الأنعام ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ خالية من اللام. أما آية الأعراف فليست كذلك ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾. والمتدبر للسياقين يدرك سر ذلك.

آية الأعراف: كانت حديثاً عن بني إسرائيل وما أنعم الله به عليهم، وكيف بدلوا هذه النعم وكفروها، وكيف حاربوا الله وأنبياءه، وعصوا رسله.

جاءت هذه اللام إذن لتؤكد للمؤمنين ما ينتظر أولئك اليهود من عاقبة سيئة ولا ننسى أن الآية مكية، والمؤمنون المستضعفون في مكة في أمس الحاجة إلى ما يطمئن قلوبهم، وهم يلاقون العنت والشدة والمشقة.

أما آية الأنعام: فلم تكن في سياق خاص لكن سياقها كان عاماً، فهي ليست بحاجة إلى هذا التأكيد.

١٢- نقرأ في سورة الواقعة ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ١٣﴾ وَأَنْتُمْ تَزْعُمُونَ ١٤ وَأَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ١٥ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَبًا ١٦ [الواقعة: ٦٣]، ثم نقرأ قول الله تعالى عقب الحديث عن (الماء) ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا ١٧﴾ [الواقعة: ٧٠]. ونحن نعلم أن قدرة الناس فيما يظنون على التحكم بالزرع أكبر من قدرتهم على التحكم في أمور الماء، لذلك جاءت هذه اللام المؤكدة، فيما يظن الإنسان أن له قدرة عليه، وهو الزرع، ولم يكن لها حاجة فيما يعترف بعجزه عنه، وهو الماء. وتلكم هي دقة القرآن الكريم.

١٣- نون التوكيد في القرآن الكريم: حتى (نون) التوكيد نفسها تذكر في كتاب الله تارة، وتحذف أخرى.

لنقرأ هاتين الآيتين في سياق الحديث عن تحويل القبلة، وما لقيه المؤمنون من السفهاء يهوداً، ومشركين. يقول الله تبارك وتعالى: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُفْتَرِينَ﴾ (١٥٧) وَلِكُلِّ وَجْهَةٍ هُومَوْلِيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴿ [البقرة: ١٤٧-١٤٨].

وفي سياق الحديث عن خلق عيسى عليه السلام، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُفْتَرِينَ﴾ (٦٠) ﴿ [آل عمران: ٦٠].

ارجع إلى نفسك باحثاً في سر وجود (النون) في الآية الأولى، دون الثانية وستجد -والله أعلم- الإيجاز والإعجاز.

فآية البقرة جاءت في سياق خاص بالمؤمنين فتألب أعداؤهم عليهم، كل يريد أن ينال منهم، اليهود من جهة، ومشركو العرب من جهة، كان لا بد إذن من هذه النون. أما آية آل عمران، فليس الأمر فيها كذلك. السياق كله عن بني إسرائيل وليس ذا صلة مباشرة بهذه الأمة.

ومثل هذا كثير في كتاب الله تبارك وتعالى، ونرجو أن يكون ما ذكرناه كافياً ليقاس عليه.

## المبحث الثاني

### استعمال الأحرف المختلفة في أماكن متشابهة

تحدثنا عن وجود الحرف وحذفه، وقد نجد مظهراً آخر من مظاهر الإعجاز في الحرف القرآني، وأعني به استعمال أحرف متعددة في مواضع متشابهة متقاربة. من ذلك:

١ - ما جاء في سورتي (الحج) و(المؤمنون) حديثاً عن خلق الإنسان، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخْلَقَةٍ وَغَيْرِ مُخْلَقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۗ﴾ [الحج: ٥] وإلى جانب هذه الآية الكريمة نتلو قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْلَمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْلَمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ۝١٤﴾ [المؤمنون: ١٤].

فنحن نرى أن هناك أطواراً لم يستعمل القرآن فيها الحرف إلا حرف التراخي (ثم) وهذه الأطوار، طور التحول من سلالة الطين إلى نطفة، وطور التحول من النطفة إلى العلقة، وأمر (ثم) ظاهر في هذين الطورين؛ لأنها مختلفان من حيث الطبيعة والخاصية والعنصر، فشتان ما بين التراب (السلالة من طين)، وبين النطفة (الحيوان). أما النطفة والعلقة، فربما يظن أنها شيء واحد أو قريب بعضهما من بعض، ولكن بينهما بوناً وفرقاً، إذ النطفة من خصائص أحد المتزاوجين، وهو الذكر، وأما العلقة فلن تكون كذلك إلا إذا اشتركا فيها جميعاً.

أما التحول من علقة إلى مضغة وما بعده، فتارة استعمل فيه (ثم) كآية الحج، ﴿ثُمَّ مِن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ...﴾ إلخ، وتارة استعملت فيه (الفاء) آية المؤمنون

﴿فَخَلَقْنَا الْمَلَقَةَ مُضْغَةً...﴾. وهذا أمر يدعو بحق إلى التساؤل. فلماذا هذا التغاير.

أما استعمال (الفاء) فلأن الطورين ليس بينهما فرق، حيث العنصر، والخصائص، وأما استعمال (ثم) في آية الحج فلأنها جاءت في سياق إثبات البعث، الذي هو أدل على القدرة الإلهية، فالمقام مقام تفصيل.

ونقل هنا كلمة قصيرة لصاحب كتاب «الإسلام والطب» الدكتور حامد الغوايي: وقد يسأل سائل: لماذا قال الله تعالى في الآية الكريمة: ﴿فَخَلَقْنَا الْمَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ ثم في هذه الآية الكريمة ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ﴾ فنجيب بأن الله تعالى هنا يبين أدوار النشأة بتسلسل متبوع من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة ليبين الأطوار التي مرّ بها الإنسان، فالنطفة تمر بأطوار، والعلق لا تبلغ المضغة إلا بعد أن تنقسم في أدوار، أما في الآية السابقة فقد أرانا الله نصيب كل دور، ووقت كل طور، فجاء بالعطف بالفاء ليبين قصر الدورة وبالعطف بـ (ثم) ليبين التعقيب مع التراخي، أي طول هذا الطور<sup>(١)</sup>.

٢- وفي سورة البقرة يقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ [البقرة: ١٣٦]، وفي سورة آل عمران يقول سبحانه: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾ [آل عمران: ٨٤]. فنحن نرى أنه عبّر بـ (إلى) حينما كان الخطاب للأمة؛ لأن القرآن إنما أنزل إليهم، وتجيء (على) حينما كان الخطاب للرسول ﷺ، لأن القرآن إنما أنزل عليه وحده.

---

(١) الدكتور حامد الغوايي، بين الطب والإسلام، طبعة دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، سنة ١٩٦٧، ص ٢٦.

٣- ومن هذا القبيل ما نقرؤه في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ﴾ [النساء: ٥] وبعدها بآيتين نقرأ قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾ [النساء: ٨].

فلقد عبّر بحرف الجر (في) في الآية الأولى لغرض رائع، وهدف بديع، ذلك أن إعطاء أولئك من المال لا ينبغي أن يكون من أصله وعينه، وإنما من ربحه وثمرته فهي دعوة لاستثمار المال واستغلاله فيما يحل، هذه الدعوة العريضة -دعوة استثمار المال- حمل لواءها هذا الحرف وحده، ومن هنا قلت: إن لكل حرف قرآني رسالة يؤديها، وهذا لا يمكن أن يتصور في الآية الأخرى -آية تقسيم التركة- ليأخذ كل نصيبه الذي يستحقه<sup>(١)</sup>.

٤- ونقرأ قول الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ لَن يَصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: ٥١] ولم يقل: (علينا) فوضع اللام هنا مقصود، متفق مع نفسية المسلمين الذين يعدون كل ما من الله تبارك وتعالى خير ونعمة.

٥- وحينما نقرأ سورة الفتح نجد ربنا تبارك وتعالى يمتنّ على نبيه ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم بمنن كثيرة، منها إنزال السكينة، وهذه المنّة تذكر مرات ثلاث:

إحداها: تعدي الإنزال بـ (في).

واثنتان: بـ (على).

(١) محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ / ١١٤٤م)، الكشف عن حقائق غوامض التنزيل، الناشر: المكتبة التجارية الكبرى، مطبعة مصطفى محمد، مصر، الطبعة الأولى، سنة ١٣٥٤هـ / ١٩٣٥م، ج ١، ص ٢٤٧.



﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]،  
 ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ  
 السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ١٨].

والآية الثالثة: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٦].

والمتتبع لأحداث الحديبية يدرك ما أصاب المسلمين من هزات، وما أقلقهم من أحداث، كان أولها، حينما صدهم المشركون عن البيت، ثم تلا ذلك ما أشيع عن قتل عثمان رضي الله عنه وما أعقب ذلك من بيعه الرضوان، ولعل أشدها ما كان عند إبرام الصلح فلقد كان المسلمون بحق بحاجة ماسة إلى هذه السكينة في هذه المواطن الثلاثة، لذا أنزلها الله على رسوله وعلى المؤمنين حينما صدوا عن البيت بسبب حمية الجاهلية، وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٦]. فالمؤمنون يذكرون مع الرسول ﷺ لانزعاجهم جميعاً من هذا الصدد، لكنهم خصوا بهذه «السكينة» عند بيعه الرضوان كرامة من الله، في هذين الموضعين كما رأينا في الآية الكريمة: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ عدى الإنزال بـ (على)، أما الموضع الأخير، ونعني به عند إبرام الصلح، وقد وجد المسلمون في أنفسهم من القلق والألم والاضطراب، فلقد عدى الإنزال بـ (في)، وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ﴾، ولقد كان المسلمون بحق بحاجة إلى السكينة تتغلغل في قلوبهم في هذا الوطن عند إبرام الصلح.

ونحن نعلم الفرق بين الحرفين، فإن (في) يدل على الظرفية فهو أكثر تغلغلاً في القلوب، ولذا عبّر القرآن عنه وهو يحكي لنا حنق فرعون وحدّته على السحرة ﴿وَأَصْلَيْتَكُمْ فِي جُودِ النَّحْلِ﴾ [طه: ٧١].

والمتتبع لآيات سورة الفتح أظنه يوافقني على هذا الاستنتاج، من وضع كل حرف في الموضع الذي يناسبه حيث جاء حرف (في) في إحدى الآيات الثلاث، وهو أشد هذه المواضع على المسلمين، وهو إبرام الصلح.

وإذا تابعنا مسيرتنا ونحن نتحدث عن رسالة الحرف فسنجد أسراراً عظيمة ينبى عنها هذا الحرف.

ولنقرأ قوله سبحانه: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ (١) [المعارج: ١]، ونحن نعلم أن السؤال يتعدى بـ (عن)، قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ﴾ [البقرة: ١٨٩]، ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾ [التازعات: ٤٢]، فلماذا عدل عن هذا الحرف، ولم يقل: «سأل سائل عن عذاب واقع».

ومعرفة السياق تطلعنا على ذلك السر، وتلك الروعة، أن السؤال عن الساعة كان عن زمانها، وهكذا السؤال عن الأهله كان عن سبب صغرها وكبرها.

أما السؤال في الآية التي معنا فلم يكن سؤالاً عن نوع العذاب، ولا عن زمانه وإنما كان طلباً لهذا العذاب، ودعاءً لإتيانه، وسبب النزول يؤيد هذا.

فالسائل هو النضر بن الحارث، كما روى النسائي وجماعة، وصححه الحاكم عن ابن عباس، وروى ذلك عن ابن جريج والسدي والجمهور حيث قال إنكاراً واستهزاءً: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذَاهُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَاباً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ اثْبِتْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢] (١).

ولنقرأ قوله سبحانه حكاية عن يوسف عليه السلام: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجْدًا وَقَالَ يَتَابَتِ هَذَا تَابِيلٌ رَأَيْتُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلْنَا رَحْمَةً لِيٍّ إِذَا أَخْرَجْتِي مِنَ السِّجْنِ﴾ [يوسف: ١٠٠].

(١) روح المعاني للآلوسي، ج ٢٩، ص ٥٥.

ونحن نعلم أن الإحسان يتعدى أكثر ما يتعدى بـ (إلى) قال تعالى: ﴿وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧]، وقد قالوا: إنه عدى بـ (الباء) هنا لتضمنه معنى اللطف.

ويظهر لي وجه آخر، وهو أن التعدية بـ (إلى) إنما تشير إلى الغاية، أما التعدية بـ (الباء) فإنها تفيد معنى التدرج بالإحسان ليستغرق الأوقات جميعاً وأفعال الخير جميعاً، ولذا جاء في التنزيل ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: ٨٣] ولم يقل: «إلى الوالدين»، ونحن نعلم أن الإحسان بالوالدين يختلف عن أي إحسان آخر، وهكذا كان الإحسان بيوسف عليه السلام بالمنن الكثيرة واحدة تلو الأخرى.

ومن هذا القبيل قوله سبحانه: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، وقال كذلك: ﴿كُلٌّ مِّنْ عَلَيْهَا فَإِنَّ﴾ [الرحمن: ٢٦]، وفي آية ثالثة: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [الإسراء: ٣٧] فحينما كان الحديث عن عباد الرحمن، وعندما كان الحديث عن الفناء، استعمل الحرف (على) لأن المقام في الآيتين يناهض الاستقرار، فعباد الرحمن لم يتخذوا من الأرض مقراً، لأنهم عرفوها عمراً، ومع أنهم الأعلون إلا أنهم يمشون هوناً غير مستعجلين ولا متفاخرين.

وحينما كان السياق نهياً عما لا يليق ولا ينبغي، ذكر الحرف (في)، ودليل ذلك ما جاء قبل هذه الآية ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ [٣١] وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا [٣٢] وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا [٣٣] وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَتْ مَشْهُولًا [٣٤] وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا [٣٥] وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ [الإسراء: ٣١-٣٦]، كما يدل لذلك ما جاء في خاتمة الآية ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [٣٧] فكان

هذا الماشي أراد أن يجعل من الأرض مستقراً له، يغوص في باطنها، ويشمخ على ظاهرها.

وشبيه بهذا قوله سبحانه: ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦١]. فانظر كيف جيء بـ (الباء) في قوله ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ وجيء بـ (اللام) في قوله ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ لأن كلاً من الإيانيين يختلف عن الآخر، فهو تصديق بالله تبارك وتعالى، واطمئنان للمؤمنين، وركون إليهم.

وأخيراً يجدر بنا أن نقف عند هاتين الآيتين من كتاب الله، ويعلم الله أنني قد وقفت وأطلت الوقفة وهرعت إلى كتب التفسير قديمها وحديثها، وما كتب عليها من تعليقات وشروح وحواشٍ، فلم أحظ بشيء، وكأنهم -رحمهم الله تعالى- يعدونها قضية بديهية، ولعلك بشوق لمعرفة هاتين الآيتين، ولن أطيل عليك، فإحداهما: قوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٤]. والآية الثانية: قوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَّعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٤٠].

إذا نظرنا في الآيتين الكريمتين، وجدنا أن بينهما فروقاً في التعبير من أوجه:

أولاً: الآية الأولى عبر فيها بـ (إذا) ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾، والثانية، عبر فيها بـ (إن) ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ﴾.

ثانياً: أن المعروف جاء معرفاً في الآية الأولى، منكرأ في الثانية.

ثالثاً: أن الآية الأولى ذكرت فيها (الباء) ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾، والثانية: ذكرت فيها (من) ﴿مِنَ الْمَعْرُوفِ﴾.

والوجهان الأولان تسهل الإجابة عنهما، لأن الآية الأولى<sup>(١)</sup> تلزم المرأة ببلوغ الأجل المحدد لها بأربعة أشهر وعشرة أيام، لذلك جاء التعبير بـ (إذا)، أما الآية الثانية: فلم تكن تلزم المرأة أن تبقى حوفاً في بيتها، إلا أنها إن خرجت فلا نفقة لها، لذلك كان التعبير بـ (إن).

أما الوجه الثاني: وهو تعريف المعروف، وتنكيره، فإنه نكر في الآية الثانية، لأنها كانت الأولى نزولاً، وعرف في الأولى لأنها كانت متأخرة في النزول فكأنه معروف معهود للمخاطبين، وقد أشار الشيخ الجمل لهذا الوجه في حاشيته على الجلالين<sup>(٢)</sup>.

أما الوجه الثالث: وهو ما يهمننا لأننا بصدد الحديث عنه، وهو مجيء (الباء) في الأولى، و(من) في الثانية، فهو ما وقفني كثيراً. والسبب الذي يلوح لي - والله أعلم بمراده - للفرقة بين الحرفين، واختصاص كل موضع بحرف منهما:

إن الآية الأولى عامة في ما تبيحه للمرأة، ولا كذلك الثانية، بيان ذلك: أن الآية الأولى تبيح للمرأة إذا بلغت الأجل الذي حدد لها، وهو ما أخبر عنه سبحانه بقوله: ﴿يَرْبِضْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ فإنها يمكنها أن تفعل كل شيء حرم عليها بسبب العدة سواء كان التزني أم الخروج أم الزواج.

أما الآية الثانية: وهي الأولى نزولاً فإنها تبيح للمرأة الخروج قبل تمام الحول وهذا الخروج يبيح لها بعض ما كان محرماً بسبب العدة، وهذا معنى قوله سبحانه:

---

(١) الآية الأولى ناسخة للثانية، وإن كانت متقدمة عليها في ترتيب المصحف، وهذا دليل على أن الترتيب توقيفي.

(٢) الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية، سليمان بن عمر العجيلي الشافعي، الشهر بالجمل، ١٢٠٤ هـ / ١٧٨٩ م، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، مصر، ج ١، ص ١٩٦.

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَا فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ إلا أنه لا يبيح لها الزواج إلا بعد تمام الحول، الآية التي ذكرت فيها (الباء) إذن تبيح للمرأة كل شيء محرم بسبب العدة، والزواج منه بالطبع.

الآية التي جاءت فيها كلمة (من) لا تبيح لها الزواج.

لعلنا بعد هذا ندرك سر استعمال كل حرف في الموضع الذي استعمل فيه.

ولله المنة والفضل. هذا ما يبدو لي في فهم هذين الحرفين في كتاب الله تعالى.

وهكذا كل حرف في كتاب الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَكِنْتُ عَزِيْزٌ ۝۱۱ لَا يَأْنِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ

بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت: ٤١-٤٢]، ولنكتف بها ذكرناه وليقس ما لم يقل على ما قيل، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

ومن أسرار الحرف في كتاب الله تعالى مجيء اللام تارة، وإلى تارة أخرى. نقرأ

قوله سبحانه: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ۝۲﴾

[الزمر: ٢]، وفي السورة نفسها نقرأ قوله سبحانه: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ

فَمَنْ أَهْتَكَدَتْ فَلَنْفَسِيهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ ۖ﴾ [الزمر: ٤١]. وقد ذهب الكثيرون

إلى أن الحرفين بمعنى واحد، ولكننا إذا نظرنا إلى نظم الآية وسياقها، وجدنا الأمر

على غير ما ذكره، بيان ذلك:

أن الآية الأولى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ ذكر عقبها ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا

لَهُ الدِّينَ ۝۲﴾ فهو أمر له ﷺ بالعبادة، أما الآية الثانية التي ذُكر فيها (على) فقد ذكر

فيها إرشاد الناس وتعليمهم، وهكذا تجد أن كل حرف جاء في السياق الذي يقتضيه.

ومن هذا القبيل، هاتان الآيتان الكريمتان ﴿قُلْ إِنْ أَلَأَمَرْتُكُمْ لِّلّٰهِ ۝۱۱﴾ [آل

عمران: ١٥٤]، وقال سبحانه: ﴿وَالأَمْرُ إِلَيْكَ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ۝۳۲﴾ [النمل: ٣٣]. وقد ذهب

كثيرون إلى أن كلا الحرفين ينوب عن الآخر، ولكننا نلمح من السياق والمعنى أن

لكل من الآيتين نظمها الخاص بها. فالآية الأولى تثبت أن الأمر ثابت لله وحده، لا يشاركه فيه غيره. أما الآية الثانية فإذا نظرنا في سياقها، وجدنا أن لها معنى آخر؛ فملكة سبأ حينما جمعت الملأ ﴿قَالَتْ يَتَأْتِيَهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ [النمل: ٣٢]، فهي لا تشك في أن الأمر لها هي، وهم لا يشكون كذلك، ولذا قالوا لها مجيبين: ﴿نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ [النمل: ٣٣]، فهم لا يريدون أن يبينوا أن الأمر ثابت لها، فهذا لا تجهله هي، ولا ينازعون هم فيه كذلك، وإنما يريدون أن يبينوا -والله أعلم بمراده- أننا مهما أبدينا من آراء، وأياً كانت المشورة التي نشير بها، فإن نهاية ذلك كله إنما هو راجع إليك أنتِ، فأداؤنا جميعاً، وأقوالنا ومشوراتنا، ليست شيئاً مذكوراً، فأنتِ صاحبة القرار الأخير.

وهكذا ندرك أن كلاماً من الحرفين أعطى ما لم يعطه الآخر.

ومن هذا ما نجده بين اللام في مثل قوله سبحانه: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ [النمل: ٦٠]، وقوله سبحانه: ﴿وَيَنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾ [الأنفال: ١١]، فالآية الأولى التي ذكر فيه اللام وما يشبهها، جاءت تبين أن الله أنزل الماء من أجلهم، لتحيا به الأرض، وليشربوا هم وأنعامهم. أما الآية الثانية فجاءت حديثاً للمؤمنين في بدر، وإنزال الماء في هذا الوقت لم يكن لأجل إحياء الأرض وإنباتها، وإنما كان كما نطق الآيات، وكما ذكرت الروايات من أجل تطهيرهم، ولكي تكون الأرض صلبة تحت أرجلهم، قل لي بربك أي دقة وأي روعة، تلك التي تلمسها وتحس بها، وأنت تتلو آيات الكتاب الكريم.

ومن هذا القبيل قوله سبحانه: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨]، ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧]، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا﴾ [يوسف: ١٥]، ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣].

وهكذا تجد الآيات التي جاء فيها الوحي جاءت على هذا النمط، ذكر فيها حرف الجر (إلى)، ولكن آية واحدة في كتاب الله وجدناها تخرج عن هذا النمط، ويخالف فيها ذلكم السياق، حيث لا يتعدى الفعل فيها بـ (إلى)، وإنما يذكر حرف آخر وهو اللام، وهذه الآية هي قوله سبحانه: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ①﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ② وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ③ يَوْمَئِذٍ تُخْبِتُ أَخْبَارَهَا ④ إِنَّ رَبَّنَا أُوْحَىٰ لَهَا ⑤﴾ [الزلزلة: ١-٥].

وما نظن أن اللام و(إلى) يتعاقبان -كما قيل من قبل- ولكننا إذا أنعمنا النظر في الآيات، وجدنا هذه الآية دون غيرها، كان الوحي فيها للجهد، وهي الأرض، أما غيرها من الآيات فكان الوحي إما للأنبياء ﷺ، وإما لغيرهم من العقلاء، وإما لغيرهم من ذوي الحياة كالنحل مثلاً. وهكذا نجد أن تغير الحرف إنما جاء يشير إلى أمر وقضية، حري بها أن تتدبر.

الوحي للجهد عُدِّي باللام، ومنه قول الراجز: وحي لها القرار فاستقرت، وذلك أن الأرض سخرت دون أن يكون لها جهد في هذا الوحي، أما غير الجهد فليس كذلك؛ لأن له جهداً فيما أوحى له، سواء كان هذا الجهد فكراً أو تدبيراً، كما هو من العقلاء، أو كان تسخييراً وإلهاماً كما هو لغير العقلاء، كما تفعل النحل.

وإذا عرفت هذا كله استطعت أن تدرك أن قول الله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ①﴾ [لقمان: ٢٩] يختلف عن قوله سبحانه من حيث المعنى ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ②﴾ [الرعد: ٢]، وما على الباحثين ذوي الاختصاص إلا أن يقفوا مع الآيات، فيما ترشد إليه من أسرار، وفيما تفيضه من خير، وفيما تفضي به من وشوشات للعلماء بديعة شيقة، لا ليكتموها في أنفسهم، وإنما لينشروا عبقها بين العالمين.





## الفَصِيلُ السَّالِسُ

### الجملة القرآنية

ومن أجل أن تتذوق حلاوة الإعجاز، وتحس بها إحساساً لا مجال للشك فيه، فإني سأختار لك جملاً تغيرت فيها صورة النظم تغيراً يقتضيه المقام، ويحتمه السياق، ويتطلبه المعنى.

فمن ذلك التأكيد. ولتعلم أنه إنما يؤتى به حينما يكون له ضرورة، وأدوات التأكيد كثيرة ذكرت في كتب البلاغة، من هذه الأدوات: إن، واللام، وضمير الفصل، وهذا كله في الأسماء، أما تأكيد الأفعال فيكون بنون التوكيد، وقد، وغير ذلك من الأدوات التي ذكروها في كتبهم، والتي يدلّ عليها الاستقراء. وسنحاول أن نقفك مع بعض النصوص من كتاب الله تعالى؛ لتدرك بنفسك قضية الإعجاز بيّنة ظاهرة.

ومثل التأكيد الحذف والذكر؛ ذلك أن القرآن لكريم نجد فيه كلمات وجملاً ذكرت تارة، ولكنها حذفت في موضع آخر، وكان لهذا الذكر أو ذلك الحذف، أسبابه ودواعيه، وموجباته ومقتضياته، ولا تظنن أن هذه الأسباب والدواعي جمالية تخص اللفظ، ويحسن بها الإيقاع، ويكون للجرس فيها حلاوته، أقول: لا تظنن أن هذه الأسباب لفظية تخص الإيقاع وحده، إنما هي مع ذلك أسباب دعا إليها المعنى. هي موضوعية -إذن- ولذا فنحن حينما نتحدث عن الإعجاز البياني للقرآن الكريم، فإننا لا نقف عند جمال الصورة، وتأثير الجرس، فتلك قضية مع ما لها من أثر إلا أنها ليست الأساس الذي نرتكز إليه في تقرير الإعجاز، فالقرآن كتاب الحياة والأحياء ما دامت وما داموا على اختلاف أعصارهم وأمصارهم، وأصقاعها

وأرجائها، والإحساس بالصورة قد يختلف من قوم إلى قوم، ألا ترى إلى ما ذكره ابن سنان في بيت المتنبي:

كَأَنَّ الْعَيْسَ كَانَتْ فَوْقَ جَفْنِي مَنَاخَاتٍ فَلَمَّا تُرْنَ سَالَا

قال: وقد حُكي أن بعض ملوك الروم، وأظنه نقفور، سأل عن شعر المتنبي، فأنشد له بيت المتنبي، وفسر له معناه بالرومية، فلم يعجبه، وقال كلاماً معناه: ما أكذب هذا الرجل؛ كيف يمكن أن يناخ جمل على عين إنسان؟<sup>(١)</sup>.

إنما الشأن في الإعجاز قضية النظم، ذلك الذي لا يتم المعنى إلا به، وإذا كانت قضية الصورة تخص بالجانب النفسي والعاطفي؛ فإن أمر النظم، يتعلق بالجانب الفكري والنفسي معاً، وإذا كانت قضية الصورة تختلف باختلاف الناس من حيث قوة التأثير وجودة التعبير؛ فإن أمر الفكر ليس كذلك؛ لذلك كان النظم فلك الإعجاز لأن الله لم يجعل كتابه لأمة واحدة وللسان واحد.

ومثل الحذف والذكر التقديم والتأخير، والفصل والوصل، وأسلوب القصر، والتعريف والتذكير، وكل ما تشمل عليه نظرية النظم، ولا تحسن أني سأسلك بك هذا المسلك، فأحدثك عن هذه القواعد، فذلك شأن الدراسة البلاغية، وإنما المسلك الذي سأسلكه بك ولك إن شاء الله، أن أختار لك بعض الجمل القرآنية الكريمة مقارنة بما يشبهها، وذلك لتدرك بفكرك وتلمس بحسك، أن مثل هذا الإبداع لا يقدر عليه البشر، وسوف لا أقصر لك على ما سجله القوم في كتبهم، بل أكثر ما أذكره لك ما فتح الله به لنا بكرمه وفضله.

---

(١) سر الفصاحة، ص ٤٦.

## المبحث الأول التأكيد

١ - يقول الله تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، ويقول سبحانه: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤].

هاتان آيتان من كتاب الله تعالى، ختمت الأولى بقوله سبحانه: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ وختمت الثانية بقوله سبحانه: ﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، وما أظن الفرق بين الجملتين خافياً عليك، ففي الجملة الأولى جاء التأكيد بضمير الفصل (هو)، وضمير الفصل هذا إنما يؤتى به للتأكيد ولفوائد بلاغية ذُكرت في كتب القوم، فإذا أردت أن تؤكد على أن الإسلام هو علاج الأمة من أمراضها جميعاً، فإنك تقول: «الإسلام هو الصلاح» فتأتي بهذه الكلمة «هو».

أما الفرق الثاني بين الجملتين فهو أن الجملة الأولى جاء فيها الخبر معرفة ﴿الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾، وليست كذلك الجملة الثانية، وتعريف الخبر يفيد الاختصاص والحصار، ألا ترى أنك تتذوق الفرق بين قولك: «الله ناصر» وبين قولك: «الله هو الناصر»؛ لأنك في الجملة الأولى كل الذي أثبتته بأن الله يكون منه النصر، إلا أنه لم يفهم من هذا القول أن غير الله لا ينصر، أما الجملة الثانية فإنها لا تثبت أن الله ناصر فحسب بل تثبت أكثر من هذا وهو أن النصر من عند الله وحده، وأنه لا ناصر إلا هو تبارك وتعالى.

وبعد أن عرفت هذا، يمكنك أن تتساءل عن سر النظم في الآيتين الكريمتين، فإذا عرفت أن الجملة الأولى كان السياق الذي تحدثت عنه مخاطبة أولئك المسرفين

على أنفسهم، الخائفين، القانطين. وأن الجملة الثانية إنما جاءت حديثاً عن المؤمنين، الذين لم يكن منهم كبير خطأ ولا عظيم ذنب، ولا كثير معصية، رقص قلبك. واطمأنت نفسك أن هذا القرآن كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ثم قل لي ببرك هل يمكن أن يكون هذا النظم لأمة دون أمة، أم أنه معنى يشترك فيه كل ذي فكر؛ لأنه ليس حديثاً عن جمال الصورة وحدها التي تحدث عنها علماء البيان.

٢- يقول الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]، ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١] ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ﴾ [الدخان: ٣]، ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، ويقول سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

قف مع هذه الآية الأخيرة وستجد أن نظمها يختلف عن الآيات السابقة، فهذه الآية الكريمة كثرت فيها التأكيدات، ولعلك تلاحظ هذا، ففي الجملة الأولى ذكر ضمير الفصل (نحن) بعد (إن) واسمها، الذي هو ضمير المتكلم سبحانه، وفي الجملة الثانية منها ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ذكر مع (إن) واسمها لام التأكيد، ثم جيء بهذه الجملة الاسمية ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، وبالجملة فقد أكدت هذه الآية الكريمة بمؤكدات كثيرة، وكانت هناك عناية كبيرة بشأنها.

وحينما ننعم النظر في الآيات وفي الموضوعات القرآنية، ندرك سر ذلك، فهذه الآية الكريمة جاءت تتحدث عن شأن خطير من شؤون هذه الأمة، بل هو أعظم شؤونها، ذلكم الشأن هو تكفل الله تبارك وتعالى بحفظ هذا الكتاب، فلم يكله إلى الناس ليحفظوه كما كان ذلك في الكتب السابقة، وفي هذا إقامة الحجة على الأمة، فالأمر إن بدلت وغيرت فذلك لتبدل كتبها، ولكن القرآن باقٍ لا يتغير، فأبي عذر

للأمة التي تدعي الإيمان به دون أن تعمل. الآية الأخيرة -إذن- لم تأت حديثاً عن إنزال القرآن فحسب كالأيات السابقة، وإنما جاءت تحمل في أثنائها قضية من أخطر، بل هي أخطر قضايا الأمة.

٣- يحدثنا القرآن الكريم عن أبينا إبراهيم عليه السلام ، وهو يدعو قومه ﴿ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾ (٧٥) أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الذِّكْرِ ﴿٨٢﴾ [الشعراء: ٧٥-٨٢].

إننا ونحن نتدبر هذه الآيات الكريمة، نلاحظ أمراً لا بد أن نقف معه؛ هذا الأمر يظهر في وجود ضمير الفصل مقترناً ببعض الأفعال دون بعضها الآخر، فقد جاء هذا الضمير مقترناً بالأمور التالية: الهداية، الإطعام والإسقاء، الشفاء. أما الخلق، والإماتة والإحياء، والمغفرة، فجاءت خالية عن هذا الضمير، ولم يكن ذلك ناشئاً عن التفنن في العبارة، أو الاكتفاء بذكره في بعض المواضع دون بعضه الآخر؛ وإنما جاء ذلك لغرض وهدف؛ ذلك أن قضية الخلق، والإماتة والإحياء، والمغفرة، لا ينازع فيها قوم إبراهيم عليه السلام ، فلا يستطيعون أن يدعوا لها لأصنامهم التي يعبدونها ويعكفون عليها ﴿ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عِكِيفِينَ ﴾ (٧٦) ﴿ [الشعراء: ٧١] فلم تكن هذه القضايا بحاجة إلى التأكيد بهذا الضمير، أما الأمور الأخرى وهي الهداية، والشفاء، والإطعام والسقيا، فهي مما يدعون أن لأصنامهم فيها شأنًا، فهم يطلبون منها الهداية والتوفيق والشفاء من أمراضهم، وإذهاب الفقر عنهم، ولذلك وجدناها مقترنة بضمير الفصل، لأنها بحاجة إلى التأكيد، الذي يزيل شبهات النفس، ويجعل هذه الأمور جميعاً من شأن الله تبارك وتعالى وحده.

٤- يقول تبارك وتعالى: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ ﴾ (٤٢) وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾

وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْآخِرَىٰ ﴿٧٧﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٧٨﴾ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعَرَىٰ ﴿٧٩﴾ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ﴿٨٠﴾ ﴿[النجم: ٤٢-٥٠].

وإذا أنعمت النظر في الآيات الكريمة، وجدت أن الخلق والإهلاك جاءا خاليتين من ضمير الفصل، وما ذلك إلا لأن أولئك لا ينازعون في قضية الخلق ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، كما أنهم لا ينازعون في قضية الإهلاك، فهي من الأمور المستقرة في أذهانهم، والتي يتناقلها أجيالهم بعضها عن بعض. أما الأمور التي جاءت مقترنة بهذا الضمير فلم تكن كذلك فالإضحاك والإبكاء أمرهما ظاهر، وكذلك الإمامة والإحياء ذلك أنهم كانوا يقولون: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ ﴿[الجمانية: ٢٤].

ولعلك تتساءل ما الفرق بين هذه الآية وبين قول إبراهيم عليه السلام، ﴿وَالَّذِي يُبَسِّئُ ثُمَّ يُحْيِي﴾ ﴿[الشعراء: ٨١]﴾، حيث اقترنت هذه بضمير الفصل، ولم تقترن الأولى؟ وهو تساؤل في محله. والجواب عن ذلك -والله أعلم- أن ذاك ورد على لسان إبراهيم عليه السلام، وإبراهيم عاين إحياء الموتى في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ [البقرة: ٢٦٠] فأمر الإحياء والإمامة عنده عليه السلام بدهي مشاهد، أما الآية التي معنا فلقد جاءت بادئ ذي بدء تقريراً لأولئك القوم، فكانت بحاجة إلى هذا التأكيد، كذلك قوله: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعَرَىٰ﴾ ﴿[النجم: ٤٩]﴾، والشعرى كوكب كانوا يعبدونه في الجاهلية، فهم بحاجة إلى أن يبين لهم أن هذا المعبود إنما هو مربوب ومخلوق لله تبارك وتعالى.

٥- وفي كتاب الله تعالى آيتان تؤكدان قَصْرَ النصر وحصره على أنه من الله وحده لا دخل لأحد فيه. تقول إحدى الآيتين: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ ﴿[آل عمران: ١٢٦].

وتقول الآية الأخرى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٠]، ونحن نعرف أن آية الأنفال كانت أسبق نزولاً وأنها تتحدث عن بدر، وهي أول معركة يخوضها المسلمون مع عدوهم، وهم أحوج ما يكونون إلى ما يطمئن نفوسهم، ويثبت قلوبهم.

ولما كانت البلاغة ذات صلة عميقة بعلم النفس، بل كان الغرض منها مراعاة مقام المخاطبين والقدرة على التأثير في نفوسهم، وجدنا آية الأنفال يأتي فيها ذلك التأكيد بـ (إنّ) وهو ما تخلو منه آية آل عمران، ولا عجب فهي كلمات الله ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥].

وأظن ذلك كافياً في هذا المقام، لأنه ليس غرضنا الجمع والاستقصاء، وإليك نمطاً آخر لا تقل فيه روعة الإعجاز عما سبق.



## المبحث الثاني الحذف والذكر

١- قال تعالى بخصوص الزوجين اللذين لا يستطيعان مواصلة الحياة الزوجية: ﴿وَأِنْ يَفْقَرَا يُقْرِنَ اللَّهُ كُلاًّ مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ۝﴾ [النساء: ١٣٠]، وقال تعالى يخاطب المؤمنين ليحافظوا على شخصيتهم وعقائدهم: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝﴾ [التوبة: ٢٨].

وأظنك تتساءل كما تساءلت أنا من قبلك، لماذا ذكر في هذه الآية قوله: ﴿إِنْ شَاءَ﴾ ولم يذكر في الآية السابقة؟ مع أن كل شيء بمشيئته سبحانه؟ والذي يلوح لي -والله أعلم بما ينزل- أن الآية الأولى جاءت خطاباً لبعض الأفراد الذين تعسر عليهم مواصلة المسيرة مع أزواجهم، رجالاً كانوا أم نساء، فأراد الله تبارك وتعالى أن يبين لهم سعة فضله وواسع رزقه، وعظيم تيسيره، أما الآية الثانية فجاءت خطاباً للأمم، والأمة لا بد أن تتعود التضحية، للمحافظة على عقائدها ومقدساتها مهما كلفها ذلك من ثمن، وقد يؤدي بها ذلك إلى أن تُحرم بعض المكاسب، وتحمل كثيراً من الأعباء، ولذا لم يذكر فعل المشيئة هنا، فانظر إلى الروعة العظيمة في كتاب الله، ولقد قلت لك: إن الإعجاز البياني ليس حديثاً عن جمال الصور وروعة التعبير فحسب؛ بل هو مع ذلك يشتمل على سمو التوجيه، فهو ينظم شؤون الحياة كلها.

وهذه آية أخرى نستأنس بها لهذا الاستنتاج، ونستعين به على ما ذهبنا إليه، هي قوله سبحانه: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ۝﴾ [النور: ٣٢] فهذه الآية كما نرى لم تقيد

بالمشيئة، لأنها حديث عن شؤون بعض الأفراد والأسر؛ فهي شبيهة بالآية الأولى ﴿وَإِنْ يَنْفَرَقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ﴾ إلا أن تلك الآية في شأن الزوجين، وهذه تأمر بتزويج الأيامي، والأيام من لا زوج له ذكر أو أنثى.

٢- نقرأ في سورة الأعراف: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَىٰ اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَيْثُ وَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ بَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤]، وإلى جانب هذه الآية الكريمة نقرأ في سورة الرعد: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَىٰ اللَّيْلَ النَّهَارُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد: ٢٤].

ونظرة متأنية للآيتين الكريمتين نجد في كليهما هذه الجملة الكريمة ﴿يُغْشَىٰ اللَّيْلَ النَّهَارُ﴾ ولكن آية الأعراف عقبته بقوله تعالى: ﴿يَطْلُبُهُ حَيْثُ﴾، ولم نجد هذه الجملة الكريمة في آية الرعد، وهذا يدعونا إلى التساؤل والبحث، ترى هل كان ذلك لأن آية الأعراف نزلت أولاً، أما آية الرعد فنزلت متأخرة، فأكتفي بها ذكر في سورة الأعراف؟ ونزول سورة الرعد بعد سورة الأعراف، من الأمور المعروفة عند القوم؟ قد يكون ذلك، ولكننا مع ذلك نتلمس سبباً آخر.

ورجوعاً إلى الآيتين مرة أخرى نجد أن كلا منهما تحدثت عن موضوع غير الذي تحدثت عنه مضارعتها؛ آية الأعراف، تحدثت عن بدء تكوين هذا العالم ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [يونس: ٣]. أما آية الرعد فلقد كان حديثها عن العالم بعد استقراره عن الأرض بعد أن هُيئَتْ للإنسان، وبعد أن أخرج الله منها ماءها ومرعاها، والجبال أرساها، متاعاً لكم ولأنعامكم، وبعد، جعل فيها من كل الثمرات زوجين اثنين.

كل آية إذن - لها موضوعها الخاص بها - وإذا صح ما يقوله العلماء من أن حركة الأفلاك قبل استقرار العالم على ما هو عليه، كانت بسرعة هائلة أكثر مما هي عليه الآن بكثير، أقول: إذا صح ذلك فإن الآية تجمع إلى جانب الإعجاز البياني، إعجازاً علمياً كذلك.

والحق أن الإعجاز لبياني - كما قلت لك من قبل - إذا كان مختصاً بالنظم فهو عام يشمل مناحي كثيرة متعددة، فإذا كانت هذه الآيات تشتمل على الإعجاز العلمي مع البياني، فإن الآيات الأولى رأينا فيها مع الإعجاز البياني، إعجازاً اجتماعياً كذلك، يتمثل في وضع الأمة أمام مسؤولياتها الخطيرة.

٣- في سورة النساء نقرأ قول الله عز وجل: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَتَيْنَّ نَحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَنَافِسَا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا ۝٤﴾ [النساء: ٤]. والهناء: ما يستطاب ويستلذ، والمريء: ما حسنت عاقبته، وجمع بينهما لأن الواقع والمشاهد يقضيان بأن شيئاً ما ربما يستطاب، ولكن لا تكون عاقبته حسنة.

وإلى جانب هذه الآية الكريمة، نجد ربنا يخاطب في أكثر من آية أهل الجنة: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٣﴾ [المولات: ٤٣]، ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ۝٢١﴾ [الحاقة: ٢٤]. وأهل الجنة - كما نعلم - كلما يستلذ عندهم ليست له عاقبة وخيمة، لذا لم نجد هنا كلمة (مريئاً)، إذ لا داعي لذكرها.

وهكذا يقتصر القرآن العظيم في استعمال الكلمات، فلا يذكر إلا ما تدعو إليه الحاجة، ويقتضيه المقام.

٤- يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا ۝١٩﴾ [النساء: ١٩] مع أن أكثر المنهيات كانت تلي حرف النهي مباشرة ﴿وَلَا تَقُولُوا أَوْلَدَكُمْ﴾ [الإسراء: ٣١]، ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ ۝٣٢﴾ [الإسراء: ٣٢]، ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ [الإسراء: ٣٤]، ﴿لَا يَسْخَرُونَ مِنْ قَوْمٍ﴾ [الحجرات: ١١]، ﴿وَلَا يَقْتَبَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾ [الحجرات: ١٢].

ولكن آية النساء جاء نسقها غير هذا كله، فلم يقل فيها: «لا ترثوا النساء كرهاً».

ولقد وقفت عند هذا النص الكريم أبحث عن سر التغيرات، وبضم الآيات التي تضارع هذه الآية بعضها إلى بعض، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ سَهْوًا﴾ [البقرة: ٢٢٩]. اهتديت -والله أعلم، والله الحمد والمنة- إلى أن هذه الكلمة إنما تجيء بجانب الأمور، أو بجانب القضايا التي كان الناس يزاولونها دون أن يروا بها بأساً أو حرجاً، أما غيرها من المنهيات فهي أمور تنفر منها الطباع أو ينكرها العرف.

ومن هنا: جاءت كلمة (لا يحل) تنبيهاً على نكارة هذه القضايا التي يستسيغونها من غير حرج في أنفسهم.

٥ - وهاتان آيتان من كتاب الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ١٣]، ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٤].

فإحدى الآيتين: اقتصرت على لفظ الجلالة وهي آية الحشر، لأنها تتحدث عن بني النضير، لكن آية الأنفال ذكرت الرسول ﷺ وهي في سياق بدر تتحدث عن أهل مكة، ولا شك أن عداوة أهل مكة كانت عداوة مزدوجة، فهي للإسلام من حيث هو دين، ثم هي بعد ذلك عداوة حزازات وحسد لشخص الرسول ﷺ، وقد حدثنا القرآن عن أهل مكة وقولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، أما عداوة اليهود فللدين أياً كان نبيه ورسوله.

٦ - ذكر الجهاد كثيراً في كتاب الله تبارك وتعالى أمراً للمؤمنين به تارة، وثناء عليهم تارة أخرى.

فمن الضرب الأول قوله سبحانه: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٤١].

ومن الضرب الثاني قوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتٍ لَهُمْ فِيهَا نَقِيصٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [التوبة: ٢٠-٢٢].

وهكذا نجد الآيات الكرييات في كتاب ربنا وهي تذكر الجهاد، تذكر له متعلقين اثنين:

- فهو بالأموال والأنفس من جهة.

- وهو في سبيل الله من جهة أخرى.

كل ما في الأمر أنه قد يتقدم المتعلق الأول كما جاء في الآية الأولى، وقد يتقدم المتعلق الثاني كما جاء في الآية الثانية.

والذين يعيننا الآن ونحن نقف مع هذه الآية الكريمة: ﴿لَنْ يَكُنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾ [التوبة: ٨٨-٨٩].

فعبارة «في سبيل الله» لم تذكر في هذه الآية الكريمة. وما أظنُّ البحث عن السبب يكلفنا كثير فكر، وكبير عناء، فالآية جاءت تتحدث عن الرسول ﷺ وأصحابه البررة الذين شرفوا بمعيتة، وهؤلاء لا يكون جهادهم -بالطبع- إلا في سبيل الله وابتغاء مرضاته، ولذا لم تذكر في هذه الآية الكريمة.

أما غيرها من الآيات الكرييات؛ فكانت إرشاداً للمؤمنين أن يخلصوا العمل فلا تشوبه شائبة رياء ليكون مقبولاً عند الله -تبارك وتعالى-.

٧- نقرأ في كتاب الله - تبارك وتعالى هذه الآيات:

١ - قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمَغْفِينَ فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ ۖ﴾ (١٥) ءَاخِذِينَ مَاءَ الْهَنَامِ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُجْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَيَا لَأَسْحَارٍ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ﴿[الذاريات: ١٥-١٩].

٢ - قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾ [المعارج: ١٩-٢٥].

فكلمة ﴿مَّعْلُومٌ﴾ ذكرت في آيات سورة المعارج، ولم تذكر في آيات سورة الذاريات، وسبب ذلك فيما يبدو لي -والله أعلم بمراده- أن الصفات التي ذكرت في سورة الذاريات؛ لا يبالي أصحابها بالمال الذي ينفقونه، فهم لا يخشون في ذي العرش إقلالاً، وكلما زكت نفس الإنسان كلما تغلب على شحّه، ورضي الله عن سيدنا أبي بكر، وقد قال كلمته الشهيرة المأثورة التي ستظل نبراساً هادياً وقد سأله الرسول ﷺ: ما أبقيت لأهلك يا أبا بكر؟ فيقول: أبقيت لهم الله ورسوله.

أما آية المعارج، فكل ما ذكر فيها المصلون، ولسنا مع بعض المفسرين الذين يرون أن آية المعارج قد قصد بها الزكاة، لأن كلتا السورتين مكية -كما نعلم- ولكنها كلمات القرآن تذكر أن ذكرت لهدف وغاية، وتحذف كذلك لهدف وغاية.

٨ - نقرأ في سورة هود قول الله سبحانه وتعالى: ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِن دُونِ اللَّهِ مِن أَوْلِيَاءَ يُضَاعِفُ لَهُمْ الْعَذَابَ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [هود: ٢٠].

وحرّى بالآية الكريمة أن يقف أمامها المتأملون، فلقد جاءت ذات نسق عجيب، ولا غرو؛ فالسورة الكريمة التي جاءت فيها الآية ابْتَدِئْتُ بقوله سبحانه: ﴿الرَّكِتُ نُبِّ أَعْيَمْتُ ءَابَنَّهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِن لَّدُنَّ حَكِيمٍ خَيْرٍ ﴿١﴾﴾ [هود: ١].

لقد نفى عن أولئك السمع والبصر، إلا أن نفى السمع جاء مقروناً بالاستطاعة ولا كذلك البصر، فلم يقل: ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يستطيعون البصر، ولا ما كانوا يسمعون وما كانوا يبصرون.

ولقد ذهب بعض المفسرين إلى أن هذه صفة الأولياء، وهم الأصنام. فقوله سبحانه: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ﴾ متصل بقوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانُوا يَسْمَعُونَ دُونَ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ وأن قوله: ﴿يُضَعِّفُ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾ جملة معترضة.

ومع ما في هذا القول تفكيك للنظم الكريم، فهو مع ذلك ليس فيه إجابة كافية عن سر التعبير القرآني، بل يبقى السؤال بحاجة إلى الإجابة، حتى هذه الأصنام كما أنها لا تستطيع السمع، لا تستطيع البصر.

والذي يبدو لي - والله أعلم بما ينزل - أن قوله سبحانه: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ﴾ حديث عن أولئك الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً.

أما لماذا ذكرت كلمة (الاستطاعة) بجانب السمع؟ فهذا ما نتلمس أسبابه مستمدين العون من الله، سائلين سبحانه أن يجزي أشياخنا وذوي الخير عنا خيراً.

إن من له أدنى إلمام بتاريخ الدعوة في العهد المكّي يدرك أن أولئك المشركين كان القرآن يهيم على نفوسهم، ويأسر أفئدتهم، ولهذا كانوا يخشون الاستماع إليه، يوصي بعضهم بعضاً بذلك، ونبأ قراءة الرسول ﷺ سورة فصلت أمام عتبة بن ربيعة حتى بلغ قوله سبحانه: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣]. فقال له عتبة: كفى يا ابن أخي، أناشدك الرحم، ووضع يده على فمه.

أقول: نبأ هذه القصة وغيرها يطلعنا على السر في الآية الكريمة، فهم لا يستطيعون السمع؛ لما كانوا يجدون للقرآن في نفوسهم من سحر وأثر، وليس كذلك البصر.

كلمة (يستطيعون) في الآية الكريمة إذن جاءت تبين لنا هذه الأبعاد النفسية،  
والحقائق الكثيرة.

٩ - نقرأ قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا  
الرَّحْمَنُ﴾ [الملك: ١٩].

ونقرأ قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ  
إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٧٩].

وقفت أمام هاتين الآيتين الكريمتين أتلمس أسرار الإعجاز، فكلمة (فوق)  
ذكرت في سورة الملك، ولم تذكر في سورة النحل، بل ذكر فيها كلمة ﴿مُسَخَّرَاتٍ﴾،  
ويعلم الله أن من أسعد اللحظات، تلك التي يبتدى فيه المسلم إلى سرٍّ من أسرار  
إعجاز هذا الكتاب الخالد.

آية الملك جاءت في سياق التهديد والتبكي، والإنذار والوعيد لأولئك  
الذين يتعالون على الحق، ولهذا نقرأ قول الله تعالى قبلها: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ  
فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الملك: ١٨].

كلمة (فوق) إذاً جاءت لقصد وهدف، هذ الطير الصغير، هذا المخلوق  
الضعيف فوقهم، فلماذا التعالي؟!

أما سورة النحل -وهي سورة النِّعَم- فلقد جاءت الآية الكريمة فيها في  
سياق تعداد نِعَم الله -تبارك وتعالى- كما تشهد الآيات التي قبلها والتي بعدها، ولذا  
لم يشر للفوقية فيها، بل ذكرت كلمة (التسخير) وتسخير الطير نعمة من نِعَم الله  
سبحانه وتعالى.

بقي فرق آخر في الآيتين: آية الملك جاء فيها حرف العطف (الواو)، وهو  
يقتضي معطوفاً عليه وهذا المعطوف عليه فعل فيه تبكي لأولئك، أي: أغفلوا فلم



يروا؟! أعموا فلم يروا؟! فالاستفهام إنكاري توبيخي، ولكننا لا نجد هذا الحرف في سورة النحل، فتعالى الله علواً كبيراً.

١٠- يقول تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنَّهُمْ فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣]، ويقول سبحانه: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنَّ آتَهُمْ فَأَتِ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: ٣٩].

وتساءل، وأتساءل معك عن سبب التأكيد بكلمة (كل) في آية الأنفال، وتركه في آية البقرة، فإذا عرفنا أن آية الأنفال، جاءت في سياق الحديث عن غزوة بدر، وهي أول غزوة خاض المسلمون غمارها مع المشركين، وتقدم على هذه الآية قول ربنا تبارك وتعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣٨] وهذه إن كان خاصة، إلا أن العبرة بعموم اللفظ -كما يقولون-. أما آية البقرة، فلقد جاء قبلها قوله سبحانه: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْبَلُهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَأَقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩١].

وإذا عرفنا هذا، أدركنا سر التأكيد في آية الأنفال؛ وهذا السر نوجزه في حكمتين اثنتين:

الأولى: أن آية الأنفال جاءت في سياق أول غزوة من الغزوات، فكان لا بد أن يُبين للمسلمين، أن أمامكم طريقاً طويلاً من الجهاد، فليست مهمتكم تحويل المجتمع العربي وحده؛ إنما أنتم مبعوثون للعالم كله، فلا بد أن يكون الدين كله لله، فلما ذكر هذا التوكيد هنا، لم يكن هناك داعٍ لذكره فيما بعد.

الثانية: أن آية الأنفال تقدمها قوله سبحانه: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وهو وإن كان خاصَّ السبب، إلا أنه عام من حيث اللفظ، وذلك على العكس من آية سور البقرة، فإن الحديث فيها عن قوم مخصوصين، وهم أهل مكة بدليل قوله: ﴿وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقْبِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَتِّلُوكُمْ فِيهِ﴾.

١١ - وهاتان آيتان من كتاب الله تعالى تجد فيها شاهد صدق على الإعجاز، وهما قوله سبحانه: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمُّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١٧﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّهُمْ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَفْقَرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ١٨﴾ [المائدة: ١٧-١٨].

تأمل هاتين الآيتين المتجاورتين، وستجد أن الآية الأولى كانت ردًّا على النصراني، الذين قالوا بالوهمية عيسى عليه السلام، لا لشيء إلا لأن خَلَقَهُ كان على غير السنن المعروف المؤلف من خلق البشر من أب وأم، أما الآية الثانية فكانت ردًّا على اليهود والنصارى، حيث زعم الفريقان أن لهم صلة خاصة بالله تعالى. جاء في الآية الأولى قوله سبحانه: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾، ولكن هذه الجملة لم تُجِبْ في الثانية، ولعلك تدرك الآن سبب ذلك؛ ذلك أن الآية الأولى تقول لأولئك الذين ادَّعوا ألوهية عيسى لأنه خُلِقَ من غير أب، أن الله ملك السموات والأرض وما بينهما، فهو يخلق ما يشاء، فلقد خلق آدم من غير أب وأم، وخلق زوجه كذلك، فإذا خلق عيسى من غير أب، فإن له السلطان، فلا ينبغي أن يكون ذلك الخلق حاملاً لكم على القول بالوهميته، ﴿إِنْ مَثَلُ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ١٩﴾ [آل عمران: ٥٩].

أما الآية الثانية، فليس فيها ما يستدعي، وما يتطلب، وما يوجب وجود هذه الجملة الكريمة، ولهذا ختمت الآية الأولى بقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٧)؛ ليبين لهم عظيم قدرته، وبأن له الخلق والأمر، وختمت الثانية بقوله: ﴿وَلِإِيَّاهُ الْمَصِيرُ﴾ (٨) وهو تهديد ووعد، ليجازيهم على أعمالهم، فيبطل دعواهم أنهم أبناء الله وأحباؤه.

إن هذا الإبداع المحكم، وهذه الدقة والموضوعية، سواء كان ذلك من حيث اختيار الجملة في موضع دون موضع، أم من حيث ختم الآية بما يناسب المقام، لن تجده في غير هذا الكتاب المعجز.

١٢ - ولتدبر هاتين الآيتين، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ (٨٧) لَا تَمْدَنَّ عَيْنَكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفَضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (٨٨) [الحجر: ٨٧-٨٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (٩١) وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٩٢) [الشعراء: ٢١٤-٢١٥].

أنعم النظر تجد أن سيدنا رسول الله ﷺ أمر بخفض الجناح للمؤمنين في هاتين الآيتين، ولكن إحدى الآيتين ذكر فيها قوله تعالى: ﴿لِمَنِ اتَّبَعَكَ﴾ ولا أقول زيد فيها - معاذ الله -؛ لأن القرآن محكم من الزيادة والنقص، وإذا تأملت أدركت سر الإيجاز في الجملة الأولى، وروعة الإعجاز في الآية الثانية؛ ذلك أن السياق لكل من الآيتين اقتضى نظماً خاصاً، فالسياق الأول كان سياق امتنان وتفضل وإكرام، ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ (٨٧) فلا يغرنك ما أعطيه هؤلاء من متاع، ولا تحزن عليهم. أما السياق الثاني، فقد جاء في سياق التحذير ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ﴾ (٩٣) وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٩٤). ولما ذكرت العشيرة، وأمر النبي ﷺ أن ينذر هؤلاء الأقربين، فربما يُظنُّ بأن هؤلاء الأقربين شأناً خاصاً، آمنوا أم لم يؤمنوا، فكان السياق يتطلب هذه الجملة وهي قوله: ﴿لِمَنِ اتَّبَعَكَ﴾.

يقول له: لا تبال بأحد، وإنما ينبغي أن تخفض جناحك لمن اتبعك، وإن لم يكن بينك وبينهم قرابة وشيجة وصلة دم، ورابطة نسب ﴿وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢١٥) ﴿﴾.

والخلاصة أنه لما ذكرت العشيرة في الآية، والأذنون من الأقارب، كان لا بد من ذكر هذه الجملة ﴿لِمَنِ اتَّبَعَكَ﴾ أيأ كان أولئك المتبعون، عرباً أم غير عرب، من ذوي النسب أم من غيرهم. ذلكم هو القرآن.

وهذا كثير في كتاب الله تعالى، لا يمكننا أن نستقصيه في مثل هذا الكتاب، فإن راقك مثل هذا، ووجدت فيه ما تطمئن له نفسك، فأرجو الله أن يوفقني لأكتب لك كتاباً، أحاول فيه استقصاء كثير من الآيات الكريمة مما يُعرف عند العلماء بالمتشابه من حيث اللفظ، والله الموفق لكل خير.

## المبحث الثالث

### التقديم والتأخير

١- كثير من الآيات الكريمة ختمت بذكر أسماء الله عز وجل وصفات من صفاته، والمتدبر لهذه الآيات الكريمة يلمس فيها أسرار الإعجاز، ولطائف البيان ظاهرة بيّنة.

وكثير من هذه الآيات -بل أكثرها- نجدها تجمع بين اسمين أو صفتين لله تبارك وتعالى، ونجد أن بعض هذه الأسماء يطردّ تقديم بعضها على بعض، فكثير من الآيات ختمت بقوله سبحانه: ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ و﴿سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ و﴿قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ و﴿عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾، ولا نجد آية خرجت عن هذا النظم البديع، ليست هناك آية قدمت فيها الحكمة على العزة، فلم نقرأ (إن الله حكيم عزيز)، أو العزة على القوة (عزيز قوي)، كما لم نجد أي آية قدم فيها البصر على السمع (بصير سميع)، ولا نجد آية كذلك قدم فيها خير على عليم، ذلك لأن الترتيب الطبيعي والمنطق البياني يستلزم ما جاء عليه النظم القرآني.

فإذا اجتمعت العزة والحكمة، فحري أن تقدم العزة لأن الحكمة لن تؤتي ثمارها، ولن تكون لها نتائجها إلا إذا سبقتها العزة، ونقيض العزة الذلة، وما أبعد الذلة عن الحكمة.

لكننا نجد أن القوة قدمت على العزة في مثل قول الله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ ذلك لأن العزة بدون قوة دعوى لا تثبت أمام الأحداث، ولا تقوى على البقاء.

وكذلك السمع والبصر، نجد السمع يقدم على البصر في القرآن كله، سواء أكان ذلك من أوصاف الله تعالى، أم من أوصاف الناس التي أنعم الله بها عليهم، مثل ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ [النحل: ٧٨].

وكذلك العلم والخبرة، لأن الخبرة أخص من العلم، لذا لم نجد آية جاء فيها (خبير عليم).

لكننا ونحن نتدبر الآيات الكريمة، حيث نجد أن بعض الأسماء الجليلة، قدم بعضها على بعض في بعض الآيات، وأخر في بعضها الآخر، ولنتدبر نماذج من بعض الآيات الكريمة.

### الأنموذج الأول: المغفرة والرحمة:

جميع الآيات في كتاب الله تبارك وتعالى، قدمت فيها المغفرة على الرحمة، لأن المغفرة ستر للذنوب، أما الرحمة فتفضل وإنعام زائد على مغفرة الذنوب، لذا قدمت المغفرة على الرحمة، والتخيلية مقدمة على التحلية.

لكننا نجد آية واحدة من كتاب الله تبارك وتعالى قدمت فيها الرحمة على المغفرة، وهي قوله سبحانه في أول سورة سبأ: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ۝٢﴾ [سبأ: ٢]، فلم كانت هذه الآية بدعاً من أخواتها؟

إن المتدبر للسياق القرآني يمكن أن ينعم بالحكمة البيانية والموضوعية كذلك، التي جاء عليها نظم الآية القرآنية. إن السياق الذي جاءت فيه سياق القدرة والعلم، سياق العناية بهذه المخلوقات كلها، ما في السموات وما في الأرض، ما يلج في الأرض وما يخرج منها، ما ينزل من السماء وما يعرج فيها، ورحمة الله تبارك وتعالى تتجلى لهذه المخلوقات جميعاً، الشمس والقمر، والليل والنهار، والنجوم والجبال، والماء والمرعى، والنار والهواء، كلها تظهر فيها الرحمة، لذا كانت الرحمة جديرة بالتقديم في هذه الآية وحدها من كتاب الله.

أما غيرها من الآيات والتي قدمت فيها المغفرة على الرحمة، فقد ذكرت كلها في سياق ذنوب العباد، أو في سياق تقصيرهم فيما أمروا به. أما الآية التي قدمت فيها

الرحمة على المغفرة، فليس فيها شيء من هذا كله، لا من ذنوب العباد، ولا من تقصيرهم فيما أمروا به.

أرأيتم إلى هذا البناء المحكم وهذا النظم البديع؟

الأنموذج الثاني: العلم والحكمة:

أكثر الآيات الكريمة جاءت على هذا النظم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أو ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، ولكننا نجد بعض الآيات قدمت فيها الحكمة على العلم، قال تبارك وتعالى يحدثنا عن أبي الأنبياء وشيخ الخفاء، أئينا إبراهيم عليه السلام: ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرْفٍ فَصَكَتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ (٣٩) ﴿قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ (٣٠) [الذاريات: ٢٩-٣٠].

والم تأمل في السياق، والمتدبر للآيات الكريمة، يجد أن هذا التقديم أو التأخير كان أمراً يحتمه المعنى ويتطلبه الموضوع، وتقتضيه الحكمة، فأما تقديم العلم على الحكمة، فأظنه ظاهراً لا يحتاج إلى بيان، إذ من مقتضيات الحكمة أن يسبقها العلم، وإليك بعض هذه الآيات، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْزِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُنَبِّئُكَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٦) [يوسف: ٦] وقال تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّشِيدُونَ﴾ (٧) ﴿فَضَلَّ مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٨) [الحجرات: ٧-٨].

أما تقديم الحكمة على العلم فنجد أن الموضوعات التي جاء فيها هذا النظم، كانت الحكمة فيها هي الأساس، فبشارة إبراهيم وامرأته بالغلام، حيث يتعذر الحمل والإنجاب ﴿إِنَّ اللَّهَ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ (٧٢)

[مرد: ٧٢] أمر الله فيه حكمة ﴿قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾  
[الذاريات: ٣٠].

ولا نود أن نستقصي هنا فنقف مع كل آية، وما على القارئ إلا أن يتدبر الآيات، ليدرك بذوقه وإحساسه وفكره وعقله دقة النظم، وسمو المعنى.  
الأنموذج الثالث: المغفرة والحلم:

ختمت بعض الآيات الكريمة بهذين الاسمين الجليلين، تارة تتقدم المغفرة، وأخرى يتقدم الحلم، قال تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ [البقرة: ٢٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَعْرِضُوا عُقْدَةً أَلَيْسَ كَاجٍ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابَ أَجَلُهُ. وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ [البقرة: ٢٣٥]، وقال سبحانه: ﴿تَسْجُدُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَا إِذْ أَتَمَّسَكُهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾ [فاطر: ٤١].

تدبر الآيتين الأوليين، وهما مدينتان، تجد فيهما -وهما خطاب للمؤمنين- تحذيراً من مخالفة حدود الله، والخروج على شرعه؛ لذلك قدمت فيهما المغفرة، والمغفرة ستر الذنب كما قلت.

وتدبر الآيتين الأخريين -وهما مكيتان، وليستا خطاباً للمؤمنين- تجد أنها تتحدثان عن العناية الربانية، فالله سبحانه لا يعجل العقوبة للناس، وهذا هو المراد بالحلم. إن سياق الآيتين الأخريين بعيد عن سياق الآيتين الأوليين، كذلك كان نظمهما غير نظمهما. إن التقديم والتأخير في فواصل الآيات التي ذكرت فيها أسماء الله وصفاته، موضوع حري بالدرس، بل يستحق مؤلفاً خاصاً له فهو جدير بهذا، وسيجد الباحثون أسراراً مليئة بالحكم والفوائد.



٢- يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابُ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ ﴿١٣٦﴾

[الأعراف: ١٩٦]، ويقول سبحانه: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾

[البقرة: ٢٥٧]، ويقول سبحانه: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَأَلَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ [الشورى: ٩].

وأظنك أدركت سر النظم؛ ففي الآية الأولى جاء لفظ الجلالة خبراً، ولكنه في الآيتين الثانية والثالثة كان مبتدأ، وسر ذلك التغاير، أن الآية الأولى جاءت في سياق أولئك الذين جعلوا معبوداتهم أولياء، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظَرُونَ﴾ ﴿١٦٥﴾ إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابُ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٣٦﴾ [الأعراف: ١٩٥-١٩٦]، تقول الآية لأولئك: إن أولياءكم هذه المعبودات المتعددة، أما أنا فولي الله. والفرق بين الجملتين، أن قولنا: ﴿وَلِيََّ اللَّهِ﴾ مفهومها وليي الله لا غيره، أما الجملة الثانية ﴿اللَّهُ وَلِيُّ﴾ فمعناها ومفهومها الله وليي لا وليكم أنتم.

ولأضرب لك مثلاً ييسر لك هذا المعنى. تقول لمن يعتقد أن أخاك محمد، لا أحمد وهو يعرفهما: «أخي أحمد، وليس محمداً»، ولكنك تقول لمن يعرف أحمد، ولكنه لا يعرف أنه أخوك، وإنما يظن أنه أخ لغيرك، أو يظن أنه ابنك: «أحمد أخي» أي: ليس أخاً لغيري، وليس ابني. وهكذا تقول: «صديقي خالد» لمن يظن أن صديقك سعيد، ولكنك تقول: «خالد صديقي» لمن يظن أنك لا تعرفه، أو أنه خصمك.

وأظنك الآن تفهم الفرق بين نظم الآيتين الكريميتين، فقول الله سبحانه: ﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ﴾ أي: وليي الله وحده، وليس لي ولي من معبوداتكم التي ارتضيتموها، أما قوله سبحانه: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فمعناه أنه ليس ولي الكافرين، وبدل لهذا الآية الكريمة نفسها: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَائُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾ [البقرة: ٢٥٧] وهكذا تفهم الآية الثالثة ﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ أي: الولي الكامل الذي لا يتخلل عن عبده.

٣- قال تعالى يأمر المؤمنين بالتوكل عليه: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، ﴿وَقَالَ مُوسَى يَقَوْمُ إِن كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]، ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢]، ويقول أمراً نبيه ﷺ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [معد: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ [الَّذِي يَرْبِكَ حِينَ تَقُومُ] [الشعراء: ٢١٧-٢١٨]، وقال تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩]، وقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: ٣].

والمنعم في النظم القرآني يجد قضية حرية بالتدبر، جديرة بالتأمل؛ فحينما يكون الخطاب لهذه الأمة ولغيرها، يقدم لفظ الجلالة، وحينما كان الخطاب للرسول ﷺ خاصة قدم فعل التوكل - كما رأينا من قبل -.

فإذا عرفنا أن النظم الأول، إنما يجاء به للحصر والاختصاص، أي على الله توكلوا لا على غيره؛ أدركنا روعة النظم في كتاب الله تعالى، فما أحوج الناس الذين كثيراً ما توسوس لهم شياطينهم، وتسول لهم نفوسهم، ما أحوجهم إلى أن يؤكد لهم هذا المعنى، فيتبينوا أن التوكل ينبغي أن يكون على الله وحده، حتى لا تنازعهم نفوسهم الاعتماد على غيره تعالى.

أما الرسول ﷺ، وهو الذي أكرمه الله بالنفس الزكية الطاهرة، والذي لا يحوم حوله الشيطان؛ لأن الله أعانه عليه فأسلم، فلا حاجة له بهذا التخصيص والقصر، فلا حاجة أن يقال له: «على الله توكل». ومن هنا رأينا التباين في هذين الأسلوبين، التباين في النظم في الآيات التي تلوتها عليك من قبل، وهكذا تجد لفتات الإعجاز في كتاب الله، لا تخلو منها آية، ولا يفوتها موضع.

٤- يقول الله تبارك وتعالى متفضلاً على هذه الأمة مبيناً منزلتها بين الأمم: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، ويقول سبحانه: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، ويقول سبحانه: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهَدَى رَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]، ويقول: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ قُلَّةَ أَيْكُمْ إِذْ رَأَيْتُمُ الْكُفْرَ يَكْفُرُ بِكُمْ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨]، [الحج: ٧٨].

قف أمام هذه الآيات الكريمة، وستجد أن الآية الأولى والثانية آخر فيهما لفظ شهيد، ولكنه قدم في الثالثة والرابعة، وحاول أن تكشف اللثام عن ذلك الوجه المشرق، الذي يتفجر نوراً وحكمة. وسأحاول أن آخذ بيدك، لأفتح لك الباب الذي تلج منه.

إن قوله سبحانه: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ بيان لشأن هذه الأمة، بشهادتها على غيرها من الأمم، ولكن ليس معنى هذا أنه ليس على هذه الأمم شاهد غير هذه الأمة، فأنبياء كل أمة وصالحوها سيشهدون عليها، شهادة هذه الأمة - إذن - على غيرها من الأمم ستكون واحدة من شهادات كثيرة. ولكن لو قيل: «لتكونوا على الناس شهداء» لكان معنى هذا أنهم هم الذين يشهدون على الناس، لا غيرهم، وليس الأمر كذلك كما عرفت - فإن نبي كل أمة شاهد عليهم.

﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ - إذن - ليس فيه تخصيص لهم بأنهم وحدهم يشهدون على الناس، كل ما فيه أنهم سيكونون من جملة الشهداء على الناس، ولذا لم نجد في كتاب الله تعالى آية واحدة تقول للمؤمنين: «لتكونوا على الناس شهداء».

أما قوله سبحانه: ﴿وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ فمعناه أن شهادة النبي ﷺ، خاصة بكم أنتم، فلن تشهد عليكم الأمم كما شهدتم عليها، وأرجو أن تكون قد أدركت الفرق الدقيق في النظم الكريم، فكونهم شهداء على الناس مدح لهم، وكون الرسول عليهم شهيداً مدح لهم كذلك، لاختصاصهم بشهادته عليه وآله الصلاة والسلام، ولو قال لك: «ويكون الرسول شهيداً عليكم» لكان مدحاً للرسول ﷺ.

ويمكنك أن تصل الآن إلى ما نريد عن سر اختلاف النظم في الآيات الكريمة، ففي الآيتين الأوليين كان المقصود الثناء على الأمة، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ وكان هذا الثناء من جهتين اثنتين: كونهم يشهدون على الناس من جهة، وكون الرسول عليهم شهيداً من جهة ثانية، أما الآية الثالثة والآية الرابعة فكان السياق فيهما غير ما تقدم، فالآية الثالثة ثناء على الرسول ﷺ والآية الرابعة ثناء على المؤمنين وثناء على الرسول ﷺ، وأرجو أن تتدبر الآيات مرة أخرى لتدرك سر ما قلته لك، والله أعلم بما ينزل.

وكذلك الآية الثانية، ويشهد لذلك ما جاء في الحديث وقد طلب الرسول ﷺ من ابن مسعود رضي الله عنه أن يقرأ عليه شيئاً من القرآن، فتلى عليه من سورة النساء، ولما وصل إلى هذه الآية بكى الرسول ﷺ وقال: حسبك.

٥- نقرأ في وصف المنافقين، وفي وصف الكافرين، هاتين الآيتين في سورة البقرة: ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٨﴾﴾ [البقرة: ١٨]، ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة: ١٧١].

وتقديم الصم هنا جاء في غاية الإحكام، لأن بداية ضلال أولئك الأقوام، حينما أصاخوا بسمعهم عن آيات الله تتلى عليهم.

ونقرأ في مشهد من مشاهد يوم القيامة عن أولئك الذين ضلوا سواء السبيل: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيَٰ وَبُكِمَا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧]. لقد تغيرت الصورة

هنا، لذلك تغير معها نسق القول، ذلك لأن السماع لم ينفع أولئك الناس ولا يعود عليهم بخير، ثم إن العمى هو من أشد الأمور مشقة وأكثرها صعوبة عليهم في ذلك اليوم<sup>(١)</sup>.

٦- ونقرأ قول الله تعالى يحث المؤمنين على العدل والقسط ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥]، وقوله سبحانه: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]. فإذا عرفنا أن هذه الآية نزلت في شأن العدل مع أعداء الإسلام، وأن الأولى نزلت في شأن تحقيق العدل مع ذوي الرحم، أدركنا سر النسق في الآيتين الكريمتين. فالعدل مع الأعداء ربما يظن أنه من الأمور المستحسنة التي يتقرب بها إلى الله فتقدم فيه كلمة ﴿لِلَّهِ﴾ ولا كذلك الآية الأولى؛ لأن القسط فيها هو الأهم.

٧- ونقرأ قول الله تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ اللَّيْلُ أَمَنَةً مِنْهُ﴾ [الأنفال: ١١]، وفي مقابليها ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ [آل عمران: ١٥٤].

فإذا عرفنا أن آية الأنفال كانت في بدر، وأن آية آل عمران في أحد، وعرفنا أن حاجة المسلمين في بدر كانت إلى الراحة والنوم، أما في أحد فلقد كانت حاجتهم بعد أن أصابهم ما أصابهم إلى الأمن والطمأنينة، أدركنا سر التقديم والتأخير في الآيتين الكريمتين.

(١) وهناك فرق آخر وهو أن هذه الآية التي نتحدث عن يوم القيامة تحمل على حقيقتها، فهم يحشرون كذلك، يفقدون هذه الحواس الثلاث. أما آيتا البقرة، فالمقصود منها التشبيه، لأن الكافرين والمنافقين لم يكونوا كذلك، لكنهم لم يستعملوا حواسهم فيها هو خير فكانهم لا حواس لهم.

٨- قول الله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦]، ﴿زِينَتِ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾ [آل عمران: ١٤].

فآية الكهف جاءت إثر الحديث عن الرجلين اللذين جعل الله لأحدهما جنتين محفوفتين بنخل وبينهما زرع. فتقديم المال إذن يتسق مع السياق، لأن الحديث عنه. والآية الثانية جاءت تتحدث عن مراتب الأمور المزيّنة، وأن منها ما يكون الدافع له الغريزة والعاطفة معاً، وهو القسم الأول ﴿النِّسَاءِ﴾، أو من العاطفة والنفس وهو القسم الثاني ﴿وَالْبَنِينَ﴾، أو من النفس وحدها، وهو القسم الثالث ﴿وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ﴾، وجمعت الشهوات لما بينها من اختلاف<sup>(١)</sup>.

فإذا عرفنا هذا أدر كنا سر التقديم والتأخير في كلام العليم الخبير.

٩- وما دمنا قد تحدثنا عن المال والبنين، فلنتحدث عن الأموال والأنفس:

نقرأ قول الله تعالى: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ [الصف: ١١]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ [التوبة: ١١١]، فالآية الأولى، وكثير مثلها في كتاب الله تعالى إنما تتحدث عن الجهاد في دور الإعداد، ومن مقدماته الضرورية المال. لكن الآية الثانية تتحدث عن القتال في معمة الوغى، لذلك قدمت النفس بدليل: ﴿يَقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبة: ١١١].

١٠- الجن والإنس: نجد الآيات التي ذكر فيها الجن والإنس، يقدم فيها ما يستدعي السياق تقديمه، فعند التحدي بالقرآن قدم الإنسان، لأنهم هم المقصودون

(١) مصطفى صادق الرافعي، رسائل الرافعي، جمع وترتيب: محمود أبو رية، طبع بدار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ١٩٧٦، ص ٢٣٣ وما بعدها.

بالتحدي، وحين كان التحدي بالنفوذ من أقطار السموات والأرض قدم الجن لأنهم أقدر على ذلك: ﴿ قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ﴾ [الإسراء: ٨٨]، ﴿ يَمَعَشِرَ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ إِنَّ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴾ [الرحمن: ٣٣].

وقد يكون التقدم تقدماً زمنياً: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وقد يكون التقدم دليلاً على الفضل والشرف: ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴾ [الإنسان: ١٤]، ﴿ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَّارٍ ﴾ [الرحمن: ١٥-١٥].

١١ - المغفرة والرحمة: الآيات الكثيرة في كتاب الله تعالى تحدثنا عن كرم الله على عباده، فهو يغفر ذنوبهم وإساءتهم ويرحمهم، وهذه الآية تقدمت فيها المغفرة على الرحمة ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٨٢]، وقد تُقدِّمُ المغفرة على الحلم ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

وعلى العكس من ذلك نجد آية واحدة قُدِّمَتْ فيها الرحمة على المغفرة، قال تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْعَفُورُ ﴾ [سبا: ٢]، وهي الآية الوحيدة في كتاب الله تعالى التي قدمت فيها الرحمة، وذلك لأنها ذكرت في سياق القدرة والعلم، فكانت الرحمة جديرة بالتقدم. أما الآيات الكثيرة التي قُدِّمَتْ فيها المغفرة، فإنها تذكر في سياق ذنوب العباد وتقصيرهم فيما كلفوا به.

١٢ - الصبر والتقوى: ومثل هذا ما جاء في سورة آل عمران خطاباً للمؤمنين لتعليمهم وإرشادهم كيف يقفون من أعدائهم ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً

مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُو لَوْنَكُمْ خَبَالًا ﴿١١٨﴾ [آل عمران: ١١٨]، فيقدّم الصبر هنا؛ لأن له أكبر الأثر في تغلب المؤمنين على أعدائهم، وإلى جانب هذه الآية الكريمة نقرأ قول يوسف لإخوته: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يوسف: ٩٠]، فسياق الآية هنا عام، وهو بعيد عن الحرب وأوزارها، لذلك كانت التقوى الأساس الذي ينبغي أن يبنى عليه كل شيء.

١٣ - ونقرأ في آخر آية من سورة الفتح: ﴿تُحَمَّدُ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح: ٢٩]. ولكننا نقرأ في سورة المائدة: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [المائدة: ٥٤].

ولما كان سياق سورة الفتح، سياق الجهاد ومجالبة الأعداء، ولما كان سياق آية المائدة: النهي عن موالاته اليهود والنصارى، قدّم في كل آية ما يتفق مع سياقها، ويلائم موضوعها، ويتناسب مع المقام الذي جاءت فيه. فقدّمت الشدة على الكفار في سورة الفتح، وقدمت الذلّة على المؤمنين في سورة المائدة التي جاءت تنهى المؤمنين عن أن يوالوا أعداء الله ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة: ٥١].

١٤ - موسى وهارون: الآيات التي تحدثت عن السّحرة حينما ألقوا وجوههم سجداً لله، وأعلنوا إيمانهم برب العالمين، تحدثنا بعض هذه الآيات أنهم قالوا: ﴿قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الشعراء: ٤٧-٤٨] وبعضها: ﴿قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴿٧٠﴾﴾ [طه: ٧٠]. وهي من أقوى ما يستشهد به القائلون على وجود السجعة في كتاب الله تعالى، وهذا ليس من غرضنا بالطبع. لكن ما أود تقريره من تقديم هارون في الآية الكريمة وتأخيرها في جميع الآيات أقول:



ما أودّ تقريره أن تقديم هارون على موسى كان في هذه السورة وحدها، والسبب الذي اختاره في ذلك - والله أعلم بمراده وبأسرار كتابه - يتلخص فيما يلي:

سورة طه هي السورة الوحيدة التي حدثتنا عما حصل لموسى عليه السلام من خوف، وكان حرياً به أن لا يكون منه ذلك، فهارون أولى به منه، لأنه لم يشاهد ما شاهده موسى، ولم يشرف بمناجاة الحق، قال تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةُ مُوسَى﴾ (طه: ١٧) <sup>(١)</sup>، فكان حرياً به أن يكون رابط الجأش، ثابت الجنان.

من أجل ذلك يلوح لي أن هارون عليه السلام قدّم في هذه السورة، وهي قيمة قرآنية عظيمة، حري بنا أن نقف عندها ونتدبرها، وهي تقدير كل عامل بعمله.

١٥ - السموات والأرض: بعض الآيات الكريمة قدّمت فيها السموات على الأرض، وبعضها الآخر قدّمت فيها الأرض على السماء.

فمن الأول: قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَلَىٰ الْغَيْبِ لَا يُعْزَبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ (سبا: ٣).

ومن الثاني: قوله سبحانه: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ (يونس: ٦١). فهذه الآية الكريمة تتحدث عن أعمال أهل الأرض، وشهادة الله عليهم وإحصائه لأعمالهم فكان اللائق بها أن تقدم فيها الأرض على السماء لأن أهلها هم المقصودون بالخطاب.

---

(١) ولقد ذكر في أول السورة الكريمة من أنه عليه السلام مُبَيَّن عن هذا الخوف حينما ألقي العصا ﴿وَلَا تَخَفْ سَئِئِدْهَا سِيرَتُهَا الْأُولَى﴾ (طه: ٢١) وهكذا جاء في سورتي: النمل والقصص، بل ذكر في سورة النمل: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدُنِيَ الْمُرْسَلُونَ﴾ (النمل: ١٠) فما كان من شأنه عليه السلام أن يكون منه هذا الإيجاس حينما ألقي السحرة ما ألفوا.

أما الآية السابقة فجاءت لإثبات البعث، وبيان قدرة الله تبارك وتعالى، فكان حرياً أن تقدم السموات؛ لأنها أعظم من الأرض، وأدّل في خلقها على القدرة. وهكذا نجد الآيات التي قدّمت فيها السموات أو الأرض لكل سياقها الذي يقتضي التقديم والتأخير.

١٦- ومن روعة الإعجاز في كتاب الله تعالى في تقديم الكلمة أو تأخيرها ما نقرؤه في هذه الآيات الكريمة: ﴿إِن فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَاَيِّنٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۝١١٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴿[آل عمران: ١٩٠-١٩١].

وفي آية ثانية: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣].

ففي هاتين الآيتين كان هذا الترتيب القيام أولاً، والقعود بعد ذلك، والحالة الثالثة ﴿وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ و﴿وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾. ولكننا نقرأ في آية أخرى ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّكَانَ لِمَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝١٢﴾ [يونس: ١٢].

إنه والله الإعجاز الذي يأسر القلب ويرقص له القلب، لقد قدم في الآية الأولى والثانية ما يقتضيه المقام، ولا شك أن أفضل العبادة حينما يطيل الإنسان القيام، أما الآية الثالثة: فإنها تحدثت عن الإنسان في حالة الضر. ولذا بُدئ بالحالة الأخيرة، وهي كونه على جنبه لأن هذا هو الذي يتناسب مع الضر الذي هو فيه.

وأختم هذا المبحث بكلمة ذكرها صاحب المفتاح رحمته الله في باب التقديم والتأخير يقول: «والله درّ أمر التنزيل، وإحاطته على لطائف الاعتبار في إيراد المعنى على أنحاء مختلفة، بحسب مقتضيات الأحوال، ولا ترى شيئاً منها يراعى في كلام البلغاء من وجه لطيف، إلا عثرت عليه مراعى فيه من ألطف وجوه. وأنا

ألقي إليك من القرآن عدة أمثلة مما نحن فيه لتستضيء بها فيما عسى يظلم عليك من نظائرها، إذا أحببت أن تتخذها مسارح نظرك، ومطارح فكرك، منها:

أن قال عزّ من قائل في قصة موسى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ﴾ [الفصم: ٢٠] فذكر المجرور بعد الفاعل، وهو موضعه. وقال في قصة رسل عيسى عليه السلام: ﴿وَجَاءَ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ﴾ [يس: ٢٠] فقدم لما كان أهم. يبين ذلك أنه حين أخذ في قصة الرسل اشتمل الكلام على سوء معاملة أصحاب القرية والرسول، أنهم أصروا على تكذيبه، وانهمكوا في غوايتهم مستشرين على باطلهم، فكان مظنة أن يلعن السامع على مجرى العادة، تلك القرية قائلًا: ما أنكدها تربة، وما أسوأها منبتًا، ويبقى مجيلًا في فكره أكانت تلك المدرة بحافاتها كذلك، أم كان هناك قطر دان أو قاصي منبت خير، منتظرًا لمساق الحديث. هل يلم بذكره؟ فكان لهذا العارض مهمًا، فكما جاء موضع له صالح ذكر بخلاف قصة موسى.

ومنها أن قال في سورة المؤمنون: ﴿لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ وَءَبَاؤُنَا هَذَا﴾ [المؤمنون: ٨٣]. فذكر بعد المرفوع وما تبعه المنصوب وهو موضعه، وقال في سورة النمل: ﴿لَقَدْ وَعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَءَبَاؤُنَا﴾ [النمل: ٦٨] فقدم لكونه منها أهم. يدل ذلك على ذلك أن الذي قبل هذه الآية ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَبَاؤُنَا إِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ [النمل: ٦٧]. والذي قبل الأولى: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا﴾ [المؤمنون: ٨٢] فالجهة المنظور فيها هنا هي كون أنفسهم ترابًا وعظامًا، والجهة المنظور فيها هنا هي كون أنفسهم وكون آبائهم ترابًا لأجزاء. هناك من بناهم على صورة نفسه ولا شبهة أنها أدخل عندهم في تبعيد البعث، فاستلزم زيادة الاعتناء بالقصد إلى ذكره، فصيره هذا العارض أهم.

ومنها أن قال في موضع من سورة المؤمنون: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ﴾ [المؤمنون: ٢٤] فذكر المجرور بعد صفة الملأ وهو موضعه كما تعرف، وفي موضع آخر منها: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا﴾ [المؤمنون: ٣٣] فقدم المجرور لعارض صيره بالتقديم أولى، وهو أنه لو أُنْخِرَ عن الوصف، وأنت تعلم أن تمام الوصف بتمام ما

يدخل في صلة الموصول وتماه: ﴿وَأَتَرَفْتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [المؤمنون: ٢٣] لاحتتمل أن يكون من صلة الدنيا، واشتبه الأمر في القائلين، أهم من قومه أم لا؟

ومنها أن قال في سورة طه: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ (طه: ٧٠)، وفي الشعراء: ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ (الشعراء: ٤٨) للمحافظة على الفاصلة، ولنقتصر من الأمثلة على ما ذكر، فما كان الغرض إلا مجرد التنبيه دون التتبع لنظائرها في القرآن، وتفصيل القول فيها<sup>(١)</sup>.

وما ذكره صاحب المفتاح على كثرة فوائده، وعلى جلالة قدر قائله، يحسن بنا أن نوضحه، ويحمل بنا أن نقربه للقارئ، حتى يكون داني القطوف، يسير الجنى، سهل التناول.

ذكر السكاكي رحمه الله آيات من كتاب الله، قدمت فيها الكلمة تارة وأخرت أخرى، لتكون أنموذجاً للمتدبرين.

الآية الأولى: قوله سبحانه: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَنْقَوِي أُنْبِئُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ (يس: ٢٠)، وفي موضع آخر: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَمْوَسَّى ابْنَ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لَيَقْتُلُوكَ فَاخْرِجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ (القصص: ٢٠).

فآية القصص - كما رأينا - قدمت فيها كلمة (رجل) لكنها أخرت في سورة يس ولا شك أن هذا التقديم والتأخير، لم يكن من باب التفنن في القول كما توهمه بعضهم - ساعهم الله -<sup>(٢)</sup> وإنما كان لحكمة بيانية متعلقة بالنظم، والنظم كما نعلم، ترتيب الألفاظ في النطق إثر ترتيب معانيها.

(١) الإمام أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي، كتاب: مفتاح العلوم، ص ٢٣٨ - ٢٣٩، ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) روح المعاني، للآلوسي، ج ٢٢، ص ٢٢٦.

آية القصص جاءت في سياق قصة موسى عليه السلام وقد وكر القبطي ففضى عليه فتربص به القبط، وبيتوا له أمراً، واتتمروا به شراً، ولم يكن يدر بخلد أحد من الناس أن واحداً من أولئك القوم يخرج على إجماعهم ليسر لموسى ما اجتمعوا عليه.

الذي يستدعيه السياق إذن، أن يكون الحديث عن هذا الرجل بقطع النظر عن أن يكون من أقصى المدينة أو أذناها، لذلك قدم في الآية الكريمة ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى﴾. الرجل هنا هو محط الأنظار، وغاية القصد، ولم يكن الأمر كذلك في سورة يس، فالسياق هناك يتحدث عن قرية جاءها المرسلون لكنهم كذبوا، ومع محاولات أولئك الرسل، ومحاورتهم -كما تدل عليه الآيات الكريمة ﴿وَأَضْرِبْ لِّمِثْلِ الْقُرَيَّةِ﴾ [يس: ١٣] الآيات - إلا أن ذلك لم يجد شيئاً وكان أهل هذه القرية، عميت عليهم الآيات، ليس العجب إذن أن يؤمن رجل منهم، بل العجب أن لا يؤمنوا جميعاً، لذلك قال الله سبحانه: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى﴾ ليبين أن هذه المدينة لم يؤمن منها أحد، اللهم إلا واحداً من أقصاها.

تقديم الرجل هنا إذن لا تتعلق به فائدة ما، فهو يختلف عما في سورة القصص، وهكذا قدم في كل آية ما يتلاءم مع السياق، وما يتطلبه المعنى.

أما الآية الثانية التي ذكرها صاحب المفتاح فهي قوله سبحانه حديثاً عن الكافرين المنكرين للبعث: ﴿لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا هَٰذَا مِنْ قَبْلُ﴾ وفي موضع آخر ﴿لَقَدْ وَعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ﴾. فقد قدم الضمير ﴿نَحْنُ﴾ في آية، وقدم البعث المشار إليه بقوله تعالى ﴿هَٰذَا﴾ في آية أخرى، وإليك الآيات في كل من الموضعين:

قال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا

وَعِظْمًا أَوْنَا لَنَبْعُوثُ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا هَٰذَا مِنْ قَبْلُ ﴿[المؤمنين: ٨٣].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَّءَابَاؤُنَا أَيَنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَّءَابَاؤُنَا مِن قَبْلُ ﴿٦٨﴾﴾ [النمل: ٦٧-٦٨].

تأمل في هاتين الآيتين وانظر ما بينهما من فروق.

آية (المؤمنون): ذكرت فيه العظام، بينما آية (النمل) اقتصر فيها على التراب وحده.

ارجع الفكر مرة ثانية، تجد أن آية (المؤمنون) تحدث فيها منكرو البعث عن أنفسهم فحسب، أما آية (النمل) فلقد تحدثوا فيها عن آبائهم كذلك، لعلك بعد هذين الملحظين تدرك السر الذي قدّم فيه البعث المشار إليه بهذا في سورة النمل، لأنهم تحدثوا عنهم وعن آبائهم السابقين من جهة، ولأنهم تحدثوا عن التراب وحده من جهة ثانية، ولا شك أنهم يظنون أن البعث يكون أكثر صعوبة كلما تحللت الأجسام، فبعد أن تؤول إلى تراب، ولم يبقَ فيها هيكل متماسك، تصبح قضية البعث في نظرهم، قضية غير متصورة، وليس الأمر كذلك حينما تكون العظام، وحينما تكون الهياكل على صورتها التي كانت عليها في حالة الحياة.

الآية التي لم يذكر فيها العظام قدّم فيها البعث ﴿لَقَدْ وَعَدْنَا هَٰذَا﴾ فلهذا درّ التنزيل -كما قال السكاكي رحمه الله-.

والآية الثالثة التي ذكرها أبو يعقوب السكاكي هي قوله سبحانه: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أَلِئِنْ أَوْرَثْنَاهُمُ الْآخِرَةَ أَتَرَافَتْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [المؤمنون: ٣٣]. والآية -كما نرجع- حديث عن قوم هود عليه السلام. وفي السورة نفسها وقبل هذه الآية، وقد كان الحديث عن قوم نوح عليه السلام قال تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٤].

الحديث عن قوم نوح قَدَم فيه الاسم الموصول، لكنه أخرج حينما كان الحديث عن قوم هود، يعلل ذلك صاحب المفتاح بما يلي:

لو أنه قَدَم الاسم الموصول هنا، لكان لبس في فهم الآية، بيان ذلك: أن الموصول وصلته متلازمان لا ينفصل أحدهما عن الآخر<sup>(١)</sup>، فلو أنه قدم الاسم الموصول في الآية الكريمة لكان النظم هكذا: «قال الملأ الذين كفروا وكذبوا ببقاء الآخرة وأترفناهم في الحياة الدنيا من قومه» وصلة الموصول هي قوله: «كفروا وكذبوا وما بعده» إلى قوله: «في الحياة الدنيا» لأن بعضها معطوف على بعض، فقوله: «من قومه» يمكن أن يكون تابعاً للحياة الدنيا، أي: أترفناهم في الحياة الدنيا، وكان هذا الإتراف الذي حصل لهم -أي لهذا الملأ- كان من قوم هود، فيحتمل أن القائلين هذا القول ليسوا من قومه، من أجل هذا قَدَم الجار المجرور «من قومه» على الاسم الموصول وصلته. هذا ما ذهب إليه السكاكي، وهو واحد من أقوال متعددة في تفسير الآية، وهذا القول يتأتى إذا جعلنا (الواو) في قوله: ﴿وَأَتَرَفْنَهُمْ﴾ عاطفة. أما إذا جعلناها (واو الحال) فلا يرد هذا الاحتمال، لأن المعنى حين ذاك: «وقد أترفناهم في الحياة الدنيا» فلا تكون داخلية في صلة الموصول.

ويظهر لي في الآية وجه آخر، وهو أن التقديم هنا يقصد منه، أن الملأ من قوم هود كانوا قسمين: كافرين ومؤمنين، وليس الملأ من قوم نوح كذلك، والذي رجح هذا التأويل، ما جاء في سورة الأعراف حديثاً عن قوم هود عليهم السلام ﴿قَالَ أَمْلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ [الأعراف: ٦٦].

والآية الرابعة والأخيرة التي ذكرها صاحب المفتاح، هي قوله سبحانه: ﴿قَالُوا أَمَّا نَبِيَّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ [طه: ٧٠]، وبين أن تقديم هارون هناك كان مراعاة

---

(١) حينما تكلم علماء البلاغة عن الجمل وذكروا أن ركني الجملة المسند إليه والمسند، وأن ما عدا ذلك من القيود استثنوا صلة الموصول فلم يجعلوها قيداً لأن الكلام لا يتم بدونها.

للفواصل. وقد قدّمت القول في هذا، وأحب أن أنبه قبل أن أتجاوز هذه القضية إلى أن ما يقوله بعض علماء التفسير، وبعض علماء البلاغة من أن التقديم أو الحذف قد يكون من أجل مراعاة الفواصل قول لا نرتضيه، ولا ينبغي أن يقبل، نحن لا ننكر روعة الإيقاع وجماله في كتاب الله، إنما الذي ننكره ألا يكون مع جمال الإيقاع أمر آخر يتصل بالنظم، يستمد من المعنى مقوماته، فإذا قال تعالى: ﴿وَأِمَّا أَنْ تَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾ [طه: ٦٥]، وفي آية أخرى: ﴿وَأِمَّا أَنْ تَكُونَ تَحْتَ الْمَلَقِينَ﴾ [١١٥] ﴿[الأعراف: ١١٥]، وإذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا رَبِّي هَرُونَ وَمُوسَى﴾ [طه: ٧٠]، وإذا قال: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَفَرَضَى﴾ [الضحى: ٥] إلى آخر الآيات.

فليس التقديم في قصة موسى من أجل الفاصلة، وليس الحذف في سورة الضحى في قوله: ﴿قَلَى﴾ و﴿فَقَاوَى﴾ و﴿فَهَدَى﴾، وليس العدول إلى قوله: (ترضى) بدل يرضيك، ليس ذلك كله من أجل الفاصلة - كما يقول بعض العلماء - ساعهم الله - إنما لذلك كله أسرار البيان، ويأتي جمال الإيقاع وذلك حتى تتم لهذا الكتاب أنواع الحسن، وأسباب الملاحاة، وعناصر الفصاحة، لفظيها ومعنويها.

رحم الله السكاكي، فمع جلالة قدره وغزارة علمه، إلا أنه قد تأثر في مسألة مراعاة الفاصلة ببعض من كان قبله، وأثر في بعض من أتى بعده.

إن سر التقديم والتأخير في كتاب الله تعالى - كما قلت من قبل - لا يخرج عما للنظم من فوائد واعتبارات، فليست قضية البيان، قضية لفظية نقدم كلمة تارة ونؤخرها أخرى، أو نحذفها تارة ونذكرها أخرى، بل إنّ وراء ذلك توجيهاً في مجال من مجالات الموضوعات القرآنية، وقيمة جديرة بالعناية، حرية بالوقوف أمامها والإفادة منها، وإليك هذه الآيات الكريمة.

١٧ - أ - قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَوَلَّيْكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [٣٣] قَدْ لَانَ



كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾ [التوبة: ٢٣-٢٤].

وقال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة: ٢٢].

ب- قال تعالى: ﴿يُبَصِّرُونَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمَئِذٍ بَيْنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَحْبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُتَوَكَّلُ ﴿١٣﴾ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهَا لَأَطَى ﴿١٥﴾ نَزَاعَةٌ لِلشَّوَى ﴿١٦﴾ تَدْعُو مَنْ أَذْبَرَ وَتَوَلَّى ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَى ﴿١٨﴾﴾ [المعارج: ١١-١٨].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقَرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٢٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٢٥﴾ وَصَحْبَتِهِ وَبَيْنِي ﴿٢٦﴾ لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٢٧﴾﴾ [عبس: ٢٤-٣٧].

هذه آيات من كتاب الله تبارك وتعالى، إذا تدبرتها فستجد أموراً مشتركة بين هذه الآيات، ولكنك ستجد بعد ذلك غير ذلك، ونبادرك القول بأن المجموعة الأولى من الآيات، إنما هي حديث عن شأن من شؤون المسلمين الدنيوية، أما المجموعة الثانية فهي حديث عن الآخرة.

ولنقف أمام المجموعة الأولى أولاً، نهى الله المؤمنين أن يتخذوا آباءهم وإخوانهم أولياء إن استمروا على الكفر، واقتصرت الآية الكريمة على هذين الصنفين دون الابن والزوج، ذلك لأن الولاية لا تكون لهما، فالإنسان دائماً يتولى من يجد فيه الكفاية، ويجده أهلاً لهذه الولاية، ولا ريب أنه يمكن أن يكون ذلك لأبيه أو لأخيه، ولكنه لا يمكن أن يكون لابنه أو لزوجته، ذلك أن المجتمع العربي مهما سما فيه الرجل، فإنه يبقى تابعاً لأبيه، كذلك المرأة لزوجها، ولكن الآية الثانية

التي جاءت ترغب المسلمين في الجهاد، وذكرت هذه الأصناف الثمانية، الخمسة الأولى تتصل بنسب الإنسان أو غريزته، وهم الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة، والثلاثة الأخرى تتعلق بشهوته من حيث عاطفته، وهي الأموال والتجارة والمساكن.

ويعيننا الآن هذا الترتيب البديع في الآية الكريمة، حيث بُدِئَ بالآباء، لا لكونهم لهم الولاية في المقام الأول فحسب، ولكن لأن الآباء كثيراً ما يكونون هم المانعين لأبنائهم من الجهاد، سواء كان ذلك بحكم عاطفة الأبوة، أم بحكم سبب آخر، ثم ثنى بالأبناء، ذلك لأن من أعظم ما يحول بين الرجل وبين الجهاد، تفكيره في مصير أولاده. ومن هنا كان الأبناء «مجنبة مبخلة»<sup>(١)</sup> - كما في الحديث - «إنكما لتُجَبَّنُون وتُبَخَّلُون»<sup>(٢)</sup>، فهم مُجَبَّنُونَ لأنهم حالوا بين أبيهم، وبين أن يكون شجاعاً جريئاً في ميادين الحق، ومبخلون لأنهم حملوه أن يجمع لهم وأن يدخر، دون أن يكون جواداً. ثم جاء بعد ذلك دور الإخوة، وهو دور في الحقيقة متأخر عن الآباء والأبناء، ومنعهم من الجهاد إنما يكون بسبب من الأسباب الأسرية، فهم حريون بالولاية - كما قلنا من قبل - .

ثم يأتي دور الأزواج، وإنما أتى دورهن متأخراً فيما يبدو لي - والله أعلم بمراده:

١ - لأن الأزواج هنا غالباً لا يخلن بين أزواجهن وبين الجهاد؛ لأن الآية خطاب للمؤمنين، وأزواجهن كذلك، بل هن يرغبن الأزواج ليجاهدوا في سبيل الله.

٢ - لأن من طبيعة الرجولة عدم الرضا بالتخلف عن الجهاد بسبب النساء.

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، ٤٧٩/٧، رقم ١١٠٦٢، وإسناده ضعيف. وانظر: «كشف الخفاء» للعجلوني، ٣٣٩/٢، رقم ٢٩١٦. وانظر: «سنن ابن ماجه» الحديث ٣٦٦٦ ولفظه: «إن الولد مبخلٌ مجنبة» وهو في مسند الإمام أحمد، ١٠٤/٢٩، برقم ١٧٥٦٢، وفيه تمام تحريجه وتنقيده، طبعة مؤسسة الرسالة.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده: ٢٩٣/٤٥، برقم ٢٧٣١٤ وإسناده ضعيف.

وخامساً يأتي دور العشيرة، وهي التي يمكن أن تحول بين أحد أفرادها وبين الجهاد في سبيل الله، لاعتبارات قبلية واجتماعية. وتكمل الآية بعد ذلك الأصناف الباقية، بهذا الترتيب البديع.

وأما الآية الثانية فلم تأت في سياق الجهاد، وإنما جاءت في سياق المودة، فأنكرت على المؤمنين أن تكون منهم مودة لمن حادّ الله ورسوله، فمن المسلّمات البديهية - كما يدل على ذلك النص القرآني - أنه لا يجتمع الإيمان مع مودة هؤلاء المحادين. والأصناف التي ذكرت في الآية لكريمة: الآباء والأبناء الإخوان والعشيرة، والترتيب هو الترتيب في الآية السابقة، إلا أننا لا نجد هنا الأزواج، وما ذلك إلا لأن القرآن لا يأتي بالكلمة إلا إذا كان لها دواع وأهداف تحتم ذكرها. وحينها تنعم النظر تجد أن كلمة الأزواج لا حاجة لذكرها هنا. فالحديث هنا عن المؤمنين بالله واليوم الآخر، وقد لا يكرم الله الأب أو الابن أو الأخ أو العشيرة بهذا الإيمان، فيكونون من المحادين لله ورسوله، لكن ذلك لن يكون من الأزواج أبداً؛ ذلك لأن المؤمن لن تكون زوجه من هذا القبيل. صحيح أن بعض الأزواج قد لا يرغب في ذهاب أزواجهم إلى الجهاد، لأسباب عاطفية أو اجتماعية، ولذلك ذكرت كلمة الأزواج في الآية السابقة، أما إن يكون الرجل مؤمناً بالله واليوم الآخر، وأن تكون زوجه محادة لله ورسوله، فذلك لن يكون في المجتمع المسلم أبداً؛ ولذا لم تذكر كلمة الأزواج في هذه الآية الكريمة، لأن ذكرها زيادة وحشو يجلّ عنه كتاب الله.

قل لي بربك، ألا تمتع فكرك بمواطن الإعجاز في الكتاب الخالد. ولنأت إلى المجموعة الأخرى، وهي تحدثنا عن شؤون الآخرة، وإذا تأملتها مرة أخرى، وجدت أن آيات سورة المعارج قدم فيها البنون، والزوج، والأخ، والفصيصة، أي: العائلة والعشيرة، أما الآيات الثانية الواردة في سورة عبس فقد قدم فيها الأخ، فالوالدان، فالمرأة والأبناء. ولا شك أنك تتساءل عن سر ذلك، وأرجو أن تعينني من نفسك باليقظة لتتذوق هذا السر بنفسك.

الآية الأولى، من سورة المعارج يقول الله فيها: ﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمِيذٍ بِبَنِيهِ﴾ والآية الثانية تقول: ﴿يَوْمَ يَقْرَأُ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ ﴿٢٦﴾ لعلك بدأت تدرك أن السياق ليس سواء، فهو أولاً يتحدث عن ما يوده المجرم، حينما يرى العذاب الذي سيصلاه، والقرآن بحق يصور لنا نفسيته تصويراً تاماً، فهو يتمنى أن يخلص من هذا العذاب، ولو افتدى بأعز الناس عليه، وأحبهم إليه، وأقربهم منه، إنه على استعداد أن يرمي بهم في هذا العذاب، إذا كان ذلك يخلصه وينجيه. ومن هنا بدأت الآية الكريمة بذكر الأبناء، لأنهم هم الذين يحتلون المكانة الأولى، ويتبوءون منزلهم من سويداء القلب، ﴿لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمِيذٍ بِبَنِيهِ﴾ ﴿١١﴾، ثم يأتي دور الزوج (المرأة)، التي اعتادوا أن يحافظوا عليها وأن يبذلوا دونها المهج، ثم يأتي دور الأخ، ثم دور العشيرة. ونجد أن الآية لم تذكر الآباء؛ لأن حبهم ليس مرتكزاً في العاطفة كحب الأبناء، وبخاصة عند أولئك المجرمين.

أما الآية الثانية، فهي تتحدث عن يوم الموقف وأهواله، وما يلاقيه الناس من شدة وصعوبة، يريد كل أن يعرف مصيره، هذا ما تحدثت عنه الآية الكريمة، ولا شك أن أكثر الناس في المهمات والملفات، يأنس أكثر ما يأنس لأخيه؛ لأنه هو الذي يجد ضالته في الحديث معه، في علاج مشكلة من المشكلات، فغالباً ما يكون هذا الأخ أقرب في حل مشكلات أخيه، من أمه وأبيه، وزوجه وولده، فإذا لم يجد في الأخ ضالته المنشودة، ذهب إلى والديه، ثم يأتي دور الزوج والولد. وأظن أن هذا ليس غريباً على كثير منا الآن؛ فنحن نجد أنفسنا حينما يعوزنا الأمر، وتدعو الحاجة لمشكلة أو معضلة، نحدث إخواننا، بل إن كثيراً من المشكلات لا نخبر بها الآباء ولا الأبناء، لأننا لا نود أن نزعجهم من جهة، ولأننا قد لا نجدهم يصدرون عن حل مقبول لنا من جهة أخرى. ولذا بدأت الآية الكريمة -والحديث عن الفرار وهول الموقف- بالأخ، فالأم والأب، فالزوج والولد، وما ذلك إلا لما قاله القرآن ﴿لِكُلِّ

أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُفْنِيهِ﴾ ﴿٢٧﴾ .

## ١٨ - صفات المؤمنين:

أ- قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا أَعْمَانَا فَغُفِّرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾  
 ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَنِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ ﴿آل عمران: ١٦-١٧﴾.

ب- وقال تعالى: ﴿التَّكْوِينِ وَالْعَبْدُوتِ الْحَمْدُوتِ السَّجْدُوتِ الرَّكْعُوتِ السَّجْدُوتِ الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّكَاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَفِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١١٢﴾ [التوبة: ١١٢].

ج- وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنِينَ وَالْقَنِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّاتِمِينَ وَالصَّاتِمَاتِ وَالْخَافِضِينَ وَالْخَافِضَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ ﴿٢٥﴾ [الأحزاب: ٣٥].

إذا تأملت هذه الآيات، وجدتها جميعاً تتحدث عن صفات المؤمنين الذين يحبهم الله ورسوله ﷺ، ولكنك تجد فيها أمرين:

١- أن بعضها ذكر في بعض الآيات دون بعض، كصفة التوبة التي لم تذكر إلا في آية براءة.

٢- أن بعضها قد قُدم على بعض، في بعض الآيات، كالصبر الذي قدم في آية آل عمران على الصدق، ولكنه أخر عنه في آية الأحزاب.

ولا أود أن أطيل عليك كثيراً، وأرجو أن تفكر وتستنتج، آية آل عمران ذكر قبلها قضيتان اثنتان: كانت الأولى قوله سبحانه: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ ﴿١١﴾ [آل عمران: ١٣].

وكانت الثانية: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِصَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَكُعُ الْحَيَوَةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَعَآبِ ۝﴾ [آل عمران: ١٤]. وجاءت بعد ذلك هذه الصفات، وما أظن أحداً يباري، بأن قضية الجهاد، والتغلب على الزينة كليهما محتاجة أكثر ما تكون إلى الصبر، ومن هنا قُدِّمَ في الآية الكريمة، ولم يذكر فيها من الصفات إلا ما يدعو إليه المقام، وتقتضيه الحاجة، كالصدق، والطاعة، والإنفاق، والاستغفار بالأسحار، الذي يمكن أن تشغل عنه الأنعام والحرث، فلا يكون المؤمن راهب ليل وفارس نهار.

أما الآية الثانية آية براءة، فجاءت بعد ذكر فئات من المنافقين، أو من الذين خالفوا أمر النبي ﷺ في غزوة تبوك، كما ذكر قبلها مباشرة قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ [التوبة: ١١١]، وذكر بعدها نهي المؤمنين عن أن يستغفروا للمشركين، ثم توبة الله تبارك وتعالى ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رُءُوفٌ رَحِيمٌ ۝﴾ [التوبة: ١١٧] ولذا تجد أن الصفات في الآية الكريمة بدئت بذكر التوبة، وذكر فيها ما يقتضيه المقام - كما قلنا من قبل -.

أما الآية الثالثة فجاءت إجابة لسؤال بعض النساء، اللواتي سألن رسول الله ﷺ فنزلت، ولذا جاءت تعداداً للصفات التي لا بد أن يتحلّى بها المسلمون والمسلمات، فبدأت أولاً بذكر هاتين الصفتين ﴿الْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ لِيُنَيَّنَّ عليهما بعد ذلك الصفات الرئيسة التي لا بد أن يتحلّى بها الرجال والنساء معاً، ولقد لوحظ في كل من هذا الترتيب الذي يناسب سياقها، والله أعلم بما ينزل، وبعد فهذا نمط عجيب النظم، وهو كثير في كتاب الله تعالى، وأرى القلم يود أن يسترسل، ولكننا مضطرون أن نقفه لنأتيك بنمط آخر، ونرجو أن يوفقنا الله لإخراج كتاب، نحاول أن نستقصي فيه كثيراً من هذه الأنماط الكريمة، لتكون تكملة لهذا الكتاب.

## المبحث الرابع

### القصر

وإليك نمط آخر، مما أمر القرآن فيه بديع النظم، عجيب التأليف:

١ - أ - قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌّ وَلَهُوَ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ﴾ [محمد: ٣٦]، وقال سبحانه: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌّ وَلَهُوَ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ [الحديد: ٢٠]، وقال سبحانه: ﴿يَتَأَهَّلَ الْكَتَبُ لَا تَعْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَبَرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَنَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٧١].

ب - وقال سبحانه: ﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِیَ الْحَيَوانِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣]، وقال سبحانه: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [المائدة: ٧٥].

تدبر هذه الآيات الكريمة، وستجد أن كل واحدة منها جاءت بأسلوب القصر، وهو من الأساليب التي تؤدي غرضاً بيانياً، ولكنك ستجد أن بعضها كانت فيه أداة القصر (إنما)، وبعضها الآخر كانت أداة القصر فيه (ما) و(إلا).

ولا بد أن أطلعك على طرف يسير مما قرره أئمة البيان، ومما استندوا في تقريره إلى استقراء الكلام البليغ؛ فلقد فرقوا بين أدوات القصر، ويعنيها الآن هاتان الأداتان، (إنما) و(ما وإلا).

فأما (إنما) فيؤتى بها للشيء الذي لا يحمله المخاطب، ولا ينبغي أن يشك فيه، وإنما يراد تنبيهه وتذكيره، كما تقول لمن يعق أبويه، ولمن يؤذي صديقه: «إنما هما أبواك» و«إنما هو صديقك» فهو لا يحفل بهذا الأمر، ولا يجوز أن تقول له: «ما هما إلا أبواك»، و«ما هو إلا صديقك».

أما (ما وإلا) فهي على العكس من ذلك، فيؤتى بها لما يحمله المخاطب أو ينكره، تقول لمن ينكر أن علاج الأمة بعودتها إلى الإسلام: «ما دواء الأمة إلا الإيمان»<sup>(١)</sup>.

إذا تمهد لك هذا، فارجع إلى الآيات الكريمة، وستدرك بنفسك روعة الإعجاز، وروعة البيان؛ فالآيات الأولى التي تحدثت عن الدنيا، الأولى في سورة سيدنا محمد ﷺ، والثانية في سورة الحديد وهما سورتان مدينتان، خوطب بهما المؤمنون، والمؤمنون لا يرتابون في هذه الحقيقة، أما الآيتان الأخريان، فإحداهما في سورة الأنعام، والأخرى في سورة العنكبوت، والأولى مكية بالإجماع، وكذلك الثانية على أرجح القولين، وهما في سياق الحديث عن غير المؤمنين، لذلك جاءت صورة النظم كما رأيت. (إنما) في الآيتين الأوليين، و(ما وإلا) في الآيتين الأخريين.

أما الآيتان اللتان تحدثتا عن المسيح ﷺ، فلقد جاءت الأولى في سياق الإهابة بأهل الكتاب، أن يبتغوا الحق، جاءت في سياق التأنيس لهم وملاطفتهم، ﴿يَتَأَهَّلَ آلُكَتَبٍ لَا تَقْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾. أما الآية الثانية فلقد جاءت في معرض الرد عليهم، ومحاجتهم، وكذلك الآيتان اللتان تحدثتا عن وحدانية الله. وما

---

(١) راجع مبحث القصر في البلاغة فنونها وأفنانها.



عليك إلا أن ترجع إلى الآيات مرة أخرى، لتجد مصداقية هذه الحقيقة. ألا تجد أن في هذا تطبيقاً عملياً لقضية الإعجاز البياني؟

ويمكن أن نتساءل هنا ولكن لم قال الله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ والآية خطاب للمؤمنين؟ وعلى القاعدة التي ذكرت، كان ينبغي أن يقال: «إنما محمد رسول»، لأنهم مؤمنون برسالته عليه وآله الصلاة والسلام؟ والحق أن هذه الآية إنما هي شاهدة بصدق على ما قررته لك، وإليك البيان:

الآية - كما تعلم - جاءت في غزوة أحد، حينما أشاع الكافرون أن النبي ﷺ قد قتل، فجزع المسلمون وتفرقوا فنزل قول الله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤] فالآية الكريمة جاءت تقرر المؤمنين، معاتبه لهم على ما كان منهم، تقول لهم: انفرط عقدكم حينما سمعتم أن النبي قتل؟ أليس الرسول بشراً؟ أليس شأن البشر أن يموتوا؟ فإذا أنكروا أن يقتل النبي أو يموت، فقد أنكروا بشريته، وذلك أمر لا ينبغي لكم، ولا يليق بأمثالكم، ويدل لهذا قوله سبحانه: ﴿إِنَّا إِنَّمَا مَاتَ أَوْ قُتِلَ أَنْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. فإذا كنتم مؤمنين أن النبي بشر، فينبغي أن توطنوا أنفسكم على أنه يمكن أن يقتل أو يموت، ألا ترى بعد هذا أنه لا يجوز أن يقول: «إنما محمد رسول قد خلت من قبله الرسل»، لأن الآية ما جاءت تحدثهم عن رسالته ﷺ، فهذا أمر لا يجهلونه، وإلا فكيف خرجوا معه للجهاد؟ إنما جاءت تلوهم وتعاتبهم على ما فرط منهم، حينما أشيع ما أشيع، وكان منهم ما كان.

٢ - وهاتان آيتان من كتاب الله، إحداهما قوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ، وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الاحزاب: ٣٩]، والثانية قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

وإذا تدبرنا الآيتين نجد أن بينهما فرقين اثنين:

أولاً: هو أداة القصر (إنما) في الآية الثانية، و(لا وإلا) في الآية الأولى. وقد عرفت الفرق بينهما قبل قليل.

ثانياً: الآية الأولى قدّم فيها الفاعل، وهو الواو في (يخشون) والآية الثانية قدم فيها المفعول وهو (الله)؛ وإنما يقدم الفاعل حينما يكون التركيز على المفعول، ويقدم المفعول حينما يكون التركيز على الفاعل. فإذا قرأنا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة: ١٨] ففي هذه الآية قدم المفعول وهو (مساجد) وأُخِّرَ الفاعل وهو (من آمن) فالتركيز إذن على الفاعل، فمعنى الآية إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر، لا أنتم أيها الكافرون المعرضون عن الحق.

وإذا قرأنا قول النبي ﷺ: «إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية»<sup>(١)</sup> التي قدم فيه الفاعل، ندرك أن التركيز على المفعول، أي: يأكل الذئب القاصية المتباعدة عن ريفقاتها وأخواتها، لا الملتصقة بهن، فإنه لا يستطيع أكلها.

ومنها تدرك أنه لو قيل: «إنما يعمر المؤمنون مساجد الله» كان المعنى أنهم يعمرّون المساجد فقط ولا يعمرّون دنياهم ولا بيوتهم، وهذا لا يقصد إليه القرآن، ولو قيل: «إنما يأكل القاصية الذئب» لكان المراد يأكلها الذئب وليس الأسد، وهذا غير متصور بالطبع.

بعد هذا البيان الذي لا بد منه نرجع إلى الآيتين السابقتين، فأية فاطر ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ جاء القصر فيها بـ (إنما)؛ لأنها قضية حري أن لا تُجهل، وهو أن العلماء هم الذي يخشون الله أكثر من غيرهم، ثم إن (إنما) هذه تفيد التعريض، فهو تعريض بالذين يدعون العلم ولا يخشون الله تعالى، كأنهم ليسوا من العلماء في شيء، وقدم فيها المفعول؛ لأن معنى الآية إثبات الخشية للعلماء، أي

(١) أخرجه أبو داود، ٥٤٧. النسائي، ١٠٦/٢، وهو حديث صحيح من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

العلماء هم الذين يخشون الله حق الخشية، ولو قال: «إنما يخشى العلماء الله» لكان المعنى أن العلماء يخشون الله، ولا يخشون غيره، وهذا لا تقصد إليه الآية الكريمة.

أما آية الأحزاب فقد جاءت في سياق خطير يتصل به ﷺ اتصالاً مباشراً، جاءت حديثاً عن زواجه بزينب رضي الله عنها، زوج زيد الذي كان قد تبناه ﷺ قبل الإسلام، تلك القضية التي أراد أن يستغلها الحاقدون، والتي كان النبي ﷺ يجد في نفسه حرجاً، لأنه سيخرج عن عُرف الناس في ذلك الوقت، فقال الله له ما قص علينا في كتابه ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتُخْفِي النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا لِيَكُنِيَ الْيَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ مِنْ أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴿٣٨﴾ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧-٣٩].

قدم الفاعل هنا -إذن- لأنه ليس المقصود أن يثبت أن أولئك المبلغين لرسالات الله يخشون الله أكثر من غيرهم، فتلك قضية بدئية لا تحتاج إلى إثبات، إنما الذي يتطلبه السياق هنا هو أن هؤلاء الذين يبلغون رسالات الله ينبغي أن يخشوا الله وحده دون النظر إلى غيره، فما بالك أيها النبي تخشى الناس والله أحق أن تخشاه.

هذا سر تقديم الفاعل. أما استعمال أداة النفي (والا) في قوله: ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩]، فلأن السياق يتطلب ذلك كذلك؛ لأن عدم إقدام النبي ﷺ على هذا الأمر، وإخفائه في نفسه جعله يعامل معاملة المنكر، فجاءت أداة القصر -كما رأيت- فله در التنزيل.

وأكتفي بما حدثتك به عن الجملة القرآنية، وأرجو أن يكون في هذه الأنماط المتعددة ما يكفيك ويغنيك، كما أرجو أن يكون مقنعاً لكل أولئك الذين يرتابون في أمر الإعجاز، أو يجهلون. ولأنتقل بك الآن إلى الفقرة القرآنية، ذات الجمل

المتعددة، وسوف أجتزئ لك ولا أطيل عليك إن شاء الله. واعلم أن ما ذكرته لك من قبل، وما سأذكره لك فيما بعد، لم يذكر لخصوصية فيه دون غيره من كتاب الله، فالقرآن كله سواء. إنما ذلك هو الذي يَسَّرَ الله تبارك وتعالى. وقد تأتي أنت بشيء آخر، وغيرك يأتي بغير ما أتيت به. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، وهو حسبنا ونعَم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.



## الفصل السَّابِعُ

### الفقرة القرآنية

إذا كانت كلمات القرآن مختاراً منتقاة - كما عرفت - وكانت مظهراً من مظاهر إعجازه؛ فإن ترتيب هذه الكلمات - لا شك - أدل على هذا الإعجاز؛ ذلك أن كلمات القرآن هي مما عرفه العرب، ونطقوا به، لكن ترتيب هذه الكلمات بعضها مع بعض، هو الذي ألبسها هذه الحلة المهيبة القشبية، فخلع عليها من الأسرار الإلهية، ما أعجز العرب وأدهشهم.

لقد استعمل العرب اسم الإشارة (ذلك)، وعرفوا كلمة (كتاب)، وذكروا (الريب) في خطبهم وشعرهم، وكذلك تحدثوا عن العدل، وكانوا يمدحون الإحسان، ويكرهون الفحشاء، وينفرون من البغي، كل هذه الكلمات لم تكن جديدة على العرب، لأنها من صميم لغتهم، لكن الذي بهرهم هو وضع هذه الكلمات في قوالب يظهر فيها التناسق والتلاؤم، وجمال الإيقاع وجمال التنسيق على السواء، وجمال الإيقاع يرجع إلى الرونق والذوق، وجمال التنسيق يرجع إلى المعنى، فيجتمع للكلام جانبان اثنان: الجانب النفسي، والجانب الفكري معاً.

ومن هنا فحينما طرق سمعهم لأول مرة قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُنْ لَّ رَيْبٌ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١-٢]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]، رقصت قلوبهم طرباً، وابتهجت نفوسهم ثناءً وعجباً. ولا تظن أن بعض جمل القرآن لها هذا الأثر، وهي التي يمكن أن يصدق عليها ذلك النبأ والخبر، بل جمل القرآن كلها سواء.

ولقد ركز الأقدمون على قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَتَّزِجْ أَرْضُ أَلْبَلَىٰ مَاءُكِ وَنَسَمَاءُ أَقْلَىٰ وَغِيصَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَىٰ الْجُودِيِّ﴾ [مرد: ٤٤] فظن بعضهم أن لها من المزية ما لا يوجد في غيرها من الآيات؛ ولذلك اختار أستاذنا الدكتور محمد عبدالله دراز آيات أخر من كتاب الله، كما مر معك في الجزء الأول، وسنختار لك ما ييسره الله تبارك وتعالى. وقد يختار غيرنا غير ما اخترناه نحن، كل الذي نرجوه أن لا يدور بخلدك، وأن لا يستقر في فكرك، أن بعض الآيات والجمال القرآنية تستحق العناية أكثر من غيرها؛ فالقرآن الكريم كله نسق واحد، يمتاز بالوحدة الفنية، كما يمتاز بالوحدة الموضوعية، لا فرق في ذلك بين مكيه ومدنيه، وسيأتيك خبر يقين بعد حين إن شاء الله.

أولاً: وأول ما نختاره لك، أول نجم نزل على قلب سيدنا رسول الله ﷺ وهي الآيات الأولى من سورة اقرأ، فلنتدبر هذه الآيات معاً ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤﴾ [العلق: ١-٥].

تدبر هذه الآيات، وارجع البصر والبصيرة فيها كرتين، ولنقف أولاً مع كلماتها: اقرأ، رب، أكرم، خلق... إلخ، وستجد أن هذه الكلمات خفيفة على اللسان، وفي السمع على السواء، ثم هي بعد ذلك قريبة سهلة ميسرة الفهم، ثم هي بعد هذا وذاك، واضحة الدلالة، وارفة الظلال؛ فهي كلمات معبرة موحية.

إذا تركنا هذه الخصائص الثلاث لهذه الألفاظ مفردة، لننتقل للحديث عنها في جملها، فسنجد الروعة والإبداع، والآيات كما نعلم من سبب نزولها كانت بداية الوحي، وها هو الروح الأمين يطلب من النبي ﷺ أن يقرأ، والنبي الكريم يقول ما أنا بقارئ، ثم بعد الثالثة يقول: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ①﴾، والأمر بالقراءة للنبي الأمي، والأمة الأمية بشير خير بها سيفتحه الله على هذه الأمة. ثم إن هذه القراءة إنما

هي باسم ربك، والرب هو السيد المالك المربي، وكلمة يحمل هذا الاسم الجليل من الإناس للنبي الذي لم يعتد هذا الوحي من قبل، وهذا هو السر في اختيار كلمة (الرب) دون اسم الجلالة (الله). ثم إن هذا الرب الذي تقرأ باسمه، كثير النعم، عظيم المنن، فهو الذي خلق، ولكن أي خلق هذا الذي خلقه، نجد أن الكلمة تذكر مرتين، تذكر أولاً مطلقة غير مقيدة، وتذكر ثانية واقعة على هذا الإنسان، ومعنى هذا أن ربك الذي تقرأ باسمه، المربي المتعهد المالك، والمنعم بنعمة الخلق؛ خلق كل شيء، فهو الذي خلق أنواع المخلوقات مهما تعددت، ولكنه أفرد الإنسان بالذكر، وما ذلك إلا لبيان لهذا الإنسان أنه لم يخلقه سبحانه إلا بعد أن خلق له كل شيء، من أجل أن يتمكن من الحياة على هذه الأرض.

ثانياً: قال تعالى: ﴿فَسُبْحَنَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۖ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًا وَحِينَ يُظْهِرُونَ ۖ يَخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ۝ ١٨ ۖ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ۝ ١٩ ۖ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝ ٢٠ ۖ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَخْلَفَ الْمَسِيحَ وَأَلَوْنَكُمْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ ۝ ٢١ ۖ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝ ٢٢ ۖ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝ ٢٣ ۖ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ۝ ٢٤ ۖ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَانُونٌ ۝ ٢٥ ۖ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ ۖ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ ٢٦﴾ [الروم: ١٧-٢٧].

بدأت هذه الآيات الكريمة بالشأن على الله تبارك وتعالى، واستحقاقه التسبيح والتحميد، والتسبيح تنزيه الله عما لا يليق، والحمد الشان عليه بما يستحق، وسبحان



الله تملأ الميزان، والحمد لله تملأ ما بين السماء والأرض، والثناء على الله حريٌّ به أن يستغرق الأزمنة والأمكنة جميعاً، وهذا ما أرشدت إليه الآيات بعبارة موجزة محكمة، أما الزمان ﴿حِينَ تُمَسُّوْنَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ وهذه الألفاظ تستغرق الزمان كله، وأما المكان ففي قوله سبحانه: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

وبعد هذا الثناء على الله، الذي يستغرق الأزمنة والأمكنة جميعاً، يذكر سبحانه آثار قدرته، التي تتجدد، ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ وهي قضايا كونية ذات صلة وثيقة بالإنسان، ويعبر عنها بالفعل المضارع الدال على التجدد والحدوث ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾، وتلك مقدمات للحقيقة الكبرى التي هي البعث والنشور ﴿وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾.

وبعد هذا الإجمال يأتي دور التفصيل ولكنه تفصيل يستمد عناصره من هذا الإنسان ومما يدور حوله، أما الآية الأولى فهي تتحدث عن خلق هذا الإنسان، وهو العنصر الرئيس في هذه الحياة، تتحدث عن خلق هذا الإنسان من تراب ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾. والحديث عن خلق الإنسان من تراب، يأتي دائماً في مجال الامتنان وبيان القدرة، أما الحديث عن خلقه من نطفة فيأتي دور التوبيخ والتسجيل على هذا الإنسان، ولا بد أن نسجل هنا ونشير إلى هذه اللطائف في نظم الآية الكريمة.

١- وأول هذه اللطائف هذا التقديم للجار والمجرور ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ﴾.

٢- هذه الأداة الدالة على التأكيد (أن).

٣- هذا الحرف الدال على التراخي (ثم) سواء كان هذا التراخي زمنياً أم رتبياً؛ لُبُّعْد ما بين التراب والإنسان.

٤ - (إذا) التي نلمح فيها عنصر المفاجأة، وما أعظم أن يتحول هذا العنصر الترابي، فتصبح هذه الذرات الميتة، عناصر حية، هذه الذرات الثابتة في مكانها، تصير عناصر بشرية منتشرة، لا تستقر في مكان، وإنما يتجدد انتشارها هنا وهناك.

٥ - هذه الجملة الاسمية: أنتم بشر.

٦ - ما ختم به الآية وهي هذه الجملة الفعلية: تنتشرون.

وبعد هذا تأتي الآية الثانية وهي خاصة بالإنسان كذلك، وإذا كانت الآية الأولى تتحدث عن عناصر الخلق، فإن هذه الآية الثانية جاءت تتحدث عن نعمة البقاء والاستمرار على هذه الأرض، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾. وحري أن نسجل الدقائق البيانية التالية:

١ - زيادة على ما تقدم في الآية الأولى نجد قوله سبحانه: ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾، وذلك كي تكمل النعمة الإلهية، وتتم المنّة الربانية؛ وذلك من أجل أن تكون الطمأنينة والسكن.

٢ - قوله سبحانه: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾، والجعل إنما يكون بعد الخلق؛ لأن فيه معنى التصيير.

٣ - كلمة مودة وإيثارها على كلمة «حب».

٤ - الجمع بينها وبين الرحمة، وهما ركيزتان لا تتم السعادة الزوجية إلا بهما.

٥ - قوله سبحانه: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ فالخلق من تراب آية، وخلق الأزواج من الأنفس آية، والمودة والرحمة آية، فهذه آيات متعددة.

٦ - قوله سبحانه: ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾ حيث ذكرت مادة التفكير أولاً، وبصيغة المضارع ثانياً؛ أما مادة التفكير؛ فلأن تلك القضايا بحاجة إلى تأمل

واستنتاج وروي، وأما صيغة المضارع؛ فلأن هذا التفكير حري أن يتجدد في مثل هذه القضايا؛ لأن في تجدد إدراك دقائق كثيرة، والوصول إلى معارف دقيقة، ولا يزال الإنسان يكشف جديداً في هذا المجال، وسيظل كذلك.

وأما الآية الثالثة وهي قوله سبحانه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَفَ لِسِنِّكُمْ وَأَلْوَنَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ﴾ (٢٢) فنلاحظ فيها روعة البيان فيما يلي:

١ - تغير النظم في هذه الآية عن سابقتها، فلم يقل: «ومن آياته أن خلق السموات والأرض»؛ وذلك والله أعلم لأن خلق السموات والأرض لا يحتاج إلى تأكيد من جهة، وهو أمر ثابت لا يظهر فيه التجدد والحدوث من جهة أخرى، فالأرض والسموات هي هي، منذ أن استقر الإنسان على الأرض، كذلك اختلاف الألوان، فإنها أمران طبيعيان في هذا الإنسان.

٢ - قوله سبحانه: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ﴾ (٢٢) وقد تحدثنا عن سر كلمة آيات: في خلق السموات آية، وفي الأرض آية، وفي اختلاف الألسن آية، وكذلك في اختلاف الألوان، وبقي قوله تعالى: ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ وهذه إحدى آيتين<sup>(١)</sup> في كتاب الله ختمت بهذه الخاتمة، أعني العالمين وهي جمع عالم؛ وما ذلك والله أعلم - إلا لأن معرفة هذه القضايا، وإدراك أسرارها؛ أعني طبيعة السموات وطبيعة الأرض ما وفيهما من أسرار، وكذلك اختلاف اللغات، واختلاف الألوان اللذين نشأ عنهما اختلاف الأجناس البشرية، كل أولئك بحاجة إلى علم ومعرفة، فلا يدرك طبيعة ذلك وسره إلا أولئك العالمون.

---

(١) والآية الثانية قوله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ الْأَمْثَلُ نَصْرُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَقُولُهَا إِلَّا الْقَلِيلُ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٣)

[المكثوت: ٤٣].

أما الآية الرابعة فهي قوله سبحانه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَتَاكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمِعُونَ﴾ [الروم: ٢٣] ولما كان هذان الأمران - أعني المنام وطلب الرزق - أمران جبليان في الناس، وكان كل منهما بحاجة إلى صاحبه، فمن البدهي أن الذي يريد أن يكدح ويطلب الرزق لا بد أن تنهيا له الراحة الجسمية والنفسية، وللنوم أكبر الأثر في ذلك، أقول: لما كان هذان الأمران كذلك، عبر بلفظ المصدر - منام وابتغاء - كما في الآية السابقة.

وعلماء البيان يرون أن في الآية من البديع ما يسمونه لفاً ونشراً، فلقد ذكر الله أمرين: المنام والابتغاء من فضله، ثم ذكر طرفين الليل والنهار، فلا بد أن نرجع كل مطرووف لظرفه الذي وقع فيه، والنوم غالباً ما يقع في الليل، والكسب يقع أكثر ما يقع في النهار، فكان المعنى - إذن - ومن آياته منامكم بالليل وابتغائكم من فضله في النهار.

هذا ما قرره الأئمة من قبل، وأرى أنه لا بد من تعقيب؛ فمع جلالة القائل، وسداد القول؛ إلا أنني أرى أن في الآية الكريمة من الأسرار ما هو وراء ذلك، وإليك البيان:

إذا وقفنا مع الآيات التي تتحدث عن نِعَم الله بالليل والنهار ولا أقول: في الليل والنهار<sup>(١)</sup> - أي عن الآيات التي تحدثنا أن الليل والنهار هما نعمة من النعم، فإن أول ما يلفت الانتباه جمع القرآن بينهما، نقرأ ذلك في قوله الله سبحانه ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢]، ونقرأ قوله سبحانه: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ

(١) والفرق بينهما ظاهر، لأن (في) تدل على الظرفية، فمعنى قولنا: «آياته في الليل والنهار» أي: الآيات التي تقع في الليل والآيات التي تقع في النهار، أما القول بالليل والنهار فهو أعم، لأن معناه الآيات التي تكون بسبب الليل، والأخرى التي تكون بسبب النهار.

وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ [النقص: ٧٣] ونلاحظ من هذه الآية وتلك، ومن الآية التي نحن بصدد الحديث عنها كذلك، أن الله تعالى لم يفصل الليل عن النهار، فلم يأتِ نظم الآية (ومن رحمته أن جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار لتبتغوا من فضله) وإنما جمع الليل والنهار، ورتب عليهما ما بعدهما من النوم والابتغاء.

وإذا كانت هذه سنة القرآن التي جرى عليها نظمه المعجز، فلا بد من أمر وراء ما يسميه البديعيون باللف والنشر، ويلوح لي من ذلك حِكمتان:

الأولى: أما الحكمة الأولى فهي أن النظم جاء على ما هو عليه، ولم يفرد الليل بالنوم والنهار بالابتغاء؛ لأن هناك أناساً اقتضت طبيعة ظروفهم أن يعملوا في الليل، وهؤلاء لا بد أن يناموا في النهار، ولو أن نظم الآية لم يكن على ما هو عليه، لخرج هؤلاء عن سياق الخطاب، لأنهم يعملون في الليل لا في النهار، والآية لا بد أن تكون خطاباً لهؤلاء وأولئك.

الحكمة الثانية: وهي أدق وأدل على الإعجاز القرآني. بيان ذلك؛ أن الآية جاءت خطاباً للناس عامة، ولا بد أن تصلح لهم جميعاً، ونحن نعلم بداهة أن الليل حينما يأتي لا يأتي على الدنيا جميعها، وكذلك النهار، أي: الناس جميعاً لا يشتركون في ليل واحد ونهار واحد، فالليل عند قوم نهار عند آخرين، والنهار عند قوم ليل عند آخرين كذلك. وإذا كان ذلك كذلك ظهر لنا السر الرائع، الذي جمع القرآن فيه بين الليل والنهار على حدة، وبين ما يكون فيهما من أمور على حدة.

مناكم بالليل والنهار - وهذا صحيح - لأن نومنا نحن بالليل، ونوم الأمريكيين وغيرهم يكون بالنهار بالنسبة لنا نحن، والعكس صحيح، وكذلك الابتغاء من فضل الله يقال فيه ما قلنا في شأن النوم. هذا الذي يظهر لي في نظم الآية، والله أعلم بمراده، ونرجو أن يكرمنا ويفتح لنا من فضله ورحمته.

وهنا قضية أخرى جديرة بالإشارة إليها كذلك، وهي من أسرار الحرف في كتاب الله، وللحرف القرآني رسالة عظيمة وهي أن الله سبحانه لم يقل: «مناكم في

الليل والنهار» وشتان بين هذين الحرفين الباء و(في)، ويظهر أن المفسرين لم يشيروا إلى مثل هذه القضايا؛ لما اشتهر عندهم من أن حروف الجر تتناوب، وعلى هذا يكون ﴿مَنَامُكُمْ بِالَّيْلِ﴾ يعني «مناكم في الليل».

ولكن الذي يظهر لي غير ذلك؛ فالله تبارك وتعالى لا يريد أن يبين لنا أن نومنا في الليل، وكسبنا في النهار هو الآية؛ وإنما يريد أن يبين لنا أن الآية إنما تكمن وتظهر في تقسيم الزمان إلى ليل ونهار، فَيُجْعَلُ كُلُّ مِنْهَا ظَرْفًا لما يناسب الشعوب والأفراد، ولعلك تدرك الفرق بعد ذلك بين هذين الحرفين، فلو قيل: «ومن آياته مناكم في الليل والنهار وابتغواكم من فضله» لكان المعنى أن الآية هي النوم والكسب، وهذه من الأمور البديهية - كما قلت -. لكن الآية جاءت على غير هذا النظم، ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِّنْ فَضْلِهِ﴾ والمعنى أن من آيات الله تعالى التي تستحق أن تدبروها، هو أنه جعل لكم هذا الزمن ليلاً ونهاراً، فتكون لكم شؤون بسبب وجود الليل، وأخرى بسبب وجود النهار.

وختمت الآية بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ (٢٣) أما الحديث عن الآيات فقد مرّ من قبل، وأما قوله سبحانه وتعالى: (يسمعون)؛ فلأن مثل هذه الأمور - أعني النوم وطلب الكسب ليلاً ونهاراً - لا تحتاج إلى كبير تأمل وكثير تفكير، كل ما تحتاجه أن يكون لك قلب، أو تلقي السمع وأنت شهيد، ذلك لا يحتاج إلا إلى السماع فقط.

أما الآية الخامسة وهي قوله سبحانه: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيَخْجِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (الروم: ٢٤) فإننا نلاحظ فيها من أسرار البيان ما يلي:

١ - فلقد أخذ النظم في هذه الآية سبيلاً غير الذي عرفناه من قبل، ففي الآيتين الأوليين وجدنا التعبير ﴿أَن خَلَقَ﴾ حيث ذكر الفعل الماضي مقترناً بـ (أن)،

وفي الآية الثالثة والرابعة وجدنا التعبير بالمصدر ﴿خَلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَقَ الْبَشَرِ﴾ أما هنا فيأتي التعبير بالفعل المضارع، خالياً من التأكيد؛ وما ذلك إلا لأن رؤية البرق من الأمور الضرورية التي يدركها الإنسان، ثم هو متجدد بتجدد الأوقات والأزمنة التي تقتضيها طبيعة الأمكنة جغرافياً، وكذلك يقال في إنزال الماء من السماء، وكذلك قوله سبحانه: ﴿فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ﴾ كل ذلك جاء بصيغة المضارع.

٢- قوله سبحانه: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ وهما كالمضادين، ولكنها الحقيقة؛ خوفاً مما يمكن أن يحدث مما لا تحمد عقباه، وطمعاً فيما يرجوه الإنسان مما يكون به قوام حياته.

٣- هذه الدقة في استعمال كل من هذين الحرفين في موضعه، أعني... ﴿وَيُنَزِّلُ﴾.. ﴿فَيُخْرِجُ﴾، حيث استعمل حرف العطف الواو أولاً، والفاء ثانياً، والواو -كما يقولون- لا تدل على ترتيب ولا تعقيب، وهما يفهمان من الفاء، فلماذا ذلك يا ترى نحن نعلم أن رؤية البرق قد لا يعقبها إنزال المطر، وهذا أمر مشاهد؛ فقد يكون إنزال الماء دون أن نرى برقاً، ولكن إحياء الأرض مرتب على إنزال الماء، فانظر إلى هذا النسق البياني.

٤- قوله سبحانه: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ٢٤، أما كلمة «آيات» فلقد عرفت سر استعمالها من قبل، وأما قوله سبحانه: ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾. فما ذلك -والله أعلم- إلا لأن هذه الأمور، وهي رؤية البرق، وإنزال الماء، وإحياء الأرض، لا تتطلب من الإنسان إلا أن يستعمل عقله ليدرك آثار قدرة الله وعظيم فضله، فلا تحتاج إلى تفكير كالقضية الأولى، ولا تحتاج إلى كبير علم وكثير معرفة كالقضية الثانية.

ثم تأتي الآية السادسة وهي الغاية من كل ما تقدم، وكأن كل ما تقدم مقدمات لها وأدلة عليها، وهي قوله سبحانه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥].

تذكرنا الآية الكريمة بأن من آيات الله تبارك وتعالى، أن يقوم السماء والأرض بأمره، وقيامهما على ما ذهب إليه المفسرون، بقاؤهما بأمر الله إلى أجل مسمى، وهذه بالطبع تختلف عن الآية السابقة في قوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ لأن أمر البقاء يختلف عن أمر الخلق.

ثم بعد هذا التفصيل لهذه الآيات المشاهدة، التي لا يرتاب فيها أحد، يقول الله سبحانه مبيناً أمر البعث: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [٢٥] وعطف البعث على الأمور المشاهدة، المعلومة بالضرورة للناس، وإلحاقه بها دليل على أنه كذلك ينبغي أن لا يرتاب فيه أحد.

وإذا كنا قد تحدثنا من قبل عن هذه الآيات، من حيث نظم كل واحدة منها مفردة، فلا بد من أن ننظر في الآيات الكريمة من حيث نسقها، أي: مجيئها على هذا الترتيب، وهي قضية ذات أثر وشأن في الإعجاز البياني.

كانت أول آية من هذه الآيات خلق الناس من تراب، أما الآية الثانية فهي خلق الأزواج من أنفسهم ليسكنوا إليها، سواء قلنا بخلق حواء من آدم - كما جاء في بعض الروايات - أم من جنسه حتى لا يكون بينهما تنافر. وبعد هذه الآية ذكر خلق السموات والأرض، وهي من الأمور التي لا يمكن للحياة أن تكون إلا بها. ثم ذكر ما هو ناشئ عن السموات والأرض، وهو إما أمر لازم للإنسان لا يفارقه، وهو اختلاف الألسنة والألوان، أو من الأمور المتجددة وهو النوم والابتغاء من فضله. ثم ذكر من الآيات ما هو أقل حدوثاً من سابقه، وهو قوله: ﴿يُرِيكُمْ أَلْبَرَقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُزِيلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾. ثم ختمت هذه الآيات بقيام السماء والأرض مسخرتين بأمره، ثم ذكر الغاية من ذلك كله وهي تقرير البعث.



ونجد من هذا النسق أنه بدأ بخلق الإنسان، ثم خلق السموات والأرض، وكل ما ذكر بعد ذلك فهو ناشئ عن وجود الإنسان ووجود السموات والأرض، ألا ترى أن اختلاف الألسنة والألوان، والليل والنهار، ورؤية البرق، وإنزال الماء، وإنبات النبات، كل أولئك أمور ناشئة عن وجود السموات والأرض، ووجود الإنسان على الأرض.

ذلك هو النسق البديع في ترتيب آيات القرآن، وما شملته من قضايا وموضوعات متعددة. وقال أبو حيان: «وبدأ أولاً من الآيات بالنشأة الأولى، وهي خلق الإنسان من التراب، ثم كونه بشراً منتشراً، وهو خلق حي من جماد، ثم أتبعه بأن خلق له من نفسه زوجاً وجعل بينهما تواد، وذلك خلق حي من عضو حي، وقال: لقوم يتفكرون؛ لأن ذلك لا يدرك إلا بالفكر في تأليف بين شيئين لم يكن بينهما تعارف، ثم أتبعه بما هو مشاهد للعالم كلهم وهو خلق السموات والأرض، واختلاف اللغات والألوان، والاختلاف من لوازم الإنسان لا يفارقه، وقال: للعالمين؛ لأنها آية مكشوفة للعالم، ثم أتبعه بالمنام والابتغاء وهما من الأمور المفارقة في بعض الأوقات، بخلاف اختلاف الألسنة والألوان، وقال لقوم يسمعون؛ لأنه لما كان من أفعال العبادة قد يتوهم أنه لا يحتاج إلى مرشد، فنبه على السماع، وجعل البال من كلام المرشد، ولما ذكر عرضيات الأنفس اللازمة والمفارقة، ذكر عرضيات الآفاق المفارقة من إراءة البرق وإنزال المطر، وقدمها على ما هو من الأرض وهو الإماتة والإحياء، كما قدم السموات والأرض، وقدم البرق على الإنزال؛ لأنه كالمبشر يجيء بين يدي القادم، والأعراب لا يعلمون البلاد المعشبة إن لم يكونوا قد رأوا البروق اللائحة من جانب إلى جانب، وقال: لقوم يعقلون؛ لأن البرق والإنزال ليس أمراً عادياً فيتوهم أنه طبيعة، إذ يقع ذلك ببلدة دون أخرى، وقتاً دون وقت، وقوياً وضعيفاً، فهو أظهر في العقل دلالة على الفاعل المختار، فقال: هو آية لمن عقل بأن لم يتفكر تفكيراً تاماً، ثم ختم هذه الآيات بقيام السموات والأرض، وذلك من العوارض اللازمة؛ فإن كلاً من السماء الأرض لا يخرج عن مكانه، فيتعجب من

وقوف الأرض وعدم نزولها، ومن علو السماء وثباتها من غير عمد، ثم أتبع ذلك بالنشأة الأخرى وهي الخروج من الأرض.

وذكر تعالى من كل باب أمرين؛ من الأنفس خلقكم وخلق لكم، ومن الآفاق السماء والأرض، ومن لوازم الإنسان اختلاف الألسنة واختلاف الألوان، ومن خواصه المنام والابتغاء، ومن عوارض الآفاق البرق والمطر، ومن لوازمه قيام السماء وقيام الأرض<sup>(١)</sup>.

ولا أود أن أطيل عليك؛ فذلك شأن القرآن الكريم كله، ولكن الآيات التي ذكرتها لك كانت جميعها آيات مكية، ولا بد أن نقف معك مع بعض الآيات المدنية التي تتحدث عن الأحكام. وسأقتصر على موضعين:

الأول: آية الدين، وهي أطول آية في كتاب الله.  
الثاني: آيات الموارث.

وإنما اخترت لك هذين الموضعين؛ لأن قضية البراعة، وجمال النسق، وروعة الإيقاع، تختلف من موضوع لموضوع، فليست هي في قضايا التشريع والتقنين، كما هي في أمور القصة والوصف والترغيب والترهيب، ولكن ستجد النص القرآني سواء؛ وما ذلك إلا لأنه تنزيل رب العالمين.

#### آية الدين:

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الذِّبْرُ ۖ إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ ۖ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَمَتَّعْ ۚ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا ۚ فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمْلِهُ ۖ فَلَْيُمْلِلْ لِهُ بِالْعَدْلِ ۚ وَأَسْهَدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ رَضَوْنَ مِنَ الشَّهَادَةِ ۚ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ

(١) تفسير البحر المحیط، لأبي حیان، ج ٧، ص ١٦٨.

إِحْدَاهُمَا الْآخَرَىٰ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْفُرُوا صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ  
 ذَلِكَمُ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَدَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجْدَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا  
 بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْفُرُوا وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ  
 وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فَسُوقُكُمْ وَأَنْتُمْ لِلَّهِ وَتَعْلَمُكُمْ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾  
 وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهْنِ مَقْبُوضَةً فَإِنْ آمَنَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ فَلْيُؤَدِّ الَّذِي  
 أُؤْتِيَ مَأْمَنَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْفُرُوا الشَّهَدَةُ وَمَنْ يَكْفُرْهَا فَإِنَّهُ إِثْمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا  
 تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ [البقرة: ٢٨٢-٢٨٣].

وإذا تأملت الآية الكريمة، وجدتها في ترتيبها ونسقها، ونظمها، برهاناً  
 ساطعاً، وحجة قاطعة، على حجية القرآن وإعجازه، وهي أطول آية - كما قلت  
 لك -، والطول - كما تعلم - مظنة لعدم الإتيان، والإحكام، ثم هي قضية من أخطر  
 القضايا شأناً؛ إنها تتحدث عن شؤون الأموال، فليست وصفاً لمظهر من مظاهر  
 الطبيعة، ولا لحدث من أحداث اليوم الآخر، مما تنخلع له القلوب، أو تطرب له  
 الأفتدة. ولنقف مع الآية الكريمة في نظمها.

بدأت الآية بنداء المؤمنين، هذا النداء الذي يشعرهم بها لهم من شأن، وبها  
 عليهم من مسؤولية، وبدأت الآية بهذه الأداة الدالة على تحقيق الأمر ﴿إِذَا تَدَايَنْتُمْ  
 بِدَيْنٍ﴾ ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، ﴿فَاكْتُبُوا﴾ هذه القيود الثلاثة لكل منها موجباته،  
 ومكانته في النظم، وأنا لا أود أن أفسره هنا؛ لذا فإني أعتذر إن لم أقف مع كل كلمة  
 من كلمات الآية الكريمة، ولكن ماذا بعد ذلك؟

بعد هذا الإجمال يأتي دور التفصيل، هذا الدين - إذن - لا بد من أن يُكْتَبَ،  
 ولكن الكتابة لا بد لها من كاتب، وتبدأ الآية تحدثنا عن شؤون الكاتب والكتابة،  
 فهذا الكاتب أولاً لا بد أن يكتب بالعدل، فلا ينبغي أن يميل لطرف على حساب  
 الطرف الآخر، وإنما ينبغي أن يكتب بالعدل للدائن والمدين على السواء. وهذه  
 واحدة. أما الثانية: فكلما يلزمه العدل في كتابته وعدم الميل، فإنه لا ينبغي له كذلك

أن يمتنع عن الكتابة إذا طلبت منه، فكما علمه الله لا بد أن يزكي هذا التعليم، فيجب عليه أن يكتب ﴿فَلْيَكْتُبْ﴾.

أما القضية الثالثة التي أشارت إليها الآية الكريمة، فهي قضية تتعلق بالذي عليه الحق، فهو الذي يجب أن يُملي على هذا الكاتب، ذلك لأن المدين هو أولى بأن يُملي ما عليه من حقوق، وكما وجهت الآية الكريمة الكاتب بوجوب العدل، فإنها توجه المدين -أي الذي عليه الحق- بأن يتقي الله ربه. هكذا ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ جمعاً بين هذين الاسمين، فهو الله الخالق الذي لا تخفى عليه خافية وهو ربه الذي رباه فهياً له من يقضي حوائجه. ولا يبخل صاحب الحق حقه، ولا يبخل منه شيئاً، مهما كان هذا الشيء ضئيلاً أو حقيراً؛ بل ينبغي أن يُملي كل ما عليه.

ثم ذكرت الآية الكريمة قضية، هي من القضايا المهمة ذات الشأن؛ وهي أن من عليه الحق قد يكون سفيهاً، غير محكم العقل، وقد يكون ضعيفاً لصغر أو مرض، وقد لا يستطيع أن يُملي ما عليه؛ لبكم، أو عدم القدرة على الحضور لمكان الكتابة، فما المخرج يا ترى؟ يؤكد القرآن على هذه القضية، فيبين أن هذا المدين، إن كانت فيه حالة من هذه الحالات الثلاث، فإن على وليه أن يُمل بالعدل. وبهذا تكون الآية قد أملت بشؤون الكتابة من جميع جهاتها، سواء كانت هذه الجهة تتعلق بالكاتب نفسه، أم بمن عليه الحق الذي يُملي للكاتب، أم بوليّه حينما يكون إملأؤه متعذراً.

وقضايا الأموال لا تحتاج إلى الكتاب فحسب، فهناك مع الكتابة أمر آخر وهي قضية الشهادة، وهذا ما عرضت الآية الكريمة بعد الكتابة، وفي تقديم الكتابة على الشهادة حكمة ذات نسق بديع. ويحيي الحديث عن الشهادة ﴿وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾ وهؤلاء الشهاداء رجالاً ونساء لا بد أن يكونوا عدولاً ﴿وَمَنْ رَضَوْنَ مِنَ الشَّهَدَاءِ﴾. وكما لا يجوز للكاتب أن يمتنع عن الكتابة، فلا يجوز للشهود كذلك أن يمتنعوا عن الشهادة إذا طلبت منهم ﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾.

وإلى هنا يتم كل ما يتعلق بأمر الكتاب والشهداء، ولكن ماذا بقي يا ترى؟ يعود الكلام للمؤمنين مرة أخرى، فقد تهيمن عليهم السامة، ويسيطر عليهم عدم المبالاة فيحول ذلك بينهم وبين الكتابة، وقد يرون أن هذا الدين قليل، ويظنون أن الكتابة إنما تكون للشيء الكبير والكثير، تحذر الآية المؤمنين من مغبة ذلك كله ﴿وَلَا تَسْمُؤْا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ﴾ وبعد ذلك كله، لا تترك الآية المؤمنين عند هذا الحد، بل تبين لهم الحكمة من ذلك التشريع. لماذا كانت كل تلك العناية في شأن الأموال؟

تبين الآية الكريمة الحكم الكثيرة؛ فذلك الأمر أقسط عند الله وأكثر عدلاً، ثم هو أصح وأكثر عوناً على إقامة الشهادة، ثم هو بعد هذا وذاك، أقرب لنفي الريب ﴿ذَلِكَ أَمْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾ نعم يُستثنى من هذا الحكم إذا كانت التجارة حاضرة، أي بيعاً ناجزاً فيما بينهم، فإنه لا يُتوهم فيه إضاعة حق، أو ذهاب مصلحة ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾.

وبعد ذلك كله تبين الآية الكريمة، أن من الأحوط أن يشهدوا إذا تبايعوا، أيًا كان البيع ﴿وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾.

بقيت قضية تتصل بما ينبغي أن يتصف به المؤمنون، وهي أنه لا يجوز لهم أن يلحقوا الضرر بالكتاب أو الشهداء، بدنياً كان هذا الضرر أم مالياً، مادياً أم معنوياً، ﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾. فهي وصية للمؤمنين المتدائنين، أن لا يلحقوا الأذى بكتاب أو شهيد، ويذهب بعض المفسرين إلى أنها وصية للكاتب والشهيد أن لا يضاروا الناس بكتابتهم وشهادتهم. فعلى الأول كاتب نائب فاعل، أي لا تضاروا أيها المؤمنون كاتباً ولا شهيداً، وعلى التفسير الثاني: كاتب فاعل، أي لا يضار الكاتب والشهيد المتدائنين. ولا شك أننا نرجح الأول ونختاره؛ لأنه المتبادر من

الآية أولاً، ولأن وصية الكاتب والشهيد بالعدل قد مرت من قبل ثانياً، وهناك سبب ثالث وهو قوله تعالى: ﴿وَلَا يُضَادُّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ أي إن ضاررتم الكاتب أو الشهيد أيها المؤمنون، فهو فسوق بكم، والله كرهه الفسوق للمؤمنين.

وتختتم الآية بأمر المسلمين بالتقوى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ ثم تَمَنَّ عليهم بهذه النعمة الكريمة، نعمة التشريع الذي يحفظ لهم حقوقهم، والتعليم الذي تسمو به نفوسهم، ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٣١). فهو الذي يعلم ما يصلح شؤونكم، أكثر مما تعلمون أنتم، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ فهذه الجملة - ويعلمكم - جملة مستأنفة، جاءت لبيان نِعَم الله على المؤمنين بهذا التشريع الجامع العادل. ولا تلتفت إلى ما يقوله بعضهم، حينما يقلل من شأن العلم، ويزعم أن العلم لا يكون بالتعلم، وإنما هو بالتقوى فقط، وهذا زعم غير صحيح؛ يرده نظم الآية أولاً، لأن الله يقول: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ ولم يقل «واتقوا الله يعلمكم الله»، ثم كيف يمكن أن تتم التقوى بدون علم، وكما يرد هذا الزعم السنة المطهرة «إنما العلم بالتعلم»<sup>(١)</sup>.

أما إذا كان المتدانيون على سفر ولم يجدوا كاتباً، ﴿فَرِهَنَ مَقْبُوضَةً﴾، ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فليؤدِّ الَّذِي أَوْثَمَنَ أَمْنَتَهُ، وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ، وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾. أرايت هذا النظم، كيف جاءت فيه هذه الأحكام مرتباً بعضها على بعض، وقل لي بربك: لو أن علماء القانون، ورجال التشريع، أرادوا أن يعبروا عن هذه المعاني - هم بالطبع لن يستوعبوا ذلك كله - ولكن إن أرادوا أن يعبروا عنها، فأظنك على يقين بأنهم بحاجة إلى فصل كامل من المواد، ولن يبلغوا ما في

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، ٣٩٨/٧ برقم ١٠٧٣٩ من قول أبي الدرداء. وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير، ٣٩٥/١٩، برقم ٩٢٩ من حديث معاوية رضي الله عنه مرفوعاً.  
وانظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» للألباني، رقم ٣٤٢.

الآية الكريمة من ألفاظ مختارة منتقاة، وإيجاز، لقد جمعت حقاً بين القصد باللفظ والوفاء بالمعنى، ذلك هو النظم القرآني.

### آية المواريث:

قال تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِمْتُ حِطَّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ وُورَتُهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ الشُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً ﴿١١﴾ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [النساء: ١١-١٢].

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ أَمْرُهَا هَلْكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتُ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذِ كَرِمْتُ حِطَّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [النساء: ١٧٦].

لا نرتاب أبداً بأن أحداً أياً كان دينه ولغته، وقد عرف أحكام المواريث، وقرأ آيات الكتاب الكريم -آيات المواريث- يساوره شك، بأن ما جاء في القرآن لا يستطيعه أحد من الناس، لا من حيث الإيجاز فحسب، وإنما من حيث هذا الترتيب المحكم، وهذا حق، لا يماري فيه ذو عقل، فأحكام المواريث التي أصبحت فيما بعد علماً مستقلاً، يسمى علم الفرائض أو علم المواريث، ألفت فيه الكتب، وقعدت

القواعد، وفُصِّلَت الفصول، يجمعه القرآن فيما لا يزيد عن آيات ثلاث، ولكنه ليس جمعاً كأي جمع، وليس تأليفاً كأي تأليف؛ وإنما هو نظم يدلُّك سابقه على لاحقه، ويتبع آخره أوله. ونحن نعلم أن مثل هذه القضايا، وما تتطلبه من أنواع الحساب، وما فيها من اختلاف الأنصبة والتقادير، بحاجة إلى حَيَزٍ من الكلام ليس بقليل، ومع هذا فهي بعيدة عن أن تجتمع لها صنعة البيان، وحصافة النظم، ولن أطيل عليك، وأرجو أن تستنج هذا بفكرك. ولكننا ونحن نعيش معاً في رحاب هذه الآيات الكريمة، لا بد أن تدرك أن قضية الموارث، ليس المعجز فيها قضية النظم فحسب، بل أحكامها وجزئياتها كذلك. لم تكن قضية الموارث مما يجهله الناس قبل الإسلام فحسب، بل كانت فوق ذلك مما يخالف رغباتهم وأعرافهم، ولا يتفق مع قواعدهم، جاءت تهدم كل ما بنوه من صروح اجتماعية. كانوا لا يورثون المرأة والصغير، بل يظلمون بعض الأولاد -حتى غير الصغار- لحساب بعضهم الآخر، فجاءت آي القرآن الكريم -لا أقول بدقة النظم فحسب، بل بدقة التقسيم من حيث الورثة والأنصبة. وإليك البيان:

بدأت الآية الكريمة بداية مثيرة مؤثرة هكذا ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ اختيار لفظ الوصية، على غيرها من الألفاظ، كالأمر، والطلب، ذلك أن الوصية لا تكون إلا للأمر بالشيء، ولطلب الشيء الذي فيه عناية، وهذا أمر تدركه بنفسك أنك لا توصي بالشيء، ولا يوصيك غيرك بشيء، إلا إذا كان لهذا الشيء شأن وخطر. ثم يأتي لفظ الجلالة ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ﴾ وهو الاسم الكريم الجليل يؤتى به لتربية المهابة في النفوس، وإشاعة الإجلال والهيبة فيها، وذلك كله مما يستدعي تنفيذ الأمر الموصى به. ثم بعد ذلك ﴿فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ والولد يصدق على الذكر والأنثى، لا كما تعود بعض الناس أن يطلقوه على الذكر وحده.

ثم ماذا؟ وهذه أول قضية جديدة على القوم، ما كانت تخطر لهم ببال، وهي ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ مِثْلِ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾، هكذا دون أن يقال للأنثى نصف حظ الذكر، ومن



البدهي أنا لا أريد أن أقف معك مع كل كلمة من كلمات الآيات الكريمة، فذلك أمر يخرج عن نطاق هذا الكتاب، ونحن هنا نتكلم عن النظم في آيات الأحكام، وكيف جاءت الجمل آخذاً بعضها بحجز بعض.

بدأت الآية الحديث عن الأولاد، وهم أولى من غيرهم بالتركة، لأنهم غالباً ما يكونون ذوي حاجة من جهة، ولأن طبيعة الإنسان وفطرته، تتفق مع هذه القضية من جهة أخرى، فأكثر من يستحوذ على عناية الإنسان أولاده، ولكن ماذا بعد ذلك يا ترى؟ لقد أعطتنا الآية هذه القاعدة الجامعة ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ فإذا كان الأولاد ذكوراً فحسب، فالأمر سهل، يأخذون التركة بالتساوي، كذلك إذا كانوا ذكوراً وإناثاً، فالقضية قد حلت ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾. إذن هاتان قضيتان لا تحتاجان بياناً، أعني أن يكون الأولاد ذكوراً فحسب، أو ذكوراً وإناثاً. لكن هناك قضية أخرى، وهي أن يكون هؤلاء الأولاد إناثاً فحسب، فما السبيل وما الشأن؟

تفصل الآيات الكريمة هذه القضية، ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾. وبهذه الجملة الموجزة، نكون قد انتهينا من شأن الأولاد في الميراث، سواء كانوا ذكوراً فحسب، أم إناثاً فحسب، أم زوجوا -صنفوا ذكوراً وإناثاً. قل لي بربك أي كلام وأي متكلم، يمكن أن يوجز كل هذا بجملة واحدة ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾، نصيب الأولاد على اختلافهم لا يخرج عن هذه الكلمات.

وبعد الحديث عن الفروع -الأولاد- تنتقل الآية نفسها إلى الحديث عن الأصول، عن الأبوين ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ﴾ أي لكل واحد من أبوي الميت السدس من تركته. ولكن إياك أن تظن أن روعة الآية في نظمها، من حيث الترتيب والإيجاز فحسب، إنما من حيث اختيار الألفاظ في الجملة الواحدة، وما تعطيه هذه الألفاظ من دقة في الحكم، وهدف في المعنى. عد إلى الجملة السابقة

﴿وَلَا يَوِيَّهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ﴾ ولم يقل: «ولأبويه الثلث» - لأنه مجموع السدسين - مع أن القرآن كتاب الإيجاز، ولكن أتعرف لم عدل عن هذا النظم ولأبويه الثلث؟ كان ذلك لحكمة رائعة، وغرض رئيس، وسبب جوهري، إنه لو قال كذلك «ولأبويه الثلث» لتوهم أن الأب يأخذ ضعف نصيب الأم؛ لأنه ذكر وهي أنثى، وقد تقدم ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ فأراد القرآن أن ينفي هذا الوهم، وأن يبين أن نصيب الأب والأم من الميث سواء.

ولكن هذا الميث ليست حالاته سواء، فقد يكون له أولاد كما مر من قبل، وهنا يكون نصيب كل من أبويه السدس، ولكن قد لا يكون له أولاد، فما هو نصيب والديه يا ترى؟ أهو السدس لكل منهما؟

يقول القرآن في ذلك ﴿وَلَا يَوِيَّهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَّمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِلْأُمِّهِ الثُّلُثُ﴾ هذه واحدة، أما الثانية فقد يكون لهذا الميث إخوة وقد لا يكون، ترى إذا كان له إخوة هل يغير نصيب أحد والديه؟ يقول القرآن ﴿إِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِلْأُمِّهِ السُّدُسُ﴾ وهكذا يتغير نصيب الأم كما رأينا.

ولم تنته الآية بعد ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ فتقسيم التركة على مستحقيها بعد الوصية والدين، وما يلزم الميث من تجهيز، ولكن نحن نعلم أن الدين مقدم على كل شيء، لأنه حقوق الناس، ولكن الآية قدمت فيها الوصية. ولم يقل «من بعد دين أو وصية يوصي بها» ولا تظن أن ذلك جاء لقضية جمالية تتعلق باللفظ؛ لأن إيقاع الآية على ما هي عليه، أوقع في السمع، وأجل جرساً، ولكن جاء النظم على غير هذا، فقدمت فيه الوصية؛ لأن الدين ما لا مجال فيه للإنكار، والتمنع، ولكن الوصية عادة هي التي يتساهل الناس فيها، ومن أجل ذلك قدمت، ثم قال سبحانه: ﴿ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً﴾ ولما كانت هذه الآية تحدثت عن صنفين من الورثة، الآباء والأبناء، بين الله تعالى أن الآباء والأبناء،

لا ينبغي أن يظلم أحدهما على حساب الآخر ﴿لَا تَدْرُونَ أَيُّهُم أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾. وقد يكون هذا النفع دنيوياً، وقد يكون أخروياً، وقد يكون كليهما، فكم من واحد نفعه والداه أكثر من ولده، والعكس صحيح. وكم من واحد ينفعه صلاح أبويه، كما شهدت بذلك الآيات الكريمة، أو ينفعه صلاح أولاده، كما شهدت الآثار الصحيحة بذلك.

وختمت الآية بقوله: ﴿فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ١١ وهكذا بدئت الآية بلفظ الوصية، وختمت بلفظ الفريضة، ولكن الورثة ليسوا الآباء والأبناء فحسب، فهناك الأزواج، وصلة الزوجية من الصلات ذات الشأن، التي أحاطها الإسلام بعنايته وخصها برعايته؛ لذا جاءت الآية الثانية تكمل أحكام الموارث، فما هو نصيب كل من الزوجين من الآخر؟

تقول الآية الكريمة ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾ ومعنى هذا أن للرجل نصف ما تركت زوجته، ولكن قد تكون هذه المرأة أنجبت منه أو من غيره، فهل له النصف على كل حال؟ يقول القرآن: ﴿إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ﴾ هن - وليس لكم - لأن هذه المرأة قد يكون لها أولاد من غير هذا الزوج الوارث، فمن الممكن أن تكون طلقت، أو توفي عنها زوجها الأول، بعد أن أنجبت منه. النصف للزوج إذا لم يكن هن ولد. أما في حالة وجود ولد لهذه المرأة يقول القرآن: ﴿إِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ﴾ وهكذا يتحول نصيب الرجل من امرأته من النصف إلى الربع، في حالة وجود ولد منه أو من غيره. ولكن هذا إنما يكون بعد أن تؤدَّى الحقوق الأخرى من التركة - كما مر من قبل - ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِيَنَّ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾.

هذا عن نصيب الرجل، فماذا عن نصيب المرأة: تقول الآية نفسها ﴿وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ﴾ سواء كان هذا الولد، من هذه المرأة، أم

من غيرها من النساء ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمْنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ﴾ وسواء كانت واحدة، أم اثنتين، أم ثلاث، أم أربع، فهن مشتركات في الثمن في حال وجود أولاد للزوج، أو في الربع إن لم يكن له ولد، وهذا بالطبع ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيِّهِ تَوْصُوتُ بِهَا أَوْ دَيْنٌ﴾.

وإلى هنا يتبين لنا نصيب الآباء والأبناء، إذا كان للميت آباء وأبناء، ونصيب الأزواج كذلك. ولكن بقيت حالة حري بها أن تُبَيَّن. فقد لا يكون للميت ولد ولا والد، هذا من جهة. وقد يكون له إخوة من أمه فقط. ما دام الحديث عن الأزواج. تبين الآية هذه المسألة ﴿وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُوْرَثُ كَلَلَةً أَوْ امْرَأَةً﴾ الكلاله من لا ولد له ولا والد، أي ليس له أبناء ولا آباء، ﴿وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ﴾ - إن كانوا من الأم فحسب ﴿فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُسُ إِنْ كَانُوا أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾ ولكن هذا ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيِّهِ تَوْصِي بِهَا أَوْ دَيْنٌ غَيْرَ مُضْكَرٍ﴾.

ونلاحظ أن هذه الكلمة ﴿غَيْرَ مُضْكَرٍ﴾ لم تأت في الآية الأولى حينما كان الحديث عن الآباء والأولاد، ولكنها جاءت هنا، حينما كان الحديث عن توريث الأزواج، وعن الكلاله الذي لا ولد له ولا والد؛ لأن هذا يكون في حالة نفسية، ربما تدفعه إلى أن يمنع أصحاب الحقوق حقوقهم، فيتصدق بهاله كله أو يوصي به، كما أن بعض الأزواج يحاولون منع أزواجهم حقوقهن؛ فكان لا بد من مجيء هذه الجملة القرآنية هنا ﴿غَيْرَ مُضْكَرٍ﴾؛ ليبين أنه لا يجوز ولا يصح له أن يضر بأصحاب الحقوق، فيمنعهم حقوقهم، قل لي بربك أليست هذه كافية في تقرير الإعجاز القرآني؟ بلى والله.

وتختم الآية بقوله ﴿وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ ختمت الآية الأولى بقوله ﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾، فجمعت بين الوصية في أولها، والفريضة في آخرها، ولكن هذه ختمت بقوله سبحانه: ﴿وَصِيَّةً﴾، وقد عرفنا أن الوصية إنما تطلق

على الأمر ذي الشأن والخطر، ولئن كان الناس يجمعون لأبنائهم، ويبرون آباءهم، فإن بعضهم يحاول أن يتهرب من توريث الأزواج، أو الإخوة لأم، من أجل هذا ختمت الآية الثانية بقوله سبحانه: ﴿وَصِيَّةٌ مِّنَ اللَّهِ﴾، كما أن الآية الأولى ختمت بقوله: ﴿حَكِيمًا﴾، ختمت هذه الآية بقوله: ﴿حَلِيمٌ﴾؛ فحكمته سبحانه في توزيع التركة لأصحابها، لا يصل إليها أحد من خلقه، وحلمه على أولئك الذين يتهربون من إعطاء الناس حقوقهم عظيم.

ثم جاءت الآية الأخيرة في سورة النساء، تفصل آخر قضية من قضايا التوريث، وهي قضية الكلاله، جاءت آخر آية في سورة النساء ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ هكذا بلفظ الإفتاء، والإفتاء لا يكون إلا للقضية ذات الشأن كذلك. وتبين الآية ﴿إِنْ أَمْرُكَ هَٰذَا فَاصْصَلْ لَهُمَا نِكَاحَهُمَا وَبِأَمْرِكَ وَهُوَ يَرِثُهُمَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الشُّلْثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾، وهنا لا بد أن نقف على شيء من روعة النظم في كتاب الله. فحينما تحدث عن البنات في الآية الأولى بقوله: ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾ نجد أنه ذكر نصيب ما فوق الشنتين، ابتداءً من الثلاث والأربع إلى غير ذلك، ونصيب الواحدة، فما فوق الشنتين لهن الثلثان، والواحدة لها النصف، ولكن ما نصيب الاثنتين يا ترى؟ لم تذكره الآية الأولى، ولكن هذه الآية التي تحدثت عن الأخوات، ذكرت نصيب الأخت الواحدة، ونصيب الأختين ﴿وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الشُّلْثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾. ولم تذكر الآية ما فوق الأختين.

الآية الأولى -إذن- ذكرت ما فوق الشنتين من البنات ولم تذكر حكم الشنتين، وهذه الآية ذكرت حكم الشنتين من الأخوات، ولم تذكر حكم ما فوقهما. وهكذا يؤخذ من كل آية حكم، فنصيب الابنتين الذي لم يذكر في الآية الأولى، نقيسه على

نصيب الأختين الذي ذكر في هذه الآية، أما نصيب الأخوات من الثلاثة فما فوق الذي لم يذكر في هذه الآية، فتأخذ من الآية الأولى. وهكذا تجد النظم القرآني، يجمع بين القصد باللفظ، والوفاء بالمعنى.

أما إذا كانت الكلاله ميتة، أي: ليس لها ولد، ولها أخ، فهو يرثها. وهكذا تبين هذه الآية الكريمة أن الأخ يرث أخته، وأن الأخت تأخذ نصف مال أخيها، فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان، أما إذا كانوا أكثر من ذلك رجالاً ونساء، ذكوراً وإناثاً، فللذكر مثل حظ الأنثيين. ولا تنس أن هذا هو حكم الكلاله. كما تقدم من قبل. وتختتم الآية بقول الله: ﴿يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١٧٦) .

هذه آيات الموارث من حيث النظم، تدبرها مرة أخرى و يقيني أنك ستزداد يقيناً، بأن هذا النظم، من حيث الترتيب، والإيجاز، واختيار الألفاظ، آية باهرة، وعلامة صدق على هذا الإعجاز البياني.

ولكن بقي في آيات الموارث الكثير الكثير، بقي الحديث عن هذه الأحكام التي بينت، ولماذا اختيرت؟ ولماذا كانت موزعة هذا التوزيع؟ تلك قضية لن نمسها نحن هنا، لأننا نتحدث عن الإعجاز البياني، الذي يتعلق بالنظم واختيار الكلمات، لكننا نعدك إن شاء الله - ونسأل الله أن يوفقنا للإيفاء بالوعد - أن نحدثك عن هذه وغيرها، في الجزء الثالث من هذا الكتاب، الذي خصصناه للإعجاز التشريعي والعلمي<sup>(١)</sup>.

أظن أن الحديث عن القطعة أو الفقرة القرآنية، يكفيك. وننتقل الآن للحديث عن السورة القرآنية.

---

(١) وقد توفي ﷺ ولم يكمل هذا الكتاب.



## البَصِيَّةُ الثَّامِنُ

### السورة القرآنية

«السورة تهمز ولا تهمز. فمن همزها جعلها من أسارت، أي: أفضلت، من السور وهو ما بقي من الشراب في الإناء، كأنها قطعة من القرآن، ومن لم يهمزها جعلها من المعنى المتقدم وسهلها، ومنهم من شبهها بسور البناء، أي: القطعة منه، أي: منزلة بعد منزلة، وقيل: من سور المدينة لإحاطتها بآياتها واجتماعها كاجتماع البيوت بالسور، أو من السوار لإحاطته بالساعد، وعلى هذا فالواو أصلية، ويحتمل أن تكون من السورة بمعنى المرتبة؛ لأن الآيات مرتبة ترتيباً متناسباً، وقيل: لتركيب بعضها على بعض من التسور بمعنى التصاعد والتركيب، ومنه ﴿إِذْ سَوَّرُوا الْيَحْرَابَ﴾ (١١) [ص: ٢١] أي: نزلوا عليه من علو، وقيل: لعلو شأنها وشأن قارئها. والسورة المنزلة الرفيعة. وهي في الاصطلاح: قرآن يشتمل على آي ذي فاتحة، وأقلها ثلاث آيات. أو هي الطائفة من القرآن المسماة باسم خاص بتوقيف من النبي ﷺ<sup>(١)</sup> وهذه السور قد تطول وقد تقصر.

وقد قسمت سور القرآن إلى: الطوال، والمئين، والمثاني، والمفصل؛ فالطوال جمع طولى وهي: البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف والأنفال، والمئين ما زادت على المئة آية أو تقاربها والمثاني وهي السور التي آياها أقل من مائة لأنها ثنتي، أي: تكرر، والمفصل: ما فصلت فيه السور، وهو أواخر القرآن، ومحل هذا كتب علوم القرآن.

---

(١) فصل الخطاب في سلامة القرآن الكريم، د. أحمد السيد الكومي ود. محمد أحمد يوسف القاسم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، الطبعة الثانية.



والذي يعيننا الآن ما نحن بصدده هو أن السورة القرآنية، مع طولها أو قصرها، ومع تعدد ما تحدثت عنه من قضايا، فإن هناك صلة مشتركة بين أجزائها، ولكن ترى هل يمكن أن نعدّها ذات موضوع واحد، وأن نلمس الوحدة الموضوعية في هذه السورة ظاهرة تامة، بيّنة؟ أم أنه لا داعي لذلك كله، ويكفي أن تكون موضوعات السورة الواحدة، غير متنافرة فيما بينها.

قال بكل منهما جماعة من العلماء والفريقان متفقان على حُسن نسق السورة، وبديع نظمها، وقد تقدم لنا في الجزء الأول، فعرّفنا أن من الفريق الأول الباقلاني رحمه الله من الأقدمين، وأستاذنا الدكتور محمد عبدالله دراز رحمه الله من المحدثين.

وعذر الفريق الثاني -فيما يبدو لي- هو ما ظنوه أن إدراج قضايا السورة الواحدة، ضمن موضوع واحد، قد يؤدي إلى شيء من التكلف والتصنع، مع أننا نعذر هذا الفريق، لكن الذي نراه ونحن به متيقنون، هو أن لكل سورة موضوعها وشخصيتها، وهذا ما سنحاول أن نبينه في هذا الفصل إن شاء الله.

تحدث الدكتور محمد عبدالله دراز -كما عرفت- عن الوحدة الموضوعية في سورة البقرة، ومن قبله تحدث الباقلاني حديثاً مقتضباً عن بعض السور<sup>(١)</sup>. وسأحاول هنا أن أختار لك بعض السور الكريمة، لتتسرف بدراستها أنا وأنت.

هاتان سورتان من كتاب الله، إحداهما تسمى سورة الفرقان، والأخرى تسمى سورة الملك، وهما ذواتا بداية واحدة امتازتا بها عن جميع سور القرآن؛ إذ كل منهما ابتدأت بهذه الجملة الكريمة ﴿تَبَارَكَ الَّذِي﴾، لكن السورة الأولى جاء فيها ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾<sup>(١)</sup>، والثانية جاء فيها ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾<sup>(٢)</sup>، وسنحاول أن نقف مع كل منهما،

---

(١) راجع الجزء الأول.

مجملين القول، موجزين ما أمكن الإيجاز، وأرجو أن تقف مع هذه السورة في كتاب الله تعالى، حتى يكون لك شرف النظر في المصحف، مع شرف التلاوة والتدبر.

### سورة الفرقان:

﴿بَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (١) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ نَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءَهُ ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوا اسْتَطِيرُ الْأُولَى اكْتَبَتْهَا فِيهِ ثَمَلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٦﴾ وَقَالُوا مَا هَذَا الرَّسُولُ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُنْفِثَ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٨﴾ انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ فُصُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَوْهُم مِّنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَبِيحًا مُّقْرَرِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَجِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا قَائِمُونَ خَالِدِينَ كَانَتْ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَّشْكُورًا ﴿١٥﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٦﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ مَا كَانَ يُبْعَثُ لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٧﴾ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا نَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يظْلِمِ مِنْكُمْ نَذْفُهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٨﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴿١٩﴾ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ لَا

يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَكُكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا  
(٢١) يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَكُكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَّحْجُورًا (٢٢) وَقَدْ مَنَّآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا  
مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا (٢٣) أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا (٢٤)  
وَيَوْمَ تَشْقَىٰ السَّمَاءُ بِالْغَمِّمْ وَنُزُلَا الْمَلَكُكَةُ تَنْزِيلًا (٢٥) الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْهَاقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى  
الْكَافِرِينَ عَسِيرًا (٢٦) وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (٢٧)  
يَوْمَئِذٍ لَيْتَنِي لَمْ أَخُذْ فَلَانًا خَلِيلًا (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ  
الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا (٢٩) وَقَالَ الرَّسُولُ يَذَرُكَ إِنْ قَوْمِي أَخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (٣٠)  
وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (٣١) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا  
لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (٣٢) وَلَا يَأْتُونَكَ  
بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (٣٣) الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَئِكَ  
شَرُّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا (٣٤) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ  
وَزِيرًا (٣٥) فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايِنِنَا فَذَمِّرْنَاهُمْ نَذِيرًا (٣٦) وَقَوْمُ نُوحٍ لَمَّا  
كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٣٧)  
وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرِّيسِ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا (٣٨) وَكُلًّا صَبَّأْنَاهُ الْإِنَّمَالُ وَكُلًّا تَبَرْنَا  
تَنْذِيرًا (٣٩) وَلَقَدْ أَنزَلْنَا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرَ السَّوْءِ أَكْلَمَ يَكُونُوا يَكُونُوا يَكُونُوا بَلْ كَانُوا  
لَا يَرْجُونَ شُورًا (٤٠) وَإِذْ أَرَأَوْكَ إِذَا يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُؤًا أَهْذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا (٤١)  
إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ إِلَهِنَا لَوْلَا أَنَّ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرْوُونَ الْعَذَابَ  
مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٢) أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا (٤٣) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ  
أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٤) أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ  
كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا (٤٥) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا  
يَسِيرًا (٤٦) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ شُورًا (٤٧) وَهُوَ الَّذِي  
أَرْسَلَ الرِّيْحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (٤٨) لِنُخْشِيَ بِهِ بَلَدَهُ مَبْنًى  
وَشَقِيقَهُ وَمِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَأَنَا سَيِّ كَثِيرًا (٤٩) وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا  
كُفُورًا (٥٠) وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا (٥١) فَلَا تَطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَهْدُهُمْ بِهِ

جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَجِجْرًا مَحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَلِّ بِرَبِّهِ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنْسَاجُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ تُقُورًا ﴿٦٠﴾ نَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبْدِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَلِلْقَوْمِ فِيهَا نَجِيَّةٌ وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾ ﴿سورة الفرقان﴾.

ابتدئت كما قلنا بما يدل على جلال الله وعظمته، وكثرة خيره ﴿تَبَرَّكَ﴾. ولكن الخير الذي ذكر به الناس هنا، إنما هو إنزال الفرقان على عبده، ليكون للعالمين نذيرًا

وما ذلك إلا لأن أولئك يحتاجون إلى الإنذار، لإعراضهم عن الحق. السورة الكريمة -إذن- تحدثنا عن عظمة المنزل، تبارك وكثر خيره، ونها فضله، وزادت آلاؤه، وعظمت نعمائه. ثم تحدثنا عن روعة المنزل، وهو الفرقان الذي يفرق بين الحق والباطل، والخير والشر، والظلمة والنور، وعن عظمة المنزل عليه ﷺ، فهو عبدالله، وكفى بذلك شرفاً وفضلاً، هذا ما نتحدث عنه الآية الأولى. ثم ماذا بعد ذلك؟

تتحدث الآيات بعد ذلك عن شأن الخالق المنزل، الذي له ملك السموات والأرض، ولم يتخذ ولداً، ولم يكن له شريك في الملك، وخلق كل شيء فقدره تقديراً، مع ذلك فلم يقدره هؤلاء المنذرون حق قدره، فأذوه، وادعوا له ولداً، وعبدوا غيره، وأولئك لا يملكون لأنفسهم شيئاً ما، لا ضراً ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياة، ولا نشوراً. ولكن أولئك المنذرون لم تكن فريتهم على الله وحده، بل كانت هذه الافتراءات، هذا التجني على القرآن المنزل، والرسول المنزل عليه، فإذا كانوا أولاً قد ﴿اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً﴾ [الفرقان: ٣]، فلقد قالوا ثانياً عن القرآن: إنه إفك ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الفرقان: ٤]، وقالوا ثالثاً عن هذا القرآن: إنه ﴿أَسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ﴾ أَسْتَبْهَأَ فِيهِ ثَمَلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ [الفرقان: ٥]، ثم قالوا رابعاً عن الرسول ﷺ: ﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَنْشِئُ فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ ﴿٧﴾ أَوْ يُنْفِثَ إِلَيْهِ كَذْرًا أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَبْعُونَ إِلَّا أَرْجُلًا مَسْحُورًا ﴿٨﴾ [الفرقان: ٧-٨].

وقالوا خامساً: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَكِّكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ ﴿٩﴾ [الفرقان: ٢١] وقالوا سادساً: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [الفرقان: ٣٢]، وقالوا سابعاً: ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ ﴿١١﴾ إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ الْهَدْيِ لَوْلَا آتَ صَبْرُنَا عَلَيْهَا﴾ [الفرقان: ٤١-٤٢] وهكذا اتخذوا آلهتهم أهواءهم، ولم تزدهم النعم إلا كفوراً وجحوداً، وهم في الحقيقة ليسوا

إلا كالأنعام، بل هم أضل سبيلاً. فهم أولاً لم يأخذوا العبرة من التاريخ الماضي، وهو ما أصاب الأمم من قبلهم، وهذا ما تحدثت عنه الآيات ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيْرًا ۝٣٥ ﴾ [الفرقان: ٣٥]، ثم لم يأخذوا العبرة من هذا الكون، وما فيه من آثار القدرة، وما اشتمل عليه من نعم، وهو المشار إليه بقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَنَّا لَظِلًّا ۝٤٥ ﴾ [الفرقان: ٤٥].

وبعد هذه الآيات جميعاً من التاريخ ومن الكون، يصدع القرآن تثبيتاً وتسليّة للنبي الكريم ﷺ ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٥٦ ﴾ [الفرقان: ٥٦] فهو لا يسألهم من أجر وإنما أجره على الله؛ ولا يبالي بهم، فليتوكل على الحي الذي لا يموت، مسبحاً بحمده، وكفى به سبحانه خبيراً بذنوب عباده، فلن يعجزوه، كيف وقد خلق السموات والأرض وما بينهما، ولكنه الرحمن، عظيم الرحمة، مع ذلك يأبون أن يعبدوه ويسجدوا له، فتبارك الله الذي ظهرت آثار رحمته في خلقه في هذه البروج التي جعلها في السموات، والشمس والقمر المنير، من أجل هؤلاء وغيرهم، وفي الليل والنهار الذي جعله خليفة لم أراد أن يذكر أن أراد شكوراً.

والسورة الكريمة في ذلك كله، تُرَدُّ كُلُّ واحدة من هذه الشبهات، رداً بليغاً محكماً.

١ - ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ۝١ ﴾

[الفرقان: ٦].

٢ - ﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَلَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝٩ ﴾

[الفرقان: ٩].

٣ - ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ

لَكَ قُصُورًا ۝١٠ ﴾ [الفرقان: ١٠].

٤- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَبَاءُكُلُوا الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠].

٥- ﴿لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٦﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٢١-٢٢].

٦- ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الفرقان: ٣٣].

٧- ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان: ٤٣].

٨- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَيْكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾﴾ [الفرقان: ٤٥].  
﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾﴾ [الفرقان: ٥٧].

وتختتم السورة الكريمة بذكر عباد الرحمن، الذين لهم جنات الخلد كما وعد المتقون - كما جاء في أول السورة - تذكر عباد الرحمن وصفاتهم، بعد أن ذكرت أولئك الذين قالوا وما الرحمن، وترتب صفاتهم ترتيباً بديعاً، فهم الذين حُسنَت معاملتهم للناس، ويخشون الله، وزكت نفوسهم، وتفصل الآيات هذه الأمور الثلاثة - أعني خشيتهم لله، ومعاملتهم للناس، وصفاء نفوسهم - وتختتم السورة بقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبُؤُنَا بِكُرْبِيَ لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾﴾ [الفرقان: ٧٧].

ألا ترى معي بأن أجزاء هذه السورة متصل بعضها ببعض، اتصالاً وثيقاً محكماً، وأنها بحق سورة الفرقان، فاسمها عنوان يدل على موضوعها خير دلالة، كيف لا؟ أليست هي السورة، التي ذكرت هذه الشبهات الكثيرة المتعددة، وردتها جميعاً ذلك الرد التام؟ وقد يكون رد الشبهة الواحدة، متعدد الجوانب، متفرع

الأهداف، ثم تبين الفرق بين أولئك الفريقين الضال والمهتدي، بين أصحاب النار وبين أصحاب الجنة وهم خير مستقراً وأحسن مقيلاً.

تلكم سورة الفرقان، ذات الوحدة الموضوعية الكاملة، لقد كانت فرقاناً بحق، بددت شبهات الباطل، وردت كل ما يلقيه شياطين الإنس والجن، وفقت بين الفئات الخيرة، وبين الفئات الشريرة. إن السورة من أولها إلى آخرها نسق واحد، وموضوع واحد، وأن اسمها خير عنوان لها، وخير دليل عليها، ففيه براءة استهلال كما يقول علماء البديع.

### سورة الملك:

﴿بَرَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۝ (٢) الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَإِنَّهُمْ بَالِغٌ أَلْبَصَرِ ۝ (٣) ثُمَّ أُنْزِلَ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝ (٤) وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ۝ (٥) وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا فِي رَبِّهِمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ وَيُسْأَلُونَ الْمَصِيرَ ۝ (٦) إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ۝ (٧) تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝ (٨) قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ۝ (٩) وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝ (١٠) فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ فَسَوْفَ نَنُصِّرُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ۝ (١١) إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝ (١٢) وَأَسِرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝ (١٣) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ۝ (١٤) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ۝ (١٥) أَمِنْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخِفُّ بِكُمْ الْأَرْضُ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۝ (١٦) أَمْ أَنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٌ ۝ (١٧) وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۝ (١٨) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَائِدٌ وَيَقْبِضُنَّ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ۝ (١٩) أَمِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصَرُّ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ ۝ (٢٠)﴾



إِنَّ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَنْ هَذَا الَّذِي بَرَزَ قَوْمُكَ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ، بَلْ لَجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾  
 أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ  
 لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ  
 ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ  
 ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ  
 أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ  
 الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ، وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا  
 فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴿٣٠﴾ [سورة الملك].

ابتدئت هذه السورة بقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿١﴾  
 [الملك: ١] وإذا كان موضوع السورة الأولى الفرقان، وكان ذلك ما يجعلها تمتاز عن غيرها،  
 فإن موضوع هذه السورة الملك، والملك يدل على القدرة، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿١﴾.  
 وإذا أنعمت النظر في السورة الكريمة، وجدتها فيما عرضت له من آيات، لا تخرج  
 عن هذا الموضوع، موضوع الملك، والقدرة الإلهية. وإليك بيان ذلك، والله المستعان.

بعد هذا الإجمال الذي نجده في قوله تعالى: ﴿بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾  
 يأتي دور التفصيل، ومن أول هذه المظاهر، مظاهر الملك، وأدلة القدرة، قوله سبحانه:  
 ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ [الملك: ٢] والموت والحياة أمران ليسا خاصين بالإنسان، بل  
 تشترك فيهما أصناف هذا الكون، علويه وسفليه، حتى الكواكب يموت بعضها  
 ويتلاشى، ليحل محلها غيرها. نعم ذلك مما لا مجال فيه لريب. وبعد بيان هذا الأثر  
 ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَفُورُ﴾ ﴿٢﴾ تنتقل السورة إلى  
 قضية أخرى من قضايا الملك والقدرة ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ  
 الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوُّتٍ فَإِزْجَ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ﴾ ﴿٣﴾ ثُمَّ أَرْجِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ  
 خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْنُوحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ  
 عَذَابَ السَّعِيرِ ﴿٥﴾ [الملك: ٣-٥].

وبعد أن تتحدث السورة عما يتعلق بهذه الآية، أعني تزيين السماء، وجعلها رجوماً للشياطين، وماذا أعد لهم وللكافرين، وكيف سيلقون في جهنم، وماذا سيكون لهم، وماذا سيقولون، وأين أولئك من الذين يخشون ربهم بالغيب، ﴿وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ﴾ [الملك: ١٣] بعد أن يستوفي الحديث عن هذه الآية العظيمة، تنتقل السورة الكريمة إلى نمط آخر من أنماط القدرة والملك، وأرجو أن تظل معي في ذهنك، لتذوق معاً حلاوة الإبداع، ولتقبس معاً من نور النظم، ولتشرب معاً من رحيق الآيات. قلت: تنتقل السورة إلى نمط آخر من أنماط القدرة، ولكنه الآن ليس حديثاً عن تلك السموات التي أظلت الإنسان، وإنما هو الآن حديث عن هذه الأرض التي أفلته ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ. وَإِلَيْهِ أَلِشُّورُ﴾ [الملك: ١٥] ولا يغرنك إمهاله، فما دامت السموات والأرض من آثار قدرته، فكيف تأمنون عقابه ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُخْصِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ [الملك: ١٦] ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [الملك: ١٧]. وأنتم تدركون ما كان لغيركم، مما كان قبلكم من المكذبين.

وهذا نمط رابع من أنماط القدرة، غير ما تقدم من الموت والحياة، والسموات، والأرض ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفْتًا وَيَقْفِضُنَّ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾ [الملك: ١٩] فكيف يدعي بعد ذلك أن هناك ناصراً أو رازقاً غيره، ترى أياكون شأن المهتدين كالضالين ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢].

وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد بينت كل ما يحيط بهذا الإنسان من موت وحياة، وخلق السموات والأرض، وتزيين السموات، وجعل الأرض ذلولاً، ثم في تلك المخلوقات التي يرونها كالطير، إلى ما أصاب الأمم السابقة المكذبة، وهنا يأتي دور الحديث عن الإنسان نفسه، عن آثار القدرة العظيمة في تكوين هذا الإنسان ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ ۖ فَلَيْلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك: ٢٣] قُلْ هُوَ الَّذِي

ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ [المك: ٢٣-٢٤]. فانظر إلى هذا الاستيعاب والشمول من جهة، ثم انظر إلى هذا الترتيب الرائع البديع من جهة أخرى.

وتستمر السورة الكريمة، تبين آثار القدرة العظيمة، ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْحَحَ مَاؤُكُمْ غَوَا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴿٣٠﴾ [المك: ٢٨-٣٠] وتحص الماء، وهو أسهل وأيسر ما يجده الإنسان، وهو كذلك أكثر ما يحتاج إليه.

أرأيت إلى السورة الكريمة في موضوعها، وفي وحدتها، وفي اسمها الذي هو عنوان لها كذلك.

#### سورة غافر:

﴿حَمْدٌ ﴿١﴾ نَزِيلَ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ ﴿٣﴾ مَا يُجَدِّلُ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرَكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبَلَدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرِسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٦﴾ الَّذِينَ يَجْمَلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْحَجِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ينادونَ لَمَقْتُ اللَّهُ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا أَتُنَادِنَا أَلَنَتَيْنِ فَأَعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ

الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا  
 مِنْ يُنِيبٍ ﴿١٣﴾ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو  
 الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَافِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُمْ بَدْرُؤٌ لَا يُنْفَعُ عَلَى  
 اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا  
 ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمٍ  
 مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِسْمٍ وَلَا سَفِيرٍ يَطَّاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ حَآيَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ  
 يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ شَيْئًا إِنْ اللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾  
 أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً  
 وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ يُذَوِّبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاكِ ﴿٢١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ  
 تَأْيِيهِمْ رُسُلَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى  
 بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَمْعَنَ وَقَفَرُوا فَقَالُوا سَحِرٌ كَذَّابٌ  
 ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ  
 وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي  
 أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي  
 وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ  
 يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ  
 كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ  
 هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَقُولُ لَكُمْ الْمَلَكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ  
 جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ بِقَوِّ  
 إِبْرَاهِيمَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ  
 يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَقُولُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ النَّارِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تَوَلَّوْنَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ  
 عَاصِمٍ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَالَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ الْبَيِّنَاتِ فَلَا لَكُمْ فِي شَيْءٍ  
 وَمَا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ  
 مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبْرَ مَقْتًا

عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُّكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ  
يَهْنَمُنْ أَبْنِي لِي صَرَخًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ اسْتَبَدَّ السَّمَوَاتِ فَاطْلَعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي  
لَأَظُنُّهُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ  
فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنَ يَقُولُوا أَنَّبِعُونَا هِدْكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ  
﴿٣٨﴾ يَقُولُوا إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعُ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْفَكَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ  
سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْفَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ  
يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ وَيَقُولُوا مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَى  
وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا  
أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفِيرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي  
الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَبَى الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ  
لَكُمْ وَأَفْوِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَّهَ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا  
مَكَرُوا وَحَاقَ بِبَنِي فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ تَعْرُضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ  
السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذْ يَتَحَابُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ  
لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾  
قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي  
النَّارِ لِيُخْرِجَنَّهُ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ  
رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا  
لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ  
مَعْدَرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ  
الْكِتَابَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرًا لِأُولَى الْأَلْبَابِ ﴿٥٤﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ  
لِذُنُوبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ  
اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَنَّهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِيغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ  
هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ  
أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا

الْمَصْلِحَتِ وَلَا الْمُسَوِّءِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّبَةٌ لَّارْيَبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الَّتِيلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالتَّهَارَ مَبْصُرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا إِلَهًا إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾ قُلْ إِنِّي نَهَيْتُ أَنْ أُعْبَدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَ فِي الْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِيَكَوْنُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَن يُؤْفَى مِنْ قَبْلِ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَجْعَلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصَرَّفُونَ ﴿٦٩﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذْ الْأَغْلُلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَنَّى مَا كُنْتُمْ تُشْكِرُونَ ﴿٧٣﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَلِكَمُ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَنُورَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَأَصْرِإْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَكَيْمًا تَرِيدُنَّ بَعْضَ الَّذِي يَعْدُهُمْ أَوْ تَتَوَفَّيْنَكُ فَإِنَّا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَيْرَ هُنَالِكَ الْبَاطِلُونَ ﴿٧٨﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَرَبِّكُمْ ءَايَتُهُ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُشْكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ

فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَافَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ۖ وَخَسِرَ هُنَاكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴿سورة غافر﴾.

وإليك سورة ثالثة، وهي سورة المؤمن، وتسمى سورة غافر. هذه السورة الكريمة جاءت عقب سورة الزمر، التي ختمت بذكر المتقين، الذين حمدوا الله أن أورثهم الأرض يتوَّعون من الجنة حيث يشاؤون، وبقوله سبحانه: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِيَةً مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٧٥﴾. بدئت السورة الكريمة بقوله سبحانه: ﴿حَمْدٌ ﴿١﴾ نَزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّلَوِّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾﴾ [غافر: ١-٣]. وبعد هذه الصفات الكريمة العظيمة، لله الكريم العظيم، التي تدل على عظيم آياته، وباهر قدرته، فهو العزيز العليم، وإذا كان غافر الذنب، وقابل التوب، فمعنى ذلك أن هناك أناساً يذنبون ويتوبون، وإذا كان شديد العقاب، فمعنى هذا أن هناك أناساً يستحقون هذا العقاب.

بعد هذه المقدمات تنتقل السورة الكريمة، إلى موضوعها الذي مهدت له هذه المقدمات ﴿مَا يُجَدِّلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْزُرُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبَلَدِ﴾ ﴿٤﴾ [غافر: ٤]. إن الحق أبلج واضح، ظاهر بَيِّن. ولكن أناساً زُيِّن لهم الباطل، فأبت أنفسهم أن تنصاع لهذا الحق، وغرهم ما هم فيه من سعة في الرزق، أو رفعة في المنصب، أو كثرة في العشرة. وهؤلاء موزعون على الأزمنة والأمكنة جميعاً، فليس أولئك الذين تدعوهم أيها النبي هم الذين يجادلون في الحق وحدهم؛ وإنما قبل هؤلاء أُمم كثيرة، ابتداءً من قوم نوح، وهو أول نبي أرسل للناس، والأحزاب من بعدهم من أقوام الأنبياء ﷺ، أولئك جميعاً جادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق، ﴿فَأَخَذْتُمُوكَ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ ﴿٥﴾ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٦﴾﴾ [غافر: ٥-٦].

ثم عرضت الآية بعد ذلك للفئة الخيرة، أولئك الذين آمنوا ورضي الله عنهم، فحملة العرش من الملائكة، المسبحون بحمد ربهم، والمؤمنون به، يستغفرون لهم، وتبين لنا الآيات هذا الدعاء الجامع الخير الذي يدعو به الملائكة للمؤمنين، ولكن ليس لهم فحسب، وإنما لأبائهم وأزواجهم وذرياتهم كذلك. وتحدثنا السورة عن أولئك وعما سيلقون في «يوم الآزفة» ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمٍ﴾ [غافر: ١٨]، ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨] ﴿ذَلِكَ هُوَ يَوْمُ التَّلَاقِ﴾ [غافر: ١٨] ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

وبعد إنذارهم بهذا اليوم بين سبحانه آثار عزته وعلمه، فإذا كان من آثار هذه العزة أن الملك له وحده، فإن من آثار هذا العلم أنه ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩-٢٠]. ولم يغفل أولئك المشركين الذين يسرون في الأرض، لينظروا عاقبة الأمم من قبلهم؟ وقد كانوا أكثر منهم قوة، فلم يغني عنهم ذلك شيئاً؟ هؤلاء الذين أتتهم رسلهم بالبينات، ولكنهم كفروا وأعرضوا، فأخذهم الله القوي، الشديد العقاب. وذكرت الآيات أمة من هذه الأمم، وهم الذين أرسل إليهم موسى عليه السلام ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [غافر: ٢٣] ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰؤُلَاءِ وَقَرَّبُوا فَقَالُوا سِحْرٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٣-٢٤] ولكنهم وقد جاءتهم الآيات بينات جادلوا في الحق، فقال فرعون: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦] وقال موسى عليه السلام: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ٢٧].

ثم تتفرد السورة الكريمة بقصة هذا الرجل المؤمن من آل فرعون الذي يكتُم إيمانه، وتحدثنا عن ذلك الجدل القوي، الذي كان بينه وبين قومه، بأسلوب أخاذ، ثري بإيقاظ العواطف والمشاعر، وبالإيقاع الجميل المنعش، ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ



عَالٍ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ ﴿٢٨﴾ يَقَوْمُ لَكُمْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا ﴿٢٩﴾ [غافر: ٢٧-٢٨]. ولكن فرعون يستمر في جدله وخصومته ﴿٣٠﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣١﴾ وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقَوْمُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٢﴾ مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظَلَمًا لِلْعِبَادِ ﴿٣٣﴾ وَيَقَوْمُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ تُؤَلَوُنَ مَدِيرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٥﴾ [غافر: ٢٩-٣٣] ولكن ذلك لا يجدي، فمن سنن الله أنه يضل كل مسرف مرتاب ﴿٣٦﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ ﴿٣٧﴾ [غافر: ٣٥]. ويستمر الرجل المؤمن في نصيح قومه قائلاً: ﴿٣٨﴾ يَقَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٩﴾ [غافر: ٣٨] ﴿٤٠﴾ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَى وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ [غافر: ٤١] ويستمر بخطابه لهم ﴿٤٢﴾ فَسَتَذَكَّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفُوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٣﴾ [غافر: ٤٤].

وبعد أن يبين القرآن ما حل بفرعون وآله تقول الآيات ﴿٤٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَاهُمْ بِبَلِيغِيهِ فَاَسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٤٥﴾ [غافر: ٥٦]، وبعد أن بينت آيات من التاريخ، ومن أخبار الأمم، تذكر آيات كونية تحيط بهذا الإنسان، ﴿٤٦﴾ لَخَلْقُ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴿٤٧﴾ [غافر: ٥٧]، ﴿٤٨﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْبِيَاءَ لَتَسْكُنُوا فِيهِ وَالتَّهَارُ مُبْصِرًا ﴿٤٩﴾ [غافر: ٦١]، ﴿٥٠﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ ﴿٥١﴾ [غافر: ٦٤]، ﴿٥٢﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ﴿٥٣﴾ [غافر: ٦٧]. وكان حرياً بهم أن يؤمنوا بهذه الآيات الكونية التي لا يستطيع أن ينكرها أحد، ولكن الذي لا يتأثر من التاريخ، ومن أخبار الأمم، لا يتأثر بما حوله من

الكون كذلك، ولذا نقرأ بعد ذلك قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّهُمْ يُصِرُّونَ﴾ ﴿٦٩﴾ [غافر: ٦٩].

وبعد أن تحدثنا الآيات عما يحل بأولئك، تبين للرسول ﷺ أن هذا شأن أهل الباطل، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقُصِّصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨] ولكن سنة الله لا تتخلف بإهلاك المبطلين.

ثم تبين السورة الكريمة نعماً كان حرياً بهم أن يشكروها ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لَتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَى الْفُكَّانِ تَحْمِلُونَّ﴾ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرُ مِنْهُمْ وَأَشَدُّ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ ﴿٨٢﴾ [غافر: ٧٩-٨٢]. وتبين السورة الكريمة آخر ما تبين، أن أولئك كان الدافع لهم لهذا الجدل، أنهم فرحوا بما عندهم من العلم، ولكن ذلك لن يغني عنهم شيئاً حينما يأتي بأس الله، وتلك سنته سبحانه التي قد خلت في عبادته، وخسر هنالك الكافرون.

أنعم النظر في السورة الكريمة، وحبذا أن تتلوها من المصحف، لترى كيف جاء نسقها نسقاً تاماً، وكيف أنها جاءت تبين آثار العزة والعلم، اللذين بدت السورة بهما، وكيف أنها بنيت على الرد على أولئك الذين يجادلون في الحق، وانظر إلى كلمة الجدال، كم ذكرت؟ وأين ذكرت؟ وستجد أنها مع كثرة ذكرها، فإنها ذكرت في كل مرة حيث يجب أن تذكر.

هذه سورة غافر، أو سورة المؤمن، غافر الذنب وقابل التوب، لأولئك المؤمنين، وشديد العقاب لهؤلاء المجادلين، ألا ترى أنك يمكن أن تجعل موضوع السورة -إذن- موضوعاً واحداً، ينتظم أولئك المجادلين على اختلاف فئاتهم وأعصارهم؟

ألست معي بعد ذلك أن لكل سورة موضوعها وشخصيتها؟ وكنت أود أن أزيدك الحديث، فأظنه يروقك ويحلو لك، ولكنني مع ذلك لا أريد أن أطيل عليك، وأعدك في آخر هذا الباب إن شاء الله أن أقف معك أمام سورة أو سورتين، في تحليل فني يجمع بين الموضوعية والبيان.

والسور التي اخترتها لك مكية، ولا شك أن الترتيب فيها أقل ظهوراً منه في السور المدنية، بل هو أكثر خفاءً وأحوج ما يكون إلى التفكير والاستنباط؛ ذلك لأن السور المدنية، جاءت تعالج قضايا الأحكام، ذات الشأن في المجتمع المسلم، ولذا فالترتيب فيها أيسر، وأكثر ظهوراً، وقد لا يحتاج إلى كثير فكر، ومع ذلك فسأختار لك سورة مدنية، ليست بالطويلة ولا بالقصيرة، تلك هي سورة الأحزاب.

### سورة الأحزاب:

﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ (١) وَأَتَّبِعْ مَا يوحىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝ (٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ۝ (٣) مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ۝ (٤) ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ، وَلَٰكِنْ مَّا نَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۝ (٥) النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۚ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ۝ (٦) وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ۝ (٧) لَيْسَ لِلْأَصْدِيقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ۝ (٨) يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا

وَحُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ لَوَاحُ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَلَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَلَإِذْ قَالَتِ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَأْتِهَا لَبَنٌ مَحْلُوفٌ فَارْجِعُوا وَاسْتَعِذْ فَرِيقٌ مِنْهُمْ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْنَهَا وَمَا تَلَبَّسُوا بِهَا إِلَّا بَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلَّفُوكَ إِلَّا ذَنْبًا وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾ قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُنْعَمُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِيكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَحِثُّونَ هَلُمْ مِنْ ذُوبِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمَعْصِفِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمْ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَقْرَبُونَكَ تَدْرِأَعَيْنُهُمْ كَالَّذِي يُفْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَفُوكُمْ بِالْأَيْسَةِ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُوتُ فِي الْأَعْرَابِ يَسْتُلُوكَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَجْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَلُوا بَدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَيْطِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَاتَبَ اللَّهُ فُؤَادَ عَزِيزٍ ﴿٢٥﴾ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَافِيهِمْ وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطْشُوهَا وَكَاتَبَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأُزْجِيَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيُزِيحُهَا

فَنَعَا لَيْتَ أُمِتْغَكُنَّ وَأُسْرِخَكُنَّ سَرَحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَلَئِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ  
الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنِينَ مِنْكُمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يٰٓيَسَاۤءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ  
بِفَحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۖ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾  
وَمَن يَفْعَلْ مِنكُم مِّنْهُ يَضَعْهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَتَعْمَلْ مَدْلِحًا تُؤْتِيهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا  
﴿٣١﴾ يٰٓيَسَاۤءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ ۚ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي  
قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ  
وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ  
عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَأَذْكُرْ مَا يَتْلَىٰ فِي  
بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ  
وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنِينَ وَالْقَنِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ  
وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ  
وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ  
كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ ۚ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ وَمَا كَانَ لِلْمُؤْمِنِ وَلَا الْمُؤْمِنَةِ  
إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ  
ضَلَالًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ  
وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفَىٰ فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتُخْفَىٰ النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَهُ ۗ فَلَمَّا قَضَىٰ  
رَبُّهُ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكُنَّ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا  
مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ  
فِي الَّذِينَ خَلَقُوا مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ  
وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن  
رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ  
ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ  
الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ

أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٦﴾ يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٧﴾ وَدَاعِبًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ  
وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٨﴾ وَيَشِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ  
وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذُنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٥٠﴾ يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا  
نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعُدُّونَهَا  
فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَخُوهُنَّ سِرَاحًا جَمِيلًا ﴿٥١﴾ يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ إِنَّا أَهْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ءَاتَيْتَ  
أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عِمَّكَ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ  
خَالَكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ  
النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنِكَحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي  
أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا  
رَحِيمًا ﴿٥٢﴾ تَرْجِي مَنْ نَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتَقْوِي إِلَيْكَ مَنْ نَشَاءُ وَمِنْ أَبْغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا  
جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقْرَأَ عَنِتُّهُنَّ وَلَا يُخْرَجَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا ءَانَيْتُهُنَّ كُلُّهُنَّ  
وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥٣﴾ لَا يَحِلُّ لَكَ الْإِنْسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ  
تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا  
﴿٥٤﴾ يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرِ نَظِيرٍ  
إِنَّهُ وَلَكِنَّ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَقْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكَ  
كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَعِجِ مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَعِجِ مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا  
فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا  
رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٥﴾  
إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ تَخَفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَتْ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٦﴾ لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي ءَابَائِهِنَّ وَلَا  
أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ  
أَيْمَانُهُنَّ وَأَنْفِقِينَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ  
عَلَى النَّبِيِّ يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ  
وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ

الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بغيرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٨٨﴾ يَتَأْتِيهَا  
النَّبِيُّ قُلْ لَأُزَوِّجَكُم بِغَيْرِ مَالِكٍ وَالْمُؤْمِنِينَ بِذُنُوبِهِمْ عَلَىٰ مَنْ جَلَبِيْبُهُمْ ذَلِكَ أَذَقَهُ أَنْ يَعْرِفَنَ  
فَلَا يُؤْذِنُهُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٨٩﴾ \* لَئِنْ لَمْ يَنْهَ الْمُؤْمِنُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ  
مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٩٠﴾  
مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا تَقْتِيلًا ﴿٩١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ  
قَبْلُ وَلَنْ يَجْدِلَ سُنَّةَ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٩٢﴾ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا  
بُذْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٩٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا  
أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٩٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ  
وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ﴿٩٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَصْلَحْنَا السَّبِيلَ ﴿٩٧﴾ رَبَّنَا آتِنَا  
ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَتُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٩٨﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَاذُوا مُوسَى  
فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً ﴿٩٩﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا  
﴿١٠٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا  
﴿١٠١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا  
وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿١٠٢﴾ لَيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ  
وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا  
رَحِيمًا ﴿١٠٣﴾ ﴿سورة الاحزاب﴾.

وهذا هو اسمها الذي سميت به، بدأت السورة بقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ اتَّقِ  
اللَّهَ وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَأَتَمِّعْ مَا يُوْحِي إِلَيْكَ  
مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾﴾  
[الاحزاب: ١-٣] ونفهم من اسم السورة ومن مقدمتها، أنها جاءت تعالج بعض  
الشؤون، ذات الصلة بالكافرين والمنافقين معاً، وهذا ما سنجده في نظم السورة  
الكريمة، والكافرون والمنافقون كانت له معارك مع الإسلام والمسلمين ولا زالت،

إلا أن معارك الكافرين كان يغلب عليها الطابع العسكري، ومعارك المنافقين كان يغلب عليها الطابع الفكري والاجتماعي، وهذا ما نجده في السورة الكريمة.

مهدت السورة الكريمة لقضية اجتماعية أراد أعداء الإسلام أن يجدوا فيها مغمراً ومطعناً، وهي قضية التبني، الذي كانت له أحكامه في الجاهلية، فذكرت السورة الكريمة مقدمة وتوطئة لهذه القضية ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ، وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ الَّتِي تُمْسِكُهُنَّ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ كُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ١﴾ أَدْعَوْهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَنُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ٢﴾ [الأحزاب: ٤-٥]. وبعد هذا التقرير تحدثت السورة عن منزلة النبي ﷺ بين المؤمنين، ومنزلة أزواجه كذلك، كما عرضت لقضية التوارث التي كانت معروفة في الجاهلية، وفي أول الهجرة ﴿الَّتِي أُولَى بِالمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ٦﴾ [الأحزاب: ٦].

ومهدت بعد ذلك لأخذ الميثاق من النبيين أولي العزم ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ٧﴾ [الأحزاب: ٧]، ثم انتقلت السورة إلى الحديث عن قضية من القضايا العسكرية والسياسية معاً، تلكم هي غزوة الأحزاب، وما نظن أن هناك غزوة من الغزوات اشترك فيها عنصر الكفر، سواء كان هذا الكفر وثنيّاً أم كتابياً، أقول: ليس هنا غزوة اشتركت فيها هذه العناصر جميعاً كغزوة الأحزاب. تحدثت السورة الكريمة حديثاً مستفيضاً عن غزوة الأحزاب، وعن موقف المنافقين الذين قالوا: ﴿مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ١٢﴾ [الأحزاب: ١٢] إلى غير ذلك من أقوالهم الشنيعة، ووصف دقيق لأحوالهم، وما يتصفون به من جبن وشح، وقارنت بينهم وبين المؤمنين الذين قالوا: ﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ٢٢﴾ [الأحزاب: ٢٢].



ولما انتهى الحديث عن غزوة الأحزاب، بنصر الله للمؤمنين، انتقلت السورة إلى قضية أخرى، قضية ذات صلة خاصة بالنبي ﷺ، حاول مرضى القلوب أن يستغلوها ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ قُلُوبٌ لَّا رَوْحَ لَهَا إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْكُمْ أُمْتِعْكُمْ وَأَسْرِخُمْ سَرَاحًا جَمِيلًا ٢٨﴾ وَلَئِنْ كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَالذَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنِينَ مِنْكُمْ أَجْرًا عَظِيمًا ٢٩ ﴿[الأحزاب: ٢٨-٢٩].

وأمرت الآيات الكريمة، أزواج النبي ﷺ - رضي الله عليهن - أن يتصفن بما يليق بهن من صفات الخير، وما هي الصفات التي ينبغي أن تتوفر للمسلمين والمسلمات، وأنه لا ينبغي لمؤمن ولا مؤمنة ﴿إِذَا قُضِيَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ أَمْرٌ أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخَبَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وتحدثت الآيات عن قضية زيد بن حارثة ؓ وزواج النبي ﷺ من زينب ؓ وهي التي مهد لها في أول السورة الكريمة - كما قلنا من قبل - واستمرت الآيات تتحدث عن هذه الشؤون الخاصة بالنبي ﷺ وأزواجه، وماذا يجب على المؤمنين في هذا المضمار، وختم هذا السياق بهذه الآيات الكريمة ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ٥٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ٥٧ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيًا مَا أَكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ٥٨ يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ قُلُوبٌ لَّا رَوْحَ لَهَا وَنَزَّاجٌ وَنَزَّاجٌ وَنَزَّاجٌ يَدْنِيكَ عَلَيْهِنَ مِنْ جَلْبِيبٍ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفَ فَلَا يُؤْذِينَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ٥٩﴾ [الأحزاب: ٥٦-٥٩].

وبعد انتهاء هذا السياق، حذرت السورة الكريمة المنافقين والذين في قلوبهم مرض، والمرجفين في المدينة، بأنهم إن لم يقلعوا عن أذاهم، وإن لم ينتهوا عن إرجافهم، فستكون النهاية التي لا مجال فيها لرحمة أو أمل، ﴿لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ٦٠﴾ [الأحزاب: ٦٠]. وبينت ما أعد الله لهم في الآخرة، وبأن مما سبب لهم هذه العقوبة، رضاهم بالضعف، ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا

فَأَضَلُّنَا السَّبِيلَ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا إِنَّهُمْ ضَعُفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَتِ لَعَنَّا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ [الأحزاب: ٦٧-٦٨]، ثم حذرت المؤمنين من أن يكونوا كبنِي إِسْرَائِيلَ الذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً، وأمرتهم أن يتقوا الله وأن يقولوا قولاً سديداً. ثم ختمت بيان شأن الأمانة. والأمانة تشمل عناصر هذا الدين، وبخاصة ما جاء في هذه السورة الكريمة ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ ﴿٦٩﴾ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾ [الأحزاب: ٧٢-٧٣]. تلك هي سورة الأحزاب، عنوانها يدل عليها، ثم مقدمتها كذلك، وهكذا ندرك أن هناك وحدة موضوعية في هذه السورة، فلقد جاءت تعالج شأن المنافقين والكافرين، في معاركهم العسكرية والاجتماعية معاً، وختمت بتحذير المؤمنين، وبأمرهم بتقوى الله، وبالقول السديد، وبالحديث عن عظم الأمانة.

يقول الدكتور محمد محمد أبو موسى عند تفسيره لسورة الأحزاب: «ويحاول بعض الباحثين أن يحدد لكل سورة من سور الذكر الحكيم موضوعاً عاماً تدور حوله آياتها، ثم بعد ذلك يجتهد في بيان مناسبات الآيات بعضها لبعض في ضوء هذا الغرض العام، وقد يهدي البحث في هذا إلى ما تطمئن إليه القلوب، وقد يكون غير ذلك، والقول في هذا الباب نذر يسير، وذلك لصعوبة خوضه ودقة مسلكه ويسمى علم هذه الدراسة علم المناسبة، وهو من أجل علوم القرآن.

ومن هؤلاء العلامة الشيخ محمد بن علي بن محمد المعروف بالتهانوي، وهو من علماء المسلمين في الهند، وقد قال في تحديد موضوع سورة الأحزاب: «في جميع هذه السورة ذب عن رسول الله ﷺ، فما أودى به من أنواع الإيذاء، قتال الأحزاب له، ومعاونة المنافقين لهم، وطعن المنافقين في نكاحه ﷺ بزَيْنَبَ ٱلْحَكِيمَةَ، وطلب الأزواج الزيادة في الإنفاق، واشتغال بعض المسلمين بالأحاديث في بيته ﷺ، ونحو

ذلك مما تأذى به النبي ﷺ، فهذا القدر هو المقصود الأصلي من السورة، وما سوى ذلك فهو إما توطئة لبعض ما هو المقصود، وإما مكمل له، يظهر كل من التأمل في النظم الكريم<sup>(١)</sup>. انتهى كلامه ﷺ.

ويقول الأستاذ محمد بن كمال المعروف بابن شهيد ميسلون في محاولة له في هذا الباب: «وهي -أي سورة الأحزاب- من السور التي تباعدت أغراضها، ولكن المتأمل يظهر له التناسق في هذه السورة بأنها صورة عما يعرض لحياة مؤمن متعبد، وعلى رأسها حياة الرسول الأعظم، فكان ذلك رباط معانيها وموضوع وحدتها».

ومعذرة إن لم أقف بك على روعة النظم في آيات السورة الكريمة، وفيما قبلها، فذاك أمر مع جلالة قدره، لكنه يطول بنا بيانه، وغرضنا الآن أن نتحدث عن نظم السورة الواحدة، وكيف أنها ينتظمها موضوع واحد، يشملها من أولها حتى آخرها.

---

(١) من أسرار التعبير القرآني، د. محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، ط ٢، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

## الفصل التاسع

### بين السورة والسورة

إذا كان ترتيب السور توقيفياً -وهذا هو الأرجح- فإن من شأن هذا، أن يبحث العلائق والصلات بين السورة وأختها، وإذا كان ترتيب الآيات في السورة الواحدة من مظاهر الإعجاز -كما يقول كثير من الأئمة، وكما أقمنا لك عليه الدليل فيما مضى- فإن من المسلّمات، أن يكون ذلك في ترتيب السور بعضها مع بعض. وإذا كان ترتيب الآيات في السورة الواحدة، بحاجة إلى تدبر، وحذق، واستنباط؛ فإن ذلك في ترتيب السور أكثر لزوماً وأدعى للتدبر.

ولقد عنى بعض المفسرين في بيان الصلات بين السور القرآنية، ولما كانت تلك أمورٌ اجتهادية، وجدنا ذلك يختلف بين مفسر وآخر، وربما يوفق المفسر الواحد، لاستنباط هذه الصلة في موضع أكثر من موضع آخر، وهذا العلم سموه «علم المناسبة» وسأضرب لك بعض الأمثلة مما أكرمني الله باستنتاجه، ثم أمثل لك بشيء مما ذكره الأئمة رحمهم الله.

#### ١- بين سورتي النور والفرقان:

ولأختر لك أولاً سورتين، إحداهما مدنية والأخرى مكية؛ لأن استخراج المناسبة بينهما أعسر، من كونها مكيتين، أو مدنيتين، وهما سورة النور وسورة الفرقان، والأولى مدنية بإجماع، والثانية مكية كذلك.

والذي يقرأ السورتين يظن لأول وهلة، أن لا صلة بينهما ألبتة، وأن لا رابط بينهما، إلا أن كلاً منهما قرآنٌ يتلى، ولكنك حينما تنعم النظر في السورتين الكريمتين،

وترجع البصر كرتين، ينكشف اللثام، وتتفتق الأكمام، عن ثمر شهي، وأريج زكيّ، ولتقطف هذا الثمر بيدك، ولتشم هذا الأريج أنت.

أظنك تعرف موضوع سورة النور، وهي السورة التي أمرنا أن نعلمها نساءنا وبناتنا، فهي السورة التي ذكرت فيها فرية الإفك، وبرئت فيها أم المؤمنين السيدة عائشة، الصديقة بنت الصديق رضي الله عنها. سورة النور -إذن- هي السورة التي جاءت ترد تلك الشبهات التي أُثِّرت حول إحدى أزواج النبي ﷺ، والتي كانت إثارتها إيذاء له ﷺ. أما سورة الفرقان، فلقد حدثتك عن موضوعها من قبل، وهي السورة التي جاءت تكرر على شبهات المعرضين عن الحق، لتردها واحدة واحدة، وأظنك بدأت الآن تدرك هذه الصلة القوية، والمناسبة المحكمة بين السورتين الكريمتين. كلتا السورتين ترد شبهة، وتقيم حجة، وتبدد باطلاً، إلا أن سورة النور كان ما ردته من الشبهات، يتصل بالنبي الكريم ﷺ، من حيث أهله وبيته وهي ما أثاره المنافقون، أما سورة الفرقان فكان ما ردته من الشبهات يتصل بالنبي الكريم من حيث دعوته ورسالته وكتابه، وهو ما أثاره الكافرون.

## ٢- بين سورتي التحريم والملك:

وإليك مثلاً آخر، ولأختره كذلك، من سورتين مختلفتين نزولاً، ولتكونا سورتي التحريم والملك، ذلك لأنني حدثتك من قبل عن سورة الملك مع سورة الفرقان، فليكن الحديث متصلاً عنهما هنا كذلك.

سورة الملك مكية -كما علمت- أما سورة التحريم فهي مدنية، ولقد علمت من قبل أن سورة الملك كان موضوعها قدرة الله تبارك وتعالى، وكان حديثها عن آثار القدرة الإلهية، فارجع إلى ذلك إن شئت. فماذا كان موضوع سورة التحريم يا ترى؟ أود أن أرجع بك إلى السورة السابقة لسورة لتحريم، وهي سورة الطلاق، ولا شك أن كلتا السورتين -أعني الطلاق والتحريم- تحدثتا عما يخص النساء، فسورة الطلاق بُنيت من أولها إلى آخرها على ذلك، بل إن اسمها يدل عليها، فلقد سميت

سورة النساء القصوى تمييزاً لها عن سورة النساء. وكذلك سورة التحريم بُنيت على هذا من أولها إلى آخرها ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾ [التحريم: ١] وفي آخر السورة يضرب الله مثلين أحدهما للذين كفروا بامرأة نوح وامرأة لوط، والآخر للذين آمنوا بامرأة فرعون ومريم. هذا من حيث الصلة بين السورتين.

ولكن بقي أمر آخر، ذلك أن سورة الطلاق ختمت بهذه الآية الكريمة: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢] فلقد ذكرت صفتين لله تعالى: العلم والقدرة، ولما كان العلم أسبق من القدرة من حيث المتعلق؛ لأن الله يعلم الأشياء قبل أن يوجد لها، شاء الله أن تكون السورتان التاليتان لهذه السورة - أعني سورة الطلاق - تختص كل منهما ببيان أثر صفة من هاتين الصفتين، فجاءت سورة التحريم تبين لنا إحاطة علمه تبارك وتعالى بكل شيء، وسورة الملك تبين لنا آثار قدرته، أما سورة الملك فلقد حُدِّثَتْ عنها، وأما سورة التحريم فيكفي أن تقرأ هذه الآية: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ عَفْوٌ رَحِيمٌ﴾ ① قد فرض الله لكم نحلةَ آتَمَنِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ② وَإِذَا أَسَرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ. وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَاكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ③ [التحريم: ١-٣].

وهكذا نجد أن السورة الكريمة قامت على هذا الأساس، وهو بيان علمه تبارك وتعالى.

### ٣- بين سورتي الحديد والمجادلة:

وإليك مثلاً آخر، ولكن الآن بين سورتين مدينتين، ولتكونا سورتي الحديد والمجادلة. ففي سورة الحديد بين فيها عِظَمَ ملكه تبارك وتعالى، ثم انتقلت السورة بعد مشهد من مشاهد يوم القيامة، لحث المؤمنين على الخشوع، وقد ذكرت المؤمنين

والمنافقين وما يحدث لهم، ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَتْكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَانَكُمْ وَيُسْ أَلْمَصِيرُ﴾ (١٥) ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَنَسِقُونَ﴾ (١٦) [الحديد: ١٥-١٦]، ثم ذكرت في آخرها اتباع عيسى ابن مريم عليه السلام وما ابتدعوه من الرهبانية.

وجاءت سورة المجادلة بعد ذلك، تبدأ بحكم من أحكام الزوجية ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ [المجادلة: ١-٣]، ثم فصلت في الحديث عن المنافقين وغيرهم، فأنت تجد أن الصلة بين السورتين ذات إحكام ظاهر، فإذا كانت سورة الحديد تحدثت عن الرهبانية، فقد جاءت سورة المجادلة تتحدث عن أحكام الزوجية، ثم جاءت بعد ذلك تفصل ما أجمل في سابقتها.

#### ٤- بين سورتي النبا والنازعات:

وإليك مثالا آخر، ولكنه هذه المرة بين سورتين مكيتين، خذ سورة النبا والنازعات، وستجد أن كلتا السورتين جاءت تتحدث عن البعث، ولكنك حينما تنعم النظر، ستجد أن الترتيب بينهما عجيب، حيث فصلت كل منهما ما أجملته الأخرى، فلقد فصلت سورة النبا في الأدلة المقامة على البعث، كما فصلت الحديث عن ذلك اليوم، ولكنها أجملت ما سيصيب الناس من آثار ﴿عَمَّ يَسَاءَ لَوْ﴾ (١) ﴿عَنِ النَّبِإِ الْعَظِيمِ﴾ (٢) ﴿الَّذِي هُوَ بِهِ مُخْلِقُونَ﴾ (٣) ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ (٤) ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ (٥) [النبأ: ١-٥]. ولكن الإجمال في الأدلة ﴿أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا﴾ (٦) ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ (٧) [النبأ: ٦-٧]، إلى قوله سبحانه: ﴿وَجَنَّتِ أَلْفَاقًا﴾ (٨) [النبأ: ١٦]، ثم تحدثت عن طبيعة اليوم ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾ (٩) ﴿يَوْمَ يُفْعُخُ فِي الصُّورِ فَنَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ (١٠) ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ (١١) ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ (١٢) [النبأ: ١٧-٢٠]، ثم بينت ما سيكون لكل فريق من

الفريقين ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ (٦) لِلطَّغْيَيْنِ مَتَابًا ﴿٢٢﴾ [النبا: ٢١-٢٢] إلى قوله سبحانه: ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ (٣٠) ﴿[النبا: ٣٠]، ثم بينت ما أعد للمتقين: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ (٣١) ﴿[النبا: ٣١].

أما سورة النازعات فلقد أجملت ذلك كله، إلا أنها فصلت بعض الأمور ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾ (٦) تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ [النازعات: ٦-٧]، كما ذكرت ما أصاب المعرضين من قبل ﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ (١٥) ﴿[النازعات: ١٥]. أما جزاء الطاغين فلقد كان مجملًا ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى﴾ (٣٧) ﴿وَأَتَى الْحَبْوَةَ الدُّنْيَا﴾ (٣٨) ﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ (٣٩) ﴿[النازعات: ٣٧-٣٩]، وكذلك جزاء المتقين ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ (٤٠) ﴿[النازعات: ٤٠]. وأظنك حينما تتأمل السورتين جيدًا، وأنت تتلوها من كتاب الله، ستكون الصورة أكثر وضوحًا في نفسك.

#### ٥- سورتا الضحى والشرح وما بعدهما :

ولتأخذ هذه السور الكريمة، سورة الضحى والشرح، فلقد كانت كلتا السورتين تتحدث عما أنعم الله به على سيدنا رسول الله ﷺ، إلا أن النعم التي ذكرت في سورة الضحى، أساس لما ذكرت في سورة الشرح، ففي سورة الضحى بعد أن من الله على نبيه بأنه ما ودّعه وما قلاه، والتوديع الترك، والقليل البغض ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ (٤) ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ (٥) ﴿[الضحى: ٤-٥]. امتن الله عليه بقوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَخَاشٍ﴾ (٦) ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ (٧) ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ (٨) ﴿[الضحى: ٦-٨]، وهذه النعم لا بد أن تُشكر ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ (١) ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ (١٠) ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (١١) ﴿[الضحى: ٩-١١].

وبعدها في سورة الشرح، أنعم الله عليه بشرح الصدر، ووضع الوزر، ورفع الذكر، وهذه بالطبع إنما هي ناتجة عن النعم التي قبلها، وهي الإيواء، والهداية،



والإغناء، وجاءت بعدها سورة التين، فكانت نعماً ذكرت فيها نعمة الله على هذا الإنسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم، وبخاصة هذا المؤمن ﴿ثُمَّ رَدَدْتُهُ أَشْفَلَ سَفِيلِينَ﴾ (٥) إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ [التين: ٥-٦]، وبعدها جاءت سورة العلق، ذكرت فيها نعم الله على هذا الإنسان من الخلق، خلقه من علق، وتعليمه بالقلم، وتعليمه ما لم يعلم. ثم جاءت سورة القدر بعد سورة اقرأ، لتبين أن الذي أمر النبي ﷺ بقراءته، أنزل في ليلة القدر.

وأنا لا أود في هذا الفصل أن أذكر لك الكتاب الكريم كله، وإنما أكتفي بالمثل - كما رأيت في الفصل السابق - وأظنك - إن تأملت - فيما مكانك أن تستنتج كثيراً من الصلات بين السور القرآنية. وسأنقل لك شيئاً مما قاله المفسرون تبين منه أن أمر المناسبة أمر توفيقى اجتهادى، يقول الشيخ طنطاوي جوهرى عن صلة آل عمران بالبقرة: «اعلم أن هذه السورة كالمتمة لسورة البقرة، ألا ترى أن لفظ البقرة، يدل على بقرة بني إسرائيل التي ذُبِحت لإظهار القتيل، وأن القصة التي تخللت السورة هي قصة بني إسرائيل، وقد قدمت لك في البقرة، أنها مرتبة ترتيباً تاريخياً على حسب العصور، فترى أن أول البقرة اشتملت على قصة بني إسرائيل لما كانوا في مصر، ثم الخروج منها، ثم ذكر أزمان حكم الشيوخ السبعين، ثم جاء في أواخر السورة فذكر ملكهم بعد أن كانت حكومتهم شورية، فملك الله عليهم طالوت، ثم داود وسليمان، واستفحل ملكهم كما أوضحته هناك. وليس بعد هذا التاريخ إلا خروج عيسى ابن مريم، فجاءت سورة آل عمران التي تلي قصة بني إسرائيل السابقة، فانظر كيف كان لفظ البقرة دالاً على قصة بني إسرائيل، كما أن آل عمران رمزاً إلى قصة مريم وزكريا ويحيى وعيسى. ثم إن أول البقرة وآخرها مشابهاً لأول آل عمران وآخرها، فابتداء البقرة بالإيمان والغيب، وذكر الكتب السماوية، وهكذا افتتاح آل عمران. وختم البقرة بأن النبي ومن معه قد آمنوا بالله وجميع الكتب السماوية، وختم آل عمران بمدح التفكير في خلق السموات والأرض، وأن هؤلاء

المفكرين يقولون: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾ [آل عمران: ١٩٣]، فهنا قالوا: آمنا، وفي البقرة قالوا: آمنا.

ويقول الشيخ عن صلة سورة النساء بآل عمران: «ولما كان ما ورد في آل عمران من أحوال الإسلام، لا يعدو في مجموعه جهاد الأعداء، ودفعهم عن الأوطان، والذب عن حياض الدولة وحراسة الملة، ناسب أن يؤتى عقبها بما يصون البلاد في داخلها، من القوانين المسنونة لصيانة الأموال والأعراض، ونظام الأسرات، من قسم التركات وحفظ الزوجات وتبيان المحرمات، وحفظ الأنفس من القتل، ونظام القضاة والقضايا والمحامين المدافعين عن المدعى عليهم والصلح بين الأزواج، والصدقات، والشهادات، وأداء الأمانات، وإغاثة المستضعفين، وما أشبه ذلك مما قرأته مجملًا وستعرفه مفصلاً، فكان تسميتها بالنساء أقرب، لأن المسألة ترجع إلى أمر الأسرات والأحوال المنزلية، وحفظ العائلات والنساء أس المنازل، كما أن الرجال أساطين الحروب والأعمال الخارجية»<sup>(١)</sup>.

ويقول صاحب المنار عن صلة آل عمران بالبقرة: «وجه الاتصال بين هذه السورة -أي آل عمران- وما قبلها -أي البقرة- من وجوه (فمنها) أن كلاً منهما بدئ بذكر الكتاب وشأن الناس في الاهتداء به، ففي السورة الأولى ذكر أصناف الناس من يؤمن به ومن لا يؤمن به، والمناسب في ذلك التقديم، لأنه كلام في أصل الدعوى، وفي الثانية ذكر الزائغين الذين يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، والراسخين في العلم الذين يؤمنون بمحكمه ومتشابهه ويقولون: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧] المناسب فيه التأخير، لأنه فيما وقع بعد انتشار الدعوى (ومنها) أن كلاً منهما قد حاج أهل الكتاب، ولكن الأولى أفاضت في محاجة اليهود واختصرت في محاجة النصارى، والثانية بالعكس، والنصارى متأخرون عن اليهود

(١) الجواهر في تفسير القرآن، ج ٤، ص ٣٤.

في الوجود، وفي الخطاب بالدعوة إلى الإسلام، فناسب أن تكون الإفاضة في محاجتهم في السورة الثانية. (ومنها) ما في الأولى من التذكير بخلق آدم، وفي الثانية من التذكير بخلق عيسى، وتشبيه الثاني بالأول في كونه جاء بديعاً على غير سنة سابقة في الخلق، وذلك يقتضي أن يذكر كل منهما في السورة التي ذكر فيها (ومنها) أن في كل منهما أحكاماً مشتركة كأحكام القتال ومن قابل بين هذه الأحكام رأى أن ما في الأولى أحق بالتقديم وما في الثانية أجدر بالتأخير (ومنها) الدعاء في آخر كل منهما فالدعاء في الأولى يناسب بدء الدين لأن معظمه فيما يتعلق بالتكليف وطلب النصر على جاحدي الدعوة ومحاربي أهلها. وفي الثانية يناسب ما بعد ذلك لأنه يتضمن الكلام في قبول الدعوة وطلب الجزاء عليه في الآخرة (ومنها) ما قاله بعضهم من ختم الثانية بما يناسب بدء الأولى كأنها متممة لها. ذلك أنه بدأ الأولى بإثبات الفلاح للمتقين وختم الثانية بقوله ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿٣٠﴾ ﴿١﴾. (عمران: ٢٠٠)»<sup>(١)</sup>.

ويقول عن صلة النساء بآل عمران: «ومن وجوه الاتصال بينها وبين ما قبلها: أن هذه قد افتتحت بمثل ما اختتمت به تلك، من الأمر بالتقوى، وهو ما يسمى في البديع تشابه الأطراف، وفي روح المعاني: أن هذا أكد وجوه المناسبات، وفي ترتيب السور (ومنها) محاجة أهل الكتاب اليهود والنصارى جميعاً في كل منهما. (ومنها) ذكر شيء عن المنافقين في كل منهما وكونه في سياق الكلام عن القتال (ومنها) ذكر أحكام القتال في كل منهما (ومنها) أن في هذه شيئاً يتعلق بغزوة أحد التي فصلت وقائعها وحكمها، وأحكامها في آل عمران، وهو قوله تعالى في هذه السورة ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ﴾ [النساء: ٨٨] كما سيأتي في موضعه وكذا ذكر شيئاً يتعلق بغزوة (حراء الأسد) التي كانت بعد (أحد) وسبق ذكرها في آل عمران كما تقدم، وذلك قوله تعالى في هذه السورة ﴿وَلَا تَهْتَفُوا فِي آبَتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾ [النساء: ١٠٤].

(١) تفسير المنار، ج ٣، ص ١٥٣.

وقد ذكر هذا الوجه وما قبله في روح المعاني، وأما الوجوه الأخرى وهي ما تتعلق المناسبة فيها بمعظم الآيات فلم أرها في كتاب ولا سمعتها من أحد<sup>(١)</sup>.

ويقول السيوطي عن صلة سورة الكوثر بسورة الماعون: «ومن لطائف سورة الكوثر، أنها كالمقابلة للتي قبلها، لأن السابقة وصف الله فيها المنافق بأربعة أمور: البخل، وترك الصلاة، والرياء فيها، ومنع الزكاة، فذكر فيها في مقابلة البخل ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾<sup>(١)</sup> [الكوثر: ١] أي الخير الكثير، وفي مقابلة ترك الصلاة ﴿فَصَلِّ﴾ [الكوثر: ٢] أي: دُم عليها، وفي مقابلة الرياء ﴿لِرَبِّكَ﴾ [الكوثر: ٢] أي: لرضاه لا للناس، وفي مقابلة منع الماعون ﴿وَأَنْحَرْ﴾<sup>(٢)</sup> [الكوثر: ٢] وأراد به التصديق بلحم الأضاحي<sup>(٢)</sup>.

---

(١) تفسير المنار، ج ٤، ص ٣٢٢.

(٢) الإتيان للسيوطي، ج ٣، ص ٣٨١.



## الفصل العاشر

### القرآن في مجموعه

بعد الفصول التي قدمناها لك، الجملة القرآنية والفقرة القرآنية، والسورة القرآنية، وبين السورة والسورة، نرى لزماً علينا، وإتماماً للفائدة، أن نختم هذه الفصول بفصل نتحدث فيه عن القرآن في مجموعه، وكان من الممكن أن نكتفي بما ذكرناه، إذ ما ذكر لا يدع مجالاً لمرتاب في إعجاز هذا الكتاب، لولا أننا وجدنا بعض القضايا أثارها بعض الكاتبيين، ومنهم أئمة مشهود لهم، بطول الباع ورسوخ القدم. ونبادرك القول، بأنك لو نظرت إلى القرآن كله، لوجدته نسقاً واحداً من حيث آياته، وموضوعاته على تنوعها وتعددتها، فإذا أخذت القصة القرآنية، وجدتها جملة في سورة، مفصلة في أخرى؛ فقصة نوح أجملت في سورة يونس، وفصلت في سورة هود، وقصة موسى على العكس من ذلك. وهكذا تجد أن كل سورة ذكرت فيها القصة، بما يتناسب ويتلاءم مع موضوعها<sup>(١)</sup>.

فإذا أخذت قضايا الأحكام، فإنك ستجدها قد وزعت توزيعاً عادلاً، فمع أن أكثرها في السور المدنية، إلا أنك تجد أن بعض هذه الأحكام، ذات الموضوع الواحد، وزعت في سور حسب ما يقتضيه المقام لكل سورة؛ فقضايا الطلاق مثلاً، وما يتعلق بها ذكر الكثير منها في سورة البقرة، ولكن بعض الأحكام ذكرت في سورة الطلاق، وكذلك في سورة الأحزاب. كل ذلك مما تمليه المناسبات، وأسباب النزول. كذلك أحكام الجهاد، وآيات الخمر، وآيات الربا، كان فيها أمر التدرج بيناً ظاهراً، فأيات القتال مثلاً بدئت بقوله سبحانه: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلُمُوا

(١) راجع كتابنا: القصص القرآن في إيجائه ونفحاته.

وَلِإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ [الحج: ٣٩]، ثم جاءت آيات سورة البقرة ﴿وَقَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٠]، ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٧]. واستمرت آيات القتال في النزول، بما تتطلبه المواقف المتعددة، إلى أن نزلت سورة براءة. وآيات الربا مثلاً، بدأت بقوله سبحانه: ﴿وَمَاءَ آيَنُكُمْ مِنْ رَبِّ الْيَرُبُؤِ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرُبُؤُا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٩]، كذلك آيات الخمر، كانت الإشارة الأولى لها في قوله سبحانه: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ نَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل: ٦٧]، حيث وصف الرزق بالحسن، وخلي السُّكْر من هذا الوصف، وهي آيات مكية، إلا إذا استثنينا آية الحج على القول بمدنيتها، ثم تدرجت الآيات بعد ذلك، إلى أن جاءت الآيات القاطعة، بتحريم الربا والخمر.

أما ما يختص بأعداء الإسلام، وخصوص المسلمين، من أحكام وأخبار، فلقد كان الأمر فيه عجباً من حيث الدقة، والتربية، والإحكام، حيث وزعت هذه كلها توزيعاً مناسباً، تظهر فيه الحكمة والتربية -كما قلت-. ومثال على ذلك: سورة البقرة حيث كان الحديث فيها عن بني إسرائيل مستفيضاً شاملاً، وبعد أن انتهى الحديث عنهم ذكرت جملة من الأحكام التي تخص الجماعة المسلمة، كالقصاص والوصية، والصيام، والجهاد، والحج، وأحكام الأسرة، وأحكام المال، لكن سورة النساء اتخذت سبيلاً آخر، حيث ذكرت فيها جملة من الأحكام أولاً، ثم جاء الحديث عن أهل الكتاب، وإذا أنعمت النظر وبحث عن السبب، وجدت ما يطمئن القلب ويأخذ باللب، ففي سورة البقرة، ذُكر بنو إسرائيل، من حيث نِعَم الله عليهم، وكفرهم لهذه النعم، وعقوبة الله لهم، وكان ذلك كله توطئة لذكر ما يخص الجماعة المسلمة من أحكام، ليكون ذلك باعثاً لهم على التمسك بها، وتنفيذها، وعدم مخالفتها؛ فلقد ذكر أولاً ما حل بأولئك الذين جحدوا نعم الله، وخالفوا أوامره، ليكون درساً للمؤمنين فيما يتبين لهم، ويكتب عليهم. ثم الحديث عن بني إسرائيل في سورة البقرة، كان عن المتقدمين على بعثة النبي ﷺ.

أما سورة النساء فلقد ذكرت الأحكام أولاً، الخاصة بالمسلمين، ثم ذكرت طرفاً من أهل الكتاب، ثم أمرت بالجهاد ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ تَنْفِرُوا جَمِيعًا﴾ [النساء: ٧١]. ولكن أهل الكتاب الذين ذكروا في سورة النساء، لم يكونوا من المتقدمين الذين كانوا قبل بعثة النبي الكريم ﷺ، وإنما أولئك الذين كانوا يتعايشون مع المسلمين. هذا من جهة، ومن جهة ثانية، فإن أهل الكتاب الذين ذكروا في سورة النساء، لم يذكروا من حيث نعم الله عليهم، ومخالفتهم، وجحودهم -كما رأينا في سورة البقرة- وإنما من حيث عداؤهم للمسلمين وحسدكم لهم. سورة النساء -إذن- ذكرت الأحكام أولاً، ثم حذرت المؤمنين من اليهود، ثم أمرتهم بالجهاد، لتبين لهم أن أمر الجهاد، إذا أراد المسلمون أن يتصرفوا فيه، فهو منوط بأمرين اثنين:

الأول: اتباع الأحكام.  
والثاني: الحذر من الأعداء.

وليس كذلك سورة البقرة، بل كان لا بد فيها من ترتيب غير هذا. وهكذا لو استقرأت القرآن الكريم كله، لوجدت هذه التربية المحكمة الدقيقة.

أما قضايا العقيدة، وقد وزعت أكثر ما وزعت على القرآن المكي، فلقد كانت خاضعة كذلك لهذا الإحكام الذي حدثتك عنه من قبل، وهكذا الموضوعات القرآنية جميعها، كانت كلها سواء من حيث النظم، والدقة، والإحكام، والروعة الفنية.

وما نظن أحداً من المسلمين ينازع في شيء من هذا، فهم مجمعون على أن القرآن بلغ الغاية في ذلك كله، لكن الذي نازع فيه بعضهم، من حيث الكلمات والجمل القرآنية، أهي في الفصاحة سواء؟ أم بعضها أفصح من بعض؟ والجمل أهي في البلاغة سواء؟ أم بعضها أبلغ من بعض؟ وقد حدثناك في الباب الأول عن طرف من هذا، وبيّنا لك أن الباقلاني، والجرجاني، والخطابي، وغيرهم، يرون أن



القرآن نسق واحد، فلا مجال للتفاوت فيه، وهذا ما قررته لك من قبل، حين حدثتك عن الكلمة والجملة وغيرها. ولكن بعض العلماء انتحى ناحية أخرى، حيث زعم أن بعض الكلمات القرآنية أفصح من بعض، وبعض الجمل أبلغ من بعض، فهم مع إجماعهم أن القرآن كله فصيح بليغ، إلا أن أولئك رأوا أن هذه الفصاحة والبلاغة تتفاوت. وسنعرض لثلاثة نفر وهم: ابن سنان الخفاجي، والزمخشري، والبارزي. وسنبداً الحديث عن ابن سنان والبارزي، وسنؤخر الزمخشري لشدة عتبنا عليه، فهو بحق شيخ من شيوخ البيان، وستكون مناقشتنا له أشد وأقسى. وكما يقولون: ولكل جواد كبوة، ولكل صارم نبوة، ولكل عالم هفوة.

### أولاً: البارزي:

يقول البارزي في أول كتابه «أنوار التحصيل في أسرار التنزيل» - كما ينقل عنه السيوطي في الإتيقان - «اعلم أن المعنى الواحد قد يخبر عنه بألفاظ بعضها أحسن من بعض، وكذلك كل واحد من جزئي الجملة - قد يعبر عنه بأفصح ما يلائم الجزء الآخر، ولا بد من استحضار معاني الجمل، واستحضار جميع ما يلائمها من الألفاظ، ثم استعمال أنسبها وأفصحها، واستحضار هذا متعذر على البشر في أكثر الأحوال، وذلك عتيد حاصل في عمل الله تعالى، فلذلك كان القرآن أحسن الحديث وأفصح، وإن كان مشتملاً على الفصيح والأفصح، والمليح والأملح، ولذلك أمثلة منها قوله تعالى: ﴿وَجَحَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ۝٥٤﴾ [الرحمن: ٥٤]، لو قال مكانه: «وثمر الجنتين قريب» لم يقدّم مقامه من جهة الجناس بين الجنى والجنتين، ومن جهة أن الثمر لا يشعر بمصيره إلى حال يجنى فيها، ومن جهة مؤاخاة الفواصل، ومنها قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ﴾ [النجم: ٤٨] أحسن من التعبير بـ «تقرأ» لثقله بالهمزة، ومنها ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢] أحسن من «لا شك فيه» لثقل الإدغام، ولهذا كثر ذكر الريب، ومنها ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ [آل عمران: ١٣٩] أحسن من «ولا تضعفوا» لخفته،

﴿وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ [مريم: ٤] أحسن من (ضعف)، لكون الفتحة أخف من الضمة، ومنها ﴿ءَامَنَ﴾ [البقرة: ٦٢] أخف من صدق، ولذا كان ذكره أخف من ذكر التصديق، ﴿ءَاثَرَكَ اللَّهُ﴾ [يوسف: ٩١] أخف من «فَضَّلَكَ اللهُ»، ﴿وَعَائِي﴾ [البقرة: ١٧٧] أخف من أعطى، ﴿وَأَنْذِرْ﴾ [الشعراء: ٢١٤] من خَوْفٍ، و﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٤] أخف من «أفضل لكم»، والمصدر في نحو ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ﴾ [لقمان: ١١]، ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [يوسف: ٣]، أخف من مخلوق، والغائب، و﴿تَنْكِحَ﴾ [البقرة: ٢٣٠] أخف من تتزوج، لأن (فَعَلَ) أخف من (تَفَعَّلَ)، ولهذا كان ذكر النكاح فيه أكثر، ولأجل التخفيف والاختصار استعمل لفظ الرحمة، والغضب والرضا، والحب والمقت في أوصاف الله تعالى مع أنه لا يوصف بها حقيقة، لأنه لو عبر عن ذلك بألفاظ الحقيقة لطال الكلام، كأن يقال: يعامله معاملة المحب والمأقت، فالمجاز في مثل هذا أفضل من الحقيقة لخفته واختصاره، وابتناؤه على التشبيه البليغ، فإن قوله: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥] أحسن من فلما عاملونا معاملة المغضب، أو فلما أتوا إلينا ما يأتيه المغضب<sup>(١)</sup>.

ولا يشك من يقرأ هذا النص، بأن خفة الكلمة وعدمها كان الأصل الذي يستند إليه البارزي رحمه الله، ومع تقديرنا لما ذكره من خفة الكلمة القرآنية على اللسان، لكننا لا نسلم له أن ذلك هو السبب الوحيد الذي من أجله تستعمل كلمة مكان كلمة، فنحن لسنا مع البارزي فيما ذهب إليه، من أن الريب استعمل مكان الشك لخفته، وعدم الإدغام فيه، ولو كان الأمر كذلك لا ينبغي أن تذكر كلمة شك في القرآن ألبتة، والأمر ليس كذلك، ولسنا معه كذلك في أن القرآن الكريم استعملت فيه كلمة تتلو في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ﴾

(١) الإتيان، ج ٢، ص ١٢٥.

[المنكوت: ٤٨] لأنها أخف من كلمة تقرأ فحسب، فإن مع الخفة سبباً آخر، فهناك فرق في المعنى بين التلاوة والقراءة.

وكذلك في كلمة الوهن والضعف، والإيمان والتصديق، والإعطاء والإيتاء، والإنذار والتخويف، فإننا نجد هذه الكلمات جميعاً استعملت في كتاب الله، قال تعالى: ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى (٣١)﴾ [القيامة: ٣١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١)﴾ [الكوثر: ١]، ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ [آل عمران: ١٧٥]. والحق أن هناك فروقاً بين هذه الكلمات، فالإعطاء ليس هو الإيتاء، والإنذار يختلف عن التخويف.

إن الكلمات التي ذكرها البارزي، مفضلاً بعضها على بعض، نجدها جميعها في كتاب الله تعالى، فاضلها ومفضولها - كما ذكر - ولو أن الأمر كما قال، ما كان ينبغي أن تذكر الكلمات المفضولة، وأن بين الشك والريب فروقاً لا فرقاً واحداً، وكذلك الإعطاء والإيتاء، والإنذار والتخويف، والإيمان والتصديق، والدنو والقرب، والجنى والثمر، فالريب ما فيه تهمة وما تضطرب فيه النفس، والشك ليس كذلك، والإنذار لا بد فيه من الإعلام والتخويف مع مُهْلَةٍ، والجنى أخص من الثمر، وكذلك الدنو والقرب.

وإذا كانت تتلو أخف من تقرأ - كما يقول - فلماذا استعملت هذه الكلمة في كتاب الله ﴿لِنَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ﴾ [الإسراء: ١٠٦] ولماذا استعملت كلمة التفضيل ما دامت كلمة الإيثار أخف بالاستعمال ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [النحل: ٧١]. وكذلك الوهن والضعف، هل كل ضعف يسمى وهنا؟ الذي ندركه من الآيات الكريمة غير هذا.

لقد جاء الضعف في كتاب الله تعالى مقابل القوة، لكن الوهن جاء في مقابلة العلو، قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾

[الروم: ٥٤]، وفي الحديث «المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف وفي كل خير»<sup>(١)</sup>، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، وقد يكون الوهن ضعفاً من حيث الخلقة. قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ [مريم: ٤٤].

وعجيب من البارزي أن يعد كلمتي «خير لكم» و«أفضل» سواءً في الدلالة والمعنى، والحس يشهد بما بينهما من فرق واضح، وهكذا فليس ما قرره البارزي جديراً بالبروز»<sup>(٢)</sup>.

ثم نحن لسنا مع البارزي كذلك فيما قرره من أن الرحمة والرضا، والغضب والحب والمقت، التي استعملت في أوصاف الله تعالى، ليست على حقيقتها، وإنما كان الداعي والهدف إليها الاختصار، نحن لا نود الآن أن نقحم هذا الكتاب بالحديث عن المذاهب الكلامية، فذلك ليس محله هنا، ولكن ما دام الله تبارك وتعالى وصف نفسه بهذه الأمور، فنحن لا نرى داعياً لتأويلها، ما دامت لا تتعارض مع مسلّمات العقل وبدهيّاته؛ ولذا فإن علماء السلف، وكثيراً من علماء الخلف - إن صح هذا التعبير - لا يؤولون هذه الأوصاف، كما أولها البارزي. إن من أخطر الأمور والقضايا أن نخضع البيان القرآني للمشادات والاختلافات المذهبية، كلامية كانت أو فقهية، أو نحوية، مما يذهب برونق البيان، وسناء البراعة.

---

(١) أخرجه الإمام مسلم، كتاب: القدر، باب: الإيثار للقدر والإذعان له، صحيح مسلم بشرح النووي، ج ١٦، ص ٢١٥.

(٢) راجع بحثنا الكلمة القرآن وجهود علماء البيان.

## مناقشة بعض المحدثين:

د. فتحي عامر:

ويشبه ما ذهب إليه البارزي، ما نجده عند بعض الكاتبين المحدثين، وهم يتحدثون عن فصاحة ألفاظ القرآن، وكونها مختارة منتقاة، موحية معبرة، هادفة مؤثرة، ولكنهم يأتون بما لا ينبغي من القول، يقول الدكتور فتحي عامر: «واستمع إلى قوله جل وعلا: ﴿وَإِذْ يَخِجِّنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ (٤٩) [البقرة: ٤٩]، تجد أنه اختار ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ بدل «يذيقونكم» مثلاً، لأن معنى الأول يولونكم إياه، ويريدونكم عليه، وهذا المعنى لا يوجد في «يذيقونكم».

واختار كذلك [يُذَبِّحُونَ] وهي قراءة شاذة] أو ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ بدلاً من «يَقْتُلُونَ» مثلاً أو يُقَتَّلُونَ بالتضعيف لعين الكلمة، لأن الفعل الأول يدل على كثرة من ذبح فرعون من بني إسرائيل وعلى أنه كان يعاملهم معاملة البهائم من إهدار قيمهم، وخنق كبريائهم حيث حادوا عن طريقه<sup>(١)</sup> الضال إلى طريق موسى المستقيم، وهذا المعنى لا يوجد في «يقتلون» من غير تضعيف العين أو بتضعيفها<sup>(٢)</sup>.

وكنا نرجو للكاتب أن يكون أكثر تدبراً، وأوعى استيعاباً عند الآيات الكريمة، وأن لا يقف عند أقوال الآخرين، ولو أنه فعل ذلك لوجد أن الأمر على غير ما قرره؛ ذلك أن كلاً من كلمتي «يُذَبِّحُونَ» و«يُقَتَّلُونَ» وردت في كتاب الله تعالى. إليك بيان ذلك:

(١) المعلوم أن فرعون كان يفعل هذا قبل مجيء سيدنا موسى ﷺ، واتباع بعض بني إسرائيل له، فعجب من الكاتب أن يقرر هذا.

(٢) فكرة النظم بين وجوه الإعجاز في القرآن، ص ١٣٤.

كلتا الكلمتين تذكير بني إسرائيل بنعم الله عليهم، ولقد ورد ذلك في عدة سور من كتاب الله.

١- في سورة البقرة نقرأ قول الله: ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ١٧﴾ وَأَتَقُوا يَوْمًا لَا تَجْرَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يَقْبَلَ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ١٨ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ بِدِيحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ٤٩﴾ [البقرة: ٤٧-٤٩] وهي الآية التي ذكرها الكاتب.

٢- في سورة الأعراف: يحدثنا القرآن أنه بعد أن أغرق الله فرعون وجاوز الله ببني إسرائيل البحر، أتوا على أقوام يعكفون على أصنام لهم، فطلبوا من موسى عليه السلام، أن يكون لهم مثل هذه الأصنام ﴿قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ١٣٨﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعُوا مَا هُمْ فِيهِ وَبَطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ١٣٩ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيَكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ١٤٠ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ بِقَيْلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ١٤١﴾ [الأعراف: ١٣٨-١٤١].

٣- في سورة إبراهيم أبي الأنبياء عليه السلام، نقرأ قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَخَذْنَا مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ بِدِيحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ٦﴾ [إبراهيم: ٦].

هذه آيات ثلاث ذكر فيها التذبيح والتقتيل، فلم يقتصر القرآن الكريم على واحدة، منها - كما قرره الكاتب - ولعلك أيها القارئ تتساءل: لم ذكر هذان الفعلان؟ والذي يظهر لي - والله أعلم بما ينزل - أن الملاء من آل فرعون قساة القلوب، غلاظ الأكباد، الذين استخفهم سيدهم فأطاعوه، كانوا يتفنون في إيذاء

بني إسرائيل، والتنكيل بهم -ومثل هذا التفنن في التنكيل في إيذاء المسلمين، نجده اليوم من العدو ومن ذوي القربى، وإن كان ذوا القربى أشد مضاضة، وأكثر إيذاء فتارة كانوا يذبحون هؤلاء الأبناء، وتارة كانوا يقتلونهم بوسيلة غير الذبح. ووسائل القتل كثيرة، لا تقتصر على الذبح وحده، فحدثنا القرآن عن هاتين الطريقتين، اللتين تزهق بهما النفوس، الذبح تارة، والقتل أخرى. هذا عن وجود الكلمتين في كتاب الله، وكأني بك تجد في هذا القول ما يقنعك، اختيار الكلمتين في كتاب الله، كان الهدف منه بيان غلظة القوم وقسوتهم وتفننهم السيئ في الإيذاء وإزهاق النفس، ولكن كأني بك يتشوف فؤادك إلى المزيد من أسرار الكتاب الخالد، مما يمتع النفس ويرهف الحسن، وكأني بك تتساءل سؤالاً آخر بعد أن عرفت الإجابة عن السؤال الأول، وهو لم ذكر التذبيح تارة والتقتيل أخرى؟ أقول: كأني بك تتساءل: ولكن لم اختص كل من التذبيح والتقتيل بالموضع الذي ذكر فيه من كتاب الله، أي لم اختصت سورة الأعراف بالتقتيل، وذكر التذبيح في السورتين الآخرين، والحق أنه سؤال حري بالإجابة، فلقد تشوفت له نفسي، كما تشوفت له أنت، ولكن لكي تدرك الإجابة، لا بد أن نشحذ الهمة معاً، ونعلو القمة كذلك، لا بد من أن نصعد إذا أردنا أن نسعد بالآيات وأسرارها، ونفتيق الأكمام عن أزرارها، ولكن حذارٍ من السامة والملل، وليكن الثاني زادك.

لنتأمل الآيات معاً، سورة البقرة كان الخطاب فيها من الله تبارك وتعالى، ولكنه لم يكن لبني إسرائيل الذين كانوا في زمن موسى عليه السلام، وإنما كان لبني إسرائيل الذين كانوا في عهد رسول الله ﷺ. أما سورة الأعراف وسورة إبراهيم عليهما السلام فالخطاب كان من موسى عليه السلام. ومن البدهي أنه كان لأولئك القوم الذين كانوا معه <sup>(١)</sup>، سورة البقرة -إذن- تختلف عن السورتين الآخرين، إن الإنعام فيها

(١) وهذا لا يتناقض مع ما قرناه لك من قبل، من أن الحديث عن بني إسرائيل في سورة البقرة، كان لأولئك المتقدمين على بعثته ﷺ، لأن الأحداث التي ذكرت فيه جميعاً من تذبيح الأبناء، =

كان موجهاً من الله مباشرة، وإن المخاطبين فيها بنو إسرائيل من أحفاد الذين كانوا مع موسى عليه السلام الذين كانوا في عهد النبي ﷺ.

ولكن بقي أن نعرف الفرق بين آيتي الأعراف وإبراهيم، وعودة إلى السياق، نجد أن آية الأعراف كانت عقب إغراق فرعون وآله مباشرة، أي من قبل أن تحجب أقدام بني إسرائيل من الماء<sup>(١)</sup>. أما آية إبراهيم عليه السلام، فالذي يظهر من سياقها أنها إنما كانت بعد معاناة، وشدة وبأس وإيذاء لاقاه عليه السلام من أولئك. وإذا شرفنا بتلاوة الآية السابقة مرة ثانية، وقرأنا الآيات التي بعدها، هي قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رِجَّتُكُمْ لَمَنِ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَمَنِ كَفَرَثُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾ وَقَالَ مُوسَى إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ حَمِيدٌ ۝٨﴾ الْفَيَأْتِيَكُمْ نَبُوءَاتُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝٩﴾ [إبراهيم: ٧-٩]. هذا السياق يدلنا على أن موسى عليه السلام، إنما قال ما قال، بعد أن طفق الكيل، وبلغ السيل الزبى، ويشهد لها أسلوب الآية نفسها ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنْ سُوِّ الْعَذَابِ وَيُذَيِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ بهذه الواو التي خلت منها الآيتان الأخريان، والفرق ظاهر بين وجود الواو وتركها؛ فقله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنْ سُوِّ الْعَذَابِ يُذَيِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٩] بلا واو معناه أن سؤمهم سوء العذاب يشتمل على تذيبح الأبناء. أما قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنْ سُوِّ الْعَذَابِ وَيُذَيِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ [إبراهيم: ٦] فالمعنى يختلف فيه عن سابقه، ففي هذه الآية أمور ثلاثة، كل منها غير الآخر، الأول سؤم سوء العذاب، والثاني تذيبح الأبناء، الثالث استحياء النساء، وهذا ما جاء في سورة إبراهيم عليه السلام، وهذا ما ذكر فيه موسى قومه في هذه السورة،

= وفَرَّقَ البحر، وتظليل الغمام، لم يكن لأولئك الذين كانوا على عهده ﷺ وإن كان الخطاب بقوله: «يا بني إسرائيل» خطاباً لأحفادهم.

(١) راجع هذا الموضوع في كتابنا «القصص القرآني إيماءاته ونفحاته».



ذكرهم بما كان يفعله فرعون، يسومهم سوء العذاب أولاً، بالإذلال والضرب والإهانة، ويذبح أبناءهم ثانياً، وثالثاً يبقي البنات على قيد الحياة، وهذا معنى يستحيي، حتى يصرن نساء للخدمة والإهانة.

أظنني قد أطلت عليك، ولكن لا تضجر، فما أحسن المتعة في ظل الكتاب الخالد، التذبيح -إذن- ذكر في موضعين: في سورة البقرة، وفي سورة إبراهيم عليه السلام، أما اختياره في سورة إبراهيم فظاهر؛ لأن موسى ذكر به قومه، بعد أن أعيته الحيلة في هدايتهم، وكاد ينفد صبره، فذكر لهم ما يهولهم، ولا شك أن اختيار كلمة التذبيح في هذا المقام، يتناسب تماماً مع الهدف الذي أراده موسى عليه السلام، والظرف الذي تحدث فيه. ولقد عرفت من قبل، أن آية إبراهيم تختلف عن الآيتين السابقتين، أسلوباً وسياقاً. أما أسلوباً فلقد ذكرت فيها الواو، وأما سياقاً فلقد جاءت بعد معاناة كثيرة وجدها موسى عليه السلام منهم.

أما اختيار فعل التذبيح في سورة البقرة، فالخطاب -كما قلنا- فيها كان موجهاً لأولئك الذين كانوا في عهد النبي ﷺ ولا بد من أن يدرك هؤلاء الأحفاد، ما كان يلاقه الأجداد، ليذكروا نعم الله، وليتركوا العناد.

ويسهل علينا أن ندرك الآن، لم اختير التقتيل في سورة الأعراف؟ ذلك لأن تذكير بني إسرائيل بهذه النعم، كان بعد إنجائهم من آل فرعون مباشرة، فلم يكونوا قد أحدثوا من الجرائم ما يستدعي توبيخهم، إلا تلك.

وهكذا تجد أن اختيار الكلمة في القرآن الكريم، إنما هو نتيجة أهداف متعددة، وظروف، لا لأن هذه الكلمة أفصح من تلك، فكلمة يذبحون في موضعها ليست أفصح من كلمة يقتلون، ولا أشد مناسبة، وأكثر تلاؤماً، وكذلك كلمة يقتلون. ومثل هذا ما ذكره البارزي من كلمات كثيرة، فكلمة الريب في موضعها ليست أفصح من كلمة الشك في موضعها، بل إن كلمة الشك جاءت في سياق لا ينبغي أن تكون معه كلمة الريب -كما مر معك من قبل- وهكذا كل ما ذكره

البارزي وغيره، حريٌّ أن نُعمل فيه الفكر، إذا أردنا أن نحسن التمييز بين التبن والتبر، والله ولي كل أمر.

ثانياً: ابن سنان الخفاجي:

يقول: «فإن قيل كلامكم الماضي يدل على أن في القرآن ما بعضه أفصح من بعض، وفي الناس من يخالفكم ويأبى ذلك، فما عندكم فيه؟ قلنا: أما زيادة بعض القرآن على بعض في الفصاحة، فالأمر فيه ظاهر لا يخفى على من علق بطرف من هذه الصناعة، وشدا شيئاً يسيراً، وما زال الناس يفردون مواضع من القرآن يعجبون منها في البلاغة وحسن التأليف كقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَتَّارُضْ أَلْبَلَىٰ مَاءَ لَيْلٍ وَسَمَاءَ أَقْلَىٰ وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَىٰ الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۝١١﴾ [هود: ٤٤]، وقوله تعالى: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الْفَصِيحِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ مِّنْ لِّبَاسٍ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۝﴾ [البقرة: ١٨٧]، وقوله تعالى: ﴿أَدْفَعْ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ۝٣٤﴾ [فصلت: ٣٤]، وقوله عز وجل: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَغُوا فَلَاقَتِ وَأُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝٥١﴾ [سبا: ٥١]، وقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأُولَىٰ الْأَلْبَابِ ۝﴾ [البقرة: ١٧٩]. وأمثال هذا ونظائر كثير.

فلو كانوا يذهبون إلى تساويه في الفصاحة لم يكن لإفرادهم هذه المواضع المعينة المخصوصة دون غيرها معنى، وإنما تدخل الشبهة في هذا، ومثله على الأعاجم من الفقهاء والمتكلمين لجهلهم بهذه الصناعة، وعدم فهمهم لقوانينها.

... وليت شعري أي فرق بين أن يخلق الله وجهين أحدهما أحسن وأصبح من الآخر، وبين أن يحدث كلامين أحدهما أبلغ وأفصح من الآخر؟ وهل من يفرق بينهما إلا مقترح؟

ثم ليس أحد ممن ينكر أن يكون بعض القرآن أفصح من بعض يتنعم من القطع على أن القرآن في لغته أفصح من التوراة في لغتها والإنجيل في لغته، والزبور

في لغته، لأن تلك الكتب عنده لم تكن معجزة لخرقها العادة بالفصاحة، وإن كان الجميع كلام الله تعالى. فما المانع من أن يكون بعض كلامه الذي هو القرآن أفصح من بعض حتى تكون آية منه أفصح من آية، والجميع كلام الله، وما جاز عنده أن يكون القرآن أفصح من الإنجيل، وإن كان الجميع كلام الله، وهذا لا يخفى على محصل.

فإن قيل: الذي يمنع أن يكون بعض القرآن أفصح من بعض. القول بأن قدر كل سورة من قصار سور المفصل منه قد خرق العادة في الفصاحة بفصاحته، وكان معجزاً لعلوه في الفصاحة، وما كان خارقاً للعادة في الفصاحة لا يكون غيره أفصح منه، قيل: الجواب عن هذا، أولاً: إن الصحيح أن وجه الإعجاز في القرآن هو صرف العرب من معارضته، وإن فصاحته قد كانت في مقدورهم لولا الصرف، وهذا هو المذهب الذي يعول عليه أهل هذه الصناعة وأرباب هذا العلم، وقد سطر عليه من الأدلة ما ليس هذا موضع ذكره، فالسؤال على هذا المذهب ساقط. ثم لو سلم أن وجه الإعجاز هو الفصاحة لم يمنع أن يكون كلام معجز يخرق العادة بفصاحته، أفصح من كلام معجز يخرق العادة بفصاحته، فإن نبياً لو أظهر الله على يده مُعْجِزاً - وهو حمل ألف رطل - لم يمنع أن يُظهر على يده أو يد نبى غيره مُعْجِزاً آخر، وهو حمل ألفي رطل، فيكون المعجز أن أحدهما أعظم من الآخر، مع كون كل واحدٍ منهما معجزاً<sup>(١)</sup>.

ولا بد أن نناقش ابن سنان، وقد تمحل في كثير مما ذهب إليه، وأول ما نقرره هنا أننا في الفصول السابقة، رأينا أن القرآن كله، من حيث الكلمات والجمل، والقطع والسور، نسق واحد في الصنعة البديعة، وعلم فرد في المنزلة الرفيعة، وحجة واضحة، ومنطق سوي، في كل ما قرره من موضوعات الشريعة، ولقد رأينا أن الكلمة تستعمل في موضع، ويستعمل غيرها في موضع آخر، فتكون كل منهما واسطة العقد، ورأينا أن الجملة يحذف جزؤها، أو يقدم، أو يؤكد في موضع،

---

(١) سر الفصاحة، ص ٢١٢-٢١٥.

وتكون غير ذلك في موضع آخر، فتكون كل منهما أحلى من الشهد، وأن السورة الكريمة يقدم فيها موضوع، ويؤخر في أخرى، فتكونان سواء في جمال واعتدال القدّ، وهما سواء كذلك في إقناع العقل وإزالة الوجد.

أما ادعاؤه بأن العلماء استحسّوا جملاً أو آيات، فخصوها بالذكر، فليس ذلك بالمرضي من الكلام؛ ذلك لأن ما استحسّنه العلماء، لا يدل على أن غيره مفضول، وإنما ظهر الحسن لبعضهم فيما استحسّنه، فنقله غيرهم عنهم، وقد نقل غيرهم غير ما نقلوه، ونحن واجدون في كل جملة ميزتها، ولكل فقرة من البلاغة ركيزتها، فقله سبحانه: ﴿وَقِيلَ يَتَّزِشْ أَلْبَلَىٰ مَاءَ لِكِ﴾ [هود: ٤٤]، لا يقل عنه بياناً ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: ٥٣]، وقوله: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [الأنبياء: ١٢]، وقوله: ﴿فَلَا أَفْنَحُمُ الْعَقَبَةَ﴾ [١١] ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾ [البقرة: ١١-١٢]، وقوله: ﴿وَلِلْمُطَلَقَاتِ مَنَعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢٤١]، وقوله: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [١] ﴿[المسد: ١]، وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا﴾ [البقرة: ٩١]، وقوله: ﴿وَلَوْ يُعْجِلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعْجَلَهُمْ بِالْخَيْرِ لَفُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ﴾ [يونس: ١١]. كل هذا وغيره من كتاب الله سواء.

أما ادعاؤه أن التوراة والإنجيل كلام الله، والقرآن أفصح منهما، فلا مانع أن يكون بعض كلام الله في القرآن أفصح من بعضه الآخر، فقول غريب، وادعاء عجيب؛ ذلك لأن أحداً لم يدّع - حتى أصحاب هذه الكتب - بأنها معجزة.

وأما تمثيله بالنبي يحمل ألف رطل تارة، وألفي رطل هو أو غيره تارة، فهذا من المنطق الصوري الجدلي، الذي لا يجوز أن يكون منطق المتحدثين عن القرآن، كما لا يجوز أن يكون منطق الأدباء، وأصحاب الصنعة البيانية، فهو بعيد عما نحن فيه. وإذا أردنا أن نرد على ابن سنان بنوع منطق، وأن نجابهه بمثل سلاحه، قلنا له: هذا

قياس مع الفارق، وهكذا نجد أن تمسك ابن سنان برأيه هذا، يصل به إلى ما لا تحمد عقباه، وصل به إلى القول بالصرقة، وقد حدثناك عنه بما فيه الكفاية في الجزء الأول، ويا ليت ابن سنان جاء لنا ببعض الأمثلة كما سنرى عند الزمخشري، ولكنه لم يفعل، والخيرة فيما اختاره الله.

### ثالثاً: الزمخشري:

قلت من قبل: أن عتبنا على الزمخشري أشد من عتبنا على غيره؛ ذلك أن الزمخشري الذي يملك أساليب البيان، فنضدها لنا فكره، وخطها يراعُه، كان جديراً به أن لا يدع الكلام، ليقتنص كل منه ما يشاء. وغني عن القول أن حديثنا مع الزمخشري وعنه، ليس لتفضيل كلمة على كلمة - كما رأينا من قبل - وإنما لكون آية أبلغ من آية، أو نظم أبلغ من نظم.

وأحب أن أبادرك القول هنا، بأن البلاغة إنما هي مراعاة مقتضى الحال، بتحقيق أن لكل مقام مقالة، فقد يكون الوعد في موضع أبلغ من الوعيد في موضع آخر، والعكس صحيح، وقد يكون التلطف في موضع، أبلغ من التهويل في موضع آخر، والعكس صحيح، وقد يكون من الحكمة التدرج من الشديد إلى الأشد في موضع، ومن الشدة إلى اللين في موضع آخر. وما نأخذه على شيخ البيان صاحب الكشف، أنه يطلق القول دون أن يبين هذه الحقيقة التي أشرت إليها، وسواء كان الزمخشري، يؤمن بأن بعض القرآن أبلغ من بعض، كما توحى به عباراته التي سننقلها لك، أم كان يرى أن مقاماً أبلغ من مقام إن أحسن القارئ الظن - وإن كنا نرجح حسن الظن - أقول: سواء كان هذا أم ذاك، فلا بد أن نقفك على عباراته لنناقشه أنا وأنت.

١ - يقول عند تفسيره قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَبْنِيْٓءَ اٰدَمَ لَا يَفِيْنٰكُمْ الشَّيْطٰنُ كَمَا اَخْرَجَ اٰبَوَيْكُمْ مِّنَ الْجَنَّةِ يَزْعُمُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَا ۚ اِنَّهٗ يَرٰكُمْ هُوَ وَقَبِيْلُهُ مِّنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۚ اِنَّا جَعَلْنَا الشَّيْطٰنَ اَوْلِيَّاءَ لِلَّذِيْنَ لَا يُؤْمِنُوْنَ ﴿٢٧﴾﴾ [الاعراف: ٢٧]:

«قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٧) ﴿أي: خلينا بينهم وبينهم، لم نكفهم عنهم، حتى تولوهم وأطاعوهم فيما سؤلوا لهم من الكفر والمعاصي، وهذا تحذير آخر أبلغ من الأول﴾<sup>(١)</sup>.

ويعني الزمخشري بالتحذير الأول قوله سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ يَرْتَكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ ﴿فهما تحذيران -كما رأيت- الأول: التحذير فيه من جهة أن العدو يراك، ولكنك لا تراه، فهو أقدر على الإغارة عليك، وعلى نيل ما يريد منك؛ ذلك لأن رؤيته لك دون رؤيتك له، تمكنه منك. فإذا أردت أن تنجو من حباله وأذاه، فلا بد أن تكون حذراً في كل أحوالك.

الثاني: وأما التحذير الثاني، فمن جهة أن الولاية والمودة، إنما تكون بين الشياطين وبين الذين لا يؤمنون، فهو حث لبني آدم ليتجنبوا ما للشياطين من أساليب.

ولكن وليس معنى الأبلغية أن التحذير الثاني هو أبلغ من حيث الأسلوب من التحذير الأول، فلو أنك أخذت التحذير الأول ﴿إِنَّهُمْ يَرْتَكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ لوجدت فيه دواعي البلاغة متعددة متلاحقة، آخذاً بعضها بيد بعض، ويكفي أن نذكر لك أداة التأكيد (إن) واسمها العائد إلى الشيطان، ثم تكراره ضميراً مستتراً فاعلاً (ليري)، ثم التأكيد بالضمير البارز (هو)، فأنت ترى أنه قد ذكر مرات ثلاث: الهاء في (إنه)، والفاعل الضمير المستتر للفعل المضارع (يرى)، والضمير البارز المؤكد للضمير المستتر (هو)، ولم يأت النظم هكذا «يراكم وقبيله» بعد قوله: ﴿لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تَبِعَهُمَا﴾ إلى غير ذلك مما في الجملة القرآنية من أسرار النظم، وليس الآن مجال تفصيله.

(١) الكشف، ج ٢، ص ٩٨.

إذن ليس المقصود أن الجملة الثانية ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ من حيث هي أبلغ من الأولى، وإنما التحذير في الجملة الثانية أشد من سابقتها، لأنه مرتب عليه، فكل من التحذيرين جاء في مكانه، بحيث لا يستبدل به غيره، بل إن كلاً من التحذيرين في مكانه أبلغ من غيره، فقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرْتَنكُمُ﴾ أبلغ من حيث كونه متقدماً على سابقه. وكذلك التحذير الثاني، أبلغ من حيث كونه متأخراً عنه.

٢- يقول عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧] «أتبع النهي عن عبادة الأوثان، ووصفها بأنها لا تنفع ولا تضر، أن الله عز وجل هو الضار النافع، الذي إن أصابك بضر لم يقدر على كشفه إلا هو وحده دون كل أحد، فكيف بالجماد الذي لا شعور به، وكذلك إن أرادك بخير لم يرده أحد ما يريده بك من فضله وإحسانه، فكيف بالأوثان؟ فهو الحقيق إذاً بأن توجه إليه العبادة دونها، وهو أبلغ من قوله: ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ بِرَحْمَتِهِ﴾ [الزمر: ٣٨]»<sup>(١)</sup>.

وتلك أكبر من سابقتها، ولا بد من أن ننظر إلى سياق كل من الآيتين، فهذه الآية الكريمة جاءت عقب الحديث عن إهلاك المكذبين، وإنجاء المؤمنين، وهي سنة لا تتخلف من سنن الله، ولا يمكنك أن تكره الناس أيها النبي ليكونوا مؤمنين، وأن هؤلاء المكذبين، كان حرياً بهم أن يستعملوا عقولهم، فليتنظروا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم، حيث أهلكوا، وبأس الله شديد. ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٣) قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّكُمُ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٤) وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٥) وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا

(١) الكشف، ٢/ ٣٧٥.

يَنْفَعَكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٦﴾ وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ  
الرَّحِيمُ ﴿١٧﴾ [يونس: ١٠٣-١٠٧].

أما الآية الثانية التي أشار إليها الزمخشري، وذكر بأن آية يونس أبلغ منها - وهي في سورة الزمر - فلقد جاءت في سياق مختلف عن هذا السياق، حيث يقارن فيه بين فريقين ﴿ أَمَنْ هُوَ قَتِيلٌ ءَأَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٩]، ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾ [الزمر: ٢٢]، ﴿ أَفَمَنْ يَتَّبِعِ بَوَجهَهُ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ [الزمر: ٢٤]، ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ ﴾ [الزمر: ٣٢]، ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ﴾ [الزمر: ٣٣]. بعد هذه المقارنات المتعددة مما ذكرناه لك ومما لم نذكره، يقول تعالى: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ ﴿٣٦﴾ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ﴾ ﴿٣٧﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرُّوهُ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ بِرَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَتَّقُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ إِنِّي عَمِلْتُ فَسُوفَ تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٣٩﴾ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٤٠﴾ [الزمر: ٣٦-٤٠].

سياق كل من الآيتين - إذن - مختلف عن الآخر، كان السياق في سورة يونس - كما عرفنا - سياق وعيد وتهديد، بعد أن ذكر الأمم المهلكة، والأقوام المستأصلة، ولكنه هنا في الواقع ليس كذلك، إنه سياق التأنيس، إنه سياق الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، إنه سياق المقارنة بين فئتين من الناس، إنه سياق الإلزام بالحجة، والاعتراف بخلق الله للسموات والأرض.

وإذا أدركت وتذوقت اختلاف السياقين أمكنك أن تدرك لم جاءت كل آية على ما هي عليه؟ في السياق الأول في سورة يونس كان لا بد من أن يبين لسيدنا



رسول الله ﷺ، من أن حرصك على إيمانهم، لن يجدي شيئاً، ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا كلهم مؤمنين بعد أن دعوتهم -إذن- لا بد أن تقطع القول معهم ﴿إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾. واعلم أن إيمانهم لن يجلب لك نفعاً، وأن كفرهم لن يجلب لك ضرراً، واعلم أن إصرارهم على الكفر لن يمكنهم من إيدائك ﴿وَإِنْ يَمَسَّكَ اللَّهُ يَضْرِبْ فَلَاكَ إِشْفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنَّكَ بِرَيْدِكَ يَجْزِيكَ فَلَآ رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: ٧].

أما السياق الثاني، فهو سياق التأنيس، قل لهم بعد أن اعترفوا بأن الذي خلق السموات والأرض هو الله: أفكرتم في أنفسكم؟ فرأيتم أن هؤلاء الذين تدعونهم من دون الله، الذي تعترفون بأنه خلق السموات والأرض، هل تكشف عني ضرراً أراده الله، إن أنا كنت معكم، أو تمنع عني خيراً ورحة أرادها الله لي وأنا أخالفكم، إن حسبي الله وحده عليه يتوكل المتوكلون، فاعملوا يا قوم على مكانتكم، ألا ترى إلى هذا التلطف، ألا ترى إلى هذا التأنيس، ألا ترى إلى هذه الحجج، قل لي بعد ذلك -بربك- غير مجامل، ولا مأخوذ بعاطفة، أتصلح الآية الأولى إلا في الموضع الذي جاءت فيه؟ وهل يمكن أن نغير النظم، أتصلح الآية الثانية في غير الموضع الذي جاءت فيه؟ ثم هل يمكن أن ندعي -كما زعم الزمخشري عفا الله عنه- بأن إحداها أبلغ من الأخرى؟ إن مثل هذا الادعاء، كالذي يدعي أن الأسنان العليا الحاجة إليها ماسة، أكثر من الأسنان السفلى، أو أن الرجل للإنسان أكثر لزوماً من اليد، أو أن فصل الصيف يمكن أن تكون الحاجة إليه أكثر من فصل الشتاء، وإذا كان هذا ليس ممكناً، فإنه لا يمكن أن يقال: إن هذه الآية أبلغ من تلك، أو أن تلك أبلغ من هذه.

ولنواصل الحديث مع الزمخشري رَحِمَهُ اللهُ.

٣- يقول عند قوله تعالى: ﴿يُصْهِرُ بَصِيرَتَهُمَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ [الحج: ٢٠]: «يصهر يذاب. وعن الحسن بتشديد الهاء للمبالغة، أي: إذا صبَّ الحميم على

رؤوسهم كان تأثيره في الباطن نحو تأثيره في الظاهر، فيذيب أحشاءهم وأمعاءهم، وهو أبلغ من قوله: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ (١٥) [عند: ١٥] (١).

ولكننا نقول: كل من الآيتين في موضعها أبلغ، بيان ذلك:

إن هذه الآية جاءت في سورة الحج، المختلف في مدنيتهما، والذي يعيننا أن الآية جاءت في سياق الحديث عن الكافرين، الذين أبوا الإيمان، فأهانهم الله ﴿وَمَنْ يُهِنْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨] فتكلمت عن أنواع العذاب، فالذين كفروا قُطعت لهم ثياب من نار، وليس هذا فحسب، فهناك عذاب آخر ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُمْ مَقْعٌ مِنْ حَدِيدٍ (٢١) ... إلخ الآيات. ثم ذكرت جزاء المؤمنين فأوجزت، لكن الآية الثانية على العكس من هذه، الآية في سورة سيدنا محمد ﷺ، سورة القتال، ولنستمع ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ (١٥) [عند: ١٥].

فأنت تلاحظ أن سياق الآية هنا، جاء حديثاً عن الجنة، وتفصيلاً لما فيها من أنواع الأنهار، التي أُكْرِمَ المؤمنون بها، وأن هذا لا ينبغي أن يوازن بمن هو خالد في النار وسقوا ماء حميماً فقط أمعاءهم. وسياق الآية هنا -إذن- لم يأت تفصيلاً لهذه الشدائد التي سيلقاها المعرضون يوم القيامة.

لا نستطيع أن نقول -إذن- إن ذاك أبلغ من هذا، وإنما يمكن أن نقول: إن الشدة التي عبرت عنها الآية الأولى، كان يقتضيها السياق الذي جاءت فيه، ولكن نظم الآية الثانية، جاء منسجماً مع سياقها.

(١) الكشف، ٣/ ١٥٠.

٤ - يقول عند قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَكَّتْهُ فِي الْأَرْضِ وَلَنَا عَلَى ذَهَابِهِمْ لَقَدِيرُونَ﴾ ﴿١٨﴾ [المؤمنون: ١٨].

﴿عَلَى ذَهَابٍ﴾ من أوقع النكرات وأحزها للمفصل. والمعنى: على وجه من وجوه الذهاب به، وطريق من طرقه. وفيه إيذان باقتدار المذهب، وأنه لا يتعالى عليه شيء إذا أراحه، وهو أبلغ في الإيعاد، من قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَن يَأْتِيَكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ﴾ ﴿٣٠﴾ [الملك: ٣٠]، فعلى العباد أن يستعظموا النعمة في الماء، ويقيدوها بالشكر الدائم، ويخافوا نفاذها إذا لم تشكر<sup>(١)</sup>.

وقد تفننوا هنا في ذكر الأوجه التي كانت فيها الآية الكريمة أبلغ من الآية الثانية، فنقلوا عن صاحب التقريب ثمانية عشر وجهاً ثم أوصلها صاحب روح المعاني إلى اثنين وعشرين، ثم نقل عن العلامة الشيخ محمد الراوي حتى أوصلها إلى ثلاثين وكانوا -ساعدهم الله وجزاهم خيراً-، في غنى عن ذلك كله، فلكل من الآيتين سر نظمها، ونظام سرها، لتكون كل في موضعها درة العقد، وآية السعد. وأكتفي هنا بما قاله الشهاب الخفاجي رحمته الله. قال: «واختيرت المبالغة هنا لأن المقام يقتضيها، إذ هو لتعداد آيات الآفاق والأنفس، على وجه يتضمن الدلالة على القدرة والرحمة مع كمال عظمة المتصف بهما، ولذا ابتدئ بضمير العظمة مع التأكيد بخلاف ما ثمة، فإنه تميم للحث على العبادة والترغيب عما هو فاني، لا يتوهم أنه عدل عن الأبلغ ثمة، لأنه أبلغ في مقامه كما فصله في الكشف»<sup>(٢)</sup>.

وهكذا يتبين مما نقله الشهاب رحمته الله عن صاحب الكشف للقزويني رحمته الله أن الأبلغية ليست لذات الآية على غيرها، وإنما لأن المقام يتطلب هذا، فلقد جاءت في بيان تعداد الآيات في هذا الكون، الدالة على قدرة الله. أما الآية الأخرى وهي

(١) الكشف، ٣/ ١٨٠

(٢) حاشية الشهاب على البيضاوي، ج ٦، ص ٣٢٥.

آخر آية في سورة الملك ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ ﴿٣٠﴾  
[الملك: ٣٠] فقد جاءت في سياق الحث على الإيمان، وبيان أن الناصر والرازق، والمنشئ هو الله وحده، كما يظهر هذا من السورة الكريمة.

ونكتفي بما نقلناه لك عن الزمخشري في هذه القضية، لأن هدفنا ليس الاستيعاب، وإنما أردنا أن ننبهك على هذه القضية ذات الشأن، فإذا رأيت ما يشابهها عنده أو عند غيره، فترجو أن يكون ما عرفته معيناً لك على حُسن التصرف. وبعد فيطول بنا المقام، لو أردنا أن نستعرض القضايا القرآنية على تعددها، ويغني عن ذلك قوله سبحانه ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلَهُ﴾ [الإسراء: ١٠٥] فالقرآن في أعلى المراتب سواء من حيث كلماته، أم من حيث نظمه، أم من حيث تناسب معانيه وتناسقها بحيث لا تجد فيها اختلافاً ولا تناقضاً ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَكُنْ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] أم من حيث بلوغ الغاية التي ليس بعدها غاية، في أحكامه التشريعية، وأخباره التاريخية، وبراهينه العقدية، وإشاراته العلمية، ولمحاته الكونية، وقيمه الخلقية والاجتماعية، وتوجيهاته في شؤون الإنسان جميعها، أياً كان مولده ونشأته، وأياً كان لونه وبيئته، وأياً كان عصره ومصره.



## أسلوب القرآن

الأسلوب هو الطريقة التي يصوغ بها كل متكلم حديثه، والنهج الذي يتبعه في كلامه وقوله، ومن هنا كان الأسلوب خاضعاً لنفسية المتكلم وثقافته من جهة، وللموضوع الذي يتحدث عنه من جهة ثانية. وإذا كانت الفصول السابقة قد خصصت للكلمة، والجملة، والفقرة القرآنية، وللحديث عن السورة من حيث ترابط موضوعاتها، ولما بين السور من صلات ووشائج، فإننا في هذا الفصل سوف لا نحدثك عن شيء من هذا كله، وإنما نحدثك عن طريقة القرآن التي امتاز بها وهو يقرر موضوعاته الكثيرة المتعددة، وستجد أن القرآن كما هو معجز فيما مضى، فهو معجز كذلك في أسلوبه وطريقته، وقد قدمنا لك كلام الخطابي رحمته الله وهو يقسم البلاغة إلى الجزالة، والعذوبة، والسهولة، والفخامة، وكيف أن القرآن اشتمل على هذه الأقسام جميعها.

ولقد تعود الناس وهم يتحدثون عن الأساليب أن يذكروا أن هناك أسلوباً صعباً، وآخر سهلاً ميسراً، وأن من الأساليب الأسلوب الأدبي الممتع، الذي يحرك القلوب، ويذكي الوجدانات، ويثير العواطف، ومنها ما هو على العكس من ذلك، فهو يقنع العقل، وينمي الفكر، ويصدع بالحجة، كما أن من هذه الأساليب ما يغلب عليه طابع الإيجاز والإجمال، ومنها ما يمتاز بالإسهاب والبيان والإطناب. لذلك تجد الناس تنوعت ميولهم لهذه الأساليب، فما يرضي الخاصة لا يرضي العامة وما يقنع به غير المتعلمين لا يقنع المتعلمين.

هذه حقائق لا مرء فيها ولا غموض، ولكننا حينما نتبع نهج القرآن نجده فريداً في أسلوبه. وإليك بيان ذلك:

## ١- الإقناع والإمتاع:

وكما عودناك من قبل، نذكر لك بعض الأمثلة لتهندي بنورها، ولتكون أساساً لك تتبعه في الوقوف مع ما شئت من آي القرآن الكريم، فإذا كان الإقناع والإمتاع أمرين مختلفين في الأسلوب، فإننا نجد أن القرآن الكريم يجمع بينهما، بحيث تجد في الآيات الكريمة ما يتسابق إليها عقلك وعاطفتك معاً.

فمن حيث الإقناع تجد البرهان القاطع، والحجة الدامغة، والدليل المحكم، ومن حيث الإمتاع تجد روعة التأثير، والتصوير البارع، وصدق الانفعال. اقرأ هذه الآيات الكريمة.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخْلَقَةٍ وَغَيْرِ مُخْلَقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يُّتُوفٍ وَمِنْكُمْ مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَنَرَى الْأَرْضَ هَامِدةً فَلَمَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتِ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾

[الحج: ٥-٧].

وتدبر هذه الآيات الكريمة جيداً، وستجد أنها ليست أسبق من قلبك لعقلك، وليست أسبق من عقلك لقلبك كذلك. أما من حيث الإقناع، فستجد أن الآيات الكريمة تسلسلت بك تسلسلاً منطقياً، فلماذا يرتاب الناس في البعث، ومن حقهم أن ينظروا إلى أنفسهم وأصل نشأتهم، فهذه المادة الحية في كيانهم ليست إلا تراباً، ولقد أثبت العلم التحليلي أن عناصر جسم الإنسان لا تزيد على ما في هذه الأرض من عناصر، ثم إن هذا الإنسان قد أدرك بالبديهة كيف نشأ بعد أن لم يكن شيئاً، وكيف نما وترعرع منذ أن كان نقطة في الرحم، إلى أن بلغ أشده بشراً سوياً، ثم كيف تزول تلك النضارة وتتلاشى تلك القوة حينها يُردّ إلى أردل العمر. ولماذا

يرتاب الإنسان في البعث؟ وهذه الأرض من حوله، تبدو هامة خاشعة قاحلة، ولكنها وقد نزل عليها الماء تغير كيائها، واهتزت وربت وأنبتت من كل الثمرات. وتلك حجج نوقن أن الفلسفة بكل ما تضمنته من مقدمات ونتائج، وما بحثته من وسائل وغايات، لن تبلغ ما بلغته هذه الأدلة، من صحة تركيب، وجمال ترتيب، وحسن تبويب، هذا من حيث الإقناع.

أما من حيث الإمتاع فإنك واجد أنت من نفسك وعاطفتك ما أعجز أنا عن وصفه، إنها لا ريب تثير وجدانك، وتنمي عاطفتك وتهذبها، وما ذلك إلا بهذا الأسلوب الذي اتبعته الآية الكريمة، إنها بحق تهز النفس كما تهتز الأرض حينما ينزل عليها الماء.

وهكذا نجد في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ۝ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ. قَالَ مَنْ يُنحِ الْعَظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقَدُونَ ۝ (٨٠) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ۝ (٨١)﴾ [يس: ٧٧-٨١].

ومثل هذا الإقناع والتأثير تجده في قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ۝ (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝ (٧) وَخَلَقْنَاهُ أَزْوَاجًا ۝ (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝ (٩) وَجَعَلْنَا أَلِيلَ لَيْلًا سَاسًا ۝ (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ۝ (١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝ (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝ (١٣) وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ۝ (١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝ (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ۝ (١٦)﴾ [النبا: ٦-١٦].

وكما نجد هذا الإقناع والامتاع في الأدلة على البعث، نجد ذلك في الأدلة على الوحدةانية كذلك، واقرأ هذه الآيات: ﴿وَاللَّهُمَّ إِنَّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ۝ (٣٣) إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ أَلِيلٍ وَالنَّهَارِ وَالْفَلَاحِ أَلَيْ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ



وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِينَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ لَا يَسْتَرْ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٦٤﴾ [البقرة: ١٦٤]، وقوله سبحانه: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَكَاتِ السَّجْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْقِطُ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩].

والحق أن هذه الآيات جميعاً، تظهر فيها بلاغة الإقناع بما لا مزيد عليه، كما تتجلى فيها بلاغة الإمتاع. وإذا كانت البلاغة أن يكون وصول اللفظ إلى أذنك، ليس بأسرع من وصول المعنى إلى قلبك، فإن هذا ما تحس به في هذه الآيات جميعاً، وهذا لا يمكن أن يجتمع لغير هذا الكتاب الخالد.

ويطول بنا المقام لو عمدنا إلى التفصيل، وقضية الأسلوب قضية ترتكز أول ما ترتكز إلى الذوق.

## ٢- الجزالة والعدوبية:

وكما أن الأسلوب القرآني، تبرز فيه بلاغة الإقناع، ونضارة الإمتاع؛ وهما أمران ينتسب كل منهما لغير ما ينتسب إليه الآخر، فالأول ينتسب إلى العقل والفكر، والثاني يتصل بنسبه بالعاطفة والمشاعر، الأول إلى القوة المفكرة، والثاني إلى القوة المتأثرة، فإن هذا الأسلوب يمتاز كذلك بأمرين مختلفين جهة ونسباً، وباعثاً وسبباً، أعني بهما الجزالة والعدوبية، وهما أسلوبان امتاز بهما كلام العرب.

فالجزالة هي القوة من قولهم: «خطب جزل» وهو ما لا تأكله النار بسهولة وبعد استعمال هذا اللفظ في الماديات، استعملوه كعادتهم في المعنويات، فأطلقوا الجزالة على الأسلوب القوي، وهو ما كانت جملة وكلماته تفرغ القلوب قرعاً، وتصحّ الآذان، بما لها من زجاجة ووقع، وقوة صدع وشدة دفع. ذلكم هو الأسلوب الجزل الفخم، وهذا يظهر أكثر ما يظهر عند أهل البادية الذين لم تشذبه الحضارة، أو عند من أراد تقليد هؤلاء في كلامهم، كقصيدة بشار:

بَكْرًا صَاحِبِي قَبْلَ الْهَجِيرِ إِنَّ ذَاكَ النِّجَاحَ فِي التَّبَكِيرِ  
التي بناها أعرابية خالصة - كما يقول -<sup>(١)</sup>.

وعلى العكس من هذا الأسلوب، فهناك الأسلوب السلس، العذب، السهل؛ وهو ما كانت كلماته وجمله رقيقة الحواشي، فيها من الرقة وجمال الوشي ما يلذ به السمع، ويأنس له الطبع. ويظهر هذا أكثر ما يظهر في كلام أهل الحواضر، الذين هُذِّبَتْ عندهم ألحاظ الألفاظ، فخلصت أساليبهم من كل شواظ.

وإذا أردت الفرق بين الأسلوبين، فما لك إلا أن تعتمد إلى المفضليات، وكثير من حماسيات أبي تمام، فإنك تجد أن الأولى -المفضليات- يظهر في أكثرها الأسلوب الأول، أسلوب الفخامة والجزالة، وأن كثيراً من حماسيات أبي تمام تجد فيها السلاسة والرقة والعذوبة.

والقرآن الكريم جمع هذين الأسلوبين معاً، فبينما تجد كلماته تفرق القلوب وتصدع الأفئدة، فإنك مع ذلك تجد المفرح المؤنس، وما ذلك إلا لاختلاف المقامات، وأن لكل مقام مقالاً، وليس هذا فحسب بل الأعجب من هذا أنك تجد القطعة الواحدة من الكلام يظهر فيه هذان الأسلوبان، اقرأ سورة الحاقة مثلاً، وانظر إلى الأسلوب القوي، كأنها هو أوامر مشددة، وقذائف مصوبة مسددة، تجد هذا مثلاً في الحاقة، والقارعة، والطاغية، وحسوماً، وصَرَغَى، وإعجاز، وخاوية، وأخذه رابية، وطغى الماء، ودكتا دكة واحدة، فهي يومئذ واهية. ولكنك إلى جانب هذه الكلمات والجمل والتراكيب، ذات القوة الشديدة الصدع، نجد إلى جانب ذلك روعة الرجوع في العيشة الراضية، والقطوف الدانية، واللجنة العالية، والأيام الخالية. وهكذا لو سرت مع السورة الكريمة متأملاً لرأيت ذلك كله.

---

(١) راجع: دلائل الإعجاز، ص ٢٧٢.

وخذ سورة الإنسان ﴿هَلْ أَتَى﴾ وستجد مع السلاسل والأغلال والسعير،  
وعبوساً قمطريراً. ولكن مع ذلك ستجد سلسيلاً وكأساً كان مزاجاً كافوراً،  
ونضرة وسروراً، وجنةً وحريراً.

تلك قضية -بحق- يمتاز بها القرآن الكريم وحده، وما لك إلا أن تتدبر  
سورة المرسلات وسورة النازعات، وإلى جانب ذلك الذاريات والصفافات، لتجد  
أسلوب الفخامة والجزالة يغلب على السورتين الأوليين، والعذوبة والسلاسة  
تغلب على السورتين الآخرين، وإنما اخترت لك هذه السور المكية، حتى لا تظن -  
كما توهم الكثيرون فأخطؤوا- أن الجزالة والفخامة إنما هي في القرآن المكي، وأن  
السلاسة والعذوبة تغلب في القرآن المدني، أو أن الفخامة في آيات الشدة فحسب،  
والحق أنهما صفتان في كتاب الله يمتاز بهما أسلوب القرآن.

## ٢- الإيجاز والإطناب:

ومن عجيب أمر القرآن أنه جمع في أسلوبه بين أمرين، لا أقول كالمتضادين،  
وإنما هما متضادان بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى، ونعني بهما الإيجاز  
والإطناب -كما هو اصطلاح علماء البلاغة، أو هما القصد باللفظ، والوفاء بالمعنى،  
كما سماهما أستاذنا الدكتور محمد عبدالله دراز رحمته الله. والحق أن القرآن يستثمر أقل  
قدر ممكن من اللفظ، في أكبر قسط من المعنى. ولا تظن أننا نقف عند تلك  
العبارات الجامعة التي بهرت الألباب، لنكتفي بها، فنكرر ما قرره المتقدمون، فكرره  
المتأخرون كقوله سبحانه ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]، وقوله: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ  
وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقوله: ﴿لِكُلِّ نَبَلٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ [الأنعام: ٦٧]، وقوله: ﴿خُصَّصُوا نَحِيَّتًا﴾  
[يوسف: ٨٠]. إلى غير ذلك من العبارات الكريمة، التي نجدها في كتب المتأخرين  
والمتقدمين، فنحن -والحمد لله الأجود، والله الحمد بها أرشد- قد عودناك في هذا  
الكتاب أن نأتيك بما تغلب عليه الجدة بما وفق الله وألهم، الجدة من حيث التمثيل  
والتعليل -كما رأيت في الفصول السابقة-؛ ذلك لأن الهدف من هذا الكتاب أن

يكون داني القطوف، سهل التناول، نقبس فيه من أقوال السابقين مما نعتف لهم به فضلاً، ولكننا نمتع النفس في روضات الآيات، ونرجو أن نكون قد أسهمنا بنصيب نسأل الله أن يأجرنا عليه، وأن يكون للقارئ فيه ما يكشف عن وجه الإعجاز، ومعدرة عن هذا الاستطراد، ولنرجع إلى حديثنا عن الإيجاز.

إن أي عبارة من كتاب الله تعالى إذا تأملتها، وجدت أنها وافية بالمعنى مع قلة الألفاظ، وقد يرجع ذلك إلى اختيار الألفاظ - كما حدثناك من قبل - كمجيء الرب في قوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢]، فإنها لا تغني عنها كلمة الشك - كما عرفت - ولو استعملت كلمة الشك لاحتاجت معها إلى كلمات أخرى، وككلمة الفعل في قوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور: ٤١]، وكلمة القيام في قوله: ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ [البقرة: ٢٠]، والوقوف في قوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٣٠].

وقد يرجع إلى سر التركيب والنظم، وما التقديم والتأخير، والتعريف والتنكير، وغيرها من الأساليب إلا شاهد صدق، وبرهان حق على هذا الإيجاز، ألا ترى إلى قوله سبحانه: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [١٢٨] فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ [١٢٩] [النور: ١٢٨-١٢٩]، وإلى قوله سبحانه: ﴿وَلَنَجْذِثَهُمْ أَخْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاقٍ﴾ [البقرة: ٩٦]، وإلى قوله: ﴿وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقوله: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلْ﴾ [الإسراء: ١٠٥]، وغير ذلك مما لا تنفرد به آية دون آية من كتاب الله، لو أردت أن تعبر عن معناه، وأن تأتي لهذا المعنى بالألفاظ الدالة عليه، لاحتجت في كل آية أو جملة إلى أضعاف ما اشتملت عليه من الكلمات، ففي الآية الأولى مثلاً تجد التنكير في كلمة (رسول) و(عزيز) و(حريص) و(رؤوف) وتجذ القسَم المحذوف الذي دل عليه قوله: (لقد)، وتجذ التقديم في قوله: (عليه توكلت) وتجذ التعريف في قوله:

(العرش العظيم). وفي الآية الثانية تجد التوكيد والقسم والضمير في قوله: (ولتجدنهم)، والتنكير في قوله: (حياة)، وهكذا في الآيات الباقية، ولتكن على ثقة كما قلت لك، من أن إصابة المعنى ووفاءه، تحتاج منك إلى أضعاف مضاعفة لهذه الكلمات والألفاظ.

وقد يكون الإيجاز ناشئاً عن غير هذين السببين، - أعني الألفاظ والتراكيب - وإنما يكون ناشئاً عن حذف كثير من الجمل، التي تعلم من طيّ الكلام، وهذا ما امتاز به الكتاب الكريم، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَنْفَوْرُ اتَّبِعُوا الْوَرَسَايَا ۖ﴾ (٢٠) ﴿اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْتَلْكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ۖ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۚ﴾ (٢١) ﴿أَتَأْخُذُ مِنْ دُونِهِ ۚ إِلَهَةٌ إِنْ يُرَدِّدِ الرَّحْمَنُ يَضِرَّ لَّا تُغْنِي عَنْهُمْ شَيْئًا وَلَا يُفْقَدُونَ ۚ﴾ (٢٢) [يس: ٢٠-٢٣]، فأنت حينما تقرأ هذه الآيات، تدرك أن جملاً كثيرة قد حذفت، إذ ماذا قالوا له بعد أن قال لهم: ﴿اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْتَلْكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ۖ﴾ (٢٠) كأنما قالوا: أنترك آلهتنا لما تدعوننا إليه، لا ينبغي أن نستمع إليك، فنحن جماعة وأنت واحد، فأنت الحري بأن تتبع آلهتنا وترك إلهك، فردّ عليهم بقوله - كما حدثنا القرآن - ﴿أَتَأْخُذُ مِنْ دُونِهِ ۚ إِلَهَةٌ ۖ﴾ . وهكذا تجد أن القرآن حذف كثيراً، مما يجب أن يحذف، ومما يفهم من السياق. وهذا كثير في كتاب الله تعالى، ونقلنا لك شيئاً منه من قبل.

#### ٤- الإجمال والبيان:

ومن خصائص الأسلوب القرآني الإجمال والبيان، وهذه تختلف عما قبلها، فالذي نقصده من الإجمال والبيان، غير الذي نقصده من الإيجاز والإطناب، بيان ذلك:

إن الكلام المجمل ما لا تفصيل فيه، والكلام المبيّن هو الكلام المفسر، وإذا تأملت كتاب الله تبارك وتعالى وجدت هاتين ظاهرتين فيه، فحينما تقرأ الآية

الكريمة، تشعر أنها مبينة لا تحتاج إلى مزيد قول، ولا إلى كثير شرح. ولقد نقل الشيخ محمد أبو زهرة رحمته الله عن بعض شيوخه: «بأن القرآن ليس بحاجة إلى تفسير، لأنه مفصل المعاني، مبين الأهداف». ولكنك إذا أنعمت النظر مرة أخرى، ورجعت البصر كرتين، وجدت أن هذه الآية المحكمة المجملة، بحر لا ساحل له، فما أحوجك أن تقف أمام كل كلمة فيها، وعند كل جملة من جملها، ووجدت أنها تمدك بمعانٍ كثيرة، كل معنى له وجه من التأويل صحيح، وتلوح عليه مسحة إشراق، وما لك إلا أن تقرأ سورة الفاتحة، وستجد أن معانيها تنساب إلى قلبك انسياباً، كالماء العذب، ولكنك حينما تقف أمام كلماتها ستجد أنها بحاجة إلى وقرّ جمل - كما يقولون -.

قف مع قوله سبحانه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۝١ قَيِّمًا﴾ [الكهف: ١-٢]، وقف عند ما قاله المفسرون في قوله: (قيماً) وستجد أنها معانٍ محتملة صحيحة، فهل هو قيم بما يحتاجه الناس من مصالح في دنياهم وآخرتهم، أي يشمل هذه المصالح جميعاً أو هو قيم على ما سبقه من الكتب ومهيمن عليها، أم هو قيم بمعنى أنه سليم، من كل اعوجاج أياً كان حجمه وقدره - وهكذا قوله سبحانه ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ﴾ [الكهف: ٥].

وهذا قول الله تعالى: ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾ [الضحى: ٤]، فإنك يمكنك أن تؤولها بالآخرة والأولى، وهما الداران: دار الدنيا ودار الآخرة، ويمكن أن تكون الآخرة والأولى خاصتين برسالته عليه السلام في هذه الدنيا. وقوله تعالى: ﴿إِنَّا سُلِّقْنَا عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [الزلزال: ٥]. فثقيلاً قد تعني أن القرآن الكريم ينطوي على تكاليف شاقة ثقيلة على المكلفين، لا سيما على الرسول عليه السلام، وقد تكون (ثقيلاً) أنه رصين لرزانة لفظه ومتانة معناه، أو أنه ثقیل على المتأمل فيه لافتقاره إلى مزيد تصفيته للسرد وتجريد للنظر، أو ثقیل في الميزان أو على الكفار والفجار، أو ثقیل تلقيه، فعن عائشة رضي الله عنها «رأيتُه ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم

عنه، وأن جبينه ليتفصد عرقاً<sup>(١)</sup>. وهذا كثير يمكن أن تجده في أي كتاب من كتب التفسير، وننبهك أننا لا نعني التأويلات البعيدة عن روح الآية، وإنما حديثنا عما يتفق مع سياق الآيات وروحها.

وما ذكرناه خاص بكتاب الله لن تجده في أي كتاب آخر، خذ أي قول مهما بلغ من الروعة والدقة، وحسن النسق، ووفاء المعنى، وحاول أن تقلبه على وجوه كثيرة، وسوف تجد أن المعنى الذي تصورته أنت، وفسرته به، هو نفسه الذي قاله من قبلك وإن اختلف الناس في شرحه وتفسيره، فإنما يختلفون من حيث الأسلوب والإيجاز والإطناب فحسب، أما القضايا الجوهرية الرئيسة فهي واحدة؛ اختر قطعة من الشعر، وحاول أن تكون لشاعر مبدع تعاقب على ديوانه شراح كثيرون، واقرأ هذه الشروح جميعاً، فإنك ستجد ما قلته لك، قد يختلفون من حيث الإعراب، والإطالة في شرح الكلمات، أو ما في الجمل من استعارات وتشبيهات، أما غير ذلك فهم فيه سواء، وأين هذا من كتاب الله تبارك وتعالى، الذي تعطيك الجملة الواحدة منه، عطاء غزيراً، لا ينضب ماؤه، ولا يذهب رواؤه وبهاؤه، وسأختار لك قطعة كانت -كما يعترف الأدباء والنقاد- زبدة نتاج شاعر، طبق الآفاق ذكره وشعره، حتى قال عن نفسه:

وما الدهر إلا من رواة قصائدي      إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشداً  
ذلكم هو المتنبي. أما القصيدة التي أختارها لك، فهي قوله:

|   |   |
|---|---|
| وَعَنَاهُمْ مِنْ شَأْنِهِ مَا عَنَانَا  | صَحِبَ النَّاسَ قَبْلَنَا ذَا الزَّمَانَا     |
| هُوَ وَإِنْ سَرَّ بَعْضُهُمْ أَخْيَانَا | وَتَوَلَّوْا بَغْضَةً كُلُّهُمْ مِنْـَا       |
| هُوَ وَلَكِنْ تُكَدِّرُ الْإِحْسَانَا   | رُبَّمَا تُحْسِنُ الصَّنِيعَ لِبَالِـَا       |
| رَحْتَى أَعَانَهُ مَنْ أَعَانَا         | وَكَاثَا لَمْ يَرْضَ فِينَا بِرَبِّ الدَّهـَا |

(١) أخرجه البخاري، ٢.

كُلَّمَا أَتَيْتَ الزَّمَانَ قَنَاءً      رَكَّبَ الْمَرْءُ فِي الْقَنَاءِ سِنَانَا  
ومرأى النفوسِ أصغرُ من أن      نَعَادَى فِيهِ وَأَنْ نَتَفَانِي  
غَيْرَ أَنْ الْفَتَى يُلَاقِي الْمَنِيَا      كَالْحَيَاتِ وَلَا يُلَاقِي الْهُوََانَا  
وَلَوْ أَنَّ الْحَيَاةَ تَبْقَى لِحَيٍّ      لَعَدَدْنَا أَضْلَانَا الشُّجْعَانَا  
وَإِذَا لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمَوْتِ بُدٌّ      فَمِنْ الْعَجْزِ أَنْ تَكُونَ جَبَانَا  
كُلُّ مَا لَمْ يَكُنْ مِنَ الصَّعْبِ فِي الْآتِ      نَفْسٍ سَهْلٌ فِيهَا إِذَا هُوَ كَانَا

يقول الأستاذ عبدالرحمن البرقوقي معلقاً على هذه القصيدة: «وبعد فقد وفق المتنبي في هذه القطعة كل التوفيق، ولعل شيطانه ممن كانوا يسترقون السمع، فتلقي هذه الآيات من ذات الرجح - السماء - فكأنها المعنية بقول حسان بن ثابت:

وَقَافِيَةٍ عَجَّتْ بَلِيلَ رَزِينَةٍ      تَلَقَّيْتُ مِنْ جَوِّ السَّمَاءِ نُزُولَهَا»<sup>(١)</sup>

ولكن مع ما لها من جودة، ومع ما فيه من قوة تأثير؛ فإن ما أعطته من معنى حينما قيلت هو ما تعطيه اليوم كذلك، وخذ شراح المتنبي على اختلاف بيئاتهم وثقافتهم وأزمنتهم، فإنهم لن يعطوك معنى جديداً، وكذلك من يأتي بعد من شراح - إن قُدِّرَ للديوان أن يُشرح - وأين هذا من كتاب الله، الذي لا تنقضي عجائبه، وتجدد الجدة من أبرز صفاته ومميزاته، وهذه الجدة تشترك فيها الكلمات والجمل على السواء.

ومن هذه الخصائص التي ذكرتها لك إمتاعاً وإقناعاً، وجزالة وعذوبة، وإيجاز لفظ ووفاء معنى، إجمالاً وبياناً، من هذا تدرك السر الذي من أجله تجدد القرآن الكريم يجد كل واحد فيه بغيته، الخاصة والعامة، والمتقفون أياً كانت ثقافتهم، لونا وجهة، والمتعلمون مهما كان نصيبهم من العلم، أولئك جميعاً يجد كل في القرآن

(١) شرح ديوان المتنبي، ج ٤، ص ٣٧٢.



الكريم ما يؤثر في نفسه، ويشحذ همته، ويبعث فيه الأمل، أو الخوف على حسب ما يقرأ من آيات.

والحق أنني لا أود أن أطيل الحديث في هذا الفصل، لما نقلته لك في الجزء الأول من أقوال الأئمة، ولأنه يعتمد أكثر ما يعتمد على الذوق، ولا تنس ما لجرس هذا القرآن من قوة تأثير، وروعة إيقاع. وصدق الله ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانٍ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (الزمر: ٢٣).

## البَـصِـرَةُ الثَّانِي عَشْرِينَ

### الفاصلة القرآنية

يقصد بالفاصلة القرآنية ذلك اللفظ الذي ختمت به الآية، فكما سموا ما ختم به بيت الشعر قافية، أطلقوا على ما ختمت به الآية الكريمة فاصلة، وإنما ذكرنا هذا الفصل في الإعجاز البياني؛ لأنه لا ينفك عما قبله من فصول، فالحق أن أمر الفاصلة من أعظم مظاهر الإعجاز القرآني، إنها لا تقل في هذا الشأن عن اختيار الكلمات، أو التقديم والتأخير، والحذف والذكر، بل إن أمر الإعجاز يمكن أن يكون فيها أكثر ظهوراً، وأشد تأثيراً على النفس، وأعظم إقناعاً للعقل، وألذ إمتاعاً، وأروع إقناعاً.

وقد ذكر الجاحظ في البيان التبيين «حدثوا أن رجلاً في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرأ «فإن زلتم من بعدما جاء تكلم البيئات فاعلموا أن الله غفور رحيم» فقال أعرابي: لا يكون. وفي رواية أخرى أنه قال: إن كان هذا كلام الله فلا يقول كذا الحكيم، لا يذكر الغفران عند الزلل، لأنه إغراء عليه»<sup>(١)</sup>.

وروي أن أعرابياً سمع رجلاً يقرأ: وحملناه على ذات ألواح ودسر، تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر، بفتح الكاف، فقال الأعرابي: لا يكون، فقرأها عليه (كُفِّر) بضم الكاف<sup>(٢)</sup> وكسر الفاء، فقال الأعرابي يكون<sup>(٣)</sup>.

(١) ج ٢، ص ٢٦٩.

(٢) قال الزمخشري: «كُفِّر» هو نوح عليه السلام، وجعله مكفوراً؛ لأن النبي نعمة مكفورة. قال الله تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (١٧١) [الأنبياء: ١٧١] فكان نوح عليه السلام نعمة مكفورة. ومن هذا المعنى يحكى أن رجلاً قال للرشيد: الحمد لله عليك، فقال: ما معنى هذا الكلام؟ قال: أنت نعمة حدث الله عليها. الكشاف، ٣٥/٤.

(٣) ج ٢، ص ١٧٤.

هذا ما ذكره الأعرابي بطبعه وسليقته وسجيته، ولكننا وجدنا أناساً في القرن العشرين، وقفوا غير هذا الموقف، نحن لا ننكر على الناس أن لا يعلموا كل شيء، ولكننا ننكر أن يدّعو علم كل شيء. نحن لا نعجب، ولا نستعجب أن يردّ الحق خصوم اللّاء، عرفوا بتعصبهم وتحيزهم. نحن لن نفاجأ إن سمعنا من مبشر حاقد، أو مستشرق جاحد، إن سمعنا من هذا أو ذاك طعناً على كتاب الله، ودين الله. لكن الذي كنت لا أوده أنا وأنت أيها القارئ معاً، أن نجد مصدراً من مصادر المعرفة، طالما رَوّج له أصحابه، وأحاطوه بهالات فخمة من الإجلال والتبجيل، وسوروه بأسوار البحث العلمي، والنزاهة، وألبسوه لباس الحقيقة، بل عدوه حصناً من حصون المعرفة، أن نجد من وصفوه بهذه الصفات، بعيداً عن ذلك كله، بل هو فوق ذلك ممعن في الافتراء، بعيد عن النزاهة في البحث، منافٍ لقواعد العدل، وأسس المنطق؛ تلك دائرة المعارف البريطانية. ففي حديثها عن مادة قرآن، والتي كثرت فيها الافتراءات والتخبط، بل ظهر فيها الحقد في مواضع كثيرة، والتي سنخصص لها كتاباً خاصاً بها إن شاء الله<sup>(١)</sup>، ولكن الذي يعيننا الآن هو ما جاء عن الفاصلة القرآنية في هذا السفر حيث جاء ما يلي:

«وكان القرآن يعطي للقارئ انطباعاً بأنه مجرد إنشاء جاء بطريقة عشوائية، ويؤكد صحة ذلك طريقة ختم هذه الآيات، بآيات مثل «إن الله عليم»، «إن الله حكيم»، و«إن الله يعلم ما لا تعلمون»، وإن هذه الأخيرة لا علاقة لها مع ما قبلها، وأنها وضعت فقط لتمام السجع والقافية».

ما أشبه هذا القول بمن يدعي أن النظام في هذا العالم، كان على غير حكمة وتقدير، فوجود الشمس أبعد من القمر عن الأرض، ونسبة اليابسة أقل من نسبة الماء في هذه الأرض، وقصر النهار وطول الليل في فصل الشتاء، وعكس ذلك في

---

(١) وقد كتب ﷺ كتاباً بعنوان «قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية» ناقش فيه كل صغيرة وكبيرة مما ورد في هذه الموسوعة من افتراءات.

الصيف، ووجود العينين في الوجه، ووضع اليدين في المكان الذي وضعتا فيه، ووجود بعض الأعصاب والأجهزة في الإنسان، واختلاف الأكسجين في أعلى طبقات الجو عنه على ظاهر الأرض، كل أولئك أمور لا حكمة فيها، ولا ضرورة لها، إنما هي أمور جاءت هكذا، فهي ألصق بالفوضى، وأبعد ما تكون عن الدقة. أي والله إن ذاك القول وهذا سواء؛ ذلك أن الدقة في الفاصلة القرآنية والترتيب المحكم، والنظام البديع، لا يقل عما في هذا الكون، فخالق الكون ومنزل القرآن هو الله، الذي أتقن كل شيء. وكان حرياً بأولئك أن لا يصدرُوا أحكاماً على ما لا يعلمون، وهذا ما تقتضيه بدهيات البحث العلمي.

ونقول لأولئك أولاً: إن إنكار ضوء الشمس وسطوعها، لا يضرها، ولو أن الأمر كما قالوا، لما وجدت فاصلتان متحدتان ومتجاورتان في كتاب الله، فإذا كانت القضية قضية سبع، وختم للكلام، بطريقة عشوائية -وجلّ القرآن عن ذلك- كأن من السهل أن تختم كل آية بما لا يشبه ما ختمت به صاحبها التي ذكرت معها، ولكننا نجد كثيراً من الآيات المتجاورات، ختمت كل منهما بما ختمت به الأخرى، وعلى سبيل المثال لا الحصر:

١- هاتان الآيتان من سورة البقرة آية الدين ختمت بقوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٨٢)، والآية التي تليها ختمت بقوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٨٣).

٢- وآيتان في سورة النحل ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٦) ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٧) [النحل: ٩٦-٩٧].

٣- آيتا النور ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَفْزِنَكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ﴾ [النور: ٥٨] ختمت بقوله سبحانه: ﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٨٨) والتي تليها ختمت بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٩١) [النور: ٥٩].

٤ - آيتا النساء ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ﴾ [النساء: ١٤٧] والتي بعدها [١٤٨] ختمت بقوله تعالى: ﴿عَلِيمًا﴾.

٥ - آيتا الحديد ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ﴾ [الحديد: ٢٦] والتي تليها [٢٧] ختمت كل منهما بقوله سبحانه: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾.

كان من الممكن أن تختتم كل واحدة من هذه الآيات، بغير ما ختمت به الأخرى، ففي آية البقرة يمكن أن يقال بدل (عليم): خبير، وفي آية النساء يمكن أن يقال بدل (عليماً): بصيراً، وفي آية النحل يمكن أن يقال بدل (يعملون): يفعلون، وفي آية النور يمكن أن يقال: عزيز حكيم، وفي آية الحديد يمكن أن يقال: كافرون، ولكن الأمر ليس كذلك، وإنما هو خاضع لنظام دقيق، للحرف فيه رسالته وغرضه، فما بالك بالكلمة والجملة. ولقد مر معك كثير من هذا من قبل.

إن الفاصلة القرآنية جاءت متسقة، متناسبة كل تناسب مع معنى الآية وموضوعها، وسياقها الذي تحدث فيه، وغرضها الذي جاءت من أجله، وإليك البيان:

بعض الفواصل القرآنية، لا يحتاج الأمر فيها إلى البيان، وكثير فكر، وكبير عناء، بل يمكن للقارئ أن يدرك هذه الفاصلة من السياق نفسه، فمثلاً: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦] ﴿وَلَا تَبْتَغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧] ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [١٤] ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨]. ومن هذا القبيل الفاصلة التي مثلوا بها وقالوا: إنها منقطعة عما قبلها ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [٣١].

١ - فقد جاءت هذه الآية مثلاً في سورة البقرة<sup>(١)</sup>، في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]، أي مُنْصِف، بل أي عاقل يدعي أن هذه الفاصلة، غير متصلة بما قبلها، بل أي فاصلة يمكن أن تصلح بدل هذه الفاصلة، يخاطب الله المؤمنين وقد كتب عليهم القتال والجهاد، ويبين أن أمر المستقبل لا يدركونه هم، فربما يكرهون شيئاً يكون فيه خيرهم، وربما يحبون شيئاً تكون نهايته شراً لهم، ووبالاً عليهم. إن الله وحده هو الذي يعلم ذلك، أي فاصلة تصلح لهذه الآية غير التي ختمت بها ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

٢ - وفي السورة نفسها تذكر الآيات بعض أحكام الطلاق، وتنتهى أولياء النساء أن يمنعنهن من الرجوع إلى أزواجهن، إذا تراضوا بينهم بالمعروف، فبين لهم أن ذلك يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، وأن ذلكم هو أزكى لهم وأظهر، وتختتم الآية ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٢]. قل لي بربك أي فاصلة يمكن أن تصلح لهذه الآية الكريمة؟ وهؤلاء الإخوة والآباء يريدون أن يمنعوا أخواتهم أو بناتهم، من الرجوع إلى أزواجهن، وإنما يريدون ذلك أنفةً واستجابة لدواعي الحمية، وانتقاماً من أولئك الأزواج من غير تفكير في النتائج والعواقب، التي يمكن أن تنتج عن مثل هذا التصرف الخاطئ، ما نظن أن هناك فاصلة ترجع أولئك الأولياء لرشددهم، وتخوفهم من عواقب تصرفاتهم - أجدى وأولى مما ختمت به الآية الكريمة.

٣ - وفي سورة آل عمران ينعى القرآن على أهل الكتاب، الذين يحاجون في إبراهيم عليه السلام، ﴿وَمَا أُنْزِلَتْ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِي﴾ [آل عمران: ٦٥] فما كان

(١) وفي أول السور نقرأ قوله الله تعالى في خطاب الملائكة وقد قال لهم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠] وهذه الفاصلة في موضعها لا يصلح غيرها فيه.

إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً، فكيف يكون كذلك واليهودية والنصرانية متأخرتان في الوجود، وإذا كانوا يحتاجون في بعض القضايا التي يعلمونها، فلم يحتاجون فيما ليس لهم به علم، ﴿هَكَانْتُمْ هَؤُلَاءِ حَبِجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [آل عمران: ٦٦]. بماذا يمكن أن تختتم هذه الآية يا ترى، إن لم تختتم بهذه الفاصلة؟ وأي تحذير هو أعظم من هذا التحذير؟ بل وأي إقناع هو أقوى وأصح من هذا الإقناع؟

٤- وفي سورة النحل جاء قوله سبحانه: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [النحل: ٧٤] وأظن أن أمر هذه الآية ظاهر لا يحتاج إلى أي تعليق.

٥- وفي سورة النور: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ [النور: ١١] أليس في هذه الآية تطمين للمؤمنين الذين أشيعت الفاحشة فيهم؟ وأراد بعضهم أن ينال منهم، أليس في ذلك تطمين لهم من أن ذلك خير؟ كما جاء في آية سابقة لهذه الآية ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النور: ١١] ثم أليس فيه تهديد لأولئك الذين يشيعون الفواحش، بما هيأه الله لهم من خزي في الدنيا وعذاب في الآخرة؟

هذه الآيات التي ختمت بهذه الفاصلة، قل لي بربك بعد هذا، أي فاصلة تلك التي أقحمت إقحاماً، ولا نجد فيها إحكاماً في هذه الآيات الخمس؟ ولكنه الهوى، والحق، ومن؟ ممن يدعون المعرفة مع كل أسف.

هذا نوع من الفواصل القرآنية، الأمر فيه ظاهر - كما قلت - وهناك نوع آخر بحاجة إلى نوع من الفكر، وسيجد الفكر فيه ضالته، وكلا النوعين من مظاهر الإعجاز، وآيات البيان. ولنمثل لك من النوع الثاني بما يسمح به المقام، ولا نود أن نطيل عليك.

١ - اقرأ هاتين الآيتين من سورة السجدة: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [السجدة: ٢٦-٢٧]. ولن يحتاج منك الأمر إلى كثير تأمل؛ تحدثت الآية الأولى عن القرون المهلكة من قبل هؤلاء، هو حديث عن التاريخ -إذن-. وتحدثت الآية الثانية عما يشاهدونه على هذه الأرض، كيف ينزل عليها الماء فتنبت الزرع، متاعاً لهم ولأنعامهم، وأمر التاريخ -لا ريب- يُسمع سماعاً، ولكن ما يشاهدونه يبصرونه إبصاراً. قل لي بربك أي دقة تلك التي في الآيتين الكريمتين؟ إنه تنزيل رب العالمين.

٢ - في سورة العنكبوت نقرأ هذه الآيات: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ [العنكبوت: ٤١] وبعد هذه الآية نقرأ قول الله: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا يَنْصُرُوهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿١٣﴾﴾ [العنكبوت: ٤٣] وفكر فيما عرفه الناس من أمر العنكبوت اليوم، من حيث قوة خيوطه، ومن حيث الفوضى الأسرية -إن صحَّ التعبير- والتمزق العائلي، وعدم النظام، فلقد قالوا إن خيوط العنكبوت أقوى من خيوط الحرير، ولكن الفوضى تدب في بيته، فربما أكلت الأنثى زوجها، وبالتالي فالفوضى التي تدب في بيت العنكبوت لا مثيل لها ألبة في بيت آخر، إلا أن تكون في أمتنا العنكبوتية، في عصرها الحاضر، لا في عصورها الماضية؛ أليس ذلك يحتاج إلى علم ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾، ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿١٣﴾﴾.

٣ - واقرأ هاتين الآيتين في سورة المائدة: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ



﴿٧﴾ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلّٰهِ شُهَدَآءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلٰٓى اَلَّا تَعْدِلُوْا اَعْدِلُوْا هُوَ اَقْرَبُ لِلتَّقْوٰى وَاتَّقُوا اللّٰهَ اِنَّ اللّٰهَ خَبِيْرٌۢ بِمَا تَعْمَلُوْنَ ﴿٧﴾

[المائدة: ٧-٨].

تحدثت الآية الأولى عن الميثاق الذي أخذه الله عليهم، وهو أن يتقوه ويعبدوه، وتلك قضية خاصة بكل فرد، ترجع إلى ما في قلبه وإلى باطنه، ولذا ختمت ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ﴿٧﴾. أما الثانية فقد أمر فيها المؤمنين بالعدل مع أعدائهم، وتلك قضية ظاهرة يطلع عليها الناس، ولذا ختمت بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٨﴾.

٤- ولقد نبه الزمخشري وغيره من الأئمة، إلى ما في قوله سبحانه: ﴿وَلِإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَلِإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ [البقرة: ١١-١٣]، فلما كانت الآية الأولى تتحدث عن الفساد في الأرض، وتلك قضية تتعلق بالحواس الظاهرة، ختمت بقوله: ﴿وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿١٢﴾ لأن المشاعر هي الحواس، ولما كانت القضية الثانية تتعلق بالسفاهة، وهو الجهل، ناسب أن تختتم بالعلم.

قال الزمخشري رحمه الله: «فإن قلت: فلم فصلت هذه الآية بـ (لا يعلمون) والتي قبلها بـ (لا يشعرون)؟ قلت: لأن أمر الديانة والوقوف على أن المؤمنين على الحق، وهم على الباطل، يحتاج إلى نظر واستدلال حتى يكتسب الناظر المعرفة. وأما النفاق وما فيه من البغي المؤدي إلى الفتن والفساد في الأرض، فأمر دنيوي مبني على العادات، معلوم عند الناس، خصوصاً عند العرب في جاهليتهم، وما كان قائماً بينهم من التغاور، والتناحر والتحارب والتحازب، فهو كالمحسوس المشاهد؛ ولأنه قد ذكر السفه وهو جهل، فكان ذكر العلم معه أحسن طباقاً له. مساق هذه الآية



جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ مِنَ اللَّهِ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمُ لَيْلٌ  
تَشْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ [القصص: ٧١-٧٢].

حيث ختمت آية النهار بالبصر؛ لأن آية النهار مبصرة، وختمت آية الليل  
بالسمع؛ لأنه يختلف عن النهار.

٨- ولقد مرّ معك من قبل ما ختمت به آيات سورة الروم التي اخترتها لك  
في فصل الفقرة القرآنية.

وعوداً إلى دائرة المعارف البريطانية، فنحن نعلم أن في القرآن الكريم ما يزيد  
على ستة آلاف آية، ومع ذلك فقد نجد أن آية واحدة، كانت لها فاصلة خاصة، لا  
نجدها في القرآن الكريم كله على كثرة آياته، قد تكون هناك آيتان اثنتان في كتاب الله  
تعالى، جاءت فيهما الفاصلة متحدةً. وتتساءل الآن لو لم تكن قضية الفاصلة في غاية  
من الإحكام والدقة؟ ولو لم تكن خاضعة ناشئة عن نظام بديع، لا يقل عن هذا النظام  
الكوني، سماءً وأرضاً، ولكن نظام الكتابين واحد - أعني الكتاب المتلو وهو القرآن،  
والكتاب المرئي وهو الكون - أقول: لو لم تكن قضية الفاصلة في غاية من الإحكام  
والدقة: لما أمكن أن تكون هناك فاصلة لم تذكر. سوى مرة واحدة في كتاب الله، أو  
مرتين، بل كان من الممكن أن تذكر مرات كثيرة، لأن ذكرها لا يخضع لنظام معين.

مثال ذلك مما ذكر مرة واحدة قوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ ﴿٣٠﴾  
[النور: ٣٠]، جاءت فاصلة لقوله سبحانه: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ  
وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ﴾، ومثال ذلك ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ ﴿١٨١﴾ حيث  
جاءت فاصلة لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ  
الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِلَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ ﴿١٨١﴾ [البقرة: ١٨٦].

وقوله سبحانه: ﴿الرَّجِيمُ الْغَفُورُ﴾ ﴿٢﴾، جاءت فاصلة لقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي  
الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ ﴿٢﴾ [سبا: ٢].

ومثال الفاصلة التي لم تذكر إلا مرتين في كتاب الله تعالى ﴿الْعَلِيمُونَ﴾ (١٣) في قوله: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَلِيمُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٣)، وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الروم: ٢٢). وقوله سبحانه: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ فقد ذكرت مرتين اثنتين إحداهما في سورة الإسراء ﴿نَسِجَ لَهُ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرْضَ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يَنسِجُ بِحَدِّهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْيِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (الإسراء: ٤٤)، والثانية في سورة فاطر في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَا إِذْ مَسَّكُمَا مِن أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (فاطر: ٤١).

وإذا نظرت إلى هاتين الفاصلتين، وجدتهما جاءتا بعد الحديث عن أمور السماء والأرض، إما من حيث تسييحها لله، أو من حيث إمساك الله لهما، وفي ذلك الحلم كله، حلم الله على أولئك المفرطين، ومغفرته للمذنبين. وهذا كثير في كتاب الله تعالى لا نود استقصاؤه بالطبع.

إن أمر الفاصلة في كتاب الله تعالى، جاء على نسق بديع ونظام حكيم، يتم به المعنى ويزدان به اللفظ، ولا ينظر فيه إلى تلك القيود التي ذكروها في قافية الشعر، من حيث لا يجوز أن يتعلق بالقافية ما بعدها، أم من حيث لا يجوز أن تتجاوز قافيتان متساويتان، وقد علمت من قبل أنه قد تأتي فاصلتان متساويتان في كتاب الله تعالى، قد تأتيان متجاورتين، وقد يتعلق ما بعد الفاصلة بها، كقوله سبحانه: ﴿وَأَنذَرُكُمْ لِنُكْرٍ عَلَيْهِمْ مُّصِيبِينَ﴾ (١٣٧) وَبِالْبَلِّ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ (الصافات: ١٣٧).

على أن كثيراً من فواصل القرآن الكريم ختمت بأسماء الله تبارك وتعالى ولكن هذا الختم كان خاضعاً للدقة والإحكام والموضوعية، وقد مرّ بك طرف من هذا. ولقد وقف علماء القرآن عند بعض الفواصل لبحثوا عما فيها من سرٍّ يدقُّ على كثير من الناس، مما سموه مشكلات الفواصل وهو قليل بالطبع، وهي مواقف تدل على العناية من جهة، ثم هي لا تدع بعد ذلك طرفاً من شبهة لمشتبه أو مرتاب، من

ذلك مثلاً قوله سبحانه: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، حيث لم تكن الفاصلة (الغفور الرحيم). وقوله سبحانه ﴿وَأَغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا﴾ إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الْحَكِيمُ ﴿٥﴾ [المتحة: ٥]، وقوله خطاباً لإبراهيم عليه السلام في آية (إحياء الموتى) ﴿ثُمَّ أَدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، وكان المتبادر (واعلم أن الله على كل شيء قدير)، وقوله في سورة البقرة: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩]، وفي سورة آل عمران، ﴿قُلْ إِنْ تُخَفُّوْا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْذَرُوهُ يَمْلِكُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٩]، وكان المتبادر أن تحتّم الأولى بها تحتّم به الثانية، والثانية بها تحتّم به الأولى.

ولقد جلى العلماء -رحمهم الله- ذلك كله<sup>(١)</sup>، مما يرد بقوة على أولئك المتخربين، الذين يقولون بأفواههم ما ليس لهم به علم.

وننبهك إلى أن بعض العلماء يرى أن قضية الفاصلة روعيت لتقديم بعض الكلام أو تأخيرها، ومعنى هذا أنه يمكن أن يقدّم الكلام أو يؤخر من أجل غرض لفظي فتسمعهم يقولون: «أخر أو قدّم رعاية للفاصلة»، وهذا أمر حريّ أن نحذرك منه، وأن نُحذّر منه غيرك، إن قضية الفاصلة مع ما لها من حُسن جرس وجمال إيقاع، إلا أنها لا تكون من أجل هذا، وإنما هي خاضعة لأحكام النظم، ودقة المعنى - كما قلنا من قبل.

ويجمل بنا في هذه المناسبة أن نذكر لك ما نقله السيوطي عن الزمخشري في كشفه القديم<sup>(٢)</sup> فقال: «لا تُحسن المحافظة على الفواصل لمجردّها إلا مع بقاء المعاني

(١) راجع: الإنقان.

(٢) ذكر الزمخشري في مقدمة كشفه أنه كان قد فسر فاتحة الكتاب، وآيات من سورة البقرة، تفسيراً أطال فيه النفس، ثم تركه، فلما بدأ تفسيره الكشاف اختصر وأوجز. ولعله هذا ما يعنيه العلماء حينما يقولون: «قال الزمخشري في كشفه القديم». فليس هناك للزمخشري كشف غير هذا =

على سردها، على النهج الذي يقتضيه حُسْنُ النَّظْمِ والتَّامَّة، فأما أن تُهْمَلَ المعاني، ويُهْتَمَّ بتحسين اللفظ وحده، غير منظور فيه إلى مؤداه، فليس من قبيل البلاغة، ويُبْنَى على ذلك أن التقديم في ﴿وَيَا آخِرَةَ هُيُوتُونَ﴾<sup>(١)</sup> [البقرة: ٤]، ليس لمجرد الفاصلة، بل لرعاية الاختصاص<sup>(٢)</sup>.

وإذن فقد روعي في الفواصل أمران اثنان، أمر المعنى أولاً، ثم بعد ذلك أمر اللفظ وما يحدثه في النفس، ولذا تجد أن أكثر الفواصل ختمت بحروف المد واللين. قال السيوطي في الإتيان:

الخامس: «كثُر في القرآن خَتْمُ الفواصل بحروف المد واللين وإلحاق النون، وحكمته: وجود التمكن من التطريب بذلك، كما قال سيبويه: إنهم إذا ترنموا يلحقون الألف الياء والنون؛ لأنهم أرادوا مدَّ الصوت، ويتركون ذلك إذا لم يترنموا، وجاء في القرآن على أسهل موقف وأعذب مقطع.

حروف الفواصل إما متماثلة أو متقاربة:

فالأولى مثل: ﴿وَالطُّورِ﴾<sup>(١)</sup> وَكَتَبَ مَسْطُورٍ<sup>(٢)</sup> فِي رَقٍّ مَنشُورٍ<sup>(٣)</sup> وَالْيَتِيمَ الْمَعْمُورِ<sup>(٤)</sup> [الطور: ١-٤].

والثاني مثل: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾<sup>(١)</sup> مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ<sup>(٢)</sup> [الفاتحة: ٣-٤]، ﴿قَ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾<sup>(١)</sup> بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ<sup>(٢)</sup> [ق: ١-٢]<sup>(٣)</sup>.

إننا لا نستطيع أن نلَمَّ بكل ما يتعلق بالفاصلة القرآنية، فنحن إنما نتحدث عنها في فصل من فصول كثيرة، ولكن نرجو أن يكون ما ذكرناه كافياً.

= الكشف الذي نعرفه، ولكن يعنون بالكشاف القديم تلك الآيات التي كان قد فسرهما الزمخشري، وأطال في تفسيرها النفس.

(١) الإتيان، ج ٣، ص ٣٥٩.

(٢) الإتيان، ج ٣، ص ٣٥٩-٣٦٠.



## التكرار

إن قضية التكرار ذات صلة وثيقة بإعجاز القرآن البياني، وتلك قضية بدهية، ذلك أننا نجد في النظم مواضع متشابهة، سمّاها بعض الباحثين تكراراً. فالناظرون في كتاب الله تعالى من أجل تلاوته وتدبره، أو بهدف التشكيك والطمع، يجدون لأول وهلة أن هناك قضايا ذكرت أكثر من مرة، وفي أكثر من موضع كالقصص وموضوعات العقيدة، وبعض الجمل والآيات، وسموا ذلك تكراراً.

ومع إجماعهم على هذه التسمية، إلا أنهم اختلفت فيه مذاهبهم، وتعددت مشاربهم، وتلك طبيعة في أحوال الناس، بل هي سنة من سنن الله في هذا المجتمع البشري، فالكثرة الكثيرة من هؤلاء مسلمين كانوا أم غير مسلمين، رأوا أن في هذا التكرار سحر بيان، وتثبيت بنيان، فعذّوه بلاغة وإعجازاً، ووجدوا فيه منهجاً قوياً، وهدفاً عظيماً من مناهج التربية وأهدافها، وحاولوا أن يبرهنوا على ذلك ببراهين، مما عرفته العرب في كلامها شعراً ونثراً، وأن يقيموا عليه الأدلة مما قرره علماء النفس وعلماء الاجتماع، وأساطين التربية، وذوو الاختصاص في فنّ الإعلام والدعاية.

وفئة قليلة عميت أو تعامت، هيمن عليها الحقد، فعذّت هذا مثلبة ومطعناً في كتاب الله، وهؤلاء لم يظهروا إلا بعد أن فسد الذوق البياني، وضعفت السليقة العربية، ولذا رأينا أن أباطيل أولئك لم تظهر مبكرة، فلم نسمع شيئاً عنها حتى من أعداء القرآن، الذين كانوا ذوي سلائق سليمة في اللغة، بل على العكس من ذلك، وجدنا أن هذا القرآن يملك عليهم كل شيء، وإن لم يؤمنوا به. هذه الأباطيل - إذن - ظهرت فيما بعد، حينما فسد المزاج اللغوي، واجتمع الطاعنون على دين الله



من كل صوب، وتألّبوا حسداً عليه، فبدأ الحديث عن شبهة التكرار. فكان لا بد أن يشتمر العلماء عن سواعد الجدّ ليردّوا إلى النحور الظالمة سهام الحقد.

### الأقدمون والتكرار:

ابن قتيبة:

عرض المفسرون والكاتبون في علوم القرآن، والدراسات القرآنية لهذه القضية، فلم يألوا جهداً في دراستها، ولعل من أقدم الذين عرضوا لقضية التكرار عرضاً موجزاً مركزاً، إمام أهل السنة اللغوي ابن قتيبة<sup>(١)</sup> قال رحمه الله: «وأما تكرار الأنباء والقصص، فإن الله تبارك وتعالى أنزل القرآن نجوماً في ثلاث وعشرين سنة، بفرضٍ بعد فرض، تيسيراً منه على العباد، وتدرجاً لهم إلى كمال دينه، ووعظٍ بعد وعظ، تنبيهاً لهم عن سِنَةِ الغفلة، وشحذاً لقلوبهم بمتجدد الموعظة، وناسخ بعد منسوخ، استعباداً لهم، واختباراً لبصائرهم. يقول الله عز وجل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ (٣٣) ﴿[الفرقان: ٣٢]»<sup>(٢)</sup>.

ثم يقول: «وكانت وفود العرب تردّ على رسول الله ﷺ للإسلام، فيقرّئهم المسلمون شيئاً من القرآن، فيكون ذلك كافياً لهم. وكان يبعث إلى القبائل المتفرقة بالسور المختلفة، فلم تكن الأنباء والقصص مثناة ومكررة لوقعت قصة موسى إلى قوم، وقصة عيسى إلى قوم، وقصة نوح إلى قوم، وقصة لوط إلى قوم، فأراد الله

---

(١) أبو محمد، عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري المروزي، العالم الكبير، اللغوي الناقذ والكاتب والأديب والحافظ والمؤرخ والراوي الصادق، والمفسر المحدث المحيط بمشكل وغريب كتاب الله وسنن نبيه، أصله فارسي من مدينة مرو، يقال: وُلِدَ في الكوفة، ويقال في بغداد سنة (٢١٣هـ)، وتوفي سنة (٢٧٦هـ) أول ليلة من رجب.

(٢) أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، ص ١٨٠.

بلطفه ورحمته أن يشهر هذه القصص في أطراف الأرض، ويُلقِيها في كل سمع، ويشتها في كل قلب، ويزيد الحاضرين في الإفهام والتحذير.

وليست القصص كالفروض، لأن كُتِبَ رسول الله ﷺ كانت تُنفَّذُ إلى كل قوم بما فرضه الله عليهم من الصلاة، وعددها وأوقاتها، والزكاة وستتها، وصوم شهر رمضان، وحج البيت، وهذا ما لا تُعرَفُ كَيْفِيَّتُهُ من الكتاب، ولم تكن تنفذ بقصة موسى وعيسى ونوح وغيرهم من الأنبياء، وكان هذا في صدر الإسلام قبل إكمال الله الدين، فلما نشره الله عز وجل في كل قطر، وبثه في آفاق الأرض، وعَلَّمَ الأكابر الأصاغر، وُجِعَ القرآن بين الدَفَّتَيْنِ، زال هذا المعنى واجتمعت الأنباء في كل مصر وعند كل قوم<sup>(١)</sup>.

#### الخطابي:

ثم جاء إمام آخر من أئمة أهل السنة اللغوي المفسر المحدث، أبو سليمان الخطابي<sup>(٢)</sup> في رسالته «بيان إعجاز القرآن» فبعد أن بيّن وجوه إعجاز القرآن - كما يراها - كرّ على شبه المعارضين والمعاندين، ومنها شبهة التكرار وهو ما يعنينا هنا. قال ﷺ: «وأما ما عابوه من التكرار، فإن تكرار الكلام على ضربين: أحدهما مذموم، وهو ما كان مستغنى عنه غير مستفاد به زيادة معنى لم يستفيدوه بالكلام الأول، لأنه حينئذ يكون فضلاً من القول ولغواً، وليس في القرآن شيء من هذا النوع.

والضرب الآخر ما كان بخلاف هذه الصفة، فإن ترك التكرار في الموضع الذي يقتضيه، وتدعو الحاجة إليه فيه، بإزاء تكلف الزيادة في وقت الحاجة إلى الحذف والاختصار، وإنما يحتاج إليه ويحسن استعماله في الأمور المهمة التي قد تعظم

(١) المرجع السابق، ص ١٨١، ١٨٢.

(٢) حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي (٣١٩-٣٨٨ هـ / ٩٣١-٩٩٨ م)، فقيه محدث من أهل بستان من بلاد كابل، له معالم السنن وبيان إعجاز القرآن، وإصلاح غلط المحدثين وله شعر. توفي في بستان.

العناية بها، ويخاف بتركه وقوع الغلط والنسيان فيها والاستهانة بقدرها، وقد يقول الرجل لصاحبه بقصد الحث والتحريض على العمل: عَجِّلْ عَجِّلْ، وارم ارم، كما يُكتب في الأمور المهمة على ظهور الكتب: مهم مهم مهم، ونحوها من الأمور، وكقول الشاعر:

هَلَا سَأَلْتَ جُمُوعَ كُنْ — دَةَ يَوْمَ وَلَوْ أَيْنَ أَيْنَا

وقول الآخر:

يَا لَيْكِرِ انْشُرُوا لِي كُلِّيَا — يَا لَيْكِرِ أَيْنَ أَيْنَ الْفَرَارِ

وقد أخبر الله عز وجل السبب الذي من أجله كرر الأقاويص، والأخبار في القرآن، فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٥١) [القصر: ٥١]، وقال تعالى: ﴿وَصَرَفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ (١١٣) [طه: ١١٣] (١).

كما سبق ندرك أن أبا سليمان رحمته الله يحدد شرطين اثنين لكي يكون التكرار مذموماً:

أحدهما: أن لا يكون هناك حاجة تدعو إليه.

ثانيهما: أن لا يكون في الكلام المكرر زيادة.

أما إذا كان في الكلام المكرر زيادة على ما ذكر أولاً، وكان في الأمور المهمة التي تعظم العناية بها، فإن ذلك تكرر محمود - كما يقول الخطابي رحمته الله - ونحن إذ نوافق الشيخ من جهة، لكننا نخالفه من جهة أخرى، وسنرجى مناقشته بعد أن نستمع إلى عالم آخر، هو الإمام الزركشي (٢) رحمته الله.

(١) الخطابي، بيان إعجاز القرآن، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله، والدكتور محمد زغلول سلام، الطبعة الثالثة، دار المعارف، مصر، ص ٥٢-٥٣.

(٢) الإمام بدر الدين محمد بن عبدالله بن بهادر الزركشي، أحد العلماء الذين نجموا بمصر في القرن الثامن، وُلد بالقاهرة سنة ٧٤٥هـ حينما كانت معمورة بالمدارس، انتظم في حلقات الدروس، =

## الزركشي:

أشار في كتابه «البرهان» إلى التكرار في القرآن بعامة وإلى التكرار في القصة بخاصة، فبعد أن بين أن التكرار أسلوب من أساليب العرب، وأن الكلام حينما يكرر، فإنه في النفوس يقرر، وعاب على الذين ينكرونه. وعرفه بقوله: «وحقيقته إعادة اللفظ أو مرادفه لتقرير معنى، خشية تناسي الأول لطول العهد به، فإن أعيد لا لتقرير المعنى السابق لم يكن منه، كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ (١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (١٢) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّيَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣) قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْهُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي (١٤) فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِي﴾ [الزمر: ١١-١٥].

فأعاد قوله: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْهُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾ بعد قوله: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾، لا لتقرير الأول بل لغرض آخر، لأن معنى الأول الأمر بالإخبار أنه مأمور بالعبادة لله، والإخلاص له فيها، ومعنى الثاني أنه يخص الله وحده دون غيره بالعبادة والإخلاص... واعلم أنه إنما يحسن سؤال الحكمة عن التكرار إذا خرج عن الأصل، أما إذا وافق الأصل فلا، ولهذا لا يتجه سؤالهم. ولم كرر ﴿إِيَّاكَ﴾ في قول ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِيبُ﴾ (٥) ﴿[الفاتحة: ٥]﴾<sup>(١)</sup>.

وبعد هذا التعريف ذكر فوائد التكرار، وفي مقدمتها التأكيد، ولكنه قال بعد ذلك: إن التكرار أبلغ من التأكيد.

= وتفقه بمذهب الشافعي وهو جهيد من جهازة أهل النظر وأرباب الاجتهاد، وعلم من أعلام الفقه والحديث والتفسير وأصول الدين، كان منقطعاً إلى الاشتغال بالعلم، لا يشتغل عنه شيء، وله أقارب يكفلونه أمر دنياه، توفي بمصر في رجب سنة ٧٩٤هـ.

(١) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م، الطبعة الأولى، ج ٣، ص ١٠-١١.

ومما سبق نجد أن الخطابي والزركشي متفقان على أن ما ذكر في كتاب الله تعالى أكثر من مرة، كان فيه في كل مرة زيادة معنى، ومع ذلك سمياه تكراراً. ونحن إذ نعجب من الزركشي إذ عرّف التكرار بأنه إعادة اللفظ أو مرادفه، مع أنه في موضع آخر من كتابه ينكر الترادف في كتاب الله تعالى، ولكننا نعترف له بلمحة طيبة جيدة، وهي أن ما ذكر أكثر من مرة لتقرير معنى واحد هو الذي يسمى تكراراً، أما إذا كان لتقرير معنى آخر، فليس من التكرار في شيء، وكذلك قوله: «إنه يُسأل عن حكمة التكرار إذا خرج عن الأصل» أي إذا صعب علينا أن ندرك الحكمة من ذكر اللفظ أكثر من مرة، أما إذا لم يخرج عن الأصل، فلا يُسأل فيه عن حكمة التكرار، كقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ٥.

### تعريف التكرار:

نحن -إذن- مع الخطابي في عدّه من التكرار ما كان فيه زيادة معنى، ولسنا مع الزركشي في تعريفه التكرار بأنه إعادة اللفظ أو مرادفه.

والتكرار -كما نراه- هو إعادة اللفظ نفسه في سياق واحد، فإذا لم يتوافر هذان الشرطان، أي إذا لم يكن المعاد اللفظ نفسه، أو إذا ذكر اللفظ أكثر من مرة، ولكن لكل موضع سياقه الخاص، ومعناه الخاص، فإن ذلك لا نسميه تكراراً أبداً. هذا هو التعريف الدقيق للتكرار، كما يظهر لنا.

### المحدثون والتكرار:

#### الرافعي:

ولقد عرض بعض الكاتبيين المحدثين لقضية التكرار، ومن هؤلاء كاتب العربية والإسلام، الأستاذ مصطفى صادق الرافعي<sup>(١)</sup>، فعند حديثه عن

(١) مصطفى صادق بن عبدالرزاق بن سعيد بن أحمد بن عبدالقادر الرافعي، (١٢٩٨-١٣٥٦هـ) / (١٨٨١-١٩٣٧م)، عالم بالأدب، شاعر، من كبار الكتّاب، أصله من طرابلس الشام، =

أسلوب القرآن، وما امتاز به هذا الأسلوب، وما انفرد به من خصائص، فيعد التكرار إحدى هذه الخصائص والميزات، وحديث الرافعي من حقه أن لا يوجز وأن لا يختصر، يقول رحمته الله: «وههنا معنى دقيق في التحدي، ما نظن العرب إلا وقد بلغوا منه عجباً: وهو التكرار الذي يجيء في بعض آيات القرآن، فتختلف في طرق الأداء وأصل المعنى واحد في العبارات المختلفة، كالذي يكون في بعض قصصه لتوكيد الزجر والوعيد وبسط الموعظة وتثبيت الحجة ونحوها، أو في بعض عباراته لتحقيق النعمة وترديد المنّة والتذكير بالنعم واقتضاء شكره، إلى ما يكون هذا الباب، وهو مذهب للعرب معروف، ولكنهم لا يذهبون إليه لا في ضروب من خطابهم: للتهويل والتوكيد، والتخويف والتفجع وما يجري مجراها من الأمور العظيمة، وكل ذلك مأثور عنهم منصوص عليه في كثير من كتب الأدب والبلاغة.

بيد أن وروده في القرآن مما حقق للعرب عجزهم بالفطرة عن معارضته وأنهم يُحَلُّون عنه<sup>(١)</sup> لقوة غريبة فيه لم يكونوا يعرفونها إلا توهماً، ولضعف غريب في أنفسهم لم يعرفوه إلا بهذه القوة، لأن المعنى الواحد يتردد في أسلوبه بصورتين أو صور كل منها غير الأخرى وجهاً أو عبارة، وهم على ذلك عاجزون عن الصورة الواحدة، ومستمرون على العجز لا يطيقون ولا ينطقون.

فهذا لعمر ك أبلغ في الإعجاز وأشد عليهم في التحدي، إذ هو دليل على مجاوزتهم مقدار العجز النفسي الذي قد تمكن معه الاستطاعة أو تنهياً المعارض حيناً بعد حين، إلى العجز الفطري الذي لا يتأول فيه المتأول ولا يعتذر منه المعتذرون ولا يجري الأمر فيه على المسامحة.

---

= مولده في بهتيم (منزل والد أمه) ووفاته في طنطا، أصيب بصمم فكان يكتب له ما يراد مخاطبته به، شعره نقي الديباجة على جفاف في أكثره، ونثره من الطراز الأول، الأعلام، ج ٧، ص ٢٣٥.  
(١) يتركونه بلا معارضة، والتخلية: الترك.

وقد خفي هذا المعنى (التكرار) على بعض الملحدة وأشباههم ومن لا نفاذ لهم في أسرار العربية ومقاصد الخطاب والتأني بالسياسة البيانية إلى هذه المقاصد، فزعموا به المزاعم السخيفة وأحالوه إلى النقص والوهن، وقالوا: إن هذا التكرار ضعف وضيق من قوة سعة، وهو -أخزاهم الله- كان أروع وأبلغ وأسرى عن الفصحاء من أهل اللغة والمتصرفين فيها، ولو أعجزهم أن يحيثوا بمثله ما أعجزهم أن يعيبوه لو كان عيباً!

وفي بعض ذلك التكرار معنى آخر فطن إليه بعض علمائنا ولم يكشف لهم عن سره، وأول من نبّه عليه الجاحظ في كتاب (الحيوان) إذ قال: «ورأينا الله تبارك وتعالى إذا خاطب العرب والأعراب، أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحي والحذف، وإذا خاطب بني إسرائيل أو حكى عنهم جعله مبسوطاً وزاد في الكلام» أي كأن ذلك مبالغة في إفهامهم وتوسع في تصوير المعاني لهم وتلوينها بالألفاظ، إيجازاً في موضع وإطناباً في موضع إذ كانوا قوماً لا سليقة لهم كالعرب وليسوا في حكمهم من البيان، فلا يمضي كلامه لسنته بلا اعتراض من تنافر التركيب وتقل الحروف وجفاء الطبيعة اللغوية، فلهذا ونحوه كان لا بد في خطابهم من التكرار والبسط والشرح، بخلاف العرب، فإن الخطاب يقع إليهم على سنن كلامهم من الحذف، والقصد إلى الحجة، والاكتفاء باللمحة الدالة، وبالإشارة الموحى بها، وبالكلمات المتوسمة، وما يجري هذا المجرى، وهو قول صحيح في الجملة بيد أنهم أخطؤوا وجه الحكمة فيه»<sup>(١)</sup>.

**عبدالكريم الخطيب - محمد قطب:**

ومنهم الأستاذ عبدالكريم الخطيب في كتابه «إعجاز القرآن» و«القصص القرآني» كما عرض لها الأستاذ محمد قطب في كتابه «الدراسات القرآنية» والنتائج

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة التاسعة، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م، ص ١٩٣-١٩٥.

التي يمكن أن تستفاد من هذه الدراسات أن التكرار قد يكون للتأكيد، وما جاء منه في كتاب الله تعالى، فإنما قصد منه التأثير في النفوس، وبخاصة إذا كانت الموضوعات المكررة موضوعات مهمة، كالعقيدة التي أراد القرآن أن ترسخ في النفوس، وثبتت في أعماق القلوب -وهذا الذي قرره الخطابي كما رأينا من قبل-.

ويذكر الأستاذ محمد قطب أن ما في القرآن مما يظن أنه تكرار، إنما هو متشابه<sup>(١)</sup>. ويمثله بشار الجنة، ويضرب لذلك أمثلة كثيرة من كتاب الله. أما الأستاذ الخطيب<sup>(٢)</sup>، فلقد فصل فيما يخص القصة القرآنية من التكرار، مبيناً بعض الأمور التي توهم التكرار في القصص القرآني.

ومنهجنا أن نعرض لهذه القضية، مستلهمين من القرآن الكريم ما يفتح به لنا ربنا، وهو الفتح العليم.

على أننا لا ننكر على الذين ذهبوا لوجود التكرار في القرآن، معلمين هذا بأنه لا يخرج عن الأساليب التي عرفت في العرب، ويأنه إنما يراد به التأثير على النفوس حتى يقرر فيها ما يكرر. أقول: لا ننكر على أولئك، وليس معنى هذا أننا نتفق معهم فيما ذهبوا إليه، ونؤثر أن نرجئ الحكم بعد أن نعرض لهذه القضية من جميع جوانبها. فنقول وبالله التوفيق:

الموضوعات التي عرض لها القرآن الكريم مع كثرتها، نجملها في هذه الأمور الرئيسة الثلاثة:

١ - الأحكام: وتشمل ما اصطلح عليه فيما بعد بالعبادات، والمعاملات، والأحوال الشخصية، والحدود، وما يتصل بهذا من الآداب والقيم.

(١) الأستاذ محمد قطب، دراسات قرآنية، دار الشروق، بيروت، ص ٢٤٥.

(٢) الأستاذ عبد الكريم الخطيب، القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، دار الفكر العربي، ١٣٨٤هـ / ١٩٦٥م، ص ٢٣٨ وما بعدها.



٢- العقيدة: وتشمل الألوهية والرسالة واليوم الآخر، وما يتصل بهذا من الأمثال والحقائق.

٣- أما الموضوع الثالث فقصص الأنبياء عليهم السلام، وأخبار الأمم الماضية. وقد أجمعوا على أن لا تكرر في آيات الأحكام، وإنما الذي يمكن أن يكون فيه تكرر هما الموضوعان الأخيران، آيات العقيدة والقصص. هذا من حيث الموضوع. أما من حيث اللفظ، فقد قالوا: إن هناك جملاً أو آيات ذكرت أكثر من مرة، مما يوجب القول بأنها مكررة. ومن هنا كان لزاماً علينا أن يكون حديثنا في هذا الباب عن آيات العقيدة والقصة وتكرار الجمل والآيات.

## المبحث الأول آيات العقيدة

ولنبداً بآيات العقيدة التي يجمع الباحثون على أنها كررت في كتاب الله لقصد نبيل وهدف شرف.

### أولاً: آيات الألوهية:

هي التي تقرر صلة هذا العالم -والعالم كل ما سوى الله مما يعلم به سبحانه- بخالقه، من حيث احتياجه للخالق سبحانه. وقد تحدثت الآيات عن خلق الإنسان والحيوان والنبات والسموات والأرض وما عليها. أما آيات خلق الإنسان فلقد ذكرت فيما يقرب من أربعين موضعاً، ولتقتصر على بعض هذه الآيات حسب ترتيب النزول:

١- في أول نجم نزل على سيدنا رسول الله ﷺ ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّيْلَ إِذَا خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ②﴾ [العلق: ١-٢].

٢- في سورة عبس: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ③ مِنْ نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ④﴾ [عبس: ١٨-١٩].

٣- في سورة القيامة: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ⑤ أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُُمْتَقِنُ ⑥ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَتُهُ فَسْوًى ⑦ لَجَعَلْنَاهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ⑧﴾ [القيامة: ٣٦-٣٩].

٤- ما جاء في سورة المرسلات: ﴿أَلَمْ تَخْلُقْهُمْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ ⑨ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مُكِينٍ ⑩ إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ ⑪ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَدِيرُونَ ⑫﴾ [المرسلات: ٢٠-٢٣].

٥- ما جاء في سورة البلد: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ⑬ أَيْحَسِبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ⑭ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا بَدَأَ ⑮ أَيْحَسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ⑯ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ⑰ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ⑱﴾ [البلد: ٤-٩].

٦- ما جاء في سورة الطارق: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ۝ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۝﴾ [الطارق: ٥-٨].

٧- ما جاء في سورة يس: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ۝﴾ [يس: ٧٧].

٨- ما ورد في سورة الفرقان: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ۚ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ۝﴾ [الفرقان: ٥٤].

٩- ما ورد في سورة فاطر: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا ۝﴾ [فاطر: ١١]، ﴿وَمِنْ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ ۚ﴾ [فاطر: ٢٨].

١٠- ما ورد في سورة الواقعة: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ۝﴾ [٥٧] ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ۝﴾ [٥٨] ﴿أَنَّهُمْ يَخْلُقُونَهُ أَمَّ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ۝﴾ [٥٩] ﴿نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝﴾ [٦٠] ﴿عَلَىٰ أَنْ يُبَدَّلَ أَمْرُكُمْ وَتُؤَسَّفَ لَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝﴾ [٦١] ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ۝﴾ [٦٢] [الواقعة: ٥٧-٦٢].

١١- ما جاء في سورة الحجر: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ۝﴾ [الحجر: ٢٦].

١٢- ما جاء في سورة الأنعام: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُوهُ ۝﴾ [الأنعام: ٩٨].

١٣- ما جاء في سورة الصافات: ﴿فَأَسْتَفِيهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ۝﴾ [الصافات: ١١].

١٤- ما جاء في سورة الزمر: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ۝﴾ [الزمر: ٦].

١٥ - ما جاء في سورة غافر: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ

بِنَاءً وَصَوَّرَكُمُ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾ [غافر: ٦٤]، ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِيَكَوُنُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَن يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلٍ وَلْيَبْلُغُوا أَجْلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [غافر: ٦٧].

وتستمر الآيات الكريمة تحدثنا عن خلق الإنسان، وليس من غرضنا أن نستقصيها جميعاً، ومن أنعم النظر في الآيات التي ذكرناها لا يمكن أن يدعي أن فيها شبهة تكرار، فكل آية - كما رأينا - تتحدث عن قضية غير التي تتحدث عنها الآية الأخرى، يقول أستاذنا الشيخ محمد محمد الساحي: «تبصر في هذه الآيات وكيف رتبها هذا الترتيب العجيب، الذي يتفق مع التربية العلمية والنفسية جميعاً، فقد نبههم أولاً على أن الإنسان مخلوق من علق، وقد علمت أنه لا يطلق إلا بعد تعلق الخلية الذكرية بالخلية الأنثوية، وتفاعلهما في الرحم، ومن العلق هذا ينشأ الذكر تارة، والأنثى تارة أخرى، وتأتي نظرية توقف العلة على معلولها، ولا بد من أول لهما، ولا بد من خالق ابتداء السلسلة بوجه ما. ثم تكلم على أحد طرفي العلق وهو الخلية، التي من شأنها أن تسعى حتى تصل إلى أختها الأخرى. التي تنتظرها في مكان الخلق والتقدير، فكيف سعت؟ وكيف تلاقت؟ ثم كيف خلق وقدر في هذا المكان؟ ثم كيف تيسر له السبيل وكى استكمل حياته ومات وقبر؟ ثم ينتقل خطوة أخرى فنبهه إلى أن النطفة التي خلق منها على هذا الوجه السابق أمنية مقدرة من مقدر حكيم، يتمنى الماني والمستمني بلوغ غايتها في إنتاج الولد ذكراً أو أنثى، ثم تأخذ على حسب التقدير لسيرها المقدر لها، فتكون علقة فتخلق فتسوى، فيكون منها الزوجان الذكر والأنثى، فكيف خلقت وكيف سُويت؟ ثم كيف تحولت إلى ذكر تارة وأنثى تارة، مع أن المعمل الذي تكون فيه الخلايا الذكرية أو الأنثوية إنما هو معمل واحد»<sup>(١)</sup>.

(١) مذكرات في التفسير الموضوعي لطلبة الدراسات العليا، ص ٦.

وقد يتساءل بعضهم أليس من التكرار في آيات خلق الإنسان ما جاء في هاتين السورتين المتجاورتين سورة الحج وسورة المؤمنون؟ ففي سورة الحج: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن رَّبٍّ ثُمَّ مِّن نُطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ۚ﴾ [الحج: ٥]، وفي سورة المؤمنون: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِّن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ۝١٤﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤]. ونرد على هذا التساؤل بأن قضية التكرار في هاتين الآيتين منتفية كل الانتفاء، فلقد اختصت كل منها بأمور لم ترد في الأخرى.

أما ما يظن اشتراك الآيتين فيه، فبعيد عن التكرار كذلك، فأية الحج جاء التعبير فيها بكلمة (ثم)، وآية المؤمنون جاء التعبير فيها بالفاء، فلكل من الآيتين غرض يختلف عن الآخر. آية المؤمنون جاءت تبين تعاقب الأطوار كما يفهم من الفاء التي هي للترتيب والتعقيب - كما يقول النحويون -، وآية الحج جاءت تبين أن كل طور من هذه الأطوار، لا بد أن يمر بمراحل وأطوار حتى يبلغ الطور الآخر، فللنطفة أدوار وللعلقة أدوار.

آيات خلق الإنسان -إذن- على كثرتها وتعددتها، نجد أن لكل آية منها هدفاً وغاية، والذي يزعم أن فيها تكراراً، مثله كالذي يدّعي أن جهاز التنفس في الإنسان والجهاز الهضمي والدموي، أجهزة مكررة يمكن أن يغني عنها جهاز واحد، وما نظن أحداً يجرؤ على قول مثل ذلك.

وكذلك حينما نستعرض الآيات التي تحدثت عن خلق الحيوان والنبات، نجد كل آية تحدثت منها عن خاصية في هذا النوع أو ذاك، قال تعالى: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِن كُنْتُمْ لَازِلِينَ بِذُنُوبِكُمْ إِلَّا بِضِئْلِ الْأَنْفُسِ إِيَّائِذَا رَجِيتُمْ أَفْئِدَةً لِّرَبِّكُمْ ۝٧﴾ [البقرة: ٥-٧]. والآيات في خلق الإنسان والحيوان والنبات، كلها على هذا النمط، فكل آية فيها هدف وغاية، وكل آية فيها نوع من التكرار، ولكن التكرار هنا ليس تكراراً عابثاً، بل تكراراً مقصوداً، فكل آية فيها نوع من التكرار، ولكن التكرار هنا ليس تكراراً عابثاً، بل تكراراً مقصوداً، فكل آية فيها نوع من التكرار، ولكن التكرار هنا ليس تكراراً عابثاً، بل تكراراً مقصوداً.

رَجِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ [النحل: ٥-٨]، ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِيهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٥﴾﴾ [النور: ٤٥]، ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النحل: ٧٩]، ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَائِلَ وَيَقِظْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾ [الملك: ١٩]، ﴿وَمَلِكِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَيْرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَافَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ نَعْمَ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام: ٣٨].

وفي الحديث عن النبات نقرأ قول الله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ ﴿١١﴾ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿١٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿١٦﴾ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿١٧﴾ وَعَبَا وَقَضْبًا ﴿١٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿١٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلًّا ﴿٢٠﴾ وَفِكْهَةً وَأَبًا ﴿٢١﴾ مَنَّاعًا لَكُمْ وَلِأَعْمَامِكُمْ ﴿٢٢﴾﴾ [عبس: ٢٤-٣٢]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ [الأنعام: ١٩٩]، ونقرأ قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢﴾﴾ وفي الأرض قِطْعٌ مُّتَجَوِّزَةٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْثَلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الرعد: ٣-٤].

وهكذا الآيات جميعاً التي تحدثت عن هذين النوعين، نجد أن كل آية كريمة توجه أنظارنا إلى موضوع مستقل، وتفتح لنا باباً جديداً من أبواب العلم، وتضع أيدينا على دقائق في هذا الكون، وتشير إلى حقائق حري بها أن تدرس دراسة جادة مفصلة.

وكذلك الآيات التي تحدثت عن السموات والأرض، وما فيهما من جبال وأبحر ونجوم وكواكب، مما يطول بنا بحثه واستقرؤه واستقصاؤه، ولكن الغرض

الذي نرمي إليه ونرجو أن نكون قد أصبنا، هو انتفاء التكرار في موضوع الخلق، والذي هو أكثر الموضوعات التي عرض لها القرآن في قضية الألوهية.

ومثل قضية الخلق قضية الوجدانية، فالأدلة التي جاءت بها الآيات الكريمة متنوعة متعددة، ويكفي لذلك أن نقف عند بعض الآيات الكريمة التي تحدثت عن الوجدانية، في سورة المؤمنون: ﴿ مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ (المؤمنون: ٩١)، وفي سورة الأنبياء: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ (الأنبياء: ٢٢)، وفي سورة الشورى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ (الشورى: ١١). إن كل آية من هذه الآيات توجه العقل إلى دليل وتسمو به إلى برهان يختلف عن غيره.

#### ثانياً: الرسالة:

إن آيات الرسالة في القرآن الكريم كانت ذات مراحل متميزة، لكل مرحلة خصائصها، ابتداءً من مرحلة الإنذار ومروراً بمرحلة الأدلة وردّ الشبهات والإجابة على الاقتراحات وانتهاءً بمرحلة التحدي... والمتأمل في هذه المراحل وفي الآيات الكريمة التي تحدثت عنها يجد أن كل آية عرضت لموضوع، وعالجت قضية ذات شأن، مما يجعل القارئ المتدبر لا يرتاب في جودة هذه الموضوعات والقضايا، وبالتالي يصل إلى قنوات لا تحوم حولها شائبة بأنه لا تكرار في الآيات التي تتحدث عن الرسالة.

ولنضرب لك مثلاً:

١ - الأدلة على الرسالة: الأدلة التي جاء بها القرآن برهاناً على رسالة النبي ﷺ : هذه الأدلة كانت تستند إلى التاريخ تارة، وإلى الواقع تارة أخرى. أما أدلة التاريخ فلم تقف عند حقبة واحدة من حقب الدهر، وإنما كانت في عمق هذا التاريخ، كما أنها لم تقف عند بيئة واحدة، لكنها أرشدت إلى أكثر من بيئة كذلك. أما

الواقع فتجده تارة يستند إلى سيرة النبي ﷺ، وأخرى إلى ما من الله به على أولئك... ﴿وَقَالُوا إِن نَّبِيعَ الْهُدَى مَعَكَ نُنْخَظِفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ نُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمَاءَ إِمْنًا يُجِئُ إِلَيْهِ ثُمَّ رُتْ كُلِّ شَيْءٍ رَزَقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [القصص: ٥٧]. ويستند تارة ثالثة إلى ما في هذا الكون من آيات. كل ذلك تجده جاء على غير وتيرة واحدة، متسقاً مع السياق الذي ذكر فيه.

٢- آيات التحدي: وأنت إذا وقفت مع هذه الآيات، وجدتها أبعد ما تكون عن قضية التكرار، فتارة ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ﴾ [الطور: ٣٤]، وأخرى: ﴿يَعْشِرُ سُورٍ مِثْلِهِ﴾ [هود: ١٣]، وثالثة ﴿بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ [يونس: ٣٨]، وأخيراً ﴿بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣].

تارة ﴿وَأَدْعُوا مَنْ أَسْتَطَعْتُمْ﴾ [هود: ١٣، يونس: ٣٨]، وتارة ﴿وَأَدْعُوا شُهَدَاءَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣]، وتارة ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ [هود: ١٥]، وتارة ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ [البقرة: ٢٤].

ولا يدورنَّ بخلدك أن هذه العبارات جميعها ذوات معنى واحد، بل إنها اختلفت لفظاً واختلفت معنى كذلك.

ويصعب أن نتبع الآيات التي تحدثت عن الرسالة في جميع أطوارها وأدوارها، راجين أن يكون ما اجتزأناه كافياً ومغنياً، وما على القارئ إلا أن يتبع أي الذكر الحكيم، ليسعد وينعم، ويكون معي في كل ما أدعي وأزعم، من أن لا تكرر في الآيات التي تحدثت عن الرسالة.

### ثالثاً: البعث:

بقي من موضوعات العقيدة قضية البعث: وللبعث في كتاب الله شأن عظيم لا نجده في أي كتاب آخر، فالإيمان باليوم الآخر هو أحد بل أعظم أركان الإيمان،



والمتدبر لآيات الكتاب الكريم والسنة المشرفة يدرك ذلك لأول وهلة، لذلك كان لا بد أن يستفيض الحديث عن اليوم الآخر في كتاب الله تعالى.

يقرر مبدأ البعث بما لا نجده في أي كتاب -كما قلت- لا من حيث المضمون والحقائق فحسب، بل من حيث الأسلوب والدليل، فمن حيث المضمون والحقيقة يحرص القرآن الكريم والسنة المطهرة كذلك، على التأكيد والتقرير لبعث الأجسام، لتجازي كل نفس بما عملت، وأن الثواب والعقاب قد يكون كل منهما مادياً وروحانياً، وليس كما يقرر الفلاسفة ومن تبعهم من أصحاب الكتب السماوية فيما بعد، من أن البعث والنعيم والثواب كل أولئك أمور روحانية فحسب.

أما من حيث الأسلوب، فمع خطورة الموضوع، وشدة ارتباطه بالعقل، إلا أننا نجد أن أسلوب القرآن في تقرير البعث يثير المشاعر، ويهيج الوجدانات والعواطف، ويهيب بالعقل بل يحتم عليه أن يبحث ويستنتج. يدرك هذه الحقيقة من قارن بين أسلوب القرآن الكريم في إثبات البعث وأسلوب المتكلمين فيما أقاموه من أدلة.

ولا تظن أيها القارئ أنني حاولت أن أبعدك عن موضوع البعث، فأنتقل إلى موضوعات تتشابه وتتشابه فيما بينها، وإنما كانت تلك مقدمات -لا بد من أن نعرفها وأن نحيط بها- مدخلاً لموضوعنا، وأساساً لما نودّه من تقرير الوجود أو نفي التكرار في كتاب الله فيما يخص عقيدة البعث.

والناظر في كتاب الله يجد الحديث عن البعث مبثوثاً في سور القرآن الكريم، لا مكيّتها فحسب، بل مدينتها كذلك، وكفي نصل إلى ما نودّه من نتائج، ولكي يكون حكمنا على الأمور دقيقاً، يجمل بنا أن نتدبر هذه الآيات ولو تدبراً إجمالياً فماذا سنجد؟

لا يساورني شك بأنك أيها القارئ حينما تتدبر آيات البعث في كتاب الله وعقيدة اليوم الآخر، فتسجد أموراً ثلاث حرص القرآن الكريم على إبرازها والحديث عنها، وهذه الأمور كما ظهرت لي بعد بحث هي:

أولاً: الحديث عن طبيعة هذا اليوم -اليوم الآخر-

ثانياً: الحديث عما يكون فيه ما يقع من أحداث.

ثالثاً: عن الأدلة التي سلكها القرآن لإثبات هذا اليوم، بما يقنع العقول ويمتنع العواطف.

#### ١- طبيعة هذا اليوم:

فقد حدثنا القرآن الكريم عن طبيعة هذا اليوم، ولكن حديث القرآن لم يكن على وتيرة واحدة، وإنما كانت هناك حقائق متنوعة متعددة، يبرزها في آياته ذات الروعة والإعجاز، فهو اليوم الآخر أو الدار الآخرة تارة، ويوم القيامة أو يوم الجمع تارة، أو يوم التغابن ويوم الفصل تارة ثالثة. ثم نجد الحديث عن هذا اليوم الآخر أو الدار الآخرة بأوصاف متميزة، فتارة هي الساعة، وأخرى هي الطامة أو الصاخة، وفي موضع الحاقة أو القارعة أو الواقعة، إلى غير ذلك من أوصاف كل واحد منها إنما يضيف للعقل جديداً، لأنه يتحدث عن خصيصة لهذا اليوم، لا نجدها في موضع آخر من الآيات، كل هذا لشحذ الهمم، وتنبيه النفوس، وإيقاظ العقول، لأن تحسب لهذا اليوم حساباً، وأن تعي هذه النتيجة الأخيرة وهي أهم النتائج وأولاها بالتقدير؛ لأنها الغاية بل غاية الغايات، وهي قوله سبحانه: ﴿فَمَنْ رُحِّجَ عَنِ النَّكَارِ وَأَدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

#### ٢- أحداث اليوم الآخر:

أما ما يكون في هذا اليوم فلقد كانت هناك حقائق كثيرة أبرزتها آي الذكر الحكيم، سواء منها ما يحدث لهذا الكون والحياة أو للمخلوقات.

أما ما يحدث للكون فنقرؤه في مواضع كثيرة من كتاب الله، من انشقاق السماء وانفطارها، ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١]، ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ ﴿١﴾

[الانفطار: ١]، ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ①﴾ [المرسلات: ٩]، ﴿وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ وَالْفَنِيمُ﴾ [الفرقان: ٢٥]، ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ②﴾ [النبا: ١٩]، ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَلِيلِ ③﴾ [المعارج: ٨]، ﴿وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَتٌ بِيَمِينِهِ ④﴾ [الزمر: ٦٧] وهكذا الأرض تمد لتلقي ما فيها تتخلى عنه، وكان ما كانت تحتفظ به تأبى أن تتنازل عنه لأحد، وذلك لا بد له من زلزلة عظيمة ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ①﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ② وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ③ يَوْمَئِذٍ تُخْبِثُ أَخْبَارَهَا ④ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ⑤﴾ [الزلزلة: ١-٥].

أما ما في السموات فستكور الشمس، وتنكدر وتطمس النجوم، وتنتشر الكواكب، هكذا بهذا التعبير المعجز الذي يدلنا على التفرقة بين الكواكب والنجوم، يخسف القمر ويجمع الشمس والقمر.

أما ما على الأرض فستفجر البحار وتسجر، أما الجبال فستكون كالعهن المنفوش ثم تدك ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ①﴾ لَيْسَ لَوْقَعِهَا كَاذِبَةٌ ② خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ③ إِذَا رَجَعْتَ إِلَى الْأَرْضِ رَجًا ④ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ⑤ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ⑥﴾ [الواقعة: ١-٦]. وهكذا تسير الجبال فتكون سراباً، وبعد ذلك كله تبدل الأرض غير الأرض والسموات.

هذا ما تشير إليه الآيات الكريمة منذ أن ينفخ في الصور فيصعق من في السموات ومن في الأرض. إلا من شاء الله، نقرأ ذلك كله حديثاً رائعاً عن الأحداث المروعة في هذا الكون.

أما ما يحدث للخلائق فيحدثنا القرآن الكريم حديثاً مستفيضاً، ولكنه كذلك يبرز حقائق متنوعة متعددة، فلا تجزى نفس عن نفس شيئاً في هذا اليوم، لأنها لا يقبل منها عدل ولا يؤخذ منها شفاعاة، بل لا تنفعها شفاعاة كذلك إلا شفاعاة أذن بها الله الحي القيوم، فمنذ أن تخرج الخلائق من الأجداث سراعاً كأنهم إلى نصب يوفضون وكأنهم جراد يتتشر، يحدثنا القرآن الكريم عن الهواجس النفسية والتمنيات والاعتذارات، وفي كل آية حقيقة جديدة.

كما يحدثنا عن المراحل التي تمر بها الخلائق في هذا اليوم ابتداءً من نشر الكتب ليعطي كل كتابه بيمينه أو شماله، أو من وراء ظهره ليقراً كل كتابه ﴿ أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ١٤ ﴾ [الإسراء: ١٤].

ثم تأتي المرحلة الثانية وهي مرحلة الحساب، وهو حساب سريع، لا ظلم فيه ولا نسيان. ثم تأتي المرحلة الثالثة وهي مرحلة الميزان، ﴿ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ١٠٤ ﴾ [المؤمنون: ١٠٢] و ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ٧ ﴾ [القارة: ٧]، ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ١٠٣ ﴾ تَلْفَحُ وُجُوهُهُم أَلْتَارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ١٠٤ ﴾ [المؤمنون: ١٠٣-١٠٤] وأمه هاوية.

ثم تأتي المرحلة الرابعة وهي مرحلة الصراط ﴿ وَإِنْ يَنْظُرُ إِلَّاءِ وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ٧١ ﴾ ثُمَّ تُنْجَى الَّذِينَ آتَقُوا وَنَزَّرَ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثْيًا ٧٢ ﴾ [مريم: ٧١-٧٢] وبعد ذلك يكون الحديث عن الجنة والنار وما فيهما، مما أُعِدَّ لأهلها من أمور مادية أو معنوية، ذلكم هو حديث القرآن عما في هذا اليوم.

### ٣- الأدلة على اليوم الآخر:

بقيت الأدلة التي سلكها القرآن مبرهناتاً بها على هذا البعث، وكان يمكن أن يسكت القرآن عن هذه الأدلة، فهو الذي لا يتخلف وعده، ومن أصدق من الله قيلاً، ولكننا مع ذلك نجد الأدلة مبثوثة في هذا القرآن على الحقائق التي يقررها، سواء كانت هذه الحقائق تتعلق بوحداية الله، أم بنبوة النبي ﷺ أم بإثبات أن هذا القرآن من عند الله، وكذلك لإثبات اليوم الآخر، والعجيب أن أدلة القرآن الكريم أدلة متنوعة من هذا الكون، ومن الإنسان نفسه، بل نجدها أدلة هي في حقيقتها نعم من نعم الله على هذا الإنسان في هذا الكون، ولا نود هنا، أن نعرض لهذه القضية بالتفصيل، فذلك له موضع آخر في غير هذا الموضع إن شاء الله، لكن الذي يهمنا هنا، أن ننظر إلى أدلة البعث، وسنجد هذه الأدلة سلك القرآن بتقريرها مسالك

متعددة، لكنها جميعها سهلة ميسرة، فقد تكون هذه الأدلة مما يحيط بهذا الإنسان في هذا الكون، ومما هين لراحته وإمكانات وجوده على هذه الأرض ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ۝٦ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ۝٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا أَيْلًا لِّبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ۝١٤ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥ وَجَنَّتٍ أَلْفَافًا ۝١٦ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَتَنَا ۝١٧﴾ [النبا: ٦-١٧].

وقد يسلك بالدليل طريق آخر، فينتزع من نفس الإنسان وما يمر به من أطوار، وما يشاهد في شأن ما يقيم صلبه ويصلح شأنه، ويبهجه فيها يراه ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يُّتُوفٍ وَمِنْكُمْ مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمَرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَىٰ الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٥ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتِ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ۝٧ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ۝٨﴾ [الحج: ٥-٨] رأيت إلى هذين الدليلين اللذين جيء بهما لإثبات البعث أحدهما ﴿إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ﴾ فهو دليل مستمد من الأنفس، والثاني ﴿وَتَرَىٰ الْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ فهو مستمد مما هو حول الإنسان ومما لا حياة بدونه، ما أعظمهما في تأثيرهما، وما أروعهما في إمتاعهما، وما أبدعهما في إحاطتهما، وما أقنعهما في حجتها ومنطقها، وإذا صح ما ذكره المفسرون من أن قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ۝٨﴾ نزل في النضر ابن الحارث الذي قيل إنه جاء بأخبار وحكايات من خارج بلاد العرب، فكان يقرؤها للناس

ليشغلهم عن القرآن إذا صح ذلك فما أشبه الليلة بالبارحة ونحن نرى أن الذين ينكرون عقيدة البعث، يشبهون النضر بن الحارث، فلقد جاؤوا بأقوالهم من غير البيئة الإسلامية.

وقد يسلك في دليل البعث مسلكاً آخر، وهو مسلك عجيب ملفت للنظر، مدهش للألباب. إنه دليل الضدية، إنه يبرهن على وجود الشيء من ضده، فالمنكرون للبعث تتلخص شبهاتهم في وجود الحياة من اللاحياة، فكيف ينتج الشيء من ضده، كيف يكون النقيض من نقيضه؟ يقول الله في هذا: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْجِبُ الْعَظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقَدُونَ ۝٨٠ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ۝٨١ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۝٨٢﴾ فَسُبْحَنَ الَّذِي يَبْدِئُ مَلَكُوتَ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٨٣﴾ [يس: ٧٨-٨٣] هكذا جعل من الشجر الأخضر ناراً، والخضرة تتنافى مع النار، بل تضادها، لأنها ناتجة عن الماء وهكذا تتعدد الأدلة القرآنية لإثبات البعث.

وقد يفصل دليل مما يجمله الآخر، فينزال الماء على الأرض الذي ورد مجملًا في الآية السابقة، نجد فيه تفصيلاً في آية أخرى، كقوله سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا نِّفَاحًا سَفَقْتُهُ لِسَلْسِلَةٍ فَلَوْلَا يَدُ الْمَاءِ فَأَخْرَجْنَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ تَخْرُجُ الْمَوْتُ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٧٧﴾ [الاعراف: ٥٧] وقد يكون الدليل جملة واحدة مرتكزة في فطرة الإنسان، كأنها هي بدهية تدرك لأول وهلة، وذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾، وقد جاءت في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٧٧﴾ [الروم: ٢٧] وهكذا الأدلة الماثورة في كتاب الله تعالى، وليس غرضنا الاستقصاء، فما ذكرناه فيه الغنية والكفاية.

من ذلك كله يوقن كل منصف ذي بصيرة، أن التكرار الذي ادّعي في آيات العقيدة أمر لا مسوغ له ولا ضرورة، وما أشبهه بآيات الأحكام التي يجمعون على عدم التكرار فيها، مع أن الموضوع الواحد منها قد يذكر في أكثر من سورة، فأيات الطلاق، وآيات الحج، وآيات الجهاد، ذكرت في سور متعددة من سور القرآن، إلا أن كل سورة كان يذكر فيها ما لا يذكر في السورة الأخرى، فأيات الطلاق مثلاً ذكر بعضها في سورة البقرة، وبعضها في سورة الطلاق وهي التي تسمى سورة النساء الصغرى، وبعضها في سورة الأحزاب، وآيات الحج ذكر بعضها في سورة البقرة، وبعضها في سورة آل عمران، وذكر بعضها الآخر في سورة الحج. ولم يدّع أحد أن ذلك من التكرار، كذلك آيات العقيدة - كما رأينا -.

## المبحث الثاني

### القصص القرآني

الذين نظروا إلى القصة القرآنية، ووجدوا القصة الواحدة تذكر في أكثر من سورة، ظنوا أن ذلك من باب التكرار، ولكن الدارس المتأمل ستؤدي به دراسته المتأنية إلى النتيجة التي استخلصناها من آيات العقيدة، وهي أنها لا تحوم حولها شائبة تكرار. وسنوجز لك الحديث عن القصة من حيث التكرار، سندع النتيجة لك كذلك، لتستخلصها أنت، وأحيلك إن أردت مزيداً على كتابنا (القصص القرآني) في إيجائه ونفحاته.

ولنضرب لك مثلاً بما جاء في كتاب الله تبارك وتعالى، لِنَبَيِّنَ اثْنَيْنِ عليهما وعلى أنبياء الله ونبينا صلاة الله وسلامه، سيدنا نوح، وسيدنا موسى، ولنأخذ نماذج ثلاثة لكل من الرسولين -عليهما السلام-، بادئين بقصة سيدنا نوح عليه السلام.

فالأنموذج الأول ما جاء في سورة العنكبوت في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ١١﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَبَ السَّفِينَةَ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ١٢﴾ [العنكبوت: ١٤-١٥]. وهذه القصة القصيرة مع قصرها وإيجازها فلقد جاءت موفية للغرض الذي سيقّت من أجله. كما جاء فيها على قصرها ما لم يذكر في غيرها، وهي المدة التي لبثها نوح عليه السلام في قومه.

وهذه قصة نوح في سورة المؤمنون، جاء فيها قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا كُفِّرْتُمْ إِلَهُ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٣١﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ٣٢﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ يَدْعُو إِلَىٰ حِنَّةٍ فَرِيقًا يَتَّبِعُونَهُ حَتَّىٰ جَاءَ رَبَّهُمْ فَأَنْصَرَفَ يَمَآ



كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ [المؤمنون: ٢٣-٢٦] ويوحى الله تبارك وتعالى إليه بأن يصنع الفلك، وأن لا يخاطبه في الدين ظلموا فهم مغرقون، ﴿فَإِذَا أَسْتَوَيْتِ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِكِ فَقُلِ أَلَمَتُّدُ لِلَّهِ الَّذِي يَجْنَانِي الْقَوَمِ الْفَكِلِينَ﴾ ﴿٢٨﴾ وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُزْلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٢٩﴾ [المؤمنون: ٢٨-٢٩].

هذه قصة نوح في سورة المؤمنون، جاء بين الإجمال والتفصيل. وجاءت على هذا النسق كذلك في سورة الأعراف والشعراء والقمر، ولكنها في كل سورة من هذه السور الأربع لم تكن سواء، بل كانت كل قصة منسجمة مع السورة التي ذكرت فيها، موضوعاً وأسلوباً، ولذا كان في كل قصة جزئيات لم تذكر في القصة الأخرى.

ولكن قصة نوح ذكرت مطولة مفصلة في سورتي نوح وهود -عليهما السلام-. وأنت حينما تتدبر القصة في السورتين، تجد أن كلاً منهما تشتمل على قضايا وجزئيات وأحداث لا توجد في غيرها، مما يجعلك توقن غير مرتاب، أن لا تكرر في قصة نوح عليه السلام.

أما قصة موسى عليه السلام، فقد ذكرت موجزة في سورة النازعات، مطولة في سورة الأعراف، وما بين هذا وذاك في سورة يونس، وكانت كل واحدة لها أسلوبها المتميز. ولو أردنا أن نذكر ما في كل سورة لطال الحديث.

#### اتساق القصة مع موضوع السورة:

وما على القارئ إلا أن يفتح كتاب الله، سائلاً الله أن يفتح له في فهمه، فيتدبر ما فيه، وسيجد أن كل قصة جاءت تتناسب وتتسق مع موضوع السورة في شخصيتها، فقصة موسى في سورة النازعات، هذه السورة ذات المقاطع القصيرة القوية الفخمة الجزلة، ذكر فيها قوله سبحانه عن فرعون: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَى﴾ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴿٢٥﴾ [النازعات: ٢٣-٢٥]. وقصة موسى عليه السلام

في سورة الزخرف ذكر فيها ما يتناسب مع اسم السورة الكريمة؛ وما بنيت عليه، وما ذكر فيها من إسراف المعرضين، ومن رفع بعض الناس فوق بعض درجات، ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً، وهي التي ذكر فيها قول فرعون حينما نادى في قومه متباهياً: ﴿الْيَسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذَا الْأَنْهَارُ يَجْرِي مِن تَحْتِي﴾ [الزخرف: ٥١]. وقصة نوح عليه السلام جاءت قصيرة في سورة العنكبوت، وهي السورة التي بدئت بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أَحْسَبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ١-٢]، فهي سورة الدعاة الذين جاهدوا في الله، وهم يرجون لقاءه، ولذلك جاءت قصصها قصيرة كأنها هي لقطات تذكر الدعاة إلى الله بصعوبة الأمر وخطورته.

﴿وَكَذَٰلِكَ أُنزِلَتْهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: ١١٣]، وصدق الله ﴿كَتَبَ أَخِيكَ ءَايَتُهُ ثُمَّ قُضِيَٰتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٌ خَيْرٌ﴾ [مود: ١]، وصدق الله ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٢٨].

ويطول بنا الأمر إذا أردنا أن نتتبع القصص القرآني في سورة، فتلك قضية لا يتسع لها مثل هذا الفصل، ولكننا نجزم ونوقن بأن كل متأمل لكتاب الله تعالى يجزم كذلك، بأن القصص القرآني ليس فيه تكرار من جهة، ومن جهة ثانية فإن كل قصة ذكرت في السورة التي تلائم موضوعها، وتتسق مع شخصيتها، سواء كان ذلك من حيث أسلوب السورة، أم من حيث جزئياتها وأحداثها.

يقول العلامة المصلح الأستاذ محمد الخضر حسين<sup>(١)</sup>، شيخ الأزهر الأسبق: «إنه لا تكرار في القصص القرآني، وإنما كل قصة في سورة، فيها من المعاني والحكم

(١) محمد الخضر حسين بن علي بن عمر الحسيني التونسي (١٢٩٣-١٣٧٧ هـ/ ١٨٧٦-١٩٥٨ م)، عالم إسلامي، أديب باحث، يقول الشعر، من أعضاء المجمعين العربيين بدمشق والقاهرة، وعن تولوا مشيخة الأزهر، وُلد في نقطة من بلاد تونس وتخرج بجامعة الزيتونة، ودرس فيها، وأنشأ مجلة السعادة العظمى، وترأس تحرير مجلة نور الإسلام، ولواء الإسلام، له تأليف منها: حياة اللغة، والخيال في الشعر العربي، ومناهج الشرف، والدعوى إلى الإصلاح.... الأعلام، ج ٦، ص ١١٤.

ما لا يوجد في سورة أخرى، وسياق السورة وظرفها يحددان موضع العبرة من القصة، فليس من السهل أن يقال: في كل سورة جاءت فيها قصة موسى مع فرعون أنها قصة واحدة، بل الواجب أن ندرس القصة في كل سورة، ليتبين السياق الذي جاءت من أجله، والعبرة التي هدفت لها، والحكمة التي قصدت منها».

ويمثل الشيخ بقصة آدم، ويقول: «إنها وردت في ست سور، في البقرة والأعراف والحجر والإسراء والكهف وطه<sup>(١)</sup>. ففي سورة البقرة وردت القصة في سياق تذكير الناس بنعمة الله، والعجب من أنهم يكفرون به، فكانت القصة تدور على هذا التذكير من جعل آدم خليفة، وتعليمه الأسماء كلها.

وفي سورة الأعراف، وردت هذه القصة في سياق أن الناس قليلاً ما يشكرون الله، الذي مكّٰنهم في الأرض، وجعل لهم فيها معاش، ولذلك أسهبت القصة في موقف إبليس من الإنسان. وفي سورة الحجر، وردت القصة في سياق خلق الإنسان من طين، والجن من نار، فليست مادة أفضل من مادة، وهذا ما ركزت عليه القصة.

أما سورة الإسراء، فقد وردت قصة آدم في سياق فتنة الناس، ولذلك كان الإسهاب فيها، في واقعة حسد إبليس وعدائه لآدم وذريته<sup>(٢)</sup>.

ويقول الأستاذ سيد قطب رحمته الله: «يرد القصص في القرآن في مواضع ومناسبات، وهذه المناسبات التي يساق القصص من أجلها، هي التي تحدد مساق القصة، والحلقة التي تعرض منها، والصورة التي تأتي عليها، والطريقة التي تؤدّي بها، تنسيقاً للجو الروحي والفكري، والفني الذي تعرض فيه. وبذلك تؤدي دورها الموضوعي، وتحقق غايتها النفسية، وتلقي إيقاعها المطلوب.

---

(١) ولم يذكر سورة (ص).

(٢) مجلة لواء الإسلام، العدد السابع، السنة الرابعة، ص ٥٣٧-٥٥٤.

ويحسب أناس أن هنالك تكراراً في القصص القرآني، لأن القصة الواحدة قد يتكرر عرضها في سور شتى. ولكن النظرة الفاحصة تؤكد أنه ما من قصة، أو حلقة من قصة قد تكررت في صورة واحدة، من ناحية القدر الذي يساق، وطريقة الأداء في السياق. وإنه حيثما تكررت حلقة كان هنالك جديد تؤديه، ينفي حقيقة التكرار»<sup>(١)</sup>.

ولقد عرض الزركشي رحمته الله لفوائد التكرار في القصص القرآني، ومع أننا لا نسميه تكراراً - كما قلت - ومع أن ما ذكره أيضاً قد يكون بعضه متداخلاً في بعض، وقد تكون الأسباب التي ذكرها أكثر وجاهة من بعضها الآخر، إلا أن فيه فوائد يجمل للقارئ أن يقف عليها، لذا رأينا أن ننقل كلامه كما جاء. قال رحمه الله: «ومنه تكرار القصص في القرآن، كقصة إبليس في السجود لآدم، وقصة موسى وغيره من الأنبياء، قال بعضهم: ذكر الله موسى في مائة وعشرين موضعاً من كتابه وقال ابن العربي في القواصم: ذكر الله قصة نوح في خمسة وعشرين آية، وقصة موسى في سبعين آية. انتهى. وإنما كرر لفائدة خلت عنه في الموضع الآخر وهي أمور:

أحدها: أنه إذا كرر القصة زاد فيها شيئاً، ألا ترى أنه ذكر الحية في عصا موسى عليه السلام وذكرها في موضع آخر ثعباناً، ففائدته أن ليس كل حية ثعباناً، وهذه عادة البلغاء أن يكرر أحدهم في آخر خطبته، أو قصيدته كلمة لصفة زائدة.

الثانية: أن الرجل كان يسمع من القرآن ثم يعود إلى أهله، ثم يهاجر بعده آخرون يحكون عنه ما نزل بعد صدور الأولين، وكان أكثر من آمن به مهاجرياً فلولا تكرار القصة لوقعت قصة موسى إلى قوم وقصة عيسى إلى آخرين وكذلك سائر القصص، فأراد الله سبحانه وتعالى اشتراك الجميع فيها، فيكون فيه إفادة القوم وزيادة تأكيد وتبصرة لآخرين وهم الحاضرون وعبر عن هذا ابن الجوزي وغيره.

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج ١، ص ٦٤، الطبعة الخامسة، ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٧ م.

الثالثة: تسليته لقلب النبي ﷺ مما اتفق للأنبياء مثله مع أمهم قال تعالى:  
﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠].

الرابعة: أن إبراز الكلام الواحد في فنون كثيرة وأساليب مختلفة لا يخفى ما فيه من الفصاحة.

الخامسة: أن الدواعي لا تتوفر على نقلها كتوافرها على نقل الأحكام فلذا كررت القصة دون الأحكام.

السادسة: أن الله تبارك وتعالى أنزل هذا القرآن، وعجز القوم عن الإتيان بمثل آية لصحة نبوة محمد ﷺ ثم بيّن وأوضح الأمر في عجزهم، بأن كرر ذكر القصة في مواضع، إعلاماً بأنهم عاجزين عن الإتيان بمثله بأي نظم جاؤوا، بأي عبارة عبّروا، قال ابن فارس: وهذا هو الصحيح.

السابعة: أنه لما سخر العرب بالقرآن قال: ﴿فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣] وقال في موضع آخر: ﴿فَأَتُوا بِعَشْرِ سُورٍ﴾ [مرد: ١٣]، فلو ذكر قصة آدم مثلاً في موضع واحد، واكتفى بها لقال العربي بها قال الله تعالى: ﴿فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾، «إيتونا أنتم بسورة من مثله» فأنزلها سبحانه في تعداد السور، دفعاً لحجتهم من كل وجه.

الثامنة: أن القصة الواحدة من هذه القصص، كقصة موسى مع فرعون وإن ظُنَّ أنها لا تغاير الأخرى، فقد يوجد في ألفاظها زيادة ونقصان وتقديم وتأخير، وتلك حال المعاني الواقعة بحسب تلك الألفاظ، فإن كل واحدة لا بد وأن تحالف نظيرتها من نوع معنى زائد فيه، لا يوقف عليه إلا منها دون غيرها، فكأن الله تعالى فرق ذكر ما دار بينهما وجعله أجزاء، ثم قسم تلك الأجزاء على تارات التكرار لتوجد متفرقة فيها، ولو جمعت تلك القصص في موضع واحد لأشبهت ما وجد الأمر عليه من الكتب المتقدمة، من انفراد كل قصة منها بموضع، كما وقع في القرآن بالنسبة ليوسف عليه السلام خاصة، فاجتمعت في هذه الخاصية من نظم القرآن عدة معاني

عجيبة: منها: أن التكرار فيها مع سائر الألفاظ لم يوقع في اللفظ هجنة، ولا أحدث مللاً فباين بذلك كلام المخلوقين، ومنها: أنه ألبسها زيادة ونقصاناً وتقديماً وتأخيراً ليخرج بذلك الكلام أن تكون ألفاظه واحدة بأعيانها، فيكون شيئاً معاداً فنزّهه عن ذلك بهذه التغيرات.

ومنها أن المعاني التي اشتملت عليها القصة الواحدة من هذه القصص صارت متفرقة في تارات التكرير، فيجد البليغ - لما فيه من التغير - ميلاً إلى سماعها لما جبلت عليه النفوس من حب التنقل في الأشياء المتجددة التي لكل منها حصة من الالتذاذ به مستأنفة.

ومنها: ظهور الأمر العجيب في إخراج صور متباينة في النظم بمعنى واحد، وقد كان المشركون في عصر النبي ﷺ يعجبون من اتساع الأمر في تكرير هذه القصص والأنباء مع تغاير النظم وبيان وجوه التأليف، فعرفهم الله سبحانه أن الأمر بما يتعجبون منه مردود إلى قدرة مَنْ لا يلحقه نهاية ولا يقع على كلامه عدد<sup>(١)</sup>.

ومما تقدم نستطيع أن نصدر حكماً الآن، من أنه لا معنى أبداً للقول بأن هناك تكراراً في القصص القرآني، بل إن كل قصة جاءت فريدة فيما تقصده وتهدف إليه، وما مثل القائلين بالتكرار إلا كمثل الذي يزعم أن اليد في الإنسان كررت، وأن أصابع اليد الخمسة إنما هي إصبع واحد، وصدق الله ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤] والحق أن موضوع القصة موضوع ثري بالقيم غني بما فيه من براهين على الإعجاز القرآني. والإطالة ربما تخرجنا عن قصدنا، لذلك نرجو أن يكون ما ذكرناه وافيّاً بما أردناه<sup>(٢)</sup>، والله الحمد في الأولى والآخرة، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي، ج ٣، ص ٢٥-٢٨.

(٢) وقد فصلنا القول في كتابنا: قصص القرآن، صدق حدث، وسمو هدف إرهاف حس تهذيب نفس.

## المبحث الثالث

### جانب الألفاظ

ذلك الذي قلناه في موضع التكرار من قبل، كان الحديث فيه عن الموضوعات القرآنية (آيات العقيدة والقصص) ولكن هناك موضعاً آخر ادّعي فيه التكرار، ونعني به ما جاء في كتاب الله تعالى من جمل أو آيات، ذكرت فيه أكثر من مرة، في مواضع متفرقة سواء كان ذلك في سورة واحدة من القرآن، أم في سور متعددة. ونحن حينما نكتب هذه الفصول لا نكتبها دفاعاً عن القرآن لنرد على الحاقدين من أصحاب الشبهات فحسب، فالقرآن لا ريب فيه، وإنما نكتبه نهدف أول ما نهدف - ونحن فرحون سعداء - أن يعلم ذوو الغيرة على هذا القرآن، روعة الإعجاز ومواطن الإيجاز، فيعتز بذلك الكتاب أيما إعزاز. وسنحاول ألا تقتصر على ما ذكره مما اشتهر، كالذي جاء في سورة الرحمن وهو قوله سبحانه: ﴿فَإِذَا لَاقُوا رَبَّكَمُ اتَّكَذَّبْتُمْ﴾، وقوله: ﴿وَبَلِّغُوا بِلَا مَكِيدِينَ﴾ في سورة المرسلات، بل سنحاول أن نذكر ما يفتح الله به لنا، ونحن نتبع أي الذكر الحكيم، لأننا كما قلت: لن نقف موقف المدافعين، لكننا ننبه العقول لمواطن الحجج، لنقيها كل غفلة ولجج، ونشوق النفوس ونحن نتقل بها في روضات الجنات للآيات المحكمات:

#### في سورة البقرة:

- ١ - فمن ذلك قوله تعالى: ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ١٨﴾ [البقرة: ١٨]، وقوله تعالى: ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ٣١﴾ [البقرة: ٣١]، ذكرت الآية الأولى في سياق الحديث عن المنافقين بعد قوله سبحانه: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا﴾، وذكرت الثانية في سياق الحديث عن الكافرين ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾. ومن أجل ذلك ختمت الأولى بقوله تعالى: ﴿لَا يَرْجِعُونَ﴾،

والثانية بقوله سبحانه: ﴿لَا يَقُولُونَ﴾ (٣١)، لأن كلاً من الجملتين يتسق ويتناسب مع الآية التي ذكرت فيها. وهكذا نجد أن كل واحدة ذكرت في سياق خاص، وهذا أبعد ما يكون عن التكرار.

٢- ومن ذلك ما جاء في قصة آدم في السورة نفسها ﴿وَقُلْنَا أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنَعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (٣٢) فَلَقِيَ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَلَبَّاهُ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ النَّوَابُ الرَّحِيمُ (٣٧) قُلْنَا أَهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَمَا يَأْتِيكُمْ مِنْهُ هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) ﴿ [البقرة: ٣٦-٣٨].

فمع ما يوجد من اختلاف في اللفظ بين الآيتين، أعني قوله: ﴿أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ﴾ وقوله: ﴿أَهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾، فإن الأمر بالهبوط هنا ذكر مرتين، ولكن كل واحد منهما يختلف عن الآخر، فالأمر الأول ترتبت عليه عداوة بعضهم لبعض، أي: عداوة إبليس لآدم وبنيه. أما الأمر الثاني فلقد ترتب عليه شيء آخر، وهو ما سيختبرون به ويبتلون، من اتباع هدى الله أو الإعراض عن هذا الهدى. لكل من الآيتين - إذن - هدف وغاية، وهذا ما يتنافى مع التكرار تنافياً تاماً.

٣- في سورة البقرة هذه الآية ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُنتَلَوْنَ عَنْهَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ (٣٩) [البقرة: ١٣٤، ١٤١] ذكرت هذه الآية مرتين، الأولى بعد الحديث عن بناء الكعبة ودعاء إسمايل وإبراهيم عليهما وعلى نبينا صلوات الله وسلامه، ووصية كل من إبراهيم ويعقوب لبنيه بالتوحيد والإسلام لله رب العالمين. وذكرت الثانية بعد ادعاء أهل الكتاب أنهم هم المهتدون، وطلبهم من المسلمين أن يكونوا مثلهم، وادعائهم أن إبراهيم وبنيه كانوا هوداً أو نصارى، ومحاجتهم في ذلك.

الآية الأولى إذن كما يظهر لنا - والله أعلم بأسرار كتابه - ذكرت لإرشاد المسلمين كي يواصلوا المسيرة، فاتحين القلوب والبلاد باسم الله، ما دام الله قد



شرفهم بأبوة إبراهيم وإسماعيل، وبهذا النبي العظيم دعوة إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩]، وجاءت الآية الثانية لتقيم الحجة على أهل الكتاب الذين هم في عهد الرسول ﷺ، بأن الله لن يسألهم عن إعراض آبائهم وتوليهم، وجحدهم لنعم الله، وتحريفهم لآياته إذا آمنوا بمثل ما آمنت به أيها المؤمنون.

وإن المتدبر لسياق الآيات يمكنه أن يلمح ذلك ويستنتجه، وهكذا نجد أن كلتا الآيتين لها موضوعها الذي يقتضي وجودها. فلم تذكر الثانية تأكيداً للأولى، كي تدخل في باب التكرار.

٤- في شأن تحويل القبلة جاءت هذه العبارات القرآنية الكريمة: ﴿قَدْ رَأَى نَفْلًا وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: ١٤٤] وبعد هذه الآية الكريمة يقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِفَاعِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١٤٩) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ﴿ [البقرة: ١٤٩-١٥٠].

هذه الآيات الكريمة حينما يقرأها القارئ، يجد أن الأمر بتولية الوجه شطر المسجد الحرام قد ذكر أكثر من مرة، فيذهب الكثيرون إلى أن ذلك للتأكيد.

ولكننا حينما ننعم النظر نجد أن الآيات الكريمة لم تذكر للتأكيد فحسب، وإنما كان لكل واحدة منها غرضها الذي تؤديه، وغايتها التي تقصد إليها. فنحن نعلم خطورة قضية القبلة، من حيث إنها جاءت تلبية لرغبة النبي ﷺ، ومن حيث ما فيها من استقلال شخصية المسلمين حتى في عبادتهم، ولقد كان تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة أول نسخ في الإسلام، لذا وجدنا هذه العناية في شأن هذا التحويل، ومع ذلك كان لكل آية مغزى خاص بها:

فالأية الأولى جاءت تبين للنبي والمؤمنين، أن هذه هي القبلة التي تمنيتوها ورغبتم فيها -وقد علم الله ذلك منكم- أجابكم الله لما طلبتم. وأما الآية الثانية فلقد كان الأمر فيها لبيان قضية أخرى، وهي أن هذه القبلة التي أمركم الله أن تتحولوا إليها، لن تنسخ أبداً وهي القبلة الباقية. وأما الآية الثالثة فجاءت تبين أن الهدف من هذا الأمر بالتحول إلى هذه القبلة، من أجل أن تقطعوا دابر كل قول فلا يبقى للناس عليكم حجة.

هكذا إذن نجد أن أمر التكرار لا يستقيم مع غاية الآيات الكريمة، وإنما اخترنا ذلك القول، وعللنا كل أمر بما يناسبه أخذاً من الآيات نفسها، فالأمر الأول بالتولية شطر المسجد الحرام جاء عقب قوله تعالى: ﴿قَدْ رَأَى ثَقَلُ بْنُ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَوْلَيْتَكَ فَبَلَّغَهُ رَضَئَهَا﴾. وأما الأمر الثاني فقد جاء بعده قوله سبحانه ﴿وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾، ومعنى هذه الجملة الكريمة أنه حق ثابت لن ينسخ أبداً. أما الآية الثالثة فالأمر فيها ظاهر، فلقد ذكر عقبها ﴿لِكَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾.

٥- في آيات الصيام ذكر قوله تعالى: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٥﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ [البقرة: ١٨٤-١٨٥].

فهاتان الجملتان من كتاب الله مع ما بينهما من فرق باللفظ، حيث جاءت الأولى ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾، وجاءت الثانية ﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ وذلك لغاية بيانية دالة بحق على سر من أسرار إعجاز هذا الكتاب

الخالد. ومع أن بحثنا لا يتعلق بها، لكن لا بأس أن نذكرها ليستيقن المنصفون من غير المسلمين، وبخاصة من أهل الكتاب، أن القرآن بعيد عن الحشو والزيادة والإطناب، ونذكرها كذلك ليزداد الذين آمنوا إيماناً، ولكن بعد أن نأتي على المقصود من بحثنا وهي قضية التكرار.

فالجملـة الأولى ذكرت بعد قوله تعالى: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ وذكر بعدها قول الله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ. وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (١٨٤)، والراجع عند جمهرة العلماء وأئمة التفسير أن هذه الآية منسوخة بالآية التي بعدها، وهي قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ وإذا عرفنا هذا ندرك بُعد القول بالتكرار. وإليك أيها القارئ الكريم بيان ذلك: قوله سبحانه: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ ذكر فيه أكثر من حكم:

١- القضاء للمريض والمسافر.

٢- التخير بين الصيام والفدية.

٣- خيرية الصيام وتفضيله على الإطعام.

وجاءت الآية الثانية تنسخ هذا الحكم، فتوجب الصيام على كل من شهد الشهر، فلا يجوز له أن يطعم ويفطر، وإذا فمن البدهي أن يكون هذا التساؤل: ترى هل هذا الحكم وحده هو الذي نسخ من الآية السابقة؟ أم أن حكم المريض والمسافر كذلك قد نسخ، فلا يجوز لهما الإفطار مطلقاً، وإن جاز فما البديل الذي يفعلانه؟ فجاءت الآية الكريمة لتجيب على هذه التساؤلات الضرورية، وهو أن حكم المريض والمسافر في حال وجوب الصيام لم يتغير ولو أن هذه الجملة الكريمة لم تذكر لكان ذلك نقصاً في البيان يجبل عنه القرآن وكان موضع تساؤلات، بل موضع خلاف فيما بعد. كل من الجملتين، إذن ذكرت لا للتأكيد ولكن لتقرر كل حكماً خاصاً.

بقي أن نجيب على التساؤل المتعلق بذكر كلمة ﴿مِنْكُمْ﴾ في الجملة الأولى، وعدم ذكرها في الثانية، فقد عرفنا أن الآية الأولى منسوخة، فالخطاب فيها للمؤمنين الذين نزل القرآن فيهم، أما الجملة الثانية فإن الخطاب يتناول أولئك الذين كانوا في عهد النبي ﷺ وغيرهم، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وإذا كان الأمر كذلك لا يجوز أن تذكر كلمة (منكم) في الآية الثانية، لأنها ليست للصحابة رضي الله عنهم وحدهم، وإنما للمؤمنين بعمامة هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإن كلمة ﴿مِنْكُمْ﴾ ذكرت قبل هذه الجملة في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمْ﴾ فلا داعي لتكرارها هنا، أما في الآية الأولى فلم يسبق لها ذكر.

### في سورة آل عمران:

٦- في سورة آل عمران ذكرت هذه العبارة الكريمة ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ مرتين متجاورتين:

أولاً: في قوله سبحانه: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتُوا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

ثانياً: في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُخَضَّراً وَمِمَّا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠].

والناظر في السياق القرآني، يجد أن كلاً من التحذيرين جاء عقب قضية خطيرة مهمة. جاء الأول بعد نهي المؤمنين أن يتخذوا الكافرين أولياء، وهي قضية عني بها القرآن الكريم بعمامة، وعنيت بها سورة آل عمران بخاصة، وما أصاب المسلمين اليوم من ضعف وخور وهزال ليس إلا بسبب هذه الموالاة. وجاء الآخر

في سياق مشهد من مشاهد يوم القيامة، فالتحذير الأول يترتب عليه العذاب الدنيوي من تفرق وتمزق وذلة ومسكنة، أما التحذير الثاني فيترتب عليه العذاب الآخروي ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٦].

### في سورة النساء:

٧- في سورة النساء ذكرت هذه الآية الكريمة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ. وَيَغْفِرَ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨] ثم ذكرت في السورة نفسها ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ. وَيَغْفِرَ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦-١١٨] ويظن الذين لا معرفة لهم بالسياق القرآني، أن الآية قد كررت، ولكن الذي ينعم النظر يدرك إدراكاً لا يتطرق إليه الريب أن لا تكرار، بل إن كل آية من الآيتين، جاءت تتحدث عن أمر خاص بها.

فالآية الأولى جاءت في سياق الحديث عن أهل الكتاب، يدلنا على ذلك ما ذكر قبلها وما جاء بعدها. ولنستمع لذلك ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ أَوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْغَسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [٤٧] ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ. وَيَغْفِرَ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [٤٨] ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُرَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يَظْلُمُونَ فِتْيَلًا﴾ [٤٩] ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَيْبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ [٥٠] ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا﴾ [٥١] ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ نَجْدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ [٥٢] ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُوَثِّقُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ [٥٣] ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ ءَاتَيْنَا ءَالَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ

وَأَتَيْنَهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ ﴿[النساء: ٤٧-٥٥]. ولا يشك أحد في أن هذه الآيات الكريمة تتحدث عن أهل الكتاب واليهود بخاصة.

أما الآية الثانية، فقد ذكر بعدها قوله تعالى: ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ ﴿١١٨﴾ وَلَا أُضِلُّنَّهُمْ وَلَا أَتَمِّينُهُمْ وَلَا تُرِيهِمْ فَلْيَبْتَئِكُنَّ ءَاذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَا مِرْيَةً لَّهُمْ فَلْيَغْيِرْ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ ﴿[النساء: ١١٩-١٢١]. ومن البدهي أن هذه الآيات الكريمة تتحدث عن مشركي العرب.

الآية الأولى إذن تتحدث عن أهل الكتاب، ويبين القرآن الكريم أنهم مشركون، وقد وجدنا من العلماء من يتحاشى أن يصفهم بالشرك<sup>(١)</sup>. أما الآية الثانية فجاءت تتحدث عن الوثنيين من العرب، ولذا ختمت الآية الأولى بقوله: ﴿فَقَدْ أَفْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ ﴿١٢٢﴾ وختمت الآية الثانية بقوله: ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ ﴿١٢٣﴾، ذلك لأن أهل الكتاب افترؤا إثماً حينما غيروا ما أكرمهم الله به من الشرائع، ولا كذلك مشركو العرب، وقد أشار العلماء من قبل إلى هاتين الآيتين<sup>(٢)</sup>.

٨- وفي السورة نفسها وعقب كل موضع من الموضعين اللذين ذكرناهما من قبل أعني ما يختص بأهل الكتاب وما يختص بمشركي العرب، ذكرت هذه الآية

(١) انظر كتابنا: اتجاهات في التفسير ومناهج المفسرين.

(٢) انظر: جلال الدين عبدالرحمن بن الكمال بن أبي بكر السيوطي، وُلِدَ سنة (٨٤٩هـ) نشأ تيتياً وحفظ القرآن صغيراً، أخذ عن الشيخ محيي الدين الكافيجي، التفسير والأصول والعربية والمعاني، رزق التبحر في سبعة علوم: التفسير، والحديث والفقه والنحو، والمعاني والبديع والبيان، توفي سنة ٩١١هـ، الإثنان في علوم القرآن، تحقيق: أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٧٥م، ج ٣، ص ٣٥١.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا ظِلِيلٌ﴾ ﴿٥٧﴾ [النساء: ٥٧].

فقد ذكرت هذه الآية بعد الحديث عن أهل الكتاب، وبالتحديد بعد قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ مِّنْ ءَامِنٍ بِهِ، وَمِنهُمْ مَّنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كَمَا فَصَّحْتَ جُلُودَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ ﴿٥٦﴾ [النساء: ٥٥-٥٦].

أما الآية الثانية فقد ذكرت عقب قوله تعالى في النص السابق الذي تحدث عن مشركي العرب ﴿أُولَٰئِكَ مَاؤُنْهْمُ جَهَنَّمُ لَا يَخْرُجُونَ عَنْهَا بِحَيْصًا﴾ ﴿١٢١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ ﴿١٢٢﴾ [النساء: ١٢١-١٢٢] وليس ثمة تكرار، لأن الآية الأولى جاءت تبين لأهل الكتاب إنهم آمنوا وعملوا الصالحات، إيماناً خالصاً من كل شائبة، فإن لهم جنات. والآية الثانية جاءت تعد الوثنيين من العرب كذلك بهذه الجنات، إن حسن إيمانهم، ذلك لأن الإيمان يُجِبُّ ما قبله سواء كان -أي الذي قبل الإيمان- افتراءً أم ضلالاً.

### في سورة المائدة:

٩- أ- وفي سورة المائدة جاء قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿٤٤﴾ [المائدة: ٤٤]، ب- ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ﴿٤٥﴾ [المائدة: ٤٥]، ج- ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧].

جاءت خاتمة آيات ثلاث متتابعة، ولا يظن ظان أن هناك تكراراً في هذه الجمل الثلاث، فالتكرار منتفٍ من جهتين اثنتين:

أما أولاً: فلأن كل جملة جاءت تتحدث عن غير ما تتحدث عنه الأخرى، إذ تتحدث الأولى عن المسلمين، والثانية عن اليهود، والثالثة عن النصارى.  
ثانياً: كل آية ختمت بها لم تختتم به الأخرى كما رأينا.

#### آيات متفرقات:

١٠- هناك آيات ذكرت في تقرير سعة ملك الله تعالى، أو بيان صفاته وذلك كقوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ حيث ذكرت أكثر من مرة في كل من آل عمران [الآيات: ١٠٩، ١٢٩، ١٢٦] والنساء [الآيات: ١٣١، ١٣٢] وكقوله: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ حيث ذكرت مرتين في سورة الأنعام [الآيات: ١٨، ٦١]. وكل واحدة من الآيات الكريمة، جاءت بعد وعيد خاص يتطلبه المقام، ويقضيه السياق.

١١- في سورة المائدة ذكرت هذه الجملة الكريمة ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا﴾ [المائدة: ٢] ثم ذكرت بعد عدة آيات وهي قوله سبحانه: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَيْكُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]، فإذا عرفنا أن الآية الأولى جاءت تتحدث عن الذين صدوا المؤمنين عن المسجد الحرام وهم أهل مكة، وجاءت الثانية تأمر المسلمين بالعدل: ﴿كُونُوا قَوْمِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ ويدخل فيها أول ما يدخل أهل الكتاب، أدركنا أن كلا من الجملتين الكريمتين جاءت في شأن فئة من الناس، وأدركنا كذلك أن إحداها لا تغني عن الأخرى.

#### في سورة الأنفال:

١٢- في سورة الأنفال ذكر قوله تعالى بعد الحديث عن أحداث بدر، عندما خرج المشركون بطراً ورتاء الناس ليصدوا عن سبيل الله، وقد زين لهم الشيطان أعمالهم، وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وأني جار لكم، وحينها تراءت الفئتان



وتلاقى الجمعان، ولى مدحوراً ونكص على عقبيه، وقال ما قال. أما المنافقون والذين في قلوبهم مرض فقالوا قولتهم الشنيعة: ﴿غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ [الأنفال: ٤٩]، وهي قولة سجلت في القرآن الكريم أكثر من مرة كما سنذكر ذلك إن شاء الله ونذكر السبب في ذلك... بعد ذلك كله يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا أَلْمَلَكُتُكُمُ يَصْرِيئُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَرَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ ٥٠ ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ ٥١ ﴿كَذَابَ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ٥٢ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكْ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ٥٣ ﴿كَذَابَ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ ٥٤ [الأنفال: ٥٠-٥٤].

من هذا النص الكريم نجد أن قوله تعالى: ﴿كَذَابَ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ ذكر مرتان، أخبر عنهم بأنهم كفروا بآيات الله في الآية الأولى [٥٢]، وكذبوا بآيات ربهم في الآية الثانية [٥٤]، ولزيادة التوضيح نقرر ما يلي:

ذكرت الآية الأولى عقب الحديث عن أهل مكة الذين خرجوا إلى بدر بطراً ورتاء الناس، يصدون عن سبيله. وقد زين لهم الشيطان أعمالهم، وهم يشبهون من هذه الحيشة آل فرعون، فلقد خرجوا بطراً ورتاء الناس كذلك، للقضاء على موسى ومن آمن معه، وزين لهم شيطانهم - فرعون - أعمالهم. وهذا ما حدثنا عنه القرآن الكريم ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ ٥٢ ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ ٥٤ ﴿وَأَنَّهُمْ لَغَافِلُونَ﴾ ٥٥ ﴿وَلَا تَجْمِيعُ حَذِرُونَ﴾ ٥٦ [الشعراء: ٥٣-٥٦]، لقد كفرت قريش بآيات الله كما كفر فرعون وآله، فأخذهم الله القوي الشديد العقاب.

أما الآية الثانية فقد ذكرت عقب سنة من سنن الله تبارك وتعالى في هذا الكون وهذه الحياة، وهو أنه سبحانه إذا أنعم على قوم نعمة ما، فإنه لا يغيرها، بل

يضاعفها وينميها إن شكروا، لكنهم إن جحدوها وغيّروا ما بأنفسهم، استحقوا العقاب، لأنهم بدلوا نعمة الله كفرًا، وقريش من هذه الحشية تشبه آل فرعون، فكما أنعم الله على فرعون بالجنات والعيون والأوتاد، فقد أنعم على قريش كذلك بالحرم الآمن، والناس يتخطفون من حولهم، وأطعمهم من جوع وآمنهم من خوف، ورزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون، ولكن كلا الفريقين غيروا نعم الله، فذكرت هذه الآية مرة ثانية.

بقي أن يقال إنه قد جرت عادة القرآن الكريم حينما يكون المقام مقام هيبة وإجلال وإخافة أن يذكر لفظ الجلالة (الله) فإذا كان المقام مقام إنعام وتربية وتفضل، ذكر اسم الرب. فإذا عرفنا هذا، وعرفنا أن الآية الأولى ﴿كَذَّابٍ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۖ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ ذكرت عقب مصرع أهل بدر الذين أبوا إلا الجحود. وعرفنا أن الآية الثانية ﴿كَذَّابٍ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۖ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ ذكرت بعد سنّة من سنن الله تعالى في هذا الكون، وهي أنه لا يغيّر نعمه التي خصّ بها بعض الناس إلا إذا غيروا ما بأنفسهم وكفروا بأنعم الله.

إذا عرفنا ذلك كله ندرك أن كلاً من الآيتين الكريمتين جاءت تقرر حقيقة، وتحدث عن سنّة من سنن الله، مما هو بعيد كل البعد عن شبهة التكرار ودعوى التأكيد.

١٣ - وفي سور الأنفال نفسها ذكرت هذه الآية ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢] ثم ذكر قوله سبحانه: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنفال: ٥٥] الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ [الأنفال: ٥٥-٥٦] وبقيننا أن الأمر في هاتين الآيتين الكريمتين ظاهر لا يحتاج إلى بيان، لأن الآية الأولى جاءت في شأن الذين أعرضوا عن الحق، فأبوا أن يستمعوا له وينطقوا به. وجاءت الثاني حديثاً عن الذين أبوا الإيمان ونقضوا العهد. فالآية الأولى تتحدث عن الكافرين قبل أن تكون هناك معاهدات

بينهم وبين النبي ﷺ ، وليست كذلك الآية الثانية، فهي تتحدث عن الذين ينقضون عهدهم في كل مرة، وذلك ما يرشد إليه السياق، لذا جاء في الآية الأولى ﴿الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۖ﴾ في الآية الثانية ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝﴾ الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْفُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَنْقُوتُ ۝﴾.

١٤ - في سورة الأنفال ذكر قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَوَاهُ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝﴾ [الأنفال: ٤٩] وفي سورة الأحزاب ﴿وَرَسُولُهُ أَلَا غُرُورًا ۝﴾ [الأحزاب: ١٢] ومع التباين التام بين الآيتين، إلا أنه قد يشبهه على بعض الناس وجود التكرار من حيث المعنى. ولأولئك نقول: كانتا قولتين مختلفتين زماناً، كانت الأولى يوم بدر وكانت الثانية يوم الأحزاب، وقد ذكرهما القرآن لينبه المسلمين لما يقوله خصومهم أعداء الإسلام، ونحن نجد اليوم من يردد هذه القضية هزأً أو مرأً، وبخاصة أولئك الذين تلاشت شخصيتهم وفقدوا ذاتيتهم، فزعموا أن فيصل الغلبة ليس إلا للقوة المادية فحسب، وقد كذبوا وصدق الله ورسوله، ومعاركنا التي خضناها مع عدونا خير دليل على ما قلناه، إذ لم تغن الكثرة عدداً والقوة عدداً. انتهيت من تسجيل هذه الأسطر وإذ بصوت الحق يرتفع «الله أكبر الله أكبر» ففرحت بذلك إذ هو تصديق للحق.

١٥ - وفي آخر سورة الأنفال ذكرت بعض الأحكام الخاصة بالمؤمنين في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّنْ لَّيْتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا ۝﴾ [الأنفال: ٧٢] ثم ذكرت بعدها آيات تتحدث عن المؤمنين من حيث ما يتحلون به من صفات، وما أعد لهم من جزاء وأجر، وهو ما لا يحتاج إلى بيان إذ لا شبهة تكرار فيه لأحد.

## في سورة التوبة:

١٦- في سورة براءة نهي الله تبارك وتعالى أن يعجب النبي أو المؤمنون بما لأعداء الله من أموال وأولاد فقد ورد قول الله تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [التوبة: ٥٥] فقد ذكرت الآية الكريمة مرتين مع تغاير في النظم.

أما الآية الأولى فجاءت بعد تقرير هذا الحكم، وهو أن أولئك الأعداء من المنافقين إن أنفقوا طوعاً أو كرهاً، فلن تقبل نفقاتهم، لأنهم كفروا بالله ورسوله، ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى، ولا ينفقون إلا وهم كارهون، وأما الآية الثانية فقد جاءت تثبيتاً للنبي ﷺ وللمؤمنين بعد صدور هذا الحكم الرباني القاطع، وهو حرمانهم من شرف الجهاد ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَدْنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾ وَلَا تَضِلَّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةَ أَنْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [التوبة: ٨٣-٨٦].

فقد جاءت الآية الكريمة إذن تعقيباً على هذا الحكم، كأنه يقول لهم لا يهولنكم هذا الحكم، فإن الذي أغناكم عنهم في خروجهم معكم للجهاد، هو الذي يغنيكم عن أموالهم وأولادهم كذلك.

## آيات متعددة:

١٧- تذكر بعض الجمل في السورة أو سور متفرقة، كما نجد ذلك في سورة يونس ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ٥٥]، وفي السورة نفسها ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ٦٦]، وكما في سورة النور ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا

إِلَيْكُمْ ءَايَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ ﴿ [النور: ٣٤]، وقوله: ﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا ءَايَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ ﴾ [النور: ٤٦] وغير ذلك مما لا يمكننا حصره ومثل هذا، لا يعد من التكرار، لأن التشابه إنما جاء في جزء من الآية. وأقول التشابه لا التماثل، لأن هناك تغييراً في الجزئين -كما رأينا- في الأمثلة السابقة، ومع ذلك فلكل معناه الخاص به، فإن كان هناك تماثل في بعض الأجزاء، فسنجد أن السياق مختلف وأن كلاً من الجملتين المتماثلتين جاءت ليحمل عليها ما لا يحمل على الأخرى.

نأخذ لذلك مثلاً ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا ﴾ ذكرت في سورتين من عرائس القرآن «الحواميم» إحداهما في سورة (فصلت) وقد ذكر عقبها ﴿ تَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ [فصلت: ٣٠-٣١] إلى آخر ما قاله الملائكة من قول طيب لأولئك. والثانية في سورة الأحقاف وذكر عقبها ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُولَئِكَ اصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الأحقاف: ١٣-١٤]، وقوله سبحانه: ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حُسْنًا ﴾ [النكبت: ٨]، وفي آية أخرى: ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ إِحْسَانًا ﴾ [الأحقاف: ١٥] ونجد في آية ثالثة ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ ﴾ [لقمان: ١٤] أو ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ﴾ [الأحقاف: ١٥]. كل ذلك بعيد بالطبع أن يتوهم متوهم بوجود التكرار فيه.

ومن هذا القبيل ما جاء في سورة المائدة ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ. وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [المائدة: ١٧] وفي السورة نفسها ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ بَنِي إِسْرَءِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ [المائدة: ٧٢] وما جاء في سورة الأعراف ﴿ إِنْ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةَ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا ﴾

[الأعراف: ٥٤]، وما جاء في سورة يونس: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ [يونس: ٣].

وما جاء في سورة الأنعام ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [الأنعام: ١١] وفي سورة النمل ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [النمل: ٦٩] وفي سورة العنكبوت: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ [العنكبوت: ٢٠٠]، ولا شك أن لكل من الآيات الثلاث معنى لا يشاركها غيرها فيه، فالآية الأولى التي جاء العطف فيها بـ (ثم) تطلب من الناس أن يسيروا من أجل أعمالهم وتجاراتهم وتعليمهم، وليكن مع هذه الأغراض النظر، ليعرفوا أحوال الأمم وطبائع الأشياء. وأما الآيتان الثانية والثالثة فتطلبان أن يكون هذا السير من أجل النظر فحسب، إلا أن الغاية من هذا النظر مختلفة فهي التعرف على أحوال الماضين في الآية الثانية، والتعرف على آثار القدرة الإلهية في الأرض في الآية الثالثة.

وشبيه بهذا ما جاء في أكثر من سورة من قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا﴾ [الروم: ٩، فاطر: ٤٤، غافر: ٢١] وفي آية ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا﴾ [يوسف: ١٠٩، الحج: ٤٦، غافر: ٨٢، محمد: ١٠] ذكرت هذه الآيات في آخر سورة يوسف وفي أوائل سورة الروم وفي أواخر سورة فاطر، وذكرت مرتين في سورة غافر في أولها وفي آخرها ومرة في سورة سيدنا محمد ﷺ والسياق لكل آية ونظمها الخاص بها يتكفلان بما ترشد إليه كل آية.

ومن ذلك مثلاً قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [العنكبوت: ٢٢] وفي آية ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٣١] دون ذكر السماء، ومثل ذلك لا يمكننا أن نستقصيه هنا، لكن الذي نود أن نقرره ونحن مطمئنون كل الاطمئنان، واثقون مما نقوله كل الثقة، من أن أي آية ذكرت أكثر من مرة في سورة،

أو أكثر من ذلك، وأن أي جملة ذكرت في أكثر من آية في سورة أو أكثر من ذلك، لها رسالتها الخاصة بها، وغايتها المنشودة منها، وغرضها الذي تؤديه تنسيقاً وإيقاعاً، وروعة وإبداعاً.

### في سورة الشعراء:

١٨- في سورة الشعراء ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٨) وَلَئِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾ [الشعراء: ٨-٩] ذكرت ثماني مرات، وكانت كل مرة تذكر عقب قوم من الأقوام الذين كذبوا، ابتداءً من الذين أرسل إليهم الرسول ﷺ، فقوم موسى وإبراهيم -عليهما السلام-، وبعد ذكر نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب ﷺ، فكان لها ما يحتمها في كل موضع.

### في سورة الرحمن:

١٩- في سورة الرحمن ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ذكرت إحدى وثلاثين مرة.

يقول القاضي عبد الجبار الأسد آبادي<sup>(١)</sup>: «قال أبو طي: فأما ما يكون في سورة الرحمن قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فليس بتكرار، لأنه ذَكَرَ نِعْمًا بعد نِعَمٍ، وَعَقَّبَ كُلَّ نِعْمَةٍ من ذلك بهذا القول، فكأنه قال: فبأي آلاء ربكما التي ذكرتها تكذبان، وإنما عني بالتثنية الجن والإنس، ثم أجرى الخطاب على هذا الحد، في نعمة نعمة، وعنى بكل قول غير ما عناه بالقول الأول، وإن كان اللفظ متماثلاً، وهذا كقول القائل، لمن ينهائ عن قتل المسلم وظلمه، ويزجره عن ذلك: أقتل زيدا وأنت تعرف فضله! أقتل عمراً وأنت تعرف صلاحه! ويكرر ذلك فيكون حسناً

(١) عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار الهمداني الأسد آبادي أبو الحسين (ت ٤١٥هـ / ١٠٢٥م) قاض، أصولي، كان شيخ المعتزلة في عصره وهم يلقبونه قاضي القضاة بالري، ومات فيها، من مؤلفاته «تنزيه القرآن عن المطاعن» و«الأمالي» و«المجموع في المحيط بالتعليق».

ولا يُعَدّ تكراراً، ولو أن أحدنا عَظُمَتْ نِعْمُهُ على ولده، ورآه آخذاً في طريق العقوق، لحسن أن يقبل عليه فيقول: أتغضبي في كذا، وقد أنعمت عليك! أتغضبي في كذا وقد أنعمت عليك! أتغضبي في كذا وقد أنعمت عليك، فيكون تكرار ذلك أبلغ في المراد، حتى لو حذفه لنقص الغرض في هذا الباب ولم يكن بمنزلة<sup>(١)</sup>.

### في سورة المرسلات:

٢٠- في سورة المرسلات وردت هذه الآية الكريمة ﴿وَلَّيْلُ يَوْمِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ في مواضع متعددة، لكننا حينما نتأمل السورة الكريمة، والآيات التي جاءت عقبها هذه الآية، فإننا نقرر موقنين ونوقن مقررين، أن لا تكرار ألبتة، اللهم إلا إذا كانت أصابع يدي الإنسان العشرة جاءت مكررة. وإليك البيان أيها القارئ -علمك الله وإياي-.

جاءت الآية الأولى ﴿وَلَّيْلُ يَوْمِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بعد ذكر مشهد من المشاهد التي ستحدث لهذا الكون إيداناً بمجيء يوم الفصل ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ (٨) ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ﴾ (٩) ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُفِفَتْ﴾ (١٠) ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أَقْنَتْ﴾ (١١) ﴿لَا يَوْمَ يُجِلَّتْ﴾ (١٢) ﴿لِيَوْمِ الْفَصْلِ﴾ (١٣) ﴿وَمَا أَذْرَبَكَ مَا يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ (١٤) ﴿وَلَّيْلُ يَوْمِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ (١٥) [المرسلات: ٨-١٥] وجاءت الثانية عقب التنبيه والإشارة لهذا التقرير التاريخي عن شؤون الأمم السابقة ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٦) ﴿ثُمَّ نَنْفَعُهُمُ الْآخِرِينَ﴾ (١٧) ﴿كَذَلِكَ نَفْعُ الْإِغْوِيِّ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ (١٨) ﴿وَلَّيْلُ يَوْمِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ (١٩) [المرسلات: ١٦-١٩].

أما الآية الثالثة فقد ذكرت بعد هذا التقرير الرائع، والإلزام القاطع لهذا الإنسان بالحجة، وهي تحدّثه عن خلقه، بل عن المراحل الأولى من هذا الخلق، وما حقّه الله به من عناية ورعاية ما كان ليوجد لولاها، سواء كان ذلك من حيث ما

(١) المغني في أبواب التوحيد والعدل، إعجاز القرآن، قوّم نصه أمين الخلوي، الجمهورية العربية المتحدة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، الإدارة العامة للثقافة، الطبعة الأولى، شعبان، ١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م، مطبعة دار الكتب، ج ١٦، ص ٣٩٨-٣٩٩.



للاب أم للأم، من حيث الماء أم القرار ﴿أَلَمْ تَخْلُقْهُمْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ﴾ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْتَهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَدِيرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيَلْ يَوْمِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ ﴿[المرسلات: ٢٠-٢٤]، أما الآية الرابعة فقد ذكرت بعد أن من الله على هذا الإنسان، فهياً له هذه الأرض لتكون صالحة للحياة، بأن هياً له ما لا بد منه لاستمرار هذه الحياة إلى أن يشاء الله، ذلك أن خلق الإنسان لا يؤدي إلى النتائج المرجوة منه إذا لم تتوافر له العوامل التي تنهي له البقاء، وصدق الله ﴿أَلَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ، وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ ﴿٧﴾ [السجدة: ٧] ومن هنا نجد أن الله تبارك وتعالى لا يذكر نعمة الخلق، إلا ويذكر نعمة ما معها لا يستمر الخلق بدونها، لذلك ذكرت هذه الآيات بعد آيات خلق الإنسان التي قرأناها ﴿أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شُعْبَخَ وَأَسْفَيْنَا مَاءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيَلْ يَوْمِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ ﴿[المرسلات: ٢٥-٢٨].

وبعد هذه الإشارات التاريخية والنفسية والكونية، التي لا يسوغ لأحد أن ينكرها، أقول بعد هذه التوطئة الضرورية رجعت الآيات الكريمة تذكرنا بالغاية، تنبه المكذبين إلى عاقبة أمرهم الوخيمة ووبال ما سيحقيق بهم، فتجيء الآية الخامسة بعد هذا المشهد المروع، وبالطبع فهو يختلف كما سنرى عن المشهد الأول اختلافاً تاماً. ولنقرأ ولنستمع ﴿أَنْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ ﴿٢٩﴾ أَنْطَلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثُلُثِ شُعْبٍ ﴿٣٠﴾ لَا ظِلِّيلٍ وَلَا يَغْنِي مِنَ الْهَبِّ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَلْ يَوْمِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ ﴿[المرسلات: ٢٩-٣٤].

أما الآية السادسة، فإنها تأتي بعد بيان ما يلقاه أولئك المكذبون من حرج، وما يشعرون به من ضيق، حيث يختم على أفواههم فلا يستطيعون النطق، ويسلبون القدرة على الاعتذار عن قبيح ما فعلوه، وبخاصة عن هذا التكذيب الذي كذبوه. وأما الآية السابعة فإنها تذكر بعد الحديث عن يوم الفصل الذي جمع فيه الخلائق، وبعد أن يمكننا من النطق ويرخى لهم العنان، ليقفوا أن ما أصابهم إنما هو بأيديهم،

﴿وَلَا يَطْلُرُ رُبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، ﴿نَقَرْنَا ذَلِكَ كُلَّهُ فِيهَا يَلِي﴾ ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ﴾ ﴿٣٥﴾  
 وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْبُدُونَ ﴿٣٦﴾ وَيَلُومُ الَّذِينَ كَذَبُوا ﴿٣٧﴾ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْتُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ  
 كِبَدٌ فَاكْبُدُوا ﴿٣٩﴾ وَيَلُومُ الَّذِينَ كَذَبُوا ﴿٤٠﴾ [المرسلات: ٣٥-٤٠].

أما الآية الثامنة فقد ذكرت بعد ما أعد الله للمتقين، ومن سنة القرآن أنه حينما يذكر فريقاً يذكر الفريق الآخر، ترهيباً وترغيباً، ووعداً ووعيداً، نقرأ ذلك في هذه الآية ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلِّ وَعُيُونٍ﴾ ﴿٤١﴾ وَفَوْقَهُمْ مَائِدَاتُهَا ﴿٤٢﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾  
 إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيَلُومُ الَّذِينَ كَذَبُوا ﴿٤٥﴾ [المرسلات: ٤١-٤٥]. أما الآية التاسعة والعاشر، فتأتیان تبكيتاً للمجرمين بعد خطابهم كما خطب المؤمنون، وبعد توبيخهم على عدم الاستجابة لرسول الله والامتناع عن عبادة الله المنعم ﴿كُلُوا وَتَمَنَّوْا فَلَيْلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ﴾ ﴿٤٦﴾ وَيَلُومُ الَّذِينَ كَذَبُوا ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ارْكَعُوا لَا تِرْكَبُوكُمْ ﴿٤٨﴾ وَيَلُومُ الَّذِينَ كَذَبُوا ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُوكُمْ ﴿٥٠﴾ [المرسلات: ٤٦-٥٠] صدق الله العظيم.

تلك هي السورة الكريمة في نظمها المحكم وإحكامها المنظم، أفتجد بعد ذلك أيها القارئ موطن تكرار؟ أفتشعر بعد هذا السرد بتكرار موطن في السورة الكريمة؟ ما أظن إلا أنك معي بأن لكل آية موطنها الذي يختلف جغرافياً وتاريخياً عن موطن الآية الأخرى، يا للروعة في الإبداع!! ويا للإبداع في الصنعة البيانية!! ويا للبيان يأخذ بالألباب. وصدق الله.

### في سورة النبأ والتكاثر:

جاء في سورة النبأ: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ [النبأ: ١-٥].

وفي سورة التكاثر: ﴿أَلَمْ يَكُنْ أَنتَ كَاثِرًا﴾ ﴿١﴾ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ [التكاثر: ١-٤].

ويذهب الكثيرون إلى أن هذا تكرار للتأكيد<sup>(١)</sup> والذي يلوح لي بعد وقفة مع الآيات الكريمة، أن الأمر ليس من قبيل التأكيد، وبالتالي فليس من قبيل التكرار، وأرجو أن لا يدور بخلدك أيها القارئ بأنني أنكر أسلوب التأكيد، فلا تظن هذا الظن بي، فالتأكيد من الأساليب التي لا تنكرها العربية، بل قد تكون له مواضع ومواقعه التي يزدان بها الكلام ويحكم بها المعنى. ولكن الذي أزعجه هنا، أن ما في الآيات الكريمة ليس من قبيل التأكيد، واللغويون يقررون أنه إذا أمكن حمل الكلام على التأسيس، كان ذلك لا شك أولى من التأكيد، ونوقن أن الكلام هنا يمكن أن يحمل على التأسيس، بل نجد ذلك هو الأوفق بالسياق والألصق بالمعنى.

جاءت كل من الآيتين في السورتين الكريمتين في سورة النبأ والتكاثر معطوفة بـ (ثم)، و (ثم) كما نعلم للتراخي، وقد يكون هذا التراخي زمانياً أو ترتيباً، وإذا كان ذلك كذلك فليس مما يتقبله الفكر والنفس أن نعدّ جملتين عطفت إحداهما بحرف التراخي، أن نعدّهما شيئاً واحداً، بل الظاهر أن هناك ردعاً وتهديداً يفهم من كل جملة على حدة، أحدهما أشد من الآخر. وهذا ما أشار إليه الزمخشري عند تفسير سورة النبأ<sup>(٢)</sup>. ولكنه رحمته الله عند تفسير سورة التكاثر<sup>(٣)</sup> ذكر أن ذلك من قبيل التأكيد، مع أن الردع الثاني أشد من الأول.

أما الألوسي<sup>(٤)</sup> رحمته الله فقد نقل في تفسير روح المعاني<sup>(٥)</sup> هذا القول ولكنه نقل عن سيدنا علي - كرم الله وجهه - ما ينافي كونه للتأكيد، وهو أن الردع الأول في

(١) عبد الكريم الخطيب، القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، ص ٢٣٩.

(٢) الكشف، ج ٤، ص ٦٨٤.

(٣) الكشف، ج ٤، ص ٧٩٢.

(٤) محمود بن عبدالله الحسيني الألوسي شهاب الدين أبو الثناء (١٢١٧-١٢٧٠هـ/ ١٨٠٢-١٨٥٤م) مفسر، محدث، أديب لغوي، نحوي مشارك في بعض العلوم تقلد الإفتاء في بغداد وسافر إلى الموصل فالقسطنطينية وأكرمه السلطان عبد المجيد وعاد إلى بغداد من تصانيفه، روح المعاني، كشف الطرة عن الغرة في شرح درة الغواص للحريري، معجم المؤلفين، ج ١٢، ص ١٧٦.

(٥) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، إدارة الطباعة المنيرية، مصر، ج ٣، ص ٢٢٤.

القبور ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر: ٣] والثاني في النشور، أي: يوم القيامة. وما نظن الأمر يحتمل هذا الخلاف كله، وما نظن هذا الخلاف كذلك إلا نتيجة لقواعد النحوين، فابن مالك رحمه الله صاحب الألفية يرى أن الجملة الثانية للتأكيد على نية إسقاط حرف العطف، ولا أدري كيف نجيز أن نسقط حرفاً أو نعدّه كذلك، وقد ذكر في الكتاب الكريم، ولو كان الأمر كذلك، ولو كان هذا الحرف لا يؤدي معنى لما ذكره الله تبارك وتعالى، وكان يمكن أن يحذف عن الموضوعين، فيقال في الموضع الأول «كلا سيعلمون كلا سيعملون» ويقال في الموضع الثاني «كلا سوف تعلمون كلا سوف تعلمون».

والذي أطمئن له أن لا تكرار، وأن ثم يمكن أن تكون للتراخي الرتبي، وهو أن الوعيد الثاني أقسى وأشد وأنكى من الأول، ويمكن أن يكون للتراخي الزمني، أي أن زمن الردعين مختلف، وبخاصة إذا ثبت عن سيدنا علي ما نقل عنه الآلوسي في تفسير آية التكاثر.

### سورة الكافرون:

٢٢- ومن أقوى ما تمسك به القائلون بال تكرار سورة الكافرون ومن الخير المفيد أن نتدبر السورة حتى نستطيع أن نناقش من قال ونعي ما قيل ﴿قُلْ يَتَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ [الكافرون: ١-٦] السورة الكريمة عدا البسملة ست آيات، إحداها خطاب للنبي ﷺ فيه نداء للكافرين، وهي ﴿قُلْ يَتَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾﴾ وآخر آية حكم ونتيجة وهي: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾، وما بين هاتين الآيتين آيات أربع، يمكن أن نقسمها من حيث المعنى إلى مجموعتين، المجموعة الأولى ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾﴾ و﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾﴾، فالآيتان الكريمتان تشيران إلى أن الرسول ﷺ لا يعبد ما يعبد الكافرون.

والمجموعة الثانية ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ ٢ وهي الآية الثالثة عدا البسملة، ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ ٥ وهي الآية الخامسة، وهما تنفيان عبادة المشركين لما يعبد الرسول ﷺ .

والذين ذهبوا إلى التكرار قالوا: إنه للتأكيد، ومن ذهب إلى هذا القول ودافع عنه بقوة، واستدل له بأقوال العرب وبما جاء من أشعارهم الفراء، ولكن الجمهور من العلماء ذهب إلى غير هذا، ذهبوا إلى عدم التكرار في السورة الكريمة، وهؤلاء اختلفوا فيها بينهم في تفسير الآيات تفسيراً يبعد القول بالتكرار.

ولا أود أن أقحمك أيها القارئ الكريم في كل ما ذكره، فأدخلك في متاهات قد يصعب عليك الخروج منها، وتمييز بعضها عن بعض، ولكننا نود أن نسلك بك إن شاء الله تعالى مسلكاً لا وعورة فيه، غير حزن ولا متعرج، وجميل بنا أن نعرف السياق الذي جاءت الآيات الكريمة فيه، والسبب الذي نزلت من أجله.

فقد ذكر ابن جرير رحمته الله وغيره أن المشركين ومنهم الوليد بن المغيرة طلبوا من النبي ﷺ أن يهادنهم، أن يعبد آلهتهم ويعبدوا إلهه فأبى عليهم النبي ﷺ ذلك، ونزلت السورة الكريمة، وعلى هذا فإن ما نرجحه في تفسير الآيات الكريمة ونستأنس له بقول الحذاق الجهابذة من العلماء، من عدم التكرار في السور الكريمة ما يلي وبالله التوفيق:

قال لهم النبي ﷺ: ﴿يَتَأْتِيَ الْكَافِرُونَ ١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ٢﴾ أي لا يمكن أن أعبد في مستقبل الأيام معبوداتكم الفاسدة، كيف وقد أكرمني الله بالنبوة وهداني الصراط المستقيم؟ وأنتم تعلمون أنه قبل أن يكرمني الله بالوحي ما عبدت آلهتكم، فكيف ترجون مني أن أعبدها اليوم أو أعبدها فيما بعد؟ أما أنتم فلا يمكن أن تعبدوا الله الذي أعبد - والسورة خطاب لقوم علم الله أنهم لا يؤمنون - وبخاصة بعد أن استحكم بيني وبينكم العداء، فأنتم ما عبدتم الله الذي دعوتكم لعبادته يوم أن كنتم تعدّونني فيما بينكم الصادق الأمين، وقبل أن يحدث بيني وبينكم ما يعكر الصفو.

والخلاصة: أن كل آية من المجموعتين جاءت على صورة الدعوى، وجاءت الآية الثانية على صورة الدليل، فكان كلاً من الآيتين دعوى ودليلاً، فالدعوى في المجموعة الأولى ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ (٢) أي لا يمكن أن أجيبكم إلى ما طلبتم فأعبد ألهتكم، والدليل على هذه الدعوى ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ﴾ (٤) أي قبل أن يكرمني الله بالوحي ما عبدت ألهتكم، فهل يعقل أن أعبدها الآن أو بعد الآن؟ وأما الدعوى في المجموعة الثانية هي ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ (٢) أي لا يمكن أن تصدقوا فتعبدوا الله الذي أعبدته وقد حدث بيني وبينكم ما حدث، ودليل هذه الدعوى ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ (٢) أي حينما دعوتكم لأول وهلة وأنتم لم تجربوا عليّ كذباً، وعلمتم أن لا مطمع لي في شيء فلم تجيبوني، فكيف تجيبونني اليوم؟

الآيات الأربع - إذن - اثنتان منهما تشكلان الدعوى، عدم استجابة كل من الفريقين للآخر، والآيتان الأخريان كل منهما برهان على الدعوى التي تلائمها. هذا الذي يبدو لنا في فهم السورة الكريمة، راجين من الله أن نكون قد اهتدينا للصواب وراجين من الله كذلك أن نكون قد بينا لك المقام ووضعناه أيما توضيح، والله يجزي سيدنا محمد ﷺ خير ما يجزي نبياً عن أمته وآل سيدنا محمد وصحبه.

ونكتفي بما ذكرناه، والحق أن قضية التكرار تستحق كتاباً خاصاً، نرجو أن يظهر قريباً إن شاء الله.

وبعد، فإن ما نرجوه بعد هذه المسيرة المباركة في الرياض القرآنية النضرة، وقد نفحنا من عطرها، وشربنا من نعيمها، وقبسنا من نورها، أقول إن ما أرجوه - وقد حاولت معالجة قضية ذات شأن وخطر، وهي قضية التكرار - أن أكون قد ألقى الضوء - الذي يبصر به كل ذي لب - على جوانب من هذه القضية، وإن لم أكن قد وفيت فحسبي أنني حاولت ما استطعت، وهو جهد المقل، أرجو الله أن ينفع به، وأن يجعله خالصاً لوجهه والله يجزي سيدنا محمد ﷺ عنا خير ما يجزي نبياً عن أمته وآل سيدنا محمد وصحبه، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.



## الْفَصْلُ الْإِلَّهِيُّ عَشْرُونَ

### الزوائد والحذف

#### تمهيد :

للعرب أوضاع عجيبة في لغتهم، أفراداً وتركيباً، فهم ينتقلون من معنى إلى معنى آخر بأقصر الطرق، وأيسر التكاليف، وربما كان بين المعنيين بون شاسع، قد يكون هذا الانتقال بتغيير حرف واحد، ألا ترى إلى ما بين الفصل والوصل من بعد، وكذلك الحنف الجنف، لأن الحنف إنما هو الميل إلى الحق، والجنف الميل إلى الباطل، وكذلك الفتق والرتق، فأنت ترى أن هذه المعاني المتباعدة كان الانتقال من أحدها إلى الآخر بتغيير حرف واحد.

وقد يكون هذا التغيير بواسطة حركة، لا بواسطة حرف ألا ترى إلى قولهم: هُمْزَةٌ وَهَمْزَةٌ، وَضَحْكَةٌ وَضَحْكَةٌ، فهي بالسكون من يُهْمَزُ وَيُضْحَكُ منه، ولكنها بالفتح تقال لمن يهمز الناس ويضحك منهم. قال تعالى: ﴿وَبَلِّغْ لِكُلِّ هَمْزَةٍ ثَمْرَةً﴾ [الهمزة: ١].

وقد يكون التغيير التحول من معنى إلى معنى بواسطة التنوين، ألا ترى أنهم يفرقون بين قولهم: هذا مكرمٌ أخاك، ومكرمٌ أخيك، فيجعلون الثاني لمن وقع منه الإكرام فعلاً، وليس كذلك الأول، إلى غير ما هنالك من الأمور الدقيقة الكثيرة العجيبة الشأن في هذه اللغة الشريفة لغة القرآن الكريم.

والذي يعيننا الآن الحديث عن حروف المعاني، ونعني بها الحروف التي وضعها العرب ليؤدي كل منها معنى في الجملة التي وضع فيها، كحروف العطف والجر، ذلك لأن هذه الحروف هي التي ادعي حذفها تارة وزيادتها أخرى.



وسندرك أن دراسة هذه الحروف دراسة موضوعية ستقفنا على جانب فذ من جوانب إعجاز القرآن الكريم من جهة، ودقة هذه اللغة وأحكامها من جهة أخرى.

ونرى من الفائدة أن نخصص هذه الصفحات لشرح بعض المصطلحات التي ستمر بنا في هذا البحث، ذلك لأن للحرف أثراً كبيراً في باب المعاني، فكم من جملة تغير معناها تغيراً كلياً من جراء حركة أو حرف. ومن طريف ما قيل: إنه قيل لأحدهم: ما حاجتك؟ قال: كتاب أنظر فيه، ومحتاج أنظر له، ووجه حسن أنظر إليه. فهذه كلمة واحدة رأينا أن معناها يختلف اختلافاً كلياً باختلاف الحرف الداخل عليها، ومثل هذا الاختلاف في الجملة التي تكون فيها (إلى) أو (حتى) وكلاهما للغاية، فنقول مثلاً: سرت إلى آخر الطريق أو إلى نصفه، ونقول: سرت حتى آخر الطريق، ولا نقول: حتى نصفه.

ونقول: أكلت السمكة إلى نصفها أو إلى رأسها، ونقول: أكلت السمكة حتى رأسها، ولا نقول: حتى نصفها، لأن حتى إنما تكون لآخر الغاية، وليس كذلك (إلى)، قال تعالى: ﴿سَلِّطْهُمْ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ [القدر: ٥].

ومثل هذا ما نجده بين حرفين لا يفرق بينهما. كثير من الناس، وهما (أو) و(أم) فكثيراً ما يستعمل كل منهما مكان الآخر، مع أن لكل منهما مكانه الذي لا ينبغي أن يعدوه ولا يستعمل فيه غيره<sup>(١)</sup>، وسنبين لك بعض الفروق بين هذين الحرفين فتدبر وتأمل:

---

(١) انظر: الأزهية في علم الحروف، تحقيق: عبدالمعين الملوحي، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص ١٣٤. ومؤلف هذا الكتاب هو علي بن محمد الهروي (أبو الحسن)، ت ٤١٥هـ/١٠٢٤م، أديب، نحوي، قدم مصر واستوطنها، وروى عنه الأزهري، ومات في مصر من تصانيفه الذخائر في النحو في أربع مجلدات، وكتاب الأزهية، شرح فيه العوامل، ومختصر في النحو سباه المرشد.

١ - بعد كلمة سواء والاستفهام يجب أن تأتي (أم)، ولا يجوز أن تأتي (أو).  
قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦].  
وقال تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَكُنَا مِنْ مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم: ٢١]، ومن  
هنا ندرك أن ما شاع عند كثير من الناس من استعمالهم (أو) بعد كلمة سواء خطأ  
ينبغي أن ننبه إليه وأن نحذر منه.

٢ - تأتي (أم) إذا كان السؤال عن قضية تأكدت من ثبوتها، ولكن الذي تجهله  
تعيين من ثبت له الحكم، فإذا كنت تعرف أن ابن صديقك دخل الجامعة، ولكنك  
تجهل أي الكليتين دخل، أكلية الشريعة أم كلية الهندسة، إذا كنت تعرف أن  
صاحبك قرأ أحد كتابين هما كتاب البيان والتبيين للجاحظ، وكتاب الكامل  
للمبرد، وإذا كنت تدرك أن أحد صديقك جاء من السفر، ولكنك لا تعرف من هو  
أخالد أم سعيد.

في هذا الأمثلة جميعاً لا يجوز أن تستعمل (أو)، ويجب أن تستعمل (أم)،  
تقول: «أكلية الشريعة دخل أخوك أم كلية الهندسة؟»، «أكتاب الكامل قرأت أم  
كتاب البيان والتبيين؟»، «خالد جاء من السفر أم سعيد؟» والجواب على هذه الأسئلة  
هو تعيين من ثبت له الحكم، فتقول في الإجابة عن السؤال الأول: كلية الشريعة،  
وتقول في الإجابة عن السؤال الثاني: كتاب الكامل، وتقول في الإجابة عن السؤال  
الثالث: سعيد.

أما إذا كنت خالي الذهن ولا تعرف شيئاً عن هذه القضايا، فأنت لا تعرف أن  
ابن صديقك دخل إحدى الكليتين، ولكنك تعرف أن له رغبة في دخول إحداها،  
ولكنك لا تدري أتحققت هذه الرغبة أم لم تتحقق، وكنت تسمع من صديقك أنه  
كان يريد قراءة أحد هذين الكتابين، ولكنك لا تدري أقرأ أم لم يقرأ، وكنت تسمع  
أن سعيداً أو خالداً سيأتي أحدهما من سفر، ولكنك لم تدر أجاها أحدهما أم لم يجيء.  
أنت في هذه الحالات جميعها لا تعرف شيئاً، فيجب عليك أن تستعمل كلمة أو، ولا

يجوز استعمال كلمة أم. تقول: أكلية الشريعة دخل ولدك أو كلية الهندسة؟ أقرأت كتاب البيان والتبيين أو كتاب الكامل؟ أخالد جاء من السفر أو سعيد؟ والجواب في هذه الحالات مختلف بالطبع عن الحالات الأولى التي استعملت فيها كلمة (أم)، الجواب عن هذه الأسئلة جميعاً يكون بنعم أو لا. فإن كان دخل إحدى الكليتين: يقال: نعم، وإن لم يقرأ أحد الكتابين يقال: لا، وإن جاء أحدهما من السفر يقال: نعم.

تستعمل كلمة أم -إذن- إذا كنت تعرف الحكم ولكنك تجهل التعيين، أي تجهل ثبوت هذا الحكم لأحد المتعادلين، وتستعمل كلمة (أو) إذا كنت تجهل الحكم البتة، والجواب عن الحالة الأولى التي استعملت فيها (أم) يكون بتعيين من ثبت له الحكم، والجواب عن الحالة الثانية التي استعملت فيها (أو) يكون بالإيجاب أو النفي، (بنعم أو لا).

وندرك مما سبق أننا لا يجوز أن نستعمل (أم)، إذا أردنا الشك أو التخيير، ولا يجوز أن نستعمل (أو) إذا أردنا التعادل، وإليك هذه الأمثلة. تقول: «أزيد أفضل أم عمرو؟»، «آلنحو أيسر أم البلاغة؟»، «الحديد أثقل أم الماء؟» ولا يجوز أن تستعمل (أو) في هذه الأمثلة. وتقول: «أيهما أعظم أثراً في التاريخ صلاح الدين أو نور الدين أم قطز؟» «أيهما أكثر عداء للإسلام أميركا أو بريطانيا أم الاتحاد السوفيتي؟» و«أي المستشرقين أكثر مكرراً مرجليوث أو نودلكه أم جولدتسيهر؟» فأنت ترى أننا قد جئنا بـ (أو) أولاً، ثم جئنا بـ (أم) بعد ذلك، وهذا ينسجم مع القاعدة التي عرفتها من قبل.

ففي السؤال الأول نحن لا نريد المفاضلة بين صلاح الدين ونور الدين، ولا نريد أن يكون أحدهما معادلاً للآخر، وإنما نريد أن نعادل بينهما وبين قطز، فالمعادل لصلاح الدين ونور الدين هو قطز، ولهذا جيء بـ (أم) وذكر بعدها المعادل وهو قطز، ولم تذكر بين صلاح الدين ونور الدين لأننا لم نرد أن نفاضل بينهما.

وهكذا تدرك السر في الجملة الثانية، وهو أننا لم نرد أن نقارن بين أمريكا وبريطانيا من حيث العداء للإسلام فهما رأسان لأفعى واحدة، إنما نريد أن نوازن بين عدائهم وعداء الشيوعية، لذلك كان العطف بـ (أو) أولاً وبـ (أم) ثانياً، وكذلك المثال الثالث، فنحن لا نوازن من حيث المكر بين مرجليوث ونودلكه، وإنما بينهما وبين جولدتسيهر.

ثم (أم) هذه قد تكون حرف عطف، فتسمى متصلة، سواء كان ذلك بين مفردين مثل: «أجاء زيد أم عمرو»، (أم) بين جملتين هما في حكم المفرد كآلية الكريمة ﴿أَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ [البقرة: ٦]، أي: إنذارك وعدمه سواء.

وقد لا تكون كذلك، فتسمى المنقطعة، ولا تكون إلا بين جملتين ليستا في حكم المفرد، قال تعالى: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ [فاطر: ٤٠].

فـ (أم) هذه ليست حرف عطف يراد منها التسوية، وإنما هي بمعنى: (بل) و(الهمزة)، كأنه انتقل عن قوله تعالى: ﴿مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ إلى شيء أكثر منه استحالة فقال: بل ألهم شرك في السموات. وإنما أطلت في بيان هذين الحرفين لأنني وجدت كثيراً من الناس يضع أحدهما مكان الآخر.

ومن الدقة اللغوية كذلك في استعمال الحروف التفرقة بين (إلى) و(اللام) في قولنا: «ما أحبَّ عُمرَ إلى المسلمين» و«ما أحبَّ عُمرَ للمسلمين».

ففي المثال الأول: (المسلمون) هم الذين يحبون عمر، وفي المثال الثاني: (عمر) هو الذي يحب المسلمين، ذلك أن ما بعد (إلى) يكون (فاعلاً)، وما قبلها (مفعولاً)، و(اللام) على العكس من ذلك، ما قبلها يكون (فاعلاً)، وما بعدها (مفعولاً)، فإذا قلنا: «خالد أحب إلى أبيه» كان الأب هو المحب، وإذا قلنا: «خالد أحب لأبيه» كان خالد هو الذي يحب أباه، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا﴾

[يوسف: ٨]، هم لا يقصدون -بالطبع- أن يوسف كان يحب أباهم أكثر من حبهم لأبيهم، وإنما يتحدثون عن حب أبيهم ليوسف<sup>(١)</sup>.

وقد يكون للحرف أكثر من معنى واحد، كما بينه اللغويون، ونحن نذكر هنا ما تدعو الحاجة إليه.

### أولاً: الباء:

١ - الإلصاق: كأن تقول: «مررت بالحائط»، قال تعالى: ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَيْصِيهِ يَدْمِرُ كَذِبٌ﴾ [يوسف: ١٨]، ولا يكاد هذا المعنى يفارق هذا الحرف.

٢ - التعدية: وتسمى: باء النقل، وهي: المعاقبة للهمزة، ومعناها أن ما بعد الباء كان فاعلاً، لكن بدخول الباء صار مفعولاً، فهي تشبه الهمزة من هذه الناحية، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة: ١٧]، فالأصل أن يقال: ذهب نورهم، لكن بدخول الباء صار المعنى: أذهب الله نورهم.

٣ - الاستعانة: وهي أن تدخل الباء على آلة الشيء، مثل: كتبت بالقلم، وقطعت بالسكين، ويمكن أن يكون منه قوله سبحانه: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ كما سيأتي معنا ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١].

٤ - السببية: وهي أن يكون ما بعد الباء سبباً لما قبلها، قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ﴾ [الأنعام: ٤٠]، ﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجَلَ﴾ [البقرة: ٥٤]، ﴿فَيُظْلَمُونَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠].

---

(١) محمد بن علي الصبان، أبو العرفان، (١٢٠٦ هـ / ١٧٩٢ م) عالم بالعربية والأدب، مصري، مولده ووفاته بالقاهرة. له الكافية الشافية في علمي العروض والقافية، وإتحاف أهل الإسلام فيما يتعلق بالمصطفى وأهل بيته الكرام. الأعلام، ٦/ ٢٩٧.

حاشية الصبان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، ومعه شرح الشواهد للعيني، ملتزم الطبع والنشر، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر، ٢/ ٢١٧.

٥ - المصاحبة: ومنه قوله تعالى: ﴿أَهَيْطُ لِسَلِيمٍ مِّثًا﴾ [مرد: ٤٨]، ﴿أَدْخُلُوها وَسَلِّمَ﴾  
 ءَامِينَ ﴿٦١﴾ [الحجر: ٤٦]، ويمكن أن يكون من هذا القبيل قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ بِالدَّهْنِ﴾  
 [المؤمنون: ٢٠] كما سنعرفه فيما بعد إن شاء الله تعالى.

٦ - البدل: كقوله تعالى: ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ الْآخِرَةِ﴾  
 [التوبة: ٣٨]، أي: أرضيتم بهذه بدل هذه. ومنه: «ما يسرني أن لي بها حمر النعم» ومنه  
 بيت الحماسة:

فليت لي بهم قوماً إذا ركبوا      وشنوا الإغارة فرساناً وركباناً  
 ٧ - التعويض: كما نقول: «اشتريته بمائة»، «كافأت المتفوقين بجوائز ثمينة». والفرق بين هذا وبين الذي قبله، أي: بين (باء) التعويض و(باء) البدل، أن في باء التعويض مقابلة شيء بشيء، بأن يُدْفَعَ شيء، من أحد الجانبين، ويُدْفَع من الجانب الآخر شيء في مقابلته. وفي باء البدل اختيار أحد الشئين على الآخر فقط من غير مقابلة من الجانبين<sup>(١)</sup>.

ونكتفي بما ذكرناه لأننا نذكر ما تدعو إليه حاجتنا من جهة، ولا نوافق على كثير من المعاني التي ذكروها لهذا الحرف من جهة أخرى.

ثانياً: من:

١ - من أول معانيها الابتداء، قال تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١]، ﴿قَالَ الَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، وكما يكون الابتداء في المكان، يمكن أن يكون في الزمان، ومنه قوله

(١) حاشية الصبان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، ومعه شرح الشواهد للعيني، ٢/ ٢٢٠.

تعالى: ﴿لَمَسْجِدُ أُسُسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ [التوبة: ١٠٨]، وفي الحديث «مطرنا من الجمعة إلى الجمعة»<sup>(١)</sup>.

٢- التبعض: وهي أن تصلح مكانها «بعض» قال تعالى: ﴿وَمَارَزَقْنَهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣]، ﴿لَنْ نَأْتِيَ بِكَ إِلَّا بِرَحْمَةٍ نَنْفِقُوهَا وَمَا نَحِبُّكَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، ﴿مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨]، ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

فليس المراد أن ينفق الإنسان كل ما رزقه الله، وكل ما يجب، وإنما بعضه.

٣- بيان الجنس: ومنه قوله سبحانه: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ [البقرة: ١٠٦]، ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ [فاطر: ٢]، ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لَتَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الاعراف: ١٣٢]، ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج: ٣٠]، ﴿يَحْمِلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ [الكهف: ٣١]، ف (من) في هذه الآيات الكريمة «بيانية»، وعلامتها:

أ- أن يكون ما بعدها خبراً لما قبلها.

ب- أن يحل محلها اسم موصول إذا كان قبلها معرفة، أو الضمير إذا كان نكرة، ففي الآيات السابقة ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ يجوز أن نخبر بها بعدها عما قبلها، فما قبلها النسخ وما بعدها آية، فيقال: المنسوخ آية، المفتوح من الله: الرحمة، المأتي آية، الرجس هو الأوثان، والأساور الذهب، كما يمكن أن يقال: اجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان، لأن الرجس معرفة، يحلون فيها من أساور هي ذهب، لأن أساور نكرة.

(١) رواه البخاري، كتاب الاستسقاء، باب إذا استشفعوا إلى الإمام ليستسقي لهم لم يردهم، رقم الباب (١١)، رقم الحديث ٩٧٣..

وستعرف أن كثيراً مما سموه زائداً يرجع إلى هذا المعنى، وستدرك أن ما طعن به بعض الملاحدة على كتاب الله مردود، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩] وهذه في حق الصحابة. قالوا: الصحابة إذن قسمان.

والحق أن (من) هنا ليست للتبعيض، فالصحابة عليهم السلام كلهم عدول، وكلهم مغفور لهم - إن شاء الله تعالى - وإنما (من) بيانية، أي: وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات الذين هم هؤلاء كذا وكذا.

٤ - البذل: ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ [التوبة: ٣٨].

٥ - الفصل: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

٦ - التنصيص على العموم: ﴿مَا جَاءَ نَائِمٌ بِبَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [المائدة: ١٩].

٧ - تأكيد العموم: مثل: «ما جاءني من أحد»، وكقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَقًّا يَقُولَانِ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢].

ثالثاً: اللام:

وتأتي:

١ - للملك، كما نقول: «إن الأرض لله».

٢ - التعليل: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَبَكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥].

٣ - الاختصاص: ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحج: ٣٦].

٤ - لام العاقبة، وتسمى: لام الصيرورة أيضاً: ﴿فَالنَّقْطَةُءُ مَالٌ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨]، وهم إنما التقطوه لغير ذلك.



٥ - التبليغ: وهي الجارة لاسم السامع، مثل: «قلت لك».

وهناك معاني كثيرة ذكرها النحاة لهذه (اللام) فأوصلوها إلى نيف وعشرين وكذلك أكثر حروف الجر.

ونحن لسنا معهم في كثير مما ذكروه، لأنه ليس من رأينا أن حروف الجر ينوب بعضها عن بعض، ونمثل لذلك بأنهم ذكروا أن (اللام) تأتي بمعنى (إلى) وجعلوا منه قوله سبحانه: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ [الزلزلة: ٤-٥]، قالوا: ف (اللام) بمعنى (إلى) أي: أوحى إليها. وربما عللوا ذلك بسبب الفواصل، ورؤوس الآي، مع أن الناظر في الآيات الكريمة، آيات الوحي، يجد غير هذا، ففعل الوحي الذي يتعدى بـ (إلى) دائماً لم نجده تعدي بـ (اللام) إلا في هذه الآية، وإذا نظرنا في الآيات الكريمة، وجدنا أن هذه الآية الكريمة هي التي كان الوحي فيها للجهد، أما الآيات الأخر، فقد كان فيها للأنبياء تارة، ولغيرهم من البشر تارة، ولما فيه حياة من غير البشر تارة.

١ - قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ﴾ [يونس: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣].

٢ - قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ﴾ [القصاص: ٧].

٣ - قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَىٰ النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ اللَّبَالِ يُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ (٦٨) [النحل: ٦٨].

فتعدي الوحي بـ (اللام) إذن لم يكن لرؤوس الآي، وإنما كان لغاية بيانية قصد إليها القرآن الكريم.

وأكتفي بما ذكرت لأننا لا نقصد بأن نبين معاني حروف الجر وغيرها، إنما كان الهدف مما ذكر بيان بعض المصطلحات التي تمر معنا في هذا البحث.

## الزيادة

يختلف مصطلح الزيادة عند العلماء، فهناك الزيادة التي يتحدث عنها علماء الصرف، ويعنون بها الزيادات التي تكون في بنية الكلمة، وتجمع حروفها في «سألتمونيها»، كزيادة السين والتاء في الأفعال، مثل «استنصر»، أو في الأسماء مثل «مستنصر»، وهذه لا يعيننا بحثها -بالطبع- وإنما الذي يعيننا الزيادة عند النحويين، زيادة حروف المعاني، وهي بهذا الاسم عند البصريين، أما الكوفيون فيسمونها حروف الصلة.

ولا بد لمن يتحدث عن إعجاز القرآن بعامه، والبياني بخاصة، أن يعرض لهذه القضية التي عاجلتها أفكار العلماء قديماً وحديثاً، بل شغلت حيزاً لا بأس به من مقولاتهم ومدوناتهم، الزوائد كلمات -وأكثرها حروف- رأى بعضهم أنها لا حاجة لها من حيث الإعراب، فإذا أسقطت بقي الكلام تاماً، كالباء في خبر ليس، حذفها ووجودها سواء تقول: «أليس الله بقادر»، وتسقط الباء فتقول: أليس الله قادراً، فهي إنما يؤتى بها لتأكيد الكلام وتقويته.

وذهب آخرون إلى أنها لا تزيد المعنى شيئاً، فالمعنى سواء إن وجدت أم حُذفت، وإنما جيء بها لغرض لفظي يتعلق بجرس الكلام، وجمال إيقاعه، وحلاوة نغمه.

ويرى ابن السراج<sup>(١)</sup>، ومن نقل عنه<sup>(٢)</sup>، أن هذه الزيادة لا يجوز أن تكون في الكلام، إلا إذا ألغي عملها، فهم ينكرون زيادة حروف الجر مثلاً، لأنه لا يمكن أن تكون زائدة وعاملة معاً.

ويرى عبدالعال سالم مكرم، أن هذه الزوائد ظاهرة أسلوبية، فهي وإن كانت زيادة من حيث المعنى، أي يتم المعنى بدونها إلا أنها يستملح بها الأسلوب، وذلك ما استقر عند العرب، والقرآن إنما جاء على أسلوب العرب ونهجهم.

وهذه الزوائد يتحاشى بعض الأئمة تسميتها بهذا الاسم - كما قلت - إجلالاً لكتاب الله تعالى، فيطلقون عليها الصلة، فالباء في خبر ليس مثلاً، لا يقولون عنها زائدة، وإنما يقولون: الباء صلة، ونحن لا تعيننا التسمية بقدر ما يعيننا جوهر الموضوع وأساسه، والحقيقة أن هذه الزيادة نمت في بيئة النحاة، وترعرعت في حجوهرهم، وكان ذلك نتيجة للقواعد التي قعدوها، وألزموا أنفسهم بها، وحينما ندرس هذه الزيادة - التي سموها كذلك - دراسة موضوعية، فإننا نخرج بنتيجتين اثنتين:

الأولى: أن أكثر النحاة قال بوجود زوائد في كتاب الله تعالى، مع أن كثيراً من المفسرين والعلماء نفى القول بالزيادة. فمن النحويين مثلاً: الفراء<sup>(٣)</sup>

---

(١) هو محمد بن سري السراج، أبو بكر، والسراج: بفتح السين وتشديد الراء وبعد الألف جيم، هذه بالنسبة إلى عمل السروج، له كتاب «الأصول» وله: «شرح كتاب سيويه» توفي سنة ٣٢٢هـ. انظر: تاريخ العلماء النحويين، ص ٤٠-٤٤.

(٢) كتاب الأشباه والنظائر في النحو، تحقيق: طه عبدالرؤوف سعد، نشر: الكليات الأزهرية، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م، ١٠٣/٢ - ١٠٧.

(٣) الفراء: هو يحيى بن زياد بن عبدالله بن منظور الديلمي، مولى بني أسد، أو بني منقر، أبو زكريا المعروف بالفراء (١٤٤-٢٠٧هـ/ ٧٦١-٨٢٢م) إمام الكوفيين وأعلمهم بالنحو واللغة والأدب، كان يقال: الفراء أمير المؤمنين في النحو، وُلد بالكوفة وانتقل إلى بغداد. توفي في طريق مكة، وكان فقيهاً متكلماً عالماً بأيام العرب وأخبارها. الأعلام، ٨/ ١٤٥.

والأخفش<sup>(١)</sup>، وأبو حيان<sup>(٢)</sup>، ويمكنك أن تأخذ أي كتاب من كتب النحو، كشرح الكافية للرضي<sup>(٣)</sup>، وشرح المفصل لابن يعيش<sup>(٤)</sup>، ومعاني القرآن للفراء<sup>(٥)</sup>، وإعراب القرآن لأبي البقاء<sup>(٦)</sup>، أو المنسوب

---

(١) الأخفش: هو سعيد بن مسعدة المجاشعي بالولاء، البلخي، ثم البصري، أبو الحسن، المعروف بالأخفش الأوسط (٢١٥هـ/ ٨٣٠م) نحوي، عالم باللغة والأدب، من أهل بلخ، سكن البصرة، وأخذ العربية عن سيبويه، وصنف كتباً كثيرة. الأعلام، ١٠٢/٣.

(٢) أبو حيان: هو محمد بن يوسف بن علي بن يوسف ابن حيان الجلياني، أثير الدين أبو حيان، من كبار العلماء بالعربية والتفسير والحديث والترجم واللغات (٦٥٤-٧٤٥هـ/ ١٢٥٦-١٣٤٤م) وُلد في إحدى جهات غرناطة ثم أقام بالقاهرة وتوفي فيها بعد أن كف بصره. له مصنفات كثيرة منها «البحر المحيط، والنهر، ومجاني العصر، وطبقات نحاة الأندلس...». الأعلام، ١٥٢/٧.

(٣) رضي الدين محمد بن الحسن الأستراباذي النحوي (ت ٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م) نجم الدين، عالم بالعربية، من أهل استراباذ (من أعمال طبرستان)، اشتهر بكتابه الوافية في شرح الكافية، وشرح مقدمة ابن الحاجب المسماة بـ «الشافية». الأعلام، ٨٦/٦.

وانظر: مثلاً ٣٨٤/٢، كتاب الكفاية في النحو، شرح رضي الدين الأستراباذي، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٤) ابن يعيش: هو موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش النحوي (٥٥٣-٦٤٣هـ/ ١١٦١-١٢٤٥م) المعروف بابن يعيش، وبن الصانع، من كبار العلماء بالعربية، موصل الأصل، مولده ووفاته في حلب، رحل إلى بغداد ودمشق، وتصدر للإقراء بحلب إلى أن توفي، كان ظريفاً محاضراً، كثير المجون مع سكينه ووقار. الإعلام، ٢٠٦/٨.

شرح المفصل، عالم الكتب، بيروت ومكتبة المتنبي، القاهرة، ١٣٣/٨.

(٥) معاني القرآن للفراء، عالم الكتب ببيروت، الطبعة الثانية، سنة ١٩٨٠، ٢٣٨/١.

(٦) أبو البقاء: هو الإمام محب الدين، أبو البقاء عبدالله بن الحسين بن عبدالله العكبري. عالم بالأدب واللغة والفرائض والحساب، أصله من عكبرا (بلدة على دجلة)، ومولده، ووفاته ببغداد. أصيب في صباه بالجذري فعمي. من كتبه: «التبيان في إعراب القرآن» ويسمى «إملاء ما من به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن». وإعراب الحديث وغيرها من الكتب النافعة، (ت ٦١٦هـ/ ١٢١٩م). الإعلام، ٢٠٨/٤.

إملاء ما من به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن، دار العلم للجميع. انظر: ١٤٦/١، سورة الأنعام.

للزجاج<sup>(١)</sup>، وستجد القول بزيادة كثير من الحروف والكلمات ماثلاً في صفحات هذه الكتب.

وعلى العكس من ذلك تجد الأمر عند كثير من المفسرين والعلماء، ونمثل لك بتفسير الطبري<sup>(٢)</sup> (ت ٣١٠هـ)، والرازي<sup>(٣)</sup> (ت ٦٠٦هـ)، وأبي مسلم بن بحر<sup>(٤)</sup>

(١) الزجاج: إبراهيم بن السري بن سهل أبو إسحاق الزجاج (٢٤١-٣١٨هـ / ٨٥٥-٩٢٣م)، عالم بالنحو واللغة، وُلد ومات في بغداد. كان في فتوته يخرط الزجاج، ومال إلى النحو فعلمه المبرد، أدب ابن وزير المعتضد العباسي، وكانت للزجاج مناقشات مع ثعلب، وله تصانيف كثيرة. (الأعلام، ٤٠/١).

إعراب القرآن المنسوب للزجاج، تحقيق ودراسة: إبراهيم الأبياري، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة، القاهرة، سنة ١٩٦٣، ١/٣١١.

(٢) الطبري: هو محمد بن جرير بن يزيد الطبري، أبو جعفر (٢٢٤-٣١٠هـ / ٨٣٩-٩٢٣م) المؤرخ، المفسر، الإمام، ولد في أمل / طبرستان، واستوطن بغداد، وتوفي بها، وعرض عليه القضاء فامتنع، والمظالم فأبى، له أخبار الرسل والملوك، وفي تفسيره ما يدل على علم غزير وتحقيق، وكان مجتهداً في أحكام الدين، لا يقلد أحداً، بل قلده بعض الناس وعملوا بأقواله وآرائه. (الأعلام، ٦٩/٥).

انظر مثلاً: عند تفسير قوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْبَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩] حيث يرد على القائلين بزيادة الكاف.

كتاب: جامع البيان في تفسير القرآن، الطبعة الأولى، المطبعة الكبرى الأميرية ببغداد، مصر المحمية، ١٣٢٣هـ / ١/٣٥.

(٣) الرازي: هو فخر الدين الرازي، إمام المتكلمين وقامع المبتدعين، وحجة الله على العالمين، المتبحر، تاج المحققين، أبو الفضل، محمد فخر الدين بن ضياء الدين بن الحسن بن الحسين التميمي البكري الرازي الشافعي، وُلد سنة (٥٤٣هـ) وقد كان مولعاً إلى حد الغرام بالفلسفة، والكلام، والجدل، وأصول الفقه، والتصوف. وتوفي سنة (٦٠٦هـ).

انظر: مثلاً: عند تفسير قوله تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْمُرْ بِهِ لَكُنَّا مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، حيث يقرر أن (ما) استفهامية فراراً من القول بالزيادة.

التفسير الكبير، الطبعة الأولى ملتمزم الطبع عبدالرحمن محمد بميدان الأزهر بمصر، ٦٢/٩.

(٤) ابن بحر: هو محمد بن بحر الأصفهاني، الكاتب، أبو مسلم، مولده سنة (٢٥٤هـ) كان نحويّاً كاتباً بليغاً، مترسلاً جدلاً، متكلماً معتزليّاً عالماً بالتفسير وغيره من صنوف العلم، صار عالم أصبهان وفارس، له «جامع التأويل لمحكم التنزيل» والناسخ والمنسوخ، وكتاب في النحو (ت ٣٢٢هـ).

انظر: مثلاً: عند قوله تعالى: ﴿وَكَرَّمْ عَلَى قَرْبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٩]، حيث يرد القول بزيادة (لا). تفسير الرازي، ٢٢/٢٢١.

(ت ٣٢٢هـ) من الأقدمين، والشيخ محمد عبده<sup>(١)</sup>، والدكتور محمد عبدالله دراز<sup>(٢)</sup> والشيخ عبدالرحمن تاج<sup>(٣)</sup> من المحدثين، وستجد أنهم يردون القول بالزيادة.

الثانية: أن ما سموه زائداً أو صلة، عندما ننعم النظر فيه، فإننا لا نتردد أي تردد، ولا نرتاب أدنى ريب، بأن هذا الذي سموه زائداً، لم يكن للتأكيد فحسب، ولم يكن ليكمل به الإيقاع فقط، وليس ظاهرة أسلوبية - كما قيل - إنما هو بعد ذلك كله أمر اقتضاه المعنى، وحتمته الحكمة البيانية، والحكمة العقلية كذلك، فلو ذهب من الكلام لذهب جزء جوهري من المعنى.

والزوائد التي ذكرها خمس عشرة، ولكننا بعد استقصاء وجدناها أكثر من ذلك بكثير، فجمعنا منها ستاً وعشرين أداة، وهي إما حروف أو أسماء أو أفعال، والذي يعيننا منها الحروف فقط وهي: (إلى، والباء، واللام، ومن، وعن، وفي، والكاف).

والذي يستعرض كتب التفسير والنحو وإعراب القرآن، يجد أن كل حرف من هذه الحروف قيل بزيادته في آيات كثيرة من أي القرآن الحكيم. ونحن في هذا الفصل لا نستطيع أن نلم بها، تلك قضية وحدها بحاجة إلى كتاب ذي فصول متعددة، ولكن يكفيننا أن نأتي بما يسمح به المقام، فيكون شاهد صدق على مظهر من مظاهر الإعجاز من جهة، ويكون برهاناً على غيره مما لم يذكر من جهة ثانية.

---

(١) انظر: مثلاً عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٨]، حيث يرد القول بزيادة (ما)، محمد رشيد رضا، تفسير المنار، الناشر: دار المعرفة، بيروت، ط ٢، ١/ ٣٧٩.

(٢) حيث نفى زيادة الكاف في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، محمد عبدالله دراز، النبأ العظيم، دار القلم، الطبعة ٢، سنة ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م، ص ١٢٧.

(٣) مجلة الأزهر ابتداءً من ٥ عدد شوال ١٣٨٦هـ.

## أولاً: الباء:

والآيات التي قيل فيها بزيادة الباء تنيف على العشرين آية، وهذا بالطبع غير الآيات التي جاءت فيها الباء في خبر ليس أو ما. مثل قوله سبحانه: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦]، وقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ ﴿٦١﴾ [فصلت: ٤٦] فهذا القسم كثير في كتاب الله تعالى، والذي يعنينا القسم الأول، وهو ما لا يندرج تحت قاعدة معينة، وسنمثل له ببعض الآيات:

١- ﴿مَنْ كَانَتْ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾ [الحج: ١٥].

٢- ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَامِ يُظْلَمِ﴾ [الحج: ٢٥].

٣- ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبِغٌ لِّلْأَكْلِينَ﴾ ﴿٢٠﴾ [المؤمنون: ٢٠].

٤- ﴿فَضْرِبْ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُمْ بَابٌ﴾ [الحديد: ١٣].

٥- ﴿أَلَزَيْعَمُ بَأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ ﴿١٤﴾ [العلق: ١٤].

الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَتْ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾ [الحج: ١٥].

قالوا<sup>(١)</sup>: إن الباء زائدة، والتقدير: (فليمدد سبباً)، أي: فليمدد حبلاً، والغواصون من أجل التقاط المعاني لا يرضون هذا القول، لأنه ليس المقصود المد

(١) ابن هشام: هو أبو محمد عبدالله جمال الدين بن يوسف بن أحمد بن عبدالله بن هشام الأنصاري المصري، وُلد في القاهرة سنة ٧٩٠هـ/٣٠٩م، قيل عنه إنه على علم جم يشهد بعلو قدره في صناعة النحو. وقال ابن خلدون: ما زلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالم بالعربية يقال له ابن هشام أنحى من سيبويه.

مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق: محي الدين عبدالحمد، ١/١٠٨.

وحده، فقد يمد الشخص حبلاً كثيرة من غير أن تكون له بها صلة مباشرة، ولكن المقصود أن يصل هو نفسه بهذا الحبل، لذا عدّي الفعل بالباء، أي: يوصل نفسه بهذا الحبل الممدود إلى أعلى.

تلك هي بلاغة القرآن في استعمال الحرف حيناً، وتركه حيناً آخر.

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَافِ يُظْلَمِ﴾ [الحج: ٢٥].

قالوا<sup>(١)</sup>: إن الباء هنا زائدة، لأن فعل (أراد) يتعدى بنفسه، وكثير من المفسرين ذهب إلى أن الباء تتعلق بمفعول محذوف، أي: «ومن يرد فيه مراداً بالحاد» فراراً من القول بالزيادة.

ولكن ما أرجحه أن الفعل هنا ضمن معنى الهمّ، والهمّ يتعدى بالباء، ذلك أن مكة - شرفها الله تعالى - يضاعف فيها العمل، فإذا كانت الحسنات تضاعف لأصحابها أضعافاً كثيرة، فينبغي أن تكون السيئات كذلك، والغنم بالغرم<sup>(٢)</sup>، وكأن الذي يهم في هذا البلد بشيء فإنه يجازي عليه.

قال في الكشف<sup>(٣)</sup>:

---

(١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، ١/ ١٤١، شركة ومطبعة البابي الحلبي، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٣٧٠هـ/ ١٩٥١م.

والبرهان في علوم القرآن للزركشي، ١/ ١٠٨، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ١، ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه.

(٢) عن ابن مسعود: «الهمة في الحرم تكتب ذنباً» وهذا ما رجحه ابن القيم في «زاد المعاد»، وابن القيم هو أبو عبدالله محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي (ابن قيم الجوزية)، حققه الشيخ شعيب الأرناؤوط، الطبعة ١، سنة ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩، مكتبة المنار الإسلامية، ١/ ٥٤.

(٣) الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الطبعة الأولى، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م، ٢/ ١٥١.



«ومفعول «يرد» متروك ليتناول كل متناول، كأنه قال: ومن يرد فيه مراداً ما، عادلاً عن القصد، ظالماً (نذقه من عذاب أليم) يعني أن الواجب على من كان فيه أن يضبط نفسه، ويسلك طريق السداد والعدل في جميع ما يهيم به ويقصده».

الآية الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورٍ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبْغٍ لِّلْأَكْلِينَ ۝٢٠﴾ [المؤمنون: ٢٠].

في قوله سبحانه: ﴿تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ﴾ قراءتان:

القراءة الأولى: «تَنْبُتُ» (بفتح التاء وضم الباء)، وفعله الماضي: تَبَتَ الثلاثي، وهذه قراءة أكثر القراء.

والقراءة الثانية: «تَنْبِتُ» (بضم التاء وكسر الباء)، وماضيها: أَنْبَتَ الرباعي، وهي قراءة ابن كثير.

وقال بعضهم إن الباء زائدة، كما نقل عنهم أبو حيان<sup>(١)</sup> إلى أن الباء زائدة على هذه القراءة، والمعنى تنبت الدهن.

وذهب غيرهم إلى أنها غير زائدة، والمعنى تنبت ثمرها مصاحباً أو ملتبساً بالدهن.

والحق أن زيادة الباء غير متصورة ولا ممكنة، لأن المعنى غير مستقيم على هذه الزيادة، لأن الشجرة في الحقيقة لا تنبت الدهن، وإنما تنبت الثمر المشتمل على هذا الدهن، ونحن نعرف اليوم أن من الزيتون ما لا يؤخذ منه زيت، وإنما هو زيتون من أجل أن يؤكل ثمره بعد أن يخلل.

إن القول بزيادة (الباء) على قراءة ابن كثير يُخرج الآية الكريمة عن المعنى المراد، والحق أن مؤدى القراءتين واحد، وإن كان من فرق بينهما، فإنها هو فرق بين

---

(١) البحر المحيط، ٦/٤٠١.

الفعلين الثلاثي والرباعي، وليس من غرضنا أن نعرض له هنا، ولأن بحثنا في قضية الزوائد.

الآية الرابعة: قوله تعالى: ﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُمُ سُورًا لِّفُتَابٍ﴾ [الحديد: ١٣].

قالوا<sup>(١)</sup>: إن الباء زائدة، والمعنى: «فضرب بينهم سور»، ولكن الذي نعتقده، غير هذا، وهنا لا بد من شرح وتفصيل.

الممعن في آيات الكتاب العزيز يجد ما يأخذ بالألباب، وتنشرح له الصدور، روعة بيان، ودقة معنى، قد يحدثنا القرآن الكريم عن السموات والأرض، أو عن الدنيا والآخرة، فيلحظ من له شفافية ودراية بأن الحديث يختلف ما بين جهة وجهة، وأن هناك كلمة جاءت لتدل على دقة التعبير القرآني، فمثلاً تحدث القرآن الكريم عن الأرض وما يتخذها الناس فيها من بيوت وقلاع وأسوار، فعبّر عن هذا كله بكلمة (بنيان)، قال الله تعالى: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بُيُوتٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤].

ذلك كله حديث عن الأرض - كما رأينا في سورتي الصافات والصف -، وما أجمل كلمة (بنيان)، وما أجمل البنيان وحجارته، تصف صفًا، وصفًا فوق صف.

ولكن نجد القرآن الكريم حينما كان الحدث عن السماء يعبر فيه بكلمة غير هذه الكلمة، قال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ [البقرة: ٢٢]، أليس التعبير بكلمة (بناء) مغايراً لكلمة (بنيان)، وذلك إنما جاء لغرض بديع، وهدف

(١) إملأ ما منَّ به الرحمن، العُكْبَرِي، ١٣٥/٢.

وانظر: سليمان بن عمر العجيلي الشافعي الشهير بالجميل (ت ١٢٠٤هـ)، الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية، مطبعة البابي الحلبي، ٢٨٣/٤.

رفيع، وهو أن طبيعة تماسك السموات يختلف كلية عما عهده الناس في هذه الأرض من وضع الحجارة بعضها على بعض، اختلاط المواد بعضها ببعض، هذا عن السماء والأرض.

وقد حدثنا القرآن الكريم كذلك عن الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا﴾ [الاحزاب: ٣٧]، وقال سبحانه: ﴿وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ [الطور: ٢٠]. فنحن نرى أنه غُويَر بين الفعلين لا لاختلاف لفظيهما، ولكن إشارة إلى أن طبيعة ما في الدنيا من زواج وغيره تختلف عما سيكون في الآخرة.

وعلى هذا يمكننا أن نفهم الآية الكريم التي معنا ﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُمُ اسْمُورَ لِمُدَّابٍ﴾، ذلك لأن الآية -والله تعالى أعلم بأسرار كتابه- تبين لنا أن ما يتخذه الناس من أسوار في الدنيا، وما يقومون به من وسائل لهذه الأسوار يختلف تماماً عما يكون في الآخرة، وأن ما في الآخرة يختلف كلية عما عهده الناس في هذه الدنيا.

هذا الذي هداني الله إليه بعد وقفة طويلة، ومراجعات لأكثر كتب التفسير مطولها وغيره حتى الكتب النادرة، فلم أجد تعليقا على هذا الحرف، وله تعالى المنَّة والفضل، وَرَجِمَ الله أئمتنا وجزاهم خيراً.

على أن الباء -هنا- يمكن أن نفهم منها معنى الإحاطة والشمول، لهذا السور الحاجز بين الفريقين.

الآية الخامسة: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤].

لم تعلق كتب التفسير على هذه الآية بشيء، وكل الذي قالوه<sup>(١)</sup>: إنها زائدة، لأنه تزداد قياساً في مفعول (علم، وعرف) وما أشبههما.

(١) ابن يعيش، شرح المفضل، ٨/ ٢٥. وابن هشام، المغني، ١/ ١٠٧.

وأقول وبالله التوفيق، ومنه العون: المتدبر لأي القرآن الكريم يجد أن هذا الفعل جاء بغير الباء في مثل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ [التوبة: ٧٨]، ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٠٧]، ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٦] وغير ذلك من الآيات الكرييات ولم تَجِئْ الباء إلا في هذه الآية الكريمة.

والذي نحسبه -والله أعلم بأسرار كتابه- أن هذه الآية الكريمة هي أول آية جاءت بهذه الصيغة، وسياقها يدل أنها جاءت تهديداً وتخويفاً لهذا الذي ينهى عبداً إذا صلى وكذب وتولى سواء كان أبا جهل أم غيره، وهو لم يكن من المؤمنين بالله تبارك وتعالى، وبأنه يعلم خائنة الأعين ويسمع ويرى، فكأن العلم هنا مضمن معنى الإيمان والتصديق.

والتضمين من سنن العرب في كلامهم وأساليبهم، فكانت الآية وعيداً له وإنكاراً عليه لعدم هذا الإيمان والتصديق.

أما الآيات الأخر فنجد أنها جاءت خطاباً للمؤمنين، إيماناً حقاً ظاهراً وباطناً أو لأولئك المؤمنين بالظاهر، وهم المنافقون، فلم يكن ثمة حاجة لتضمين العلم معنى الإيمان، وسياق الآيات جميعاً ما ذكرناه، وما لم نذكره يدل على ذلك، وليست الآية التي معنا من هذا القبيل، لذا جاءت الباء في هذه الآية دون غيرها من الآيات المماثلة لها، فضلاً عن جمال الإيقاع الذي جاء من وجود الباء بعد الميم حيث الغنة بسبب الإخفاء الشفوي، كما يقول علماء التلاوة، وهي متلائمة مع قصر الآية الكريمة.

تلك هي الباء في قوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ﴾ جمال معنى، وجمال إيقاع.

ثانياً: (من)<sup>(١)</sup>:

وقد ذكروها زائدة في كتاب الله تعالى فيما يقرب من عشرين آية وهذا بالطبع غير (من) الاستغرافية، وسنكتفي ببعض الآيات، ومن ذلك:

١- قوله تعالى: ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾ [البقرة: ١٠٦].

٢- قوله تعالى: ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَرٍ ﴾ [النور: ٤٣].

٣- قلوه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً ﴾ [العنكبوت: ٣٥].

٤- قوله تعالى: ﴿ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴾ (٣٦) [يس: ٣٤].

الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾ [البقرة: ١٠٦]:

ذهب العكبري<sup>(٢)</sup> إلى أن (من) زائدة، والذي حمله على ذلك أنه جعل لفظ (آية) حالاً، والحال لا تدخل عليه كلمة (من) والأدعى من ذلك أنه جعلها حالاً لا لأن المعنى يقتضي ذلك، وإنما قاسها على قوله تعالى: ﴿ وَيَنْقُورُ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً ﴾ [مرد: ٦٤] فالآية هنا حال، قال: فإذا كانت الآية هنا تُعرب حالاً، فهي في الآية السابقة كذلك، وهذا قول عجيب، لأننا نفرق بداهة من حيث المعنى بين قوله ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ ﴾، وقوله: ﴿ وَيَنْقُورُ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً ﴾. فالآية الأولى المقصود بها الآية من القرآن، والآية الثانية المقصود بها العلامة المعجزة<sup>(٣)</sup>. والإعراب فرع المعنى لكنه جعل المعنى فرعاً للإعراب.

(١) انظر ما تقدم.

(٢) إملأ ما من به الرحمن، ١/ ٣٣.

(٣) وهذا عليه إجماع المفسرين ولم يخالف في ذلك إلا أبو مسلم بن بحر بحيث ادعى هنا أن الآية بمعنى الرسالة وذلك لأنه ينكر النسخ. الرازي، ٣٠/ ٢٥٧.

والخلاصة أن (من) لا يتم المعنى بدونها فضلاً عن أن نقول بزيادتها؛ لأننا لا يجوز أن نعرب آية على أنها حال كما هو الحال في آية الناقة. إلى هذا أشار صاحب المغني قال رحمه الله : وأما قول أبي البقاء ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾، أنه يجوز كون آية حالاً و(من) زائدة كما جاءت آية حالاً في ﴿ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ ﴾ والمعنى أي شيء ننسخ قليلاً أو كثيراً، ففيه تخريج التنزيل على شيء إن ثبت فهو شاذ، أعني زيادة من في الحال، وتقدير ما ليس بمشتق ولا متنقل، ولا يظهر فيه معنى الحال حالاً، والتنظير بما لا يناسب، فإن آية في ﴿ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ ﴾ بمعنى علامة لا واحدة الآي، وتفسير اللفظ بما لا يحتمله، وهو قوله قليلاً أو كثيراً، وإنما ذلك مستفاد من اسم الشرط لعمومه لا من آية<sup>(١)</sup>.

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ ﴾ [النور: ٤٣]:

وقد ذكرت (من) هنا ثلاث مرات ﴿ مِنَ السَّمَاءِ ﴾، ﴿ مِنْ جِبَالٍ ﴾، ﴿ مِنْ بَرَدٍ ﴾، وقد اتفقوا على أن (من) الأولى ابتدائية، ثم اختلفوا فادعى بعضهم الزيادة في الثانية ومعنى الآية عند هذا الفريق: «وننزل من السماء جبالات» وادعى آخرون أن (من) الثانية هي الزائدة والمعنى عندهم «وننزل من السماء من جبال فيها برد»، والحق أن (من) الثانية يمكن أن تكون ابتدائية أو تبعيضية، وكذلك الثالثة إلا أنها يمكن أن تكون بيانية كذلك، فالمعنى على كونها ابتدائيتين «وننزل ماء يتدلى إنزاله من السماء مبتدئاً من جبال في هذه السماء مبتدئاً من برد في هذه الجبال»، فالماء المنزل ابتدئ إنزاله من البرد الكائن في الجبال الكائنة في السماء، والمعنى على كونها تبعيضيتين «ننزل ماءً مبتدئاً من السماء من بعض البرد الكائن في بعض الجبال»، وعلى كون الثالثة للبيان يكون المعنى «وننزل من السماء من جبال هي البرد» فعلى هذا تكون

(١) المغني لابن هشام، ج ١، ص ٣٢٤.

الجبال البرد نفسه، وهذا هو معنى البيان. والذي يترجح لي أنها -أي الثانية والثالثة- تبعيزيتان -والله أعلم- وعلى كل حال فلا داعي للقول بالزيادة.

الآية الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً﴾ [العنكبوت: ٣٥]:

والتقدير عندهم<sup>(١)</sup>: ولقد تركناها آية، وهذا غير وجيه، لأن الضمير في «منها» إما أن يرجع إلى القرية، وإما إلى العقوبة، ولا يستقيم المعنى على كلا التفسيرين، وإنما جعل مما بقي من القرية آية أو جعل من أثر العقوبة آية، فمن تبعيزية إذا رجع الضمير (ها) للقرية، أي: ولقد تركنا بعض آثار هذه القرية آية. وبيانها إذا رجع للعقوبة، أي: ولقد تركنا العقوبة آية. وأظن الذين قالوا بالزيادة حملوا هذه الآية وقاسوها على قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [الفر: ١٥] حديثاً عن ذات الألواح والدرر التي حمل عليها نوح عليه السلام ومن معه، ولعل القارئ إن شاء الله تعالى يدرك -كما أدركت- أن هناك فرقاً بين الآيتين من حيث المعنى، فالله تبارك وتعالى يريد أن يكون من العقوبة لقوم لوط أو من أثر قراهم لمن يمر عليها آية للمعتبرين. أما السفينة تلك التي وضع فيها أهل ذلك العالم الصغير وصار منهم هذا العالم الكبير فهي نفسها آية، لأنها بقيت بأجزائها ألواحاً ودرراً، فلا ينبغي ولا يليق أن نحكم على الزيادة في آية قياساً على آية أخرى من غير أن ننظر إلى معنى كل واحدة من الآيتين وموضعها وأسلوبها.

الآية الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾ [يس: ٣٤]:

(ومن) هنا تبعيزية، لأن الله لم يفجر عيون الأرض جميعاً، والذين قالوا<sup>(٢)</sup> بالزيادة قاسوا هذه الآية على قول الله تعالى حكاية عن الطوفان ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [الفر: ١٢]. ونقول فيهما ما قلناه من قبل، فشتان بين ما تشير إليه كل من

(١) البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي الغرناطي، ج ٧، ص ١٥١.

(٢) إملاء ما من به الرحمن للعكبري، ج ٢، ص ٢٠٥.

الآيتين، فالآية الأولى تتحدث عما أكرم الله به الإنسان من تفجير بعض عيون الماء في الأرض نعمةً منه سبحانه، والآية الثانية تتحدث عما كان أيام الطوفان عقوبةً وانتقاماً ولقد كانت الأرض كلها كذلك.

ثالثاً: عن:

قال أبو عبيدة عند قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ [النور: ٦٣] مجازة: يخالفون أمره وعن: زائدة<sup>(١)</sup>.

والمفسرون واللغويون غير أبي عبيدة والأخفش ومن ردد قولهما على غير ذلك، أي على أن (عن) ليست زائدة.

قال ابن جرير عند تفسيره هذه الآية: «وأدخلت (عن) لأن معنى الكلام: فليحذر الذين يلوذون عن أمره. ويدبرون عنه معرضين»<sup>(٢)</sup>.

وإلى قريب من هذا ذهب أبو البقاء، وذكر الشيخ الجمل في حاشيته على تفسير الجلالين<sup>(٣)</sup> هذا القول، وزاد قولاً آخر وهو أن ﴿يُخَالِفُونَ﴾ بمعنى يصدون والمفعول: محذوف، أي: يصدون الناس عن أمره، وما نظن أن هناك حاجة لمثل هذا: فمتى كان الأمر خالياً عن الحذف والتقدير كان أولى.

---

(١) هو معمر بن المثنى التيمي، وُلد في سنة ١١٠ هـ ولم تذكر المصادر أين وُلد ولكن العلماء يضعونه في عداد علماء البصرة، تعلم النحو والشعر والغريب على يد أبي عمرو بن العلاء، وتكاد تتفق كلمة العلماء على أنه من الخوارج، وقد وضعت في عهده أسس العلوم الإسلامية، وكان يشارك فيها مشاركة جيدة، توفي بين سنتي (٢٠٩-٢١٣ هـ).

مجاز القرآن، الطبعة الأولى، سنة ١٣٨١ هـ/١٩٦٢ م، مكتبة الخانجي، مصر. وانظر: البحر المحيط، ٦/٤٧٧. وإملاء ما بين به الرحمن للعكبري، ٢/٨٤. والبرهان للزركشي، ٤/٢٨٦.

(٢) تفسير الطبري، ١٨/١٣٥.

(٣) ٢٤٣/٣.



والخلاصة: أن القول بالزيادة إنما نُقل عن الأخفش وأبي عبيدة، وجمهور العلماء يردونه<sup>(١)</sup> والذي يظهر لي بعد ما قالوه، وبعد نقل هذه الأقوال عنهم أن مجيء (عن) في الآية الكريمة لنكتة دقيقة، وغرض بياني، وهو التحذير من مخالفة أي أمر مهما دق، لأننا حينما نقول: يخالفون أمره، فهذا يمكن أن يشمل الأمور ذات الشأن، ولكن عندما قالوا: يخالفون عن أمره، فكأنه يعني: لا ينبغي أن يتزحزحوا عن هذا الأمر ولو قيد أنملة.

هذا المعنى لا يتم بدون هذه الكلمة التي وصفها قوم عفا الله عنهم بالزيادة.

رابعاً: لعل:

يدّعي بعض الكاتبين المحدثين<sup>(٢)</sup> زيادة (لعل) في قوله تبارك وتعالى: ﴿يُؤَسِّفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتَنَّا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعٌ سُبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخْرَىٰ يُسَبِّتُ لَعْلَىٰ ۖ أَرْجِعْ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف ٤٦].

فهو يدّعي أنه قد زيدت كلمة (لعل) من أجل الفاصلة، فأصل النظم عنده «لعلّي أرجع إلى الناس فيعلمون» لأن الفعل المضارع ينصب في جواب الترجي فزيدت (لعل) حتى تكون الفاصلة بالتون. وكنت أود للكاتب أن يقف مع الآية الكريمة، أما وإنه لم يفعل، فلتقف أنت أيها القارئ مع الآية الكريمة في نظمها. وبادئ بدء فإنها جراءة أن نقرر زيادة كلمات من أجل الفاصلة وهو بعدُ باب خطير أن يُفتح، لأنه سيدّعي بأن قضايا كثيرة إنما زيدت لأجل الفاصلة أو النظم، أو السياق، وهذه تشكل خطورة نحن على ثقة من أن الكاتب لا يرضاها.

(١) لذلك ذكر الشيخ القول بالزيادة بعد القولين السابقين تضعيفاً له.

(٢) الدكتور عبدالفتاح لاشين، الفاصلة القرآنية، من أسرار التعبير القرآني، دار المريخ للنشر، طبعة ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

ولنرجع إلى الآية الكريمة، جاء أحد السجينين، وهو الذي نجا منهما ليوسف عليه السلام، ليؤول له الرؤيا، وكان الملك ومن حوله ينتظرون بفارغ الصبر هذا التأويل ذلك لأن هذه الرؤيا شأناً عند الملك، كما نفهمه من سياق القرآن، وجاء رسول الملك وهو فرح مغتبط، أن يعلم التأويل من يوسف عليه السلام، فمن يدري فلعل هذه تجعل له حظوة ومنزلة عند الملك، وهذا ما كان يرجوه ويتوقعه، ألم يقل: ﴿أَنَا أَنبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ [يوسف: ٤٥] فهذا التوقع الذي كان يرجوه رسول الملك، وهو ما جاءت من أجله كلمة لعل الأولى ﴿لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ﴾. أما الناس، والملك أولهم بالطبع فلقد كانوا يتوقعون تأويل هذه الرؤيا التي أحدثت في أنفسهم هزة وأقصت مضاجعهم، وأزقتهم، كانوا بحاجة إلى ما يزيل ذلك كله عنهم، وهم يتوقعون أن يعرفوا من تأويلها ما يريحهم، ليعلموا ما يترتب على هذه الرؤيا.

كلمة (لعل) في قوله سبحانه: ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٤٦﴾ لم تأت من أجل الفاصلة، وإنما جاءت ليستقر به الأمر، ويتم بها المعنى -وهو توقع الناس ورجاؤهم-، جاءت كلمة أساسية في النظم، ولو كان الأمر أمر الفاصلة، لأمكن أن يقال: «لعلّي أرجع إلى الناس فيعلمون» فتكون الفاء العاطفة لا السببية ولن نعدم تحريماً نحوياً لها، وقد جاء في التنزيل ﴿وَمَا يَذْكُرُكَ لَعَلَّه يَرْكَى﴾ ﴿٢﴾ أَوْ يَذْكُرُ فَنَنْفَعُهُ الذِّكْرَى ﴿٤﴾ [عبس: ٣-٤] برفع يذكرك، وفي سورة طه: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ ﴿١١٣﴾ [طه: ١١٣].

وعلى ما ذهب إليه الكاتب، فإن (لعل) في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِلَعَلِّهِمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]. أقول إن (لعل) على ما ذهب إليه ينبغي أن تكون زائدة، جيء بها من أجل الفاصلة، لأن النظم يصير هكذا: «فليستجيبوا لي وليؤمنوا بـ (لعل) كذلك قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ في قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آغْبُذُ وَا رَبُّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١] لأن النظم

يكون هكذا: «اعبدوا ربكم تتقوا» فيكون مجزوماً بجواب الأمر فزيدت (لعل) لأجل الفاصلة، وعلى هذا فيجب أن نضيف لقائمة الزوائد كلمة جديدة هي (لعل). إننا نجلّ الكتاب الكريم، والنظم البديع، والكلام المعجز عن مثل ما ذهب إليه الكاتب.

#### خامساً: إذا ما:

ذكرت (إذا) كثيراً في كتاب الله، ولكننا في بضع عشرة مرة ذكرت بعدها (ما)، وكل الذي تسمعه أن (ما) زائدة بعد (إذا) للتأكيد، ولكن إذا كان الأمر كذلك فلم تُركت في عشرات الموضع، وذكرت في هذا العدد النزر القليل؟ لا بد إذن من سر بياني، ولطيفة من لطائف الإعجاز، وهذا ما سنعرضه بعد قليل إن شاء الله بعد أن نذكر لك أمثلة من النظمين الكريمين.

١ - قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [النور: ٤٨].

٢ - قال سبحانه: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [المائدة: ٩٣]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَا أُسْأَلُوا عَنْ شَيْءٍ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

٣ - قال تعالى: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ [التوبة: ٩٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ﴾ [النور: ٦٢].

٤ - أ - قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا﴾ [التوبة: ١٢٤]، وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَوْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ﴾ [التوبة: ١٢٧].

ب- قال سبحانه: ﴿وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ ﴿٨٦﴾ [التوبة: ٨٦].

٥- أ- قال سبحانه: ﴿أَنْتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ ءَأَلْقَيْنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ ﴿٥١﴾ [يونس: ٥١].

ب- وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ ﴿٨٢﴾ [النمل: ٨٢].

٦- أ- قال سبحانه: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَنُ إِذَا مَا مِثٌ لَّسَوْفَ أَخْرِجُ حَيًّا﴾ ﴿٦٦﴾ [مريم: ٦٦].

ب- وقال سبحانه: ﴿إِذَا مِثْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا ءَأَنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ ﴿١٦﴾ [الصافات: ١٦].

٧- أ- قال سبحانه: ﴿حَقَّ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَقُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٢٠﴾ [فصلت: ٢٠].

ب- قال سبحانه: ﴿حَقَّ إِذَا جَاءُوهَا فَتُحَّتْ أَبْوَابُهَا﴾ [الزمر: ٧١].

ارجع إلى كل مجموعة من هذه الآيات الكريمة، ستجد أن (ما)، جاءت حيث استدعى السياق وجودها، وكانت هناك كلمة بيانية وغرض بلاغي، خذ المجموعة الأولى مثلاً: ﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾، إن شهادة الشهداء أمر تتعلق به مصالح الناس وحقوقهم، وهؤلاء الشهداء قد يجدون إخراجاً وضيقاً من إدلائهم بالشهادة كان لا بد - إذن - من أن يؤكد لهم هذا المعنى، فجاءت (ما) لتؤدي هذه الرسالة الكبيرة العظيمة.

أما الآية الثانية فلا تتطلب هذا التأكيد، فإنها تتحدث عن واقع المنافقين، بأنهم إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم، يعرض فريق منهم.

فإذا انتقلت إلى المجموعة الثانية، وجدت أن (ما) تتحدث عن قضية خطيرة كانت تشغل المؤمنين، وهي مصير أولئك الذين ماتوا قبل أن تحرم الخمر تحريماً

قاطعاً، ماذا سيكون مصيرهم في الآخرة؟ فجاءت الآية الكريمة تبين أن أولئك ليس عليهم جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات، فالأمر -إذن- بحاجة إلى هذا التأكيد، لأنها تتحدث عن المتقين وتلك سجية فيهم، أنهم إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا.

أما المجموعة الثالثة، وهي التي اشتملت عليها سورة براءة، فإن الآيات التي ذكرت فيها (ما) جاءت عقب قوله سبحانه: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَتَقِيلُوا الَّذِينَ يَكُونُكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلَيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [١٣٣] ثم بينت أن أولئك يمارون، ويمجادلون ويراوغون، سواء كان ذلك بألستهم، أم بنظراتهم، فتارة ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا﴾، وأخرى ﴿نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَيْنَكُمْ مِنَ الْغُلُوِّ مِنْهُمْ﴾. ولكن الآية الثانية، حدثت عن أمر طبعي لأولئك المنافقين ﴿أَسْتَفْذَكَ أَولُوا الطَّلُولِ مِنْهُمْ﴾.

وعلى هذا نستطيع أن نفهم ما بقي من الآيات، ألا ترى إلى قوله سبحانه: ﴿حَقَّ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ﴾ من أنه أراد تأكيد هذا المعنى، الذي دلت عليه (إذا)، ثم ألا ترى كيف استغربه أولئك حيث قالوا لجلودهم: ﴿لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾ [فصلت: ٢١]، أما الآية الثانية ﴿حَقَّ إِذَا جَاءُوهَا فَتَنَحَّتْ أَنْوَابُهَا﴾، فليس بحاجة إلى هذا التأكيد لأن فتح الأبواب بعد المجيء أمر لا بد منه، بل كان المجيء من أجله، وإذا قلنا إن الجواب محذوف، فالأمر فيه كذلك، أي حتى إذا جاؤوها وجدوا ما يزعجهم ويؤلمهم.

وانظر إلى قوله سبحانه: ﴿إِذْ ءَامَأْتِ لَسَوْفَ أَخْرِجُ حَيًّا﴾ [مريم: ٦٦] كيف أكد هذا المعنى، ثم كيف كان الرد عليه ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾ [مريم: ٦٨].

وانظر إلى قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧] ألا ترى أن الغفران بعد الغضب أمر صعب على كثير من النفوس، فكان لا بد أن تأتي (ما)

تحت المؤمنين على هذه الفضيلة التي لا بد أن يروضوا عليها نفوسهم، كذلك قوله سبحانه: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿٥٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلَهُ فَقَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴿٥٦﴾﴾ [الفجر: ١٥-١٦]، تلك قضية فكرة اجتماعية جاء القرآن ليردها، ولذلك كان الرد حاسماً محكماً، ﴿كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿٧﴾﴾ [الفجر: ١٧].

ومن هنا تدرك أن (ما) لم تزد بعد (إذا) كما يدعون، وأنها لم تَحْجُ عَرْضاً، وإنما جاءت لتؤدي غرضاً، ونعم الغرض الذي أدته.

والحق أن ما سموه زائداً هو من أعظم روافد الإعجاز وهو بحق يحتاج إلى مؤلف خاص، ذلك لأن هذه الزوائد التي عدوها خمس عشرة أداة، ورأيناها تصل إلى ست وعشرين كلمة، بحاجة إلى استقصاء من حيث الآيات القرآنية، وهذا أمر يتطلب جهداً، ونسأل الله تعالى أن يوفقنا لمثل هذا العمل الجليل، والله الحمد والمنة<sup>(١)</sup>.

(١) بعد أن كتب هذا البحث وغيره في الزوائد، رأى أن يتوسع في الموضوع فأصدر بِسْمِ اللَّهِ كتابه لطائف المنان في دعوى الزيادة في القرآن، ثم رأى أن يضم إليه ما ادعوه محذوفاً في آيات القرآن الكريم من الحروف، فزاد عليه وسماه لطائف المنان وروائع البيان في نفي الزيادة والحذف في القرآن.



## الحذف

والنحويون الذين قالوا بزيادة الحروف في كتاب الله تعالى لم يقفوا عند هذا، بل رأوا كذلك أن هناك حروفاً محذوفة، قدروها هم كما يحلو لهم. والحق أن قضية حذف الحروف لم تفت العلماء والمحققين، فهذا ابن جني في «الخصائص» ينكر على القائلين بالحذف، ونحن معه فيما قال، إلا أن الأمر فيما نرتبه يحتاج إلى شيء من التفصيل.

فالحروف ليست سواء فهناك حروف قد تحذف من الكلمة بهدف التخفيف، ولكنك بعد حذفها تجد دليلاً عليها، أي: تدرك لأول وهلة أن في الكلمة حرفاً محذوفاً، وذلك كالياء التي حذفت من أواخر الكلمات، كـ «يسر» في قوله تعالى: ﴿وَأَيُّلَ إِذَا يَسِرَ ۝١﴾ [الفجر:٤]، وقوله: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ۝١٤﴾ [إبراهيم:١٤]، والتاء في مثل قوله سبحانه: ﴿تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِآلَاتِهِمِ وَالْعُدُونِ﴾ [البقرة:٨٥]، وأدوات القسم فيما يدل عليها دليل في مثل قوله سبحانه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [الحديد:٢٥]، وأدوات النفي في مثل قوله تعالى: ﴿تَاللَّهِ تَفْتَوُا تَذَكَّرُ يُوسُفَ﴾ [يونس:٨٥].

مثل هذه إن حذفت، فإن هناك دليلاً يدل عليها، فحذفها وذكرها سيان، بل حذفها أيسر من ذكرها، ولكن هناك حروفاً ادّعوا حذفها، دون أن يكون عليها دليل كبعض حروف العطف، وحروف الجر، بل إن هذا الحذف فضلاً عن أن لا دليل عليه، فإنه لا يساعد عليه المعنى. وسأضرب لك بعض الأمثلة لذلك.



ولكنني قبل هذا أراني مضطراً إلى تسجيل هذه الملحوظة المؤلة، وهي أن ما قرره بعض النحويين من قضية الحذف والزيادة، يأخذه بعض الكاتبين عنهم دون تمحيص، ودون نظر إلى المعنى، أيسقيم مع القول بالحذف أو الزيادة، أم لا يستقيم؟ والأنكى من ذلك أننا نجد بعض الكاتبين المحدثين، الذين تصدوا للكتابة عن الإعجاز وعن النظم، ينقلون هذه الأقوال في كتبهم، على أنها وجه من وجوه البلاغة والإعجاز البياني، وما هي -يعلم الله- كذلك. ويا حبذا لو أنهم رجعوها إلى مصادرها، وهذا ما تقتضيه الأمانة العلمية، ولو فعلوا ذلك لكان خيراً لهم وأقوم قبلاً، فيدرك القارئ المصدر الذي رجعوا إليه، ويسلمون هم من تبعة هذا القول، وهذا كثير مع كل أسف.

أما في كتاب «فكرة النظم بين وجوه الإعجاز في القرآن الكريم» للدكتور فتحي عامر، يتحدث فيه عن حذف الحرف، وكل الأمثلة التي ذكرها مأخوذة من كتاب «البرهان في علوم القرآن» للزركشي. ولكن الزركشي رحمته الله والحق يقال ذكر في أول بحثه هذا اختلاف العلماء في جواز حذف الحرف، إلا إذا دلّ عليه دليل. ونقل عن ابن جني أن الحرف ينوب عن الاسم أو الفعل، وإنما ذكر اختصاراً، فإذا قلنا: «هل يطلع الفجر على المستضعفين؟» فمعنى هذا: أستفهم وأسأل عن طلوع الفجر، (فهل) نابت عن جملة «أستفهم» و«أسأل». وإذا قلنا: «تفوز الأمم إلا الضعيفة»، فمعنى هذا: «نستثني الأمة الضعيفة» فنابت «إلا» عن جملة «أستثني». وعلى هذا يرى ابن جني أنه لا يجوز حذف الحرف، لأنه جيء به اختصاراً للكلام، واختصار المختصر إخلال<sup>(١)</sup>.

(١) أبو الفتح عثمان ابن جني الموصلي (ت ٣٩٢هـ/ ١٠٠٢م) من أئمة الأدب والنحو، وله شعر. وُلد بالموصل وتوفي في بغداد، وكان أبوه مملوكاً رومياً لسليمان بن فهد الأزدي الموصلي. من تصانيفه: «شرح ديوان المتنبي»، «المبهم»، «سر الصناعة». الأعلام، ٢٠٤/٤. الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، دار الهدى للطباعة والنشر، لبنان، ٢٧٣/٢.

ولكن الكاتب -سأحه الله- لم يشر إلى شيء من هذا، إنما تحدث عن بعض الحروف التي ذكرها الزركشي، من غير ما إشارة إلى الزركشي، أو إلى غيره.  
وسأقف بك عند نوعين من هذه الحروف، حروف العطف أولاً، وحروف الجر ثانياً.

#### أولاً: حذف حروف العطف:

١ - قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧].

قالوا: والتقدير: «فقال: أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين» فقد حذفت الفاء في هذه الآية.

٢ - في قوله سبحانه: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ﴾ [النقص: ٧٩]، قالوا: والتقدير: «وقال الذين يريدون الحياة الدنيا».

واكتفى الكاتب بنقل هذين المثالين في حذف حرف العطف، ولكن صاحب البرهان ذكر أكثر من هذا، ومنها:

٣ - قوله سبحانه: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ [آل عمران: ١١٨]، وقال والتقدير: «ولا يألونكم».

٤ - ومنها: قوله سبحانه: ﴿وَجُوهٌ يُّوْمِئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ [الغاشية: ٨]، قال: والتقدير: «ووجوه يومئذ ناعمة».

٥ - ومنها قوله سبحانه: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعِيشْهُمُ نَفِيسٌ مِّنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢]، قالوا: والتقدير: «وقلت».

٦- ولقد ذكر غير الزركشي أمثلة أخرى، منها ما جاء في إعراب القرآن المنسوب للزجاج ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠]، قال والتقدير: فقالوا.

٧- وما ذكره القرطبي<sup>(١)</sup> عند قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ [البقرة: ١٨٠]، قال: التقدير: وكتب، فهو معطوف على قوله تعالى: ﴿كُذِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٧٨].

٨- ومنه قوله سبحانه: ﴿لَا يَصْلٰٓئٰهَا إِلَّا الْآسَفُ ۝١٥﴾ الَّذِي كَذَبَ وَتَوَلَّى ﴿١٦﴾. [الليل: ١٥-١٦]، قال: والتقدير: «والذي كذب».

٩- ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف: ٢٢]، قالوا: والتقدير: «ورابعهم».

١٠- ومنها قوله سبحانه: ﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ [القصاص: ٦٣]، قالوا: والتقدير: «وأغويناهم».

١١- وما ذهبوا فيه إلى الحذف كذلك قوله سبحانه: ﴿صُمُّ بِكُمْ عُمًى﴾ [البقرة: ١٨، ١٧١]، قالوا: والتقدير: «صم وبكم وعمي».

## ثانياً: حروف الجر:

١- قوله سبحانه: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: ٦]، قالوا: والتقدير: «اهدنا إلى الصراط المستقيم».

(١) أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي الأندلسي القرطبي المفسر، كان من عباد الله الصالحين، والعلماء العارفين الورعين الزاهدين في الدنيا، والمشغولين بها يعنيهم من أمور الآخرة، أوقاته معمورة ما بين توجه وعبادة وتصنيف. توفي سنة ٦٧١ هـ. الجامع لأحكام القرآن، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٧٢ هـ/ ١٩٥٢ م، ٢/ ٢٥٨.

٢- قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ١٣٠]، قالوا: والتقدير: «في نفسه».

٣- قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْرِضُوا عُقْدَةَ الْنِكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥]، قالوا: والتقدير: «على عقدة».

٤- قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، قال: التقدير: «يخوفكم بأوليائه».

٥- قوله تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ [الأعراف: ١٥٥]، قال: التقدير: «واختار موسى من قومه».

٦- قوله تعالى: ﴿فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ [طه: ٥٢]، قالوا: والتقدير: «لا يضل عن ربي».

٧- قوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونَكُمْ لَوْلَا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣] والحرف الذي قدره في هذه الآية الكريمة (على)، ومعنى الآية عندهم: «لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم على بعض».

٨- قوله تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر: ١٢]، قالوا: والتقدير: «وفجرنا من الأرض عيوناً» أو «وفجرنا الأرض بعيون».

٩- قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ [الزمل: ١٧]، وتقديره: «كفرتم بيوم».

وأكتفي بها ذكرته لك، فإن أردت مزيداً، فارجع إلى كتاب «البرهان في علوم القرآن» للزركشي، وكتاب «إعراب القرآن» المنسوب للزجاج.

## مناقشة ما ذهبوا إليه:

حينما ننظر في هذه الآيات الكرييات نظرة تدبر، نجد أن القول بالحذف مرفوض ومردود، ولئن أجازوا لأنفسهم القول بحذف الواو، وحذف حرف جر، فلا أدري كيف أجازوا لأنفسهم القول بحذف (الفاء)، والفاء للترتيب والتعقب، وكيف يمكن أن يحذف حرف يدل على معنيين. وإن التبصر في فهم القرآن واجب، وإن التكلف في تأويله ممقوت، وهو خروج عن سنن البيان، ومنهج الإعجاز، وروعة الإيجاز.

إن القول بالحذف فيه إهمال للسياق والمعنى كليهما، بل هو تهوين لشأن النظم كذلك، فلقد مثل صاحب البرهان لهذا الحذف بقوله سبحانه: ﴿وَالْإِلَٰهَ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْفَوْرُ عَبْدُوا اللَّهَ﴾ (هود: ٥٠)، قال: والمعنى: «فقال يا قوم»، ولكن ما الدليل على هذه الفاء التي حذفت؟ ومن العجب أن جعل الدليل ما جاء في آية أخرى ﴿فَقَالَ يَنْفَوْرُ عَبْدُوا اللَّهَ﴾ (المؤمنون: ٢٣)، الدليل على حذف حرف من آية، ذكره في آية أخرى.

ويقيني بدقة النظم في كتاب الله تعالى، يقيني ويقيك هذه المنزقات. وإذا أردنا أن نفهم القرآن هذا الفهم، وأن نُخرج آياته على هذا التأويل، سيختلط الأمر، ويختبط الفكر، ويحترق الستر. فماذا نقول في قول الله سبحانه: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ هَذَا مَا لَدَىٰ عِندِي﴾ (٢٣) ﴿الْفِي فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عِنْدِي﴾ (٢٤) ﴿مَنَاجٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَرٍ مُّرِيبٍ﴾ (٢٥) ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ (٢٦) ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ رَبَّنَا مَا أَطْفَيْتُهُمْ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ (٢٧) ﴿ق: ٢٣-٢٧﴾. ترى أنكون من عشاق الحذف، فنقول في قوله سبحانه: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ بأن هنا واواً محذوفة، دلت عليه الآية التي قبلها، أم نكون من عشاق الزيادة فنقول إن الواو في قوله ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ زائدة لأن الآية التي تليها جاءت بدون واو.

وكذلك قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ يَخْتَصِمُكُمْ مِنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ (البقرة: ٤٩)، وفي آية أخرى ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدَّبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾

[إبراهيم:٦]. أفنكون من عشاق الزوائد فندعي زيادة الواو في الآية الثانية، لأن الآية الأولى جاءت خالية من الواو؟ أم نكون من هواة الحذف، فندعي أن الآية الأولى حذفت منها الواو؟ وهذا كثير في كتاب الله تعالى.

والحق الذي لا مرية فيه، والذي يتفق مع شفافية الأسلوب ونضارته، وسداد المعنى ورواقه، وجلال النظم ومتانته، أن لا حذف ولا زيادة، إنما جاءت كل واحدة على أبدع صورة، وأعذب وأعجب تركيب.

### أولاً: حروف العطف:

وإليك بإيجاز ما يؤنس نفسك، ويرهف حسك، ويبهجك روقاً، ويروقك ذوقاً، وسأرتب لك الآيات على ترتيب السور:

١ - قوله تعالى: ﴿صُمُّ بَكْمٌ عُتَّىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (١٨) ﴿البقرة: ١٨، ١٧١﴾. قالوا: إن هنا واوين محذوفين، والتقدير: «صم وبكم وعمي»، واستدلوا<sup>(١)</sup> لذلك بقوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا صُتُّوا وَبَكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَاءِ اللَّهُ يَضِلُّهُ وَمَن يَشَاءِ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (٣٩) ﴿الأنعام: ٣٩﴾.

ونحن إذا استعرضنا الآيات الكريمة التي جاءت فيها هذه الأوصاف، فإننا سنجد أن هناك آيتين في سورة البقرة، إحداهما في سياق المنافقين، وهي هذه الآية، والأخرى في سياق الكافرين وهي قوله سبحانه: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِينَ يَنْعِقُونَ بِمَا لَا يَسْمَعُونَ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بَكْمٌ عُتَّىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (١٧١) ﴿البقرة: ١٧١﴾.

وسورة البقرة مدنية - كما نعلم -، وهناك آيتان أخريان في سورتين مكيتين، إحداهما في سورة الأنعام، وهي الآية الآتية الذكر، والأخرى في سورة الإسراء، وهي قوله سبحانه: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيًَّا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ (٩٧) ﴿الإسراء: ٩٧﴾،

(١) إعراب القرآن المنسوب للزجاج، ٢/ ٨٠٣.

وإنما جاءت آية الإسراء على هذا الترتيب، مغايرة من حيث نظمها حيث قدم فيها ما آخر في الآيات الثلاث، وما ذلك إلا لأن الحديث فيها عن يوم القيامة، وهو حري أن تقدم فيه صفة العمي، لأنه أشق ما يكون عليهم في ذلك اليوم.

أما توسط حرف العطف بين هذه الصفات، فالذي نحسبه -والله أعلم بما ينزل- أن الآية الكريمة أرادت أن تعدد لنا أوصاف الكافرين، فبعضهم يحشرون عمياً، وبعضهم بكماً، وآخرون صماً، فليس المراد جمع هذه الصفات الثلاث لفئة واحدة، وذلك ما نستند في فهمه إلى كتاب الله تعالى قال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ (١٣) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٤﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْنَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴿١٥﴾ [طه: ١٢٤-١٢٦].

ثم إن حشرهم على هذه الهيئة منسجم مع المنطق، لأنهم إذا كانوا عمياً وبكماً وصماً، فسيفقدون كثيراً من أنواع الإحساس، ولكنهم إذا كانوا على صفة واحدة، فلأنهم سيشعرون باللوعة والضيق، لأنهم إن فقدوا حاسة من هذه الحواس فسيبقى لهم غيرها، كي يشعروا بالألم والعذاب.

أما آية الأنعام، فيذهب المفسرون إلى أن (الواو) فيها للاستئناف، ومعنى هذا أنها تتحدث عن المكذبين في الدنيا، ويرون أن (الواو) إذا جاءت لتغاير الوصفين، وإنما ترك العطف في غيرها لنكتة اقتضت ترك العطف، هذا ما قرره علامة الرافدين الشهاب الألوسي<sup>(١)</sup> رحمه الله، ولكنه لم يذكر لنا هذه النكتة التي اقتضت ترك العطف في آيتي البقرة.

والذي يلوح لي بعد تأمل أن الأمر ليس كما ذكروا، وأن الواو ليست للاستئناف، وإنما هي للعطف، وأستدل لذلك -والله أعلم- بسياق الآيات، فالآية التي قبل هذه الآية ﴿وَمَا يَنْبَغِي فِي الْأَرْضِ وَلَا فِطْرٍ يُجْنَحِيهِ إِلَّا أَمْرٌ أَمَّا لَكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي

(١) روح المعاني، ١٤٧/٧.

الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُودُّوا فِي الظُّلُمَاتِ ﴿٣٩﴾ [الأنعام: ٣٨-٣٩] فأنت ترى أن الآية الكريمة، إنما جاءت عقب الحديث عن الحشر، فبعد أن ذكر الحشر لهذه الأمم جميعاً، خص الحديث عن أولئك المكذبين، لأنهم هم المقصودون، أما دواب الأرض والطير فليس هناك غرض ليتحدث عما سيحدث لها بعد هذا الحشر.

وعلى هذا يكون العطف في الآية دالاً على تغاير الذوات والأنواع، لا على تغاير الصفات فحسب.

أما آيتا البقرة، فلم يكن حاجة إلى العطف فيهما، لأن الهدف بيان أن أولئك القوم لما لم يستعملوا حواسهم فيما يرشدهم إلى الخير، صاروا وكأنهم قد حرموا هذه النعم جميعاً.

وهكذا نرى أن ما قدروه من حرف محذوف لا يتفق مع جلال النظم ودقة المعنى، وروعة السياق، وجمال الأسلوب.

٢- وفي سورة البقرة أيضاً، قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: ٣٠]، وكذلك قوله سبحانه: ﴿قَالُوا أَلَنَخَذُنَا هُزُؤًا﴾ [البقرة: ٦٧] حيث قدروا (فاء) محذوفة في الآيتين.

ولكنك إذا أنعمت النظر في النظم الكريم، وجدت بهجة المعنى فيما جاء عليه هذا النظم.

ففي الآية الأولى يخبرنا القرآن الكريم بأن الله قال للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، ولو أنه قيل: «فقالوا أتجعل فيها» لفهم من هذا أن قول الملائكة كان مرتباً على قول الله، دون مهلة ولا تريث، وذلك ما لا يتفق مع جلال الملائكة، وتعظيمهم وخشيتهم لله تبارك وتعالى، هذه الفاء التي قدروها، تختل بها المعنى.



والذي نفهم به الآية الكريمة ما جاء عليه النظم، فحينما قال الله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ تتشوف النفوس، وتشوق القلوب، وتتساءل ماذا قالت الملائكة يا ترى؟ فتأتي الإجابة: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾، فالجملة القرآنية جاءت جواباً عن سؤال مقدّر في النفوس. وهذا لا شك له أثر نفسي عند المخاطبين جميعاً، لأنه يمكنهم من المشاركة في استخراج المعاني من الآية الكريمة، ولذا قرر علماء البيان، وأئمة البلاغة، أن الأمر حينها يكون من باب الاستئناف، فإنه يكون أكثر تأثيراً، وهذا ما يذكرونه في باب الفصل والوصل.

الآية - إذن - من باب الاستئناف البياني.

٣- كذلك قوله سبحانه: ﴿قَالُوا أَنْتَخِذْنَا هُزُوءًا﴾ [البقرة: ٦٧]، فإن أمر الفاء التي قدروها محذوفة لا يستقيم به المعنى، ويقال فيها ما قيل فيما قبلها. الآية - إذن - من باب الاستئناف البياني، وهو أحسن هنا وأكثر تأثيراً من العطف الذي تكلفوا له القول بالحذف.

٤- أما قوله سبحانه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ [البقرة: ١٨٠] حيث قدروا (واوا) عاطفة تجمع بين هذه الآية وبين التي قبلها وهي ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٧٨].

والحق أن تدبر الآيتين يحسن - إن لم نقل يحتم - القول بعدم العطف، ولقد فطن أبو حيان رحمه الله في البحر المحيط<sup>(١)</sup> لهذه الدقيقة، حيث رد على القائلين بالحذف، وإليك خلاصة ما قال:

إن قوله سبحانه ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ يدل على أن هناك أناساً سيقنص منهم فيقتلون، وهؤلاء بالطبع هم من الذين يحضرهم الموت، فقوله

سبحانه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ إنما هو متعلق بما قبله، لأن هؤلاء الذين حضرهم الموت، منهم أولئك الذين سبناهم القصاص، فكانه قيل: «فهل كتب على هؤلاء الذين سيقبض منهم قبل أن يقتلوا شيء؟»، فجاء الجواب يشملهم وغيرهم، فكانه قيل: «كتب عليهم وعلى غيرهم ممن حضره الموت، إن ترك خيراً الوصية». ويؤيد ما ذهب إليه أبو حيان مجيء ضمير المخاطبين في الآيتين.

٥- أما آية آل عمران: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ [آل عمران: ١١٨].

فالحقيقة أن القول بوجود حرف محذوف يفسد به النظم، فليس معنى الآية: لا تتخذوا بطانة من منكم ولا يألونكم خبالاً، لأنه يؤدي إلى أن هذه البطانة منهم من يألوننا خبالاً، ومنهم غير ذلك، وهذا لا تقصد إليه الآية من قريب أو بعيد، وإنما المعنى لا تتخذوا بطانة من دونكم، ثم يبين القرآن الأسباب التي من أجلها نهانا عن أن نتخذ الكفار بطانة، فكانه قيل لم؟ فذكر أسباباً كثيرة كل واحد منها يكفي كي لا نوالي أولئك.

وهذه الأسباب كلها جاءت على سبيل التعداد بدون حروف عطف، كان السبب الأول: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ أي: لا يقصرون في إفسادكم وخبالكم، وكأنه قيل: وهل هناك شيء آخر، فقال: ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾، أي: أحبوا عنتكم ومشقتكم وصعوبة الأمر عليكم، وكأنه قيل: وهل هنا شيء آخر؟ فقال: ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾.

٦- أما آية التوبة: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَحِمْمَا أَحْمِلْكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيَتُهُمْ تَفِيضٌ مِّنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢].

فذكروا<sup>(١)</sup> أن النظم هكذا: «ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا».

والحقيقة أن هذا نظم ينبو عنه القرآن الكريم، ذلك لأنهم ما أتوا النبي ﷺ إلا ليحملهم، ولكن النبي ﷺ - وقد كرمه الله فجعل رزقه كفافاً - قال لهم ما قال، ففعل الشرط وجوابه خاصان بالنبي الكريم.

والذين قالوا بحذف الواو، جعلوا جملة: تولوا جواباً لـ (إذا). وهذا الذي ينبو عنه النظم - كما قلت قبل -؛ لأنهم ما جاؤوا النبي ﷺ من أجل أن يتولوا باكين.

المعنى الذي يلائمه النظم - إذن - هو أن تكون جملة أتوك فعل الشرط، وجملة قلت جوابه: إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه. وهنا تستشرف النفوس لتعرف ما كان من شأن أولئك البررة، فكأنه قيل فماذا فعلوا بعد أن سمعوا من النبي ﷺ ما سمعوا؟ قيل: تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً، وهكذا نجد القول بالحذف، قولاً مردوداً صناعة ومعنى، ونسقاً فنياً.

٧ - قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف: ٢٢].

وقد قدروا هنا واوين محذوفتين.

إحداهما: «ورابعهم».

والثانية: «وسادسهم».

وقد نسوا - عفا الله عنهم - قوله سبحانه: ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾، ولعمري ما يضير القرآن لو وضع هذه الواو، إذا كانت من صلب النظم فيه، ولعمري كذلك لم ذكرها مرة واحدة، وكان من الممكن أن تُحذف وأن يقدرها المقدرون؟

(١) إعراب القرآن للزجاج، ٢/ ٨٠٤.

إن تلك جرأة على كتاب الله تعالى، ما كنا نود أن يقدم عليها مثل أولئك الذين نُحَسِنُ الظن بهم، ولقد رأيت تعليقا للرافعي رحمته الله في كتابه «إعجاز القرآن» يرد فيه على بعضهم في شأن هذه الواو، اجتزئ منه ما يلي، قال رحمته الله:

«إنما كانت -أي الواو- في هذه الجملة دون غيرها مما تقدمها، لتؤذن بأن الذين قالوا: إنهم سبعة كانوا على ثقة مما قالوه ولم يرجحوا بالغيب، ولهذا فصلوا بين القوم وبين كلبهم الذي ليس منهم إلا في العد، وارتفاع هذه الواو من الجملتين الأوليين جعلها لا تصفان إلا الشك، وجعل سياق الكلام يؤكد أن الحساب في الجملتين من الغلط، وأن القول به لم يصدر على القطع والتحقيق، ولذا قال ابن عباس، حين وقعت الواو انقطعت العدة، أي لم يبق بعدها وجه للعدد، وثبت أنهم سبعة وثامنهم كلبهم، فتأمل كيف انتظمت هذه الواو معنى الآية كلها، وكيف تكون البلاغة المعجزة التي تجعل في تركيب الكلام أسراراً كأسرار الخلق الحي»<sup>(١)</sup>.

٨- قوله سبحانه: ﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا كَمَا عَوَيْنَا تُبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ [القصاص: ٦٣].

قال صاحب إعراب القرآن رحمته الله: «إن هنا واواً محذوفة، والتقدير: (وهؤلاء الذين أغوينا وأغويناهم كما غوينا)»<sup>(٢)</sup>.

ونوقن بأن أدنى تدبر للآية الكريمة، من شأنه أن يجعل المتدبر يلفظ ويرفض هذا القول، ولا يسمح لنفسه أن يتلفظ فيه، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ (١٢) قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَهُمْ كَمَا عَوَيْنَا ﴿١٣﴾.

(١) مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة التاسعة، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م، ٤٧/٢.

(٢) إعراب القرآن، للزجاج، ٨٠٣/٢.

ولا أدري لم لم يقدروا واواً أخرى محذوفة في قوله سبحانه ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ﴾<sup>(١)</sup> فليس أحد الموضعين أولى من الآخر بهذا التقدير.

إن القول بالحذف، يؤدي إلى ركافة النظم، وهو ما يحل عنه كتاب الله تبارك وتعالى، فكيف يمكن أن يقال: «هؤلاء الذين أغويننا وأغويناهم» والعطف يقتضي التغاير والجملتان من واوٍ واحد، ونذهب إلى ما ذهب إليه أئمة التفسير والنحو فأبو حيان<sup>(٢)</sup> في بحره ونهره ذهب إلى أن قوله سبحانه: ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا﴾ مبتدأ صفته: ﴿الَّذِينَ﴾ و﴿أَغْوَيْنَا﴾ صلة الموصول لا محل لها من الإعراب، وقوله: ﴿أَغْوَيْنَهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ هو الخبر، وإنما جاز أن يكون خبراً، لأنه مقيد، أي: أغويناهم كغينا.

ونذهب أبو علي الفارسي<sup>(٣)</sup> إلى أن قوله سبحانه: ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا﴾ مبتدأ وخبر، وقوله: ﴿أَغْوَيْنَهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ جملة مستأنفة.

ونحن إذا تأملنا الآية الكريمة وتدبرناها حق التدبر، فربما يترجح لنا قول الفارسي، ذلك لأن قوله: ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا﴾ كلام مستقل بذاته ثم جاءت الجملة الثانية مستأنفة كأنه قيل: فكيف أغويتموهم؟ فقيل: ﴿أَغْوَيْنَهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾.

وسواء اختير قول أبي حيان، أم قول الفارسي، فإن القول بحذف الحرف مستبشع مستكره، من حيث الوضع والطبع معاً.

٩- قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قُصِيُّوهُ إِنَّهُمْ فِي لُذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾<sup>(٧٩)</sup> وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنَ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الْغَائِبُونَ<sup>(٨٠)</sup> [القصص: ٧٩-٨٠].

قالوا: إن هنا واواً محذوفة، والتقدير: «فخرج على قومه في زينته وقال الذين».

(١) البحر المحيط، ١٢٨/٧.

(٢) الجمل على الإجلالين، ٣/٣٥٦.

ويا ليتهم قبل أن يقرروا ما يريدون، يقفون مع حس القرآن ونسقه. إن العطف يقتضي الاشتراك - كما نعلم - فإذا قلنا: فرح المجاهدون وحزن القاعدون، فنحن نود من أول وهلة أن نقرر الاشتراك. والنظم في الآية ليس من هذا القبيل، وإنما يريد أن يقرر القرآن، أن قارون حينما خرج على قومه في زينته اختلف الناس في شأنه، لأن منهم صاحب الإيمان القوي، ومنهم دون ذلك، فلم يرد القرآن أن يجمع بين الخروج وبين القول، وإنما المعنى الذي يعين عليه النظم أنه حينما قيل: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾، تساءل المتسائلون، فماذا كان شأن الناس؟ فقيل: ﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾.

ثم إن حذف الواو يفيد نكتة بديعة أخرى، وهي أن هؤلاء الذين يريدون الحياة الدنيا، لمجرد رؤية قارون فيها هو عليه من زينة، قالوا ما قالوه. الحذف - إذن - مستبعد ومستكره كذلك.

١٠ - قوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ (٨) [الغاشية: ٨].

قالوا: هنا حرف عطف مضمّر محذوف. والتقدير «ووجوه يومئذ ناعمة». ولم أجد من المفسرين من أروى قوله ذا ظمناً، اللهم إلا جملة عند أبي السعود، نقلها عنه الألوسي والشيخ الجمل، وهي قوله: إنه ترك العطف «إيذاناً بكمال تباين مضمونيهما»<sup>(١)</sup>.

ولقد وقفت عند هذه الآية، وعند ما يشبهها من كتاب الله تعالى، وهي قوله سبحانه: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ (٣٨) صَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) [عبس: ٣٨-٤٠]. ولعل عذر القائلين بالحذف، أنهم وجدوا هذه الواو جيء بها في هذه الآية الكريمة ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ (٤٠) ففاسوا آية الغاشية عليها.

(١) الجمل على الجلالين، ٤/ ٥٢٦.

ولكننا حينما ننعم النظر في الآيات، نجد فروقاً بين الموضعين، فأنت ترى أن الآية الأولى التي عطفت بالواو، كان الحديث فيها حديثاً مجملًا، غير مفصل ﴿وَجُودٌ يَوْمَيزُ مُسْفِرَةٌ ۝٢٨ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ۝٢٩ وَوَجُودٌ يَوْمَيزُ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٣٠ تَرْهَقُهَا قَفَرَةٌ ۝٣١﴾، ذلك لأن ما قبل هذه الآية، يستدعي إجابة عن الفريقين، وهو قوله سبحانه: ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَيزُ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۝٣٧﴾ [عبس: ٣٧]. وهذا بالطبع يشمل المؤمنين، والكافرين معاً، ولا يخص فريقاً دون فريق، إذن لا بد أن يبين حال الفريقين فقال: ﴿وَجُودٌ ۝٣٨﴾.

أما سورة الغاشية فالأمر يختلف فيها اختلافاً كلياً، فالحديث من أول السورة كان عن فريق واحد، ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ۝١﴾ [الغاشية: ١]، وهذه التسمية تشير إلى ما يغشى أولئك المعرضين من العذاب، ثم بدأ يفصل في شأن أولئك الذين يغشاهم العذاب، فبين وفصل وشرح كثيراً من أحوالهم، وما يلقونه وما يصلونه، وما نوع طعامهم. ولما انتهى من أمرهم انتقل للحديث عن الفريق الآخر، وكانت روعة النظم وجودة السبك، وفخامة المعنى تقتضي ترك العطف، لأنه لو عطف لكانت الغاشية للفريقين معاً، كما في قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَيزُ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۝٣٧﴾، ولكن الأمر ليس كذلك كما عرفت.

إذن الحديث من أول السورة عن فريق واحد، فلما انتهى من شأنه جاء دور الحديث عن فريق آخر لم يتحدث عنه من قبل، فكان من الأولى أن يكون الحديث عنه بطريق الاستئناف، ذلك ما يبدو لي -والله أعلم بمراده- فيما يتصل بهذه الآية الكريمة. وأرجو أن تتأمل ما قلته لك، لتذوقه كما تذوقته.

١١ - قوله تعالى: ﴿لَا يَصْلَحْنَهَا إِلَّا الْأَشْقَى ۝١٥ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ۝١٦﴾ [الليل: ١٥-١٦].

قالوا: وأصل النظم «والذي كذب وتولى» فجعلوا الذي يصل النار نوعين الأشقى أولاً، والذي كذب وتولى ثانياً، ولا أدري لم هذا التكلف والتمحل؟ أفيكون هناك

أشقى من الذي كذب وتولى؟ ولماذا كان هو الأشقى، أليس لأنه كذب وتولى؟ إن الذي حملهم على القول بالحذف، هو أنهم جعلوا الأشقى وصفاً لشخص معين، مع أن القرآن لم يحدثنا عما يسند ذلك القول ويصححه. إن الأشقى هو نفسه الذي كذب وتولى. فالقول بالحذف - إذن - كديد، غير سديد.

هذه بعض حروف العطف التي قالوا بحذفها، ولا تظن أننا نستطيع الاستقصاء، ولا نوده كذلك، وإنما نريد أن نأتي لك بأمثلة لتكون عوناً وهدياً فيما يعرض لك، أو يعرض عليك من هذا القبيل.

### ثانياً: حروف الجر:

١ - قال تعالى: ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ ﴾ [الفاتحة: ٦].

يقول أصحاب إعراب القرآن: إن في هذه الآية حرفاً محذوفاً، وهو (إلى)، والتقدير «اهدنا إلى الصراط المستقيم»<sup>(١)</sup> ويستدل لذلك بمثل قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝٥٢﴾ [الشورى: ٥٢].

وبادئ ذي بدء أحب أن أقرر هنا، أن النظم القرآني امتاز بالدقة والإحكام، وأن هذه الدقة تنسجم وتتناسب مع السياق، وهل النظم إلا ترتيب اللفظ في النطق، ترتيباً يتفق مع المعنى المراد؟ ولو أننا أنعمنا النظر في الآيات لرأينا ما يثلج الصدر، وتهتز له النفس طرباً، والقلب خشوعاً.

ولنقف مع هذه المادة في كتاب الله تبارك وتعالى، وكيف جاءت على نسق بديع، ونظام محكم إن فعل الهداية يجيء في كتاب الله تعالى مسنداً إلى الله حيناً، وإلى غيره حيناً آخر، ذلك لأن الهداية إما أن يراد منها التوفيق والإيصال، وإما أن يراد بها الدلالة والإرشاد، والفاعل الحقيقي في هذين المعنيين هو الله تبارك وتعالى، إلا أنها

(١) إعراب القرآن، ١/ ١٠٦.



بالمعنى الثاني قد تسند إلى غيره سبحانه، لذلك جاءت هذه المادة لتكون من دلائل الإعجاز في كتاب الله سبحانه.

فإذا أسند هذا الفعل إلى الله سبحانه وتعالى، رأيناه في أكثر الآيات يتعدى بنفسه، وقد يتعدى بحرف الجر على قلة، لأن الهادي -أيًا كان معنى الهداية- هو الله سبحانه، وإذا جاء مسنداً لغيره سبحانه فلا بد من أن يتعدى بحرف الجر، وتلك لعمر الحق دقة لا يستطيعها البشر، قال تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ١﴾ ﴿[الفاتحة: ٦]، وقال سبحانه: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ١٠﴾ ﴿[البعد: ١٠]، وقال سبحانه: ﴿وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ٢﴾ ﴿[الفتح: ٢]، ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا ١٧٥﴾ ﴿[النساء: ١٧٥]، وقال سبحانه حاكياً عن الرسل ﷺ: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلًا ١﴾ ﴿[إبراهيم: ١٢]، هذا ما أسند الفعل فيه إلى الله سبحانه من غير أن يوسط حرف الجر، وقد جاء على قلة -كما قلت- متعدياً بحرف الجر، قال سبحانه: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٥٤﴾ ﴿[الحج: ٥٤]، والذي يرجع إلى سياق الآيات يدرك الفرق الواضح بين هذه الآية التي وسط فيها حرف الجر (إلى) وبين الآيات السابقة التي عدي فيها الفعل بنفسه.

أما ما أسند الفعل فيه لغير الله تعالى، فنمثل له بقوله سبحانه: ﴿وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ٢٢﴾ ﴿[ص: ٢٢]، وهو ما قاله الذين تسوروا المحراب لداود عليه السلام، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٥٤﴾ ﴿[الشورى: ٥٤]، وقال سبحانه: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ٤﴾ ﴿[الحج: ٤]، وقال تعالى: ﴿لَا تَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ٢٢﴾ ﴿[مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ٢٣﴾ ﴿[الصفافات: ٢٣]، ﴿إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ٢٤﴾ ﴿[الصفافات: ٢٣].

ومن هنا ندرك أنها ظاهرة أسلوبية في كتاب الله تعالى، وهي من دلائل الإعجاز -كما قلت من قبل- لأن الله هو المبين الحقيقي، والموفق. أما هداية غيره

سبحانه، فإنما هي إرشاد ودلالة لا يستقل أصحابها بها، وإنما هي تابعة لمشيئته سبحانه، ألا ترى إلى قوله سبحانه لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]، وقوله سبحانه: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

وهكذا ندرك أن القول بالحذف، ليس أغرب منه إلا ادعاء الزيادة في قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، أعني زيادة (إلى) قياساً على قوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، والحذف والزيادة توأمان، القرآن منهما براء. وأخيراً ما أحرانا أن نتدبر هذه الآية ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ [يونس: ٣٥]، فانظر كيف كان الحديث عن الشركاء، وكيف كان الحديث عن الله، وكيف اختلف الفعل في الموضعين.

٢- قوله سبحانه: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ١٣٠] والتقدير عند دعاء الحذف: إلا من سفه في نفسه. والحقيقة أن الحرف الذي قدره يشوه النظم، ويذهب برونق المعنى، فضلاً على أنه لا حاجة له من حيث اللغة.

ولقد ذهب الأئمة إلى أن قوله تعالى: ﴿سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ معناه «إلا من جهلها» لأن السفه معناه الجهل، وتقدير الحرف المحذوف، بحيث يصير النظم «سفه في نفسه» ينبو عنه النظم الكريم - كما قلت - فليس المراد جهله في نفسه، فذلك أمر خاص به، وإنما المراد جهله نفسه واستخفافه بها. قال الشيخ الجمل رحمه الله تعالى:

«قوله: جهل أنها مخلوقة لله، أشار بهذا إلى أن سفه مضمن معنى جهل وقوله: أو استخف بها، أشار به إلى أنه متعد بنفسه من غير تضمين، وهما وجهان حكاهما السمين، ونصه قوله: «نفسه: في نصبه وجهان أحدهما، وهو المختار، أن يكون مفعولاً به؛ لأن ثعلباً والمبرد حكيا أن سفه يكسر فيتعدى بنفسه كما يتعدى سَفِهَ

بفتح الفاء والتشديد، وحكي عن أبي الخطاب أنها لغة، وهو اختيار الزمخشري، فإنه قال: سفه نفسه: امتهنها واستخف بها، والثاني: أنه مفعول به، ولكن على تضمين سفه معنى فعل يتعدى، فقدرة ابن جني والزجاج بمعنى جهل، وقدرة أبو عبيدة بمعنى أهلك.

«قوله جهل أنها مخلوقة»: أي لم يستدل بما فيها من آثار الصنعة على الوجدانية وعلى نبوة نبينا بالمعجزة، والعرب تضع سفه موضع جهل، لأن من عبد حجراً، أو قمراً أو شمساً أو صنماً فقد جهل نفسه لأنه لم يعلم خالقها»<sup>(١)</sup>.

٣- قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْرِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥]، قالوا: والتقدير: ولا تعزموا على عقدة النكاح، لأن عزم - كما يقولون - تتعدى بحرف الجر، يقال: «عزمت على كذا»، واستدلوا لذلك ببيت من الشعر، ولا أدري لم اكتفوا بهذا الموضع؟

ولقد جاء قبل هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٧]، وعلى هذا ينبغي أن يكون في هذه الآية حرف محذوف كذلك، ولكننا نرد القول بالحذف:

أولاً: لأن الآيتين جاءتا على نسق واحد، ونظام واحد، وكان هذا كافياً لرد قول أولئك وردعهم عن قولهم.

ثانياً: إن القول بأن عزم لا تتعدى بنفسها، قول يعوزه الدليل، وخير شاهد على ذلك التنزيل.

ثالثاً: إن عزم هنا ضمنت معنى آخر، والتضمين بلاغة كما يقرر أئمة البيان، كأن يقال: «ولا تنووا أو تتموا عقدة النكاح، أو تباشروا، أو تبتوا، أو تنفذوا».

---

(١) الجمل، ١/١٠٨.

واعلم أننا لا نوجب القول بالتضمين، ولكننا ذكرناه مساهلة لمن يرى أن عزم لا تتعدى بنفسها، ونحن لسنا مع هذا الرأي، فإن استدلووا بالشعر كان دليلنا القرآن، وهو خير ما يستدل به.

أما قولهم: «عزمت علي كذا»، أو «عزمت عليك أن تفعل كذا»، ففي الأول معنى التصميم، وهو يتعدى بـ «علي»، وفي الثاني: معنى القسم. والخلاصة: أنه لا داعي للقول بالحذف -كما رأيت-.

٤ - قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، قالوا: والمعنى يخوف بأوليائه، بدليل فلا تخافوهم.

ولكننا نقول: لم لا يكون المعنى: «يخوفكم أوليائه»، وهذا ما يدل له قوله سبحانه: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾. إن (خوف) يمكن أن تعدى للمفعولين بنفسها، دون واسطة حرف الجر.

٥ - وما كادوا يجمعون على الحذف فيه قوله سبحانه: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا﴾ [الأعراف: ١٥٥]، وأصل النظم عندهم: «واختار موسى من قومه».

ولكن بعد تأمل في الآية الكريمة، نجد أن إبقاء الآية على ما هي عليه، أسد نظماً، وأصح حكماً، ذلك لأن هذا الفعل يتعدى بنفسه، هذا من جهة. ومن جهة ثانية فإن معنى الآية دون اللجوء للحذف فيه مزية، سوف تتلاشى عند القول بالحذف، وإليك بيان ذلك:

إذا قلنا: «واختار موسى من قومه سبعين رجلاً»، فإن القوم هنا تشمل بني إسرائيل جميعاً، ويصير المعنى «اختار موسى من بني إسرائيل سبعين رجلاً».

ولكننا إذا أبقينا الآية على ما نزلت عليه من عند الله تعالى، وكما قدر العزيز العليم، يكون المعنى هكذا: «واختار موسى قومه، أي اختار موسى قومه الذين

سيذهبون معه للمناجاة، فتكون كلمة القوم هنا خاصة لأولئك الذين اختارهم موسى ﷺ لا تعم بني إسرائيل جميعاً، ثم ذكر هؤلاء القوم الذين اختارهم موسى مزيد بيان، فقال سبعين رجلاً، فيكون هؤلاء الذين اختارهم موسى ذكروا مرتين، ذكروا أولاً بعنوان القوم، ثم ذكروا ثانياً ببيان العدد، ولا شك أن هذا فيه من التفخيم، والتعظيم ما لا يوجد في القول الأول الذي يعتمد الحذف، لأنهم على ذاك القول لم يُذكروا إلا مرة واحدة، ألا ترى إلى ما أصاب موسى ﷺ حينما أهلكوا».

٦- قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ﴾ (٥١) قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ [طه: ٥١-٥٢]، والحرف المحذوف الذي قدره هنا (عن) أي: لا يضل عن ربي.

وأعجب، ويعجب معي كل منصف كيف استساغوا مثل هذا التقدير، فهو مع ما فيه من تكلف، يذهب بجلالة النظم، وصحة المعنى، وإليك بيان ذلك:

يقول موسى ﷺ: إن أخبار القرون الأولى وأحوالهم عند ربي، في كتاب محفوظ، لا يضيع الله عنه شيئاً، ولا ينسى منه شيئاً كذلك، وتقدير حرف الجر يخل بهذا المعنى، لأن الفاعل لا يكون واحداً، مع أن الفعلين من واو واحد كما يدل عليه السياق، ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ (٥٢)، أي: ولا ينسى ربي، هذا هو المتبادر.

أما على ما ذهبوا إليه، فسيكون الفاعل للفعل الأول عائداً على الكتاب، أي: لا يضل الكتاب عن ربي، والفاعل للفعل الثاني: ينسى عائداً على الله، وهذا تفكيك للنظم، وتفتيت للسياق، حريّ بنا أن ننزه القرآن الكريم عنه.

٧- قوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]. والحرف الذي قدره في هذه الآية الكريمة (على)، ومعنى الآية عندهم: لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم على بعض.

وهذا التقدير: يفترض فيه أن المجتمع المسلم مجتمع تقاطع وكرامية فليس فيه إلا أن يدعو كل واحد على الآخر، وكأن الرسول ﷺ -وهو الرحمة المهداة، والنعمة

المسداة- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، أقول: كأن الرسول الكريم ﷺ ليس من شأنه إلا أن يدعو على الناس.

إن تقدير هذا الحرف لا أقول: يُذْهِبُ رونقَ النظم فحسب، ولا أقول: يفسد به المعنى فقط، وإنما هو بعد ذلك كله يتناقض ويتنافى مع ما كان يتصف به النبي الكريم ﷺ من رحمة ومحبة من جهة، وبين ما كان عليه المجتمع المسلم الأول من جهة أخرى. كيف وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

فهل يتناسب هذا مع الحرف الذي قالوا بحذفه، اللهم، لا.  
ومعنى الآية الكريمة:

أي: لا تجعلوا دعاء الرسول حينما يدعوكم كما يدعو بعضكم بعضاً، أي إذا دعاكم الرسول ﷺ فلا بد أن تلبوا دعاءه، ولا يجوز لكم بحال ما أن تجعلوه كدعاء بعضكم لبعض.

فإضافة الدعاء إلى الرسول ﷺ من إضافة المصدر لفاعله، وقد يكون المعنى: لا تدعو الرسول ﷺ وتنادوه كما يدعو بعضكم بعضاً ويناديه. وإنما ينبغي أن تعظموه ﷺ حين دعائكم وندائكم له، فتكون إضافة الدعاء إلى الرسول ﷺ من إضافة المصدر إلى مفعوله.

وعلى التفسير الأول تكون الآية حثاً للمؤمنين أن يستجيبوا للرسول إذا دعاهم. وعلى التفسير الثاني تكون الآية حثاً للمؤمنين كي يعظموا الرسول ﷺ إذا دعوه ونادوه.

وعلى كلا التفسيرين لا نجد مكاناً للحرف الذي ادعوه محذوفاً.

٨- وقد قدروا الحذف في قوله سبحانه: ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ

قَدِّ قَدِرَ﴾ [القمر: ١٢]، ولكنهم هنا افتنوا في تقدير هذا الحرف، فتارة قالوا: إن

المعنى وفجرنا من الأرض، فالمحذوف هو (من) وأخرى قالوا: إن النظم وفجرنا الأرض بعيون، فالمحذوف هو الباء، ويعلم الله أنه لا هذا ولا ذاك.

ولو أننا وقفنا مع سياق الآية الكريمة، لأدركنا أن السياق والمعنى يبيان هذا الحذف، الآية جاءت حديثاً عن الطوفان حينما دعا نوح ربه أني مغلوب، فانتصر الله له ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر: ١١-١٢]، إن السياق يدل على تهويل الأمر، وكيف كانت السماء كلها أبواباً، وكيف كانت الأرض كلها عيوناً، أن القول بالحذف سواء كان «فجرنا من الأرض عيوناً» أم «فجرنا الأرض بعيون» لا ينسجم مع ما يريده القرآن، ذلك لأن ما يريد أن يبينه القرآن الكريم، أن الماء كان يعم هذا الكون سماء وأرضاً، فليست هناك عيون خاصة فجرت من الأرض أو فجرت بها الأرض.

ولعلك تعجب إذا عرفت أن عشاق الزيادة وقفوا عند قوله سبحانه: ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾﴾ [يس: ٣٤] فقدروا أن هنا حرفاً زائداً وهو (من)، ولو أنصف هؤلاء وأولئك لوقفوا مع النص القرآني فيما يرشد إليه، وفي سياقه الذي يتفق مع نظمه، ولأدركوا أن لا حذف في الآية الأولى، لأنها جاءت في سياق الحديث عن الطوفان، وأن لا زيادة في الآية الثانية، لأنها جاءت في سياق طبعي، كان الهدف سببه بيان قدرة الله.

٩ - وأخيراً نقف مع قوله سبحانه: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾﴾ [الزمل: ١٧].

ولقد أبوا إلا أن يجعلوا حرفاً محذوفاً كذلك في هذه الآية، ونظم الآية عند هؤلاء، فكيف تتقون أن كفرتم بيوم.

ولا أدري كيف يمكن أن يتم المعنى على هذا التقدير، وهل من كفر باليوم الآخر يمكن أن يوبخ على عدم التقوى، وهل بعد الكفر ذنب؟ ذلك معنى ينفر منه

الطبع والذوق، والمعنى المتبادر من الآية الكريمة: كيف تتقون يوماً عظيماً، وتخلصون أنفسكم مما فيه من هول، إن اخترتم الكفر على الإيمان؟ فيكون ﴿يَوْمًا﴾ مفعولاً لـ ﴿تَتَّقُونَ﴾.

وأكتفي بهذا القدر. والحق أنهم أسرفوا كثيراً في إقحام الحرف بين الزيادة والحذف، والذين يتدبرون آي القرآن الكريم سيجدون من روعة النظم ما تزكو به نفوسهم، قد يذكر القرآن الكريم حرفاً في آية ويحذفه في أخرى، ولكل من الحذف والزيادة موقعه وموضعه.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.





## تحليل لبعض السور القرآنية

بعد هذا التطواف فيما عرفته من فصول في الإعجاز البياني، أردنا تكميلاً للفائدة - وقد أثرنا أن يكون كتابنا هذا يمتاز بالدراسة الميدانية العملية للإعجاز - أقول: بعد هذا التطواف الذي حدثناك فيه عن الكلمة القرآنية، وعن الجملة، والفقرة، وعن التكرار والزوائد والفاصلة، إلى آخر ما حدثناك عنه، يجمل بنا أن نقف مع بعض السور القرآنية، لنحاول تحليلها تحليلاً فنياً.

وأعني بالتحليل الفني، التحليل البياني والموضوعي، وإن شئت فقل تحليلاً عاماً نطبق فيه ما درسناه في الفصول السابقة، على السورة المراد تحليلها. فندرسها مثلاً من حيث الكلمات، والفواصل، والترابط، والتكرار - كما يسمونه - وإياك أن تظن أنني أريد أن أفسر لك السورة، فليس غرضنا الآن التفسير، وسأقتصر لك وأوجز ما وسعني ذلك، وسوف لا أختار لك من الطوال، وأكتفي باختيار سورتين اثنتين، أولاهما مكية، والأخرى مدنية، حتى ندرك أن الأسلوب القرآني، مكّي ومدني سواء، وليس كما زعم بعضهم من أن القرآن المكّي يختلف عن المدني، من حيث الرصانة، والجزالة، والقوة، وهي فرية كفانا مؤونة الردّ عليها، كثير من العلماء رحمهم الله تعالى.

السورة المكية التي اختارها لك سورة الزخرف، والسورة المدنية سورة المجادلة.

### ١- سورة الزخرف:

﴿حَمْدٌ ۝١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُ فِي أُولَى الْأَكْتَابِ لَذِينَ لَعَلِّي حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ

كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَّبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمُ مِنَ الْفَلَاحِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُّقْرِبِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَٰك رَبَّنَا لَمُنْقِلُونَ ﴿١٤﴾ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمُ بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِرَ أَحَدَهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوْ مِنْ يَنْشُرُوا فِي الْحَيَاةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَخِيبًا لَقَدْ جَاءَهُمْ شَهِدَتُهُمْ وَسْئَلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَالَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ أَنَبَيْتُهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ أُولَٰئِكَ حُتُّوا بَأْهَدَىٰ وَمَا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْزَلْنَا كَيْفَ كَانَ عَذَابُهُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ حَقًّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلْخِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُشَوِّبَهُمْ سُلْفًا مِنْ فَضْلِهِ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِيُؤْيِيَهُمْ أَتُونَا وَسُرًّا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَنْ يَعِشْ عَنِ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ

وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَتُكْفَرُ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّمَا نَذِيرٌ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْقِضُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُزِيلُكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَاسْتَسْيِكَ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾ وَشَلَّ مِنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَتَأْتِيَ السَّاحِرُ أَدْنَىٰ لَنَا رَبِّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَفَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكٌ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ بَيْنِي ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا الْفِتْنَةُ عَلَيْهِ أَسُورَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَلَّةٌ مَعَهُ الْمَلَكُ الْمَقَرِّي ﴿٥٣﴾ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّا ءَاسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَافًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ إِلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَتَعَبَادُ لَا خَوْفَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا شَتَّهِهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا

يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ [سورة الزخرف].

تسمى السورة سورة الزخرف، وقد ذكرت هذه الكلمة في السورة الكريمة، ولكن ليس هذا فحسب، بل سنرى أن موضوع السورة متسق مع اسمها. بدأت السورة بالحروف المقطعة (حم) وهي حروف أصح ما يقال فيها: إنها للتحدى،

والتنبيه والإيقاظ، وهذا مفصل في كتب التفسير، ثم أقسمت بالكتاب المبين، وجواب القسم: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣]، فالقسم وجوابه -كما ترى- من وادٍ واحد، ومشكاة واحدة؛ القسم بالكتاب، وجواب القسم ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾. وقد بينا لك في الفصل الأول من هذا الكتاب، سر استعمال الكتاب تارة والقرآن أخرى، وسر استعمال الجعل تارة، والإنزال أخرى، فلا نعيده هنا، كما بينا لك في أول هذا الكتاب سر قوله سبحانه: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (٢).

ووصف القرآن بقوله سبحانه: ﴿وَلَئِنَّ فِي أَمْرِ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤]، وقد تقدم لك سر استعمال كلمة «أم» حينما حدثناك عن الرمانى ورسالته في إعجاز القرآن، وعرفت أنها استعارة بديعية. وهذان الوصفان «عَلِيَّ حَكِيمٌ» وصف بهما القرآن، وهما اسمان من أسماء الله -كما جاء في آخر السورة السابقة.

وبعد هذه المقدمة الجامعة الموجزة عن القرآن تتوجه السورة لخطاب أولئك المعرضين، الذين كان من حقهم أن يؤمنوا بهذا القرآن العربي، الظاهر من حيث نظمه، والمبين فيه ما يُسعد أولئك القوم وغيرهم، ولكن إسرافهم حال بينهم وبين أن يؤمنوا به، ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ (٥) [الزخرف: ٥] أي: أنهم لكم فنعرض عنكم وندعكم، لأنكم مسرفون؟ لن يكون هذا، بل سيستمر تذكيركم. وبعد هذا، بَيَّنَّ الله تبارك وتعالى لنبيه ﷺ وللمؤمنين معه، بأن هذا شأن الأمم من قبلهم، وبأنه ما من قوم جاءهم نبي إلا استهزؤوا به، فكانت سنة الله أن يهلك أولئك المستهزئين، وقد كانوا أشد من أولئك بطشاً، وأكثر منهم قوة وآثاراً في الأرض. وهو وعيد لأولئك إن لم يؤمنوا ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٨) [الزخرف: ٨].

وبعد هذا المقطع توجهت السورة الكريمة لإلزام أولئك بالحجة، وكان السؤال الذي وُجِّه لهم، لا يستطيعون التخلص منه ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقْنَاهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ [الزخرف: ٩] وبنيت السورة الكريمة على هذه الإجابة المفصلة، آثار قدرة الله العزيز العليم، المتمثلة بهذه النعم التي لا يستطيعون عنها غناء، مِنْ جَعَلَ الْأَرْضَ لَهُمْ مَهْدًا، وَجَعَلَهُ فِيهَا سَبَلًا وَطَرَقًا للهداية، ثم إنزال الماء من السماء بقدر، ليحيي الأرض الميتة، وكذلك شأن البعث، فكما يخرج النبات من الأرض الميتة الجرداء، سيخرجون من قبورهم كذلك، وليس هذا فحسب، بل هو الذي خلق الأزواج -الأصناف- كلها، وجعل لهم من الفلك والأنعام ما يركبون، ويقضون عليها حاجاتهم، كل ذلك من أجل أن يذكروا نعمة الله تعالى، ويحمدوه ويشكروه، ويقولوا ﴿سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ [الزخرف: ١٣-١٤]، وبعد أن ذكرتهم السورة بهذه النعم العظيمة عليهم، عرضت لهم بطريقة الالتفات من الخطاب إلى الغيبة، فذكرت أنهم جحدوا هذه النعم وكفروها، وجعلوا لله من عباده جزءاً، فقالوا: الملائكة بنات الله، وذلك كفر فاحش ظاهر ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿١٥﴾ [الزخرف: ١٥].

وبعد أن بينت السورة الكريمة شيئاً من سفههم، فهم يكرهون البنات ﴿وَلَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ﴿١٧﴾ [الزخرف: ١٧]، وبقي حزيناً مهموماً، وكيف جعلوا لله البنات، وأبوها لأنفسهم، ﴿أَوْمَن يُنْسَوْنَ فِي الْحَيَاةِ وَهُوَ فِي الْخَفَاةِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ ﴿١٨﴾ [الزخرف: ١٨] وهي كناية بديعة.

وبعد هذا أخذت السورة الكريمة تناقشهم، وترد شبهاتهم، فهؤلاء وقد ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ﴾ ﴿٢٠﴾ بالطبع لا ﴿سَتَكُنَّ شُهَدَاءَهُمْ وَيُسْتَلُونَ﴾ ﴿٢١﴾ [الزخرف: ٢١] يحتجون على عبادتهم لما يعبدون من دون الله بقوله: ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ [الزخرف: ٢٢]. ولكن من أين لهم هذا؟ هل عندهم دليل عقلي يتمسكون به ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ ﴿٢٣﴾ [الزخرف: ٢٣] ويكذبون، والفاصلة هنا يخْرُصُونَ، وجاءت في سورة الجاثية ﴿يَطْرُقُونَ﴾ ﴿٢٤﴾ [الجاثية: ٢٤]؛

لأن السياق هنا يقتضي هذه الفاصلة؛ وذلك لكذبهم فيما ادعوه، أما في سورة الجاثية فكان السياق حديثاً عن البعث، وإذا لم يكن لهم دليل عقلي، فهل هناك دليل نقلي يستمسكون به؟ ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٦﴾﴾ [الزخرف: ٢١]. وإذا لم يكن لهم هذا ولا ذاك، فما هي حججهم إذن؟ ليس لهم إلا قولهم، بأنهم وجدوا آباءهم على أمته، وهم على آثارهم مهتدون. وترد السورة الكريمة هذه الشبهة.

أولاً: بأن هذا هو شأن الأمم من قبلهم، كانوا يتمسكون بهذه الشبهة، فما هم المترفون من أقوام الأنبياء، يقولون هذا القول: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَانْتِرَاهِم مُّقْتَدُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الزخرف: ٢٣] وهنا فرق بين الفاصلتين - كما ترى - الفاصلة الأولى مهتدون، لأن العرب كانوا يتحدثون عن قضية الملة والدين، وهذه يناسبها الهداية، أما الأمم السابقة فالحديث عنها حديث عام، فهم يقتدون بآبائهم في مجالات الحياة جميعاً.

ثانياً: وترد عليهم السورة ﴿أَوَلَوْ جِئْتَكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ۖ وَلَكِنَّ الْقَوْمَ يَمْعَنُونَ بِالْإِعْرَاضِ وَالتَّكْذِيبِ ﴿١٤﴾ إِنَّا يَمَّا أَرْسَلْنَا بِهِ كُفْرُونَ ﴿١٥﴾ فَأَنقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الزخرف: ٢٤-٢٥].

وثالثاً: ترد عليهم بطرف من خبر إبراهيم عليه السلام، وهم يزعمون أنهم ينتسبون إليه، والرد عليهم من جهتين؛ الأولى: أنكم إذا كنتم تقلدون آباءكم، فلماذا لا تقلدون خير أولئك الآباء إبراهيم عليه السلام؟ فهو أخرى بالاتباع من غيره. والجهة الثانية: أن إبراهيم عليه السلام، كان أباًؤه وقومه معرضين عن الحق فتبرأ منهم، فلم لا تقتدون به من هذه الجهة كذلك، ولا تطيل السورة في خبر إبراهيم عليه السلام، بل تذكره من هذه الحثيثة فحسب، وهذا منسجم مع موضوع السورة انسجاماً تاماً - كما ترى - ﴿وَلَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الزخرف: ٢٦]. وبعد إلزامهم الحجة، وبعد أن سُقِطَ في أيديهم، وبعد أن سدت عليهم المنافذ جميعها، في



شبهة تقليد الآباء، ينتقلون إلى شبهة أخرى - وكذلك أهل الباطل يتصيدون ويتخبطون، فما هي هذه الشبهة يا ترى؟ وهذه هي الثالثة - كما رأيت - كانت الأولى قولهم: ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ والثانية: ﴿وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أَثَرِ﴾. أما الشبهة الثالثة فهي قولهم ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيبَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]. ويظهر أن القريتين مكة والطائف، وقد اختلف المفسرون كثيراً في الرجلين، وإن كان الكثير منهم يرجح أنها الوليد وعتبة بن مسعود، وهذا لا يعنينا هنا بالطبع. ويرد القرآن عليهم ﴿أَهْمَرِيقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣٢] بهذا الاستفهام الإنكاري، الذي فيه تعجيب من شأنهم، وبهذا النظم ﴿أَهْمَرِيقْسِمُونَ﴾ حيث قدم المسند إليه، ولم يقل: «أيقسمون»، كأنه يقول: ليس هذا من شأنهم، ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات وسخر بعضهم لخدمة بعض، وذلك كله متاع زائل، ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [٣٣] ورحمة ربك خير مما يجمعون. والظاهر أن الرحمة الأولى في الآية هي النبوة.

وتستمر الآيات بالرد المحكم على هذه الشبهة فمقياس العظمة عندهم إنما هو الثراء والجاه، وهذا هيّن عند الله تبارك وتعالى، بل نجده في أيامنا لا يصلح مقياساً عند كثير من الأمم المتحضرة المتمدينة، أقول: تستمر الآيات برد هذه الشبهة، وتفصل السورة تفصيلاً حكيماً؛ فمتاع الدنيا قليل، وهي لا تزن عند الله جناح بعوضة. ولكن ما دامت كذلك فلم لم يجعل الله فيها للكافرين الحظ الأدنى، والنصيب الأوفر فتكون لبيوتهم سُقُفًا من فضة، ومعارج عليها يظهرون، إلى غير ذلك؟

يبين الله ذلك كله وهي أنه لم يشأ ذلك، حتى لا يميل الناس إلى الكفر؛ ذلك أن الإنسان ضعيف، فحينما يرى الكافرين قد جمعوا زخارف الحياة ربما تضعف نفسه أمامه، ولهذا اقتضت حكمة الله أن تكون قضية الغنى والفقر، ليس لها دخل بين الكفر والإيمان، فقد يفتقر الكافر، ويغتنى المؤمن، أما الآخرة فهي للمتقين

فحسب. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُوتِيَهُمْ سُقْفًا مِّن فِصْحَةٍ﴾ [الزخرف: ٣٣]...

وتستمر في الرد على أولئك الذين أعرضوا عن ذكر الله، وقد أضلتهم شياطينهم ﴿وَمَن يَعِشْ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦] إلى آخر ما في هذا السياق من قوله سبحانه: ﴿وَأَنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ [الزخرف: ٣٧] إلى قوله: ﴿أَتَكْفُرُ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٩] فتحدثنا عما يكون بين الكافرين وشياطينهم، وبعد هذا تتوجه السورة للنبي ﷺ تثبته وتسليه، فليس عليه إلا البلاغ، ولن يستطيع غير ذلك، فهو لا يُسمع الصَّم، ولا يهدي العمي، ومن كان في ضلال مبين، ولا بد أن يُلاقوا ما أُعدَّ لهم، من أهوال العذاب، وقد يكن ذلك العقاب بعد انتقال النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وقد يكون في حياته ﷺ، ﴿فَإِنَّمَا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ﴾ (١١) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْتَهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقَدِّرُونَ﴾ (١٢) [الزخرف: ٤١-٤٢]. فما عليك أيها النبي إلا أن تستسمك بالذي أوحى إليك، فأنت على صراط مستقيم، وأن هذا القرآن شرفٌ لك ولقومك، وكان حرباً بأولئك أن يدركوا هذه الحقيقة الكبرى، ﴿وَسَوْفَ تَشْكُلُونَ﴾ (١٣). هذه الحقيقة الكبرى ليست جديدة عليك وعلى قومك، وإنما هي مستقرة في أعماق التاريخ، إنها عقيدة التوحيد، الذي ينازع فيه قومك ﴿وَمَثَلُ مَن أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٥].

وتستمر الآيات بالرد على هذه الشبهة، ولكنها الآن تذكر طرفاً من قصة نبي آخر، هو موسى عليه السلام كما ذكرت قصة إبراهيم عليه السلام متسقة مع رد الشبهة الثانية، وهي تقليد الآباء، فلقد ذكرت قصة موسى كذلك، متسقة مع هذه الشبهة الثالثة، وهي تقديس المال، والعناية بالترف، وما دُكر في قصة (موسى) هنا، خاص بسورة الزخرف متلائم مع موضوعها ومع موضوع الشبهة التي رد بها بخاصة، وهي

الشبهة الثالثة كما عرفت. كان خاصاً بهذه السورة، فهذا فرعون من قبلهم، ردّ نبوة موسى، لأنه ليس له شيء من زينة الدنيا وبهجتها، وها هو ينادي في قومه، بأن له ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحته، فهو خير من موسى، وإذا كان موسى رسولاً فهلا ألقيت عليه أسورة من ذهب؟ وجاء معه الملائكة مقترنين، وهكذا استخف فرعون قومه فأطاعوه، فأغرقوا. وقصة موسى هنا جاءت موجزة، لم تحدثنا عن السحرة وإيمانهم، وغير ذلك مما اشتملت عليه قصة موسى.

ثم تعرض السورة الكريمة لطرف من قصة عيسى عليه السلام، ﴿وَلَمَّا صُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ [الزخرف: ٥٧] بكسر الصاد، ومعناه يصيحون ويضجون، وأما يصدُّون بضمها فمعناه يعرضون أو يمتنعون. ﴿وَقَالُوا أَلَهْتُمُنَا خَيْرًا مِنْهُ هُوَ﴾ [الزخرف: ٥٨] وبين الله تعالى أنهم قوم خصمون جدلون، وأن عيسى إنما هو عبد أنعم الله عليه، وجعله مثلاً لبني إسرائيل.

وقصة عيسى عليه السلام الموجزة هنا، متلازمة مع موضوع السورة كذلك، بل مع رد الشبهة، وذلك أن عيسى لم يعرف بالثراء في بني إسرائيل، ولم يكن له نصيب من المال الوفير، والغنى الفاحش، فهو من هذا الجانب كموسى عليه السلام الذي أنكر فرعون نبوته؛ لأنه ليس له رياس وأنهار وأسورة من ذهب، وهذا السبب الذي أنكروا نبوتك أيها النبي من أجله، ولذا قال القرآن في شأن عيسى في هذه السورة: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: ٥٩].

وتنتقل السورة بعد ذلك، إلى مشهد من مشاهد يوم القيامة، وبأن هؤلاء مع ما بينهم من خلة ومودة، فإنها ستقلب إلى عداوة ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]. وتذكر طرفاً مما أعد لأهل الجنة، يتناسب كذلك ويتسق مع موضوع السورة الكريمة، فهم وأزواجهم يُجبرون، أي: يسرون سروراً عظيماً، وينعمون ويكرمون، والخبرة تدل على التجميل، فتعرف في وجوههم

نصرة النعيم، ويطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب، وفيها ما تشتهيهِ الأنفس وتلذه الأعين، إلى غير ذلك مما أعدّه الله لهم.

ثم تعرض السورة لما أعد لأهل النار، وبعد هذا كله ترد السورة عليهم بأن الله واحد، لا ينبغي أن يكون له ولد، ذكراً كان أم أنثى ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَالَمِينَ﴾ [الزخرف: ٨١]. وبعد هذا الإلزام تذكر السورة بعض الآيات التي فيها تقديس الله، والثناء عليه ﴿سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الزخرف: ٨٢]. وتبارك الله، فهو الذي له ملك السموات والأرض وما بينهما، وليدع النبي أولئك القوم في خوضهم ولعبهم، حتى يأتيهم اليوم الذي يوعدون.

وتختتم السورة بهذا السؤال الموجه لهم، والمتسق مع ما جاء في أولها، فلقد سئلوا في أول السورة عَمَّنْ خلق السموات والأرض، ولكنهم الآن يُسألون عمن خلقهم ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ فَإِنِّي يُوَفِّكُونَ﴾ [الزخرف: ٨٧]. فما بالهم يُصرفون عن الحق إذن؟ إذا كان هذا شأنهم في إعراضهم وإقناعهم، فاصفح عنهم أيها النبي وأعرض عن غيِّهم وجهلهم ﴿وَقُلْ سَلِّمُوا فَوْقَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٩]. وهو وعد للنبي ﷺ وللمؤمنين ووعد لهم.

هذه السورة من حيث الموضوعات، متسقة متناسقة، ويمكن أن نتبين بعد هذا التحليل الموجز، أن موضوع السورة منسجم مع اسمها؛ ذلك لأنها ركزت على قضية الزخرف ومتاع الدنيا، وما يتشبه به أولئك القوم، من إثارة لهذا المتاع الدنيوي، وجعله شرطاً للنبوة، كما نجد عرضاً لشبهاتهم وردها رداً يرتكز على الكون والتاريخ معاً، والعقل والنقل كذلك، وأن ما ذكر من قصص كان خاصاً برّد هذه الشبهات، ومنسجماً مع موضوع السورة، وأن فواصل السورة جاءت منسجمة مع الآيات انسجماً كاملاً، ولقد تعددت في هذه الفواصل كلمة (مبين)، فكان لها في كل موضع معناها الذي يختلف عن الموضع الآخر، فهي في قوله: ﴿وَالْكِتَابِ

الْمُيِّنِ ﴿٢﴾ [الزخرف: ٢] غيرها في قوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ [الزخرف: ١٥] وهي غيرها في قوله: ﴿وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف: ١٨] وهكذا قوله: ﴿حَقَّقْ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ [الزخرف: ٢٩]، وقوله: ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصَّمَّةَ أَوْ تَهْدِي الْأَعْمَى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الزخرف: ٤٠]، وفي هذا أبلغ رد على دائرة المعارف البريطانية، التي حدثتك عنها من قبل، من أن الفاصلة جاءت لتتميم الآية فقط، دون أن يكون لها صلة بها، فلو كان الأمر كذلك -ومعاذ الله أن يكون- لغيرت كلمة مبين في هذه الفواصل جميعاً، بغيرها من الكلمات، وهي كثيرة.

أما أسلوب السورة، فإنك لتلمح فيه القوة والجزالة والفخامة، وبخاصة الآيات الأولى، كما تلمح فيها العذوبة والسلاسة والسهولة وبخاصة القسم الأخير منها. وإنك لتجد القصد باللفظ كذلك، والوفاء بالمعنى، كما تجد الإقناع والإمتاع، يظهر لك ذلك وأنت تقرأ رد الشبهات في الآيات الكريمة، وكيف أنه كان رداً جامعاً محكماً، لم يترك شاردة ولا واردة -كما يقولون-. وكذلك لو تتبعت خصائص الأسلوب القرآني لوجدتها بارزة ظاهرة في هذه السورة الكريمة، ولقد حدثتك عن كلمة الجعل في مثل قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣] وقوله: ﴿وَجَعَلْ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ [الزخرف: ١٠] وكيف أن هذه الكلمة جاءت في السورة، متسقة في جملها كلها ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ [الزخرف: ١٠]، ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ [الزخرف: ١٥]، ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنِ شَاءَ﴾ [الزخرف: ١٩]، ﴿لَعَلَّنا لِمَنْ يَكْفُرْ بِالرَّحْمَنِ لِيُوقِعَهُمْ سُقُوطًا مِنْ فَضْلِهِ﴾ [الزخرف: ٣٣]، ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ﴾ [الزخرف: ٦]، ﴿أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ١٥]، ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ [الزخرف: ٦٠] فانظر إلى كل واحدة من هذه الكلمات الكريمة، كيف اختيرت، كما اختيرت كلمة (مبين) التي حدثتك عنها من قبل.

ولا تنسَ كلمة (الصفح)، التي ذكرت في أول السورة وآخرها، ولكن كانت في كل موضع متلائمة مع السياق، فهي في الآية الأولى تتوعدهم وتهدهم، بأننا لن نهملكم، فنترك تذكيركم معرضين عنكم بسبب إسرافكم، ولكنها في الآية الأخيرة تطلب من النبي أن يعرض عن جهلهم، وأن يستمر بدعوته غير مبالٍ بهم.

فانظر إلى الكلمات، كيف تأتي كل في موضعها، فتحسب لأول وهلة تناقضاً في استعمال الكلمة، إذ كيف نفى الصفح أولاً، ثم أمر به ثانياً، ولكنك وقد تأملت وتدبرت، تجد الكلمة في موضعها درة نفيسة، وحصناً منيعاً، لا يمكن أن يؤتى من أي ناحية من نواحيه.

وأخيراً فإن الوحدة الموضوعية تتجلى بيّنة في هذه السورة الكريمة، وهذا بالطبع غير ما فيها من دقة النظم في كل آية من آياتها، والتي لم نستطع أن نوفيها حقها، في هذه الكلمة الموجزة.

## ٢- سورة المجادلة:

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بَصِيرٌ ۝١﴾ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا الَّتِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ ۝٢﴾ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكَ نَوْعٌ مِمَّا كَفَرُوا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣﴾ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَاِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُنُوا كَمَا كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَفَدَّ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ يَنْتَسِبُ لِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ۝٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا

أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ إِنَّمَا كَانُوا ثُمَّ يَنْتَهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ التَّجَوُّيْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَبَّجُونَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَتَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبَهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلُونَهَا فَيَنْسِفُ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنْجَبْتُمْ فَلَا تَنْجَبُوا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنْجَبُوا بِالْإِثْمِ وَالنَّفَقَىٰ وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا التَّجَوُّيٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزَنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانْشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنْجَبْتُمْ الرَّسُولَ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةٌ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَتْ فَاذَلِكُمْ تَفْعَلُونَ ﴿١٣﴾ وَأَبَىٰ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٥﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَيْمَنَهُمْ جَنَّةٌ فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧﴾ لَن تَغْنَىٰ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٨﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٩﴾ اسْتَخَوَّذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٢٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَوَرَّضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢١﴾ ﴿سورة المجادلة﴾.

سورة المجادلة مدنية، وقد أجمعوا على أن سبب نزول الآيات الأولى منها، قصة خولة بنت حكيم رضي الله عنها وقد ظاهر منها زوجها أوس بن الصامت، أخو عبادة

ابن الصامت رضي الله عنه ثم ندم على ما قال فقال لها: ما أظنك إلا قد حرمت عليّ، وذهبت إلى رسول الله ﷺ ترجو أن يجعل الله لها مخرجاً والرسول يقول لها: وهي تجادل النبي بأنها قد أخذها زوجها شابة صغيرة، وقد كبرت وليس لها أحد، وبأن لها صبية إن ضمتهم إليها جاعوا، وإن تركتهم إليه ضاعوا، والرسول الكريم يقول: ما أراك إلا قد حرمت عليه، وتنزل الآيات بعد ذلك، وفي هذا أعظم دليل على أن هذا القرآن من عند الله تبارك وتعالى، لا من عند الرسول، وإلا لثبت على ما قال، وهذا خارج عن موضوعنا الآن.

بدأت السورة الكريمة بقول الله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]. بدأت السورة بهذا الحرف الدال على التأكيد (قد)، والتأكيد هنا له ما يسوغه ويقتضيه، لأن هذه المرأة كانت في لهفة وشوق، وضيق، والسماع هنا معناه الإجابة، وليس إدراك الصوت، لأن إدراك الصوت لا يحتاج إلى تأكيد، وعبر عن المجادلة بالفعل المضارع، لاستحضار الصورة حتى تكون مؤثرة في النفس، وكذلك عن الشكوى وكذلك قوله: ﴿يَسْمَعُ﴾، وعبر بـ (إلى) دون اللام، ﴿وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ وما ذلك إلا لأنها كانت بعد أن تسمع من النبي ﷺ ما تسمع، تجعل تنتهي شكايها الله وحده، وختمت الآية بقوله: ﴿سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [١]، وما ذلك إلا لأن الله تبارك وتعالى، كان يسمع التحاور والشكاية، ويبصر هذه المرأة، فهو سميع بصير في كل شيء، ولكل شيء.

ثم جاءت الآية الثانية تبين أمر الظهار في نفسه، وبأنه أمر مستقبح، وبأنه منكر وزور، لأن الزوج ليست أمّاً، وختمت الآية بقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [٢] [المجادلة: ٢]، وهما من صيغ المبالغة - كما يقول اللغويون - وما ذلك إلا لبيان عظم أمر الظهار، وأنه يحتاج إلى كثير من العفو والمغفرة، وأن هذا إنما هو من الله العظيم في عفوه ومغفرته، فهي كثرة من حيث الكم ومن حيث الكيف.



وجاءت الآية الثالثة والرابعة ببيان كفارة الظهار. الآية الأولى -إذن- كانت مقدمة لا بد منها، والآية الثانية بينت الظهار من حيث هو، والآية الثالثة والرابعة، بيتتا ما يجب على المظاهر - والظهار أن يشبه الرجل امرأته بإحدى المحرمات عليه كأمه وأخته، وختمت الآية الثالثة بقوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (٢) [المجادلة: ٣] وما ذلك إلا لبيان لهم أن الله عالم بدقائق الأمور، وأن ما شرعه من كفارات أمر لا بد منه لردعهم وزجرهم. أما الآية الرابعة فقد ختمت بقوله سبحانه: ﴿ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِٗ وَذَلِكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٤) [المجادلة: ٤] فبين منزلة الحدود.

وبعد أن أنهت السورة قصة الظهار وقضيته، انتقلت إلى موضوع آخر متصل بالموضوع الأول اتصالاً وثيقاً، فكفارة الظهار حد من حدود الله، وحدود الله لا يجوز أن يُعتدى عليها، وهي شرط للإيمان ﴿ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِٗ﴾. والقضية التي انتقلت إليها السورة الكريمة، هي قضية الذين يحادون الله ورسوله، أي: يهملون الحدود التي حدّها، ويريدون أن يستبدلوها نظماً أخرى، وأن هؤلاء لا بد أن يصيبهم الحزى، وهي سنة الله في كل من أهمل شرعه. ولم تُهمل هذه الحدود ولم تختار غيرها من النظم؟ مع أن الله قد أنزل آيات بينات فيها كل ما يحتاجه الناس. وكان من الممكن أن يبحث الناس عن نظم إذا كان هناك نقص فيما يحتاجون إليه. وختمت الآية بقول الله: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (٥) [المجادلة: ٥]. وفي هاتين الآيتين بيان بأن ترك الحدود كفر، وأن الاستهانة بها كذلك، أما لم تختم كل واحدة بما ختمت، فقد بينته لك في فصل الفاصلة.

ثم توعدت السورة أولئك بعد العذاب المهين، بأن الله سيبعثهم جميعاً فينبئهم بما عملوا، وقد أحصى الله عملهم كله، ونسوه هم، وختمت الآية بقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (٦) [المجادلة: ٦]، ولكي تستقر هذه المعاني في القلوب والأذهان،

انتقلت السورة إلى قضية أخرى، لتكون برهاناً ودليلاً على ما تقدم، وهي قضية شمول علم الله تبارك وتعالى، لما في السموات وما في الأرض فهو عليم بما يصلح عباده وما يحتاجون إليه، ولكل ما يتناجى به الناس قلوباً أم كثروا، وختمت بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٧﴾ تأكيداً، حتى لا تبقى في أي نفس شائبة ريب، ولا شبهة شك.

ولما ذكرت النجوى انتقلت السورة الكريمة لقضية تتعلق بالمجتمع المسلم في عهد النبي ﷺ، وقد تكون في عهود كثيرة كذلك، فذكرت لنا طرفاً عن أولئك الذين يناصبون المسلمين العداء، والذين يتناجون بالائتم والعدوان، ومعصية الرسول، وبدأت بهذا الاستفهام التعجيبى ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ وفي الآية أسرار من عجب النظم، ومن هذه الأسرار على سبيل المثال - لا على سبيل الحصر - كلمة (ثم) التي تدل على أن إصرار أولئك على عدائهم، كان عن سابق إصرار، ثم قوله: ﴿لِمَا هُمْ عَنْهُ﴾ ولم يقل: «إلى النجوى». لأن من شأنهم المخالفة في كل شيء، وبدأت بذكر الإثم وهو ما فيه حرمة، ثم العدوان وهو ما فيه اعتداء على الآخرين ثم معصية الرسول وهي أعظم هذه الجرائم ثم أشارت إلى قضية من خداع يهود، وهو أنهم كانوا يُحَيِّونَ الرسول إذا جاؤوه بما لم يحبه به الله، وبعد أن بينت الآية مصير أولئك القوم، توجهت إلى المؤمنين، فنهتهم أن يكونوا مثل أولئك، وبيّنت لهم أن التناجي ينبغي أن يكون بما هو خير، وهو البر والتقوى، والبر هنا عمل الطاعة، والتقوى تجنب المعصية، وختمت بقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٩﴾ [المجادلة: ٩]. إليه وحده ليجزئكم خيراً بتناجيككم. ثم بينت أن تناجي المنافقين واليهود، إنما هو من تسويل الشيطان، ليحزنوا المؤمنين ويؤذوهم، وأن ذلك لا يضرهم شيئاً إلا بإذن الله، وختمت بقوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ۝١٠﴾ [المجادلة: ١٠] لا غيره، وفيها تثبيت لأولئك المؤمنين؛ ليددوا جميع الهواجس التي يريدونها لهم أعداؤهم.

وبعد ذكر أدب المناجاة، انتقلت السورة إلى أدب آخر، وهو أدب المجالس علمتهم كيف ينبغي أن يكون المؤمن في المجلس، وعلمتهم أن هذه المجالس والمناجاة، حري بها أن يزداد بها علماً، لأن لذوي العلم عند الله درجات. وختمت بقوله: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (المجادلة: ١١) ذلك لأن بين موضوع هذه الآية، وموضوع السابقة في كفارة الظهار، صلة ووشيجة، ألا ترى أن كليهما تشريع، إلا أن الأولى كانت في قضايا الحدود، وهذه في قضايا الإدارة.

ثم انتقلت السورة إلى أدب ثالث، ليس بعيداً عما قبله، بل هو متصل به اتصالاً تاماً، وهو مناجاة النبي ﷺ، وختمت بقوله سبحانه: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (المجادلة: ١٢)، وذلك لمن لم يجد ما يقدمه من صدقة عندما يناجي النبي الكريم، وكان في هذا حثاً للمسلمين على العمل، وأن لا يكونوا عالة على غيرهم، ثم أنكرت عليهم هذا الإشفاق ﴿أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقْتُمْ﴾ (المجادلة: ١٣) وقد حدثتكم عن الفرق بين الإشفاق والخوف، في الفصل الأول من هذا الباب، فلا نعيده هنا. وختمت هذه الآية بقوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المجادلة: ١٣) فقدم في هذه الآية الاسم الجليل (خبير)، وفي الآية التي قبلها قدم «الجار والمجرور» ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المجادلة: ١٣) على الاسم الجليل (خبير) ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (المجادلة: ١١) وذلك - والله أعلم - لأن ما ذكر في هذه الآية كان من العبادات التي افترضها الله عليهم، من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، فهي من القضايا الجوهرية الأساسية، فافتضى المقام هنا أن يقدم الاسم الجليل، وليس الأمر في الآية السابقة من هذا القبيل.

وبعد هذه الآداب، تحدثت الآيات عن الموضوع الذي بدأته أولاً، وهو من يحاذ الله ورسوله، ومن نهوا عن النجوى ولكنهم أبوا، وربما تساءل هنا، ولماذا لم يتصل هذا الموضوع بذلك، ولماذا وسط فيه ذكر هذه الآداب التي أمر بها المؤمنون؟

ويظهر لي، وسيظهر لك كذلك -إن شاء الله- أن هذا هو النسق الحكيم؛ ذلك لأن تجنب المسلمين لشر أولئك القوم، الذي يتألبون عليهم من المنافقين واليهود، لن يستطيعه المسلمون -أي تجنب الشر-، إلا إذا وطنت أنفسهم على هذه الآداب المتقدمة، فبعد أن بينت وفصلت، رجعت السورة لتكمل ما بدأتها، ﴿الَّذِينَ تَزَوَّجْنَا فِي سُنَّتِنَا مِنْكُمْ وَهُمْ يَدْعُونَ بِالنِّفَاقِ﴾ [المجادلة: ١٤] وقد فصلت السورة هذا الموضوع تفصيلاً شافياً، فبينت صفات المنافقين، ووسائلهم الماكرة من الحلف على الكذب، واتخاذ الأيمان جُنَّةً، وصددهم عن سبيل الله؛ ثم ذكرت ما سيلقونه من جزاء، من عذاب مهين، فيه الإذلال والمهانة، ﴿أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المجادلة: ١٧] وسيعذبهم الله جميعاً، وسيحلفون له، كما يحلفون لكم أيها المؤمنون، وفي هذه العبارة تأنيس لهم، أي: لستم أنتم وحدكم، يكذب عليكم هؤلاء، ويحلفون لكم، بل سيحلفون لله كذلك.

وبينت السورة الكريمة سبب ذلك كله، وهو أنهم استحوذ عليهم الشيطان، وانظر إلى هذه الكلمة ﴿اسْتَحْوَذَ﴾ التي تدل على أنه ساقهم وتملكهم تملكاً تاماً، حتى أنساهم ذكر الله، وما دام الشيطان قد استحوذ عليهم، فهم حزبه الخاسرون.

ولقد بينت السورة الكريمة الصلة بين أولئك المنافقين، وبين اليهود، فهؤلاء المنافقون ﴿الَّذِينَ تَزَوَّجْنَا فِي سُنَّتِنَا مِنْكُمْ وَهُمْ يَدْعُونَ بِالنِّفَاقِ﴾ [المجادلة: ١٤]، وهكذا توجه السورة المؤمنين إلى قضية لا ينبغي أن يغفل عنها المسلمون أبداً، وهي هذه الصلة وتلك الروابط، بين مرضى القلوب، الذين يزعمون أنهم مسلمون، من أجل أن ينالوا مكاسب، لا يمكن أن ينالوها لولا هذا الادعاء، ومن أجل أن يردوا عن أنفسهم كثيراً من العقوبات، هذه الصلة التي بدأتها الآية الكريمة بهذا الأسلوب، الذي فيه من التعجيب، كما فيه من التقرير، كما فيه من الإنكار والتنبية ما هو حري بأن لا يغفله المسلمون، ﴿الَّذِينَ تَزَوَّجْنَا فِي سُنَّتِنَا مِنْكُمْ وَهُمْ يَدْعُونَ بِالنِّفَاقِ﴾ [المجادلة: ١٤] أي أن هؤلاء المتولين وهم اليهود، ليسوا منكم أيها المؤمنون، كما أنهم ليسوا من جماعة المنافقين،

ونختم هذا الكتاب بتحليل لسورة السجدة، والذي جاء في آخر كتاب  
البلاغة فنونها وأفنانها (علم المعاني).

ΣΛΥ

لِقَاءِ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ آيَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لِمَا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعُمُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرِ إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴿سورة السجدة﴾.

ابتدأت السورة الكريمة بهذه الحروف المقطعة ﴿الْحَمْدُ﴾، بل هي آخر سورة في المصحف تبتدئ بهذه الأحرف الثلاثة، ولم تكن بدعاً من السور التي ابتدأت بهذه الأحرف، فهي غالباً ما يذكر فيها الكتاب بعد ذكر هذه الأحرف، وهكذا هذه السورة ذكرت الكتاب بخصائصه الكبرى، وحجة إعجازه، فهو الكتاب الكامل في موضوعه، وهو الذي لا ريب فيه، وهو المنزل من رب العالمين الذي أحاط بكل شيء علماً، وأتقن كل شيء صنعاً.

وهذا الموضوع -وهو موضوع الكتاب من هذه الحشيات- كان الفلك الذي تدور السورة عليه في كل ما عرضت له.

وإذا تدبرت السورة الكريمة؛ فإنك لن تجد صعوبة -إن شاء الله- في إدراك ذلك كله، وتيسيراً نقسم السورة إلى عدة مجموعات، فتحدث عن كل مجموعة على حدة.

### المجموعة الأولى:

(الآيات ١-٩)

﴿آلَ ١﴾: يرى كثير من الخذاق أن هذه الأحرف جاءت على سبيل التعداد؛ للإيقاظ والتنبيه والتحدي، ذلك أن العرب ما تعودوا مثل هذا الأسلوب في النظم، فكانت هذه الأحرف موقظة لهم، تنبههم إلى ما بعدها من الحديث عن هذا الكتاب، ثم هي بعد ذلك كله تلزمهم الحجة، فالنبي الكريم ﷺ الذي جاءهم بهذا القرآن أمي -كما يعلمون- لم يسبق له أن قرأ وعرف مثل هذه الأحرف، ثم إن القرآن الذي تحداهم الله به إنما يتكون منها، وهي حروفهم، فعجزهم حري أن يقودهم إلى الإيذان والتصديق بهذا الكتاب.

و(ال) في ﴿أَلَكِ تَب﴾ للعهد الذي حدثك عنه في باب التعريف، وهو عهد ذهني، إذ لم يسبق له ذكر هنا، فهو معلوم لهم.

وتقديم ﴿رَبِّ﴾ -وهو المسند إليه-؛ لأن الهدف نفي جنس الريب عن الكتاب، أي: ليس شيء يمكن أن يرتاب فيه، فهو نفي لأساس الريب، وليس الهدف نفي الريب عنه، وإثباته لغيره، ولو كان المراد ذلك؛ لقليل: لا فيه ريب. كما قال عن خمر الآخرة: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ [الصافات: ٤٧].

و(ال) في ﴿أَلْعَلَمِينَ﴾ للجنس، وقد تكون للاستغراق، وذكر الرب فيه توطئة لإقامة الحجة على المنكرين لهذا القرآن، فالرب هو المربي ذو الرحمة.

و(أم) في قوله سبحانه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَنَاهُ﴾ منقطعة، وقد حدثك عنها في موضوع الاستفهام، فارجع إليها إن شئت، وتكون بمعنى (بل) والهمزة، فهي هنا

للإضراب، فبعد أن أقام الحجة على أن هذا الكتاب هو المعجز الذي لا ارتياب فيه،  
أضرب عن هذا معجباً ممن لا يؤمن بذلك، وفي هذا الإضراب إنكار؛ لأن (بل)  
معناها الهمزة والإنكار، فكأنه قيل: بل أيقولون افتراه.

وقوله سبحانه: ﴿بَلْ هُوَ الْحَقُّ﴾: إضراب آخر، كأنه قيل: دع قولهم هذا، ولا  
تلتفت إليه، فليس الأمر ما قالوه، بل هو الحق من ربك.

والفرق بين الإضرابين أن الإضراب في قوله سبحانه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفْقَرَنَهُ﴾؛  
إضراب انتقالي، والإضراب في قوله سبحانه: ﴿بَلْ هُوَ الْحَقُّ﴾؛ إضراب إبطلائي.  
والإضراب الانتقالي: انتقال من أمر إلى أمر هو أقطع منه وأشد مع بقاء الحكم  
الأول، والإضراب الإبطلائي: انتقال عن الحكم الأول مع إبطاله، فليس في قوله  
سبحانه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفْقَرَنَهُ﴾؛ إبطال للحكم الذي قبله، وهو أنه منزل من رب  
العالمين، ولكن قوله سبحانه: ﴿بَلْ هُوَ الْحَقُّ﴾؛ فيه إبطال لقولهم.

وجملة ﴿هُوَ الْحَقُّ﴾ معرفة الجزئين، وفي هذا ما فيه، فهو الكتاب الذي جمع  
خصائص الحق، وإذا أردت أن تتصور الحق تصوراً تاماً؛ فهو هذا الكتاب، وقد  
حدثتك عن هذا في باب التعريف.

وفي قوله تعالى: ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ تشریف للنبي  
ﷺ، وتأنيس، وإلزام بالحجة للمنكرين.

والتنكير في قوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ يدل على التنويع والتكثير؛ لأن المقصود  
به العرب على أصح الأقوال.

(من) في قوله تعالى: ﴿مِنْ نَّذِيرٍ﴾ و﴿مِنْ قَبْلِكَ﴾؛ للتأكيد.

(ولعل) في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾؛ للترجي، أي: رجاء هدايتهم،  
وليس الترجي في جانب الله.



وقوله سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾؛ جاء بأسلوب الفصل؛ لأنه كلام مستأنف هدفه إقامة الحجة. والتعبير بالاسم الموصول للتنبيه على أهمية الصلة، وهي: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ﴾، وتقديم ﴿السَّمَوَاتِ﴾؛ لعظمها، وتعريفها؛ للجنس، وقد يكون للعهد.

وقوله سبحانه: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾؛ إن كان خبراً لاسم الجلالة؛ فهو متمم الجملة، وإن كان الخبر: ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾؛ فيكون جملة مستأنفة، وإنما جاءت مفصولة عما قبلها؛ لأنها جواب عن سؤال، فكأنهم قالوا: نحن لا ننكر أن الله خلق السموات والأرض، فقليل لهم: ولكن اعترفكم لا ينفعكم شيئاً، فإذا كنتم تعترفون بأنه الخالق، فكيف اتخذتم من دونه شفعاء، ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع.

وفي قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ﴾؛ التفات من الغيبة إلى المخاطب، فبعد قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿مَا آتَيْنَهُمْ﴾؛ قال سبحانه: ﴿مَا لَكُمْ﴾. وفائدة هذا الالتفات من الغيبة إلى الخطاب إقامة الحجة عليهم، ذلك لأن من شأن المخاطب أن يرد ما يوجه إليه من تبيكيت واعتراض، وليس كذلك الغائب، وهذا الالتفات كذلك في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ بعد قوله سبحانه: ﴿تُسَوِّدُهُ﴾؛ لإقامة الحجة كذلك.

و(من) للتأكيد، وتقديم ﴿وَلِيٍّ﴾؛ لأن النفس به أكثر إيناساً لمنزلة ولايته.

وقوله سبحانه: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾؛ استفهام إنكاري، أي: أتعرضون فلا تتذكرون، وفصلت عما قبلها؛ لأنها جملة إنشائية، وما قبلها خبرية.

وقوله سبحانه: ﴿يَذُبُّرَ الْأَمْرِ﴾؛ مستأنفة، فكأنه قيل: كيف يكون لكم وليّ وشفيع وكل شيء في قبضته؛ يدبر الأمر؟ والتعبير بالفعل المضارع يفيد التجدد، وكذلك في قوله سبحانه: ﴿يَعْرِجُ﴾.

قوله سبحانه: ﴿ذَلِكَ﴾؛ اسم إشارة، ولامه للبعد، وهو بعد عظمة وعلو، وقد عرفت أن اسم الإشارة لبناء ما بعده على ما قبله، كأنه قيل: ذلك المتصف بهذه الأوصاف من إنزال الكتاب، وخلق السموات، وتدبير الأمر، هو الحري بتلك الأوصاف التي ذكرت بعد اسم الإشارة؛ من كونه عالم الغيب والشهادة، عزيزاً رحيماً... إلى غير ذلك<sup>(١)</sup>.

و(أل) في ﴿الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾؛ للاستغراق، وليس ذكر الشهادة احتراضاً<sup>(٢)</sup>؛ كما ذكر بعض المفسرين، والجمع بين العزة والرحمة متلائم مع موضوع السورة، يجمع بين التيسير والإطعام لأولئك المنكرين، تيسيرهم من بلوغ غاياتهم في إيذاء النبي ﷺ، وطمس الكتاب، وإطعامهم برحمة الله؛ ليؤمنوا.

وذكر الموصول ﴿الَّذِي﴾ إرشاد لأهمية الصلة بعده، و﴿خَلَقَهُ﴾ فعل ماضٍ على إحدى القراءتين، ويأسكان اللام (خَلَقَهُ)؛ بدل على القراءة الأخرى، غايته التوضيح، وزيادة التقرير.

ولم يأت التعبير عن خلق الإنسان بالقسم؛ كما جاء في سورة المؤمنون: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ [المؤمنون: ١٢]؛ لاختلاف السياق، فلقد كان القسم هناك مقصوداً لينبئ عليه ما بعده.

وتقديم (لكم) في قوله سبحانه: ﴿وَجَعَلْ لَكُمْ السَّمْعَ﴾ على ما بعده للاهتمام والعناية، وترتيب هذه الثلاثة: السمع، والأبصار، والأفئدة؛ مقصود<sup>(٣)</sup>.

و(ما) في قوله سبحانه: ﴿مَا تَشْكُرُونَ﴾ للنفي، وقد يكون لتأكيد عدم الشكر.

(١) راجع اسم الإشارة.

(٢) وقد عرفت الاحتراض في مبحث الإطناب.

(٣) وفي ذلك إعجاز علمي ليس محله هنا.

## المجموعة الثانية:

(الآيات ١٠-١٧)

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا﴾؛ وصلت هذه الآية بما قبلها، فكأنه قيل: لقد قال هؤلاء: إن الكتاب مفترى عليهم، وإن لنا أولياء وشفعاء، وقالوا كذلك: ﴿أَيُّذَا ضَلَلْنَا﴾؛ فليست الواو للحال؛ كما ذهب إليه بعض الفضلاء.

وفي الآية التفات من الخطاب إلى الغيبة، فكأنهم ليسوا حريين أن يخاطبوا، ومن حقل أن تسأل هنا: كيف يكون الالتفات تارة من الغيبة إلى الخطاب؛ كما حدثنا عنه في المجموعة الأولى، ومن الخطاب إلى الغيبة؛ كما في هذه الآية، والمتحدث عنهم فريق واحد؟

وأجيبك بأن للالتفات هدفين؛ هدفاً عاماً، وهو لفت نظر السامع وإيقاظه؛ لأنك حينما تنتقل به من أسلوب إلى أسلوب، تحرك نفسه ودواعيها لما سيُلقي إليه، وهذا الهدف العام نحده في كل التفات. وهدفاً خاصاً، وهو يختلف باختلاف المواضع التي يجيء فيها، فقد يكون الانتقال من الغيبة إلى الخطاب أشد تبكيتاً وألزم للحجة، وأغلب للخصم، وقد يكون الالتفات من الخطاب إلى الغيبة أكثر تأثيراً؛ لأن فيه إعراضاً؛ كما تشيح بوجهك عن بعض الناس إذا أردت أن تعبر عن استيائك منه.

والاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَيُّذَا ضَلَلْنَا﴾؛ ﴿أَيُّذَا﴾؛ إنكار وتعجب.

وقوله سبحانه: ﴿بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَفِرُونَ﴾؛ إضراب عن إنكارهم البعث إلى ما هو أفظع منه وأشد، وأقسى وأخزى، وهو كفرهم بلقاء الله، والتعبير بالجملة الاسمية لبيان ثبوتهم وعراقتهم في هذا الكفر، وكذلك تقديم الجار والمجرور: ﴿بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ﴾، وليس لرعاية الفاصلة كما قيل.

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ يَتُوبُ إِلَهُكُمْ﴾؛ جملة مفصولة؛ لأنها جواب، والتعبير بالفعل المضارع للتجدد، وفي الآية للالتفات كذلك من الغيبة إلى الخطاب، ولا

شك أن أسلوب الخطاب هنا من شأنه أن يكون تأثيراً؛ لأنه إلزام لهم بالحجة، وفيه من التخويف والتهديد ما لا يخفى، فهو أشد عليهم من أن يقال: يتوفاهم. وُكِّلَ بهم. ثم إلى ربهم.

وتقديم ﴿إِلَى رَبِّكُمْ﴾؛ فيه قصر وتخصيص، أي: ترجعون إليه لا إلى غيره.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ تَرَى﴾ حرف امتناع حذف جوابه؛ لما في حذف الجواب من البلاغة والإيجاز، ولتذهب النفس فيه كل مذهب، وقد تكون (لو) للتمني - كما عرفت من قبل - ولا تحتاج إلى جواب حينئذ.

والخطاب في قوله سبحانه: ﴿تَرَى﴾؛ يمكن أن يكون للرسول ﷺ، أو لكل أحد يمكن أن يخاطب<sup>(١)</sup>، والتعبير بالمضارع لاستحضار الصورة، والتعبير بالجملة الاسمية: ﴿إِذْ الْمَجْرِمُونَ لَا يَنصِتُونَ﴾؛ لبيان أن هذه صفة ملازمة لهم، عليها يدومون، وفيها يثبتون.

والتعبير بقولهم: ﴿رَبَّنَا﴾؛ استعطاف منهم. وقوله سبحانه: ﴿أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾؛ إما أن ينزل هذان الفعلان منزلة اللازم، كأنهم قالوا: صرنا من أهل البصر ومن أهل السمع، وكأنهم يعترفون بأنهم لم يكونوا من قبل يسمعون أو يعقلون، وإما أن يكون الفعلان متعديين والمفعول محذوفاً، أي: أبصرنا ما حل بنا وسمعنا ما قيل لنا من هول وتعنيف.

وقالوا: ﴿لَوْ كُنَّا سَمِعُ أَوْ نَعْقِلُ﴾ [الملك: ١٠]، وقد يكون مفعول كل منهما حذف للتعميم<sup>(٢)</sup>.

(١) ارجع إلى الضمير في فصل التعريف والتنكير.

(٢) راجع حذف المفعول.

وتقديم البصر على السمع في قوله سبحانه: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾؛ منسجم مع أحداث يوم القيامة، أما في الدنيا؛ فيقدم السمع.

وقد أكدوا قولهم هذا بـ ﴿إِنَّمَا تُوقِنُونَ﴾ رجاء أن يستجاب لهم.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾؛ حذف مفعول المشيئة، أي: ولو شئنا إتياء كل نفس<sup>(١)</sup>.

وقوله سبحانه: ﴿حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾، ولم يقل: حق قولي. كأنها هو قول معهود، وهو ما قيل لإبليس: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (ص: ٨٥)، وجاء الأسلوب مؤكداً؛ ليقطع أطماع هؤلاء، وليتداركوا أنفسهم قبل أن يفوت الفوت، وتقديم الجنة على الإنس؛ لأنهم أقدم زمناً، ولأن الغواية بسببهم غالباً.

وقوله سبحانه: ﴿فَذُوقُوا﴾؛ الفاء للتفريع، والتعبير بالذوق عن الإحساس نوع من المجاز؛ تفصيله في علم البيان.

وكذلك قوله سبحانه: ﴿يَوْمَكُمْ﴾؛ تهكم بهم؛ لأن يوم الإنسان هو الذي يسر فيه، وهو نوع من المجاز كذلك.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّا نَسِيتُكُمْ﴾؛ جاءت مفصولة عما قبلها؛ لأنها ناشئة عنها، فلا يصح أن توصل، وأكدت بـ (إننا)؛ لتنييسهم، وقطع آمالهم.

وقوله سبحانه: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾؛ ليس تكراراً، فإن لكل من الفعلين سببه الخاص، كان الأول بسبب نسيانهم وتركهم لما هو خير، وكان الثاني بسبب أعمالهم، وقد حذف المفعول من الأول؛ لدلالة الثاني عليه.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ﴾؛ بيان لمن يتصف بالإيمان، ورد عليهم، وجاءت الآية بأسلوب القصر، وهو قصر الإيمان على صنف معين، فهو قصر

(١) راجع حذف المفعول.

موصوف على صفة، وهو قصر قلب؛ لبيان أن هؤلاء هم المؤمنون لا غيرهم، وليرد على الذين يزعمون أن الإيمان قد يكون لغير هؤلاء الموصوفين.

وفي الآية لفظة بيانية عجيبة، ذلك أن كثيراً من الآيات التي جاءت بهذا الأسلوب، كان التعبير فيها بالجملة الاسمية، مثل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]، و﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [النور: ٦٢]، [الحجرات: ١٥]، وهي كلها سور مدنية، ولكن الآية في هذه السورة: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ﴾؛ فعبر بالفعل المضارع، وهي سورة مكية، ولعلك بدأت تسلك الطريق الذي تهتدي به لمعرفة الفرق بين الأسلوبين.

ففي الآيات الأولى كان هناك مجتمع مؤمن، بل كان هو الأصل، وكان غير المؤمنين فيه متسللين أو مدعين، أما في هذه السورة؛ فليس الأمر كذلك، فليس هنا مجتمع مؤمن متميز؟ بل الأصل في المجتمع غير ذلك، فكيف يقال: إنما المؤمنون؟ ففي التعبير بالفعل المضارع غير ما قلته قبل بشارة بطريق غير مباشر إلى تحقق ما في حيز أداة القصر، وقد كان.

ويفهم من (إنما) أسلوب آخر، وهو أسلوب التعريض، فهو تعريض بأولئك الذين يتصفون بهذه الصفات، ويدعون الإيمان.

وبناء الفعل لما لم يسم فاعله في قوله سبحانه: ﴿ذُكِّرُوا بِهَا﴾ [السجدة: ١٥] للدلالة على سرعة إجابتهم من جهة، ولبيان أنهم يستجيبون أياً كان المذكر من جهة أخرى، فهم ليسوا بحاجة إلى أسلوب مؤثر، فالحكمة ضالة المؤمن، فحذف الفاعل إذن لهدف بياني؛ لأن المقصود تأثرهم بالآيات.

والتعبير بكلمة ﴿خَرُّوا﴾ فيه ملحظ نفسي ينبئ عن التفاعل بينهم وبين الآيات، وفي قوله سبحانه: ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكَبِرُونَ﴾ ﴿إِبداع بلاغي أبينه لك في ما يلي:

أولاً: ذكر المسند إليه (هم)، وكان من الممكن أن يقال: ولا يستكبرون.

ثانياً: تقديمه.

ثالثاً: مجيء الخبر فعلاً مضارعاً؛ ليدل على التجدد والحدوث.

رابعاً: مجيء الخبر جملة فعلية مسبوقه بنفي. وقد عرفت عند تقديم المسند إليه بأنه إن كان معرفة، وكان المسند فعلاً منفيّاً، فإنه يدل على تقوية الحكم وتأكيده، وقد يفيد التخصيص.

ومعنى التأكيد هنا تقوية الحكم، وأن هذه صفتهم دائماً، ومعنى التخصيص أنهم هم الذين لا يستكبرون، أما غيرهم فهو مستكبر، ولا مانع من إفادة التخصيص هنا لوجود القرينة.

وقوله سبحانه: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ﴾؛ فيه ملحظان بلاغيان:

أولاً: التعبير بالفعل المضارع؛ لما عرفته من قبل.

ثانياً: مجيء الجملة بأسلوب الفصل، فإن تجافي جنوبهم عن المضاجع ليس أجنبياً عن قوله سبحانه: ﴿خَرُّوا سُجَّدًا﴾، بل هو تأكيد له.

كذلك قوله سبحانه: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾؛ عبر فيه بالفعل المضارع، وجاء بأسلوب الفصل، ولو قيل: ويدعون ربهم. لفسد المعنى، إذ يصير الدعاء مغايراً للتجافي، فقد تكون الجملة بدلاً من سابقتها، وقد تكون إجابة عن سؤال.

أما قوله سبحانه: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾؛ فقد جاء بأسلوب الوصل؛ لأن قضية الإنفاق غير قضية التجافي والدعاء، فهي صفة أخرى مستقلة. وتقديم (مما) بيان لفضل الله عليهم، وإيراد الفعل الماضي (رزقنا) دون الفعل المضارع؛ دلالة على سخائهم وتوكلهم، فهم ينفقون مما أعطاهم الله، دون أن ينتظروا تجدد العطاء والتعبير بالفعل المضارع (ينفقون)؛ لما عرفت من قبل. فأنعم على هذا النظم الذي ينادي على نفسه بأنه من عند الله، وبأنه علامة الإعجاز.

وتنكير (نفس) في قوله سبحانه: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ﴾؛ للتعميم، أي: لا يعلم أي أحد.

والتعبير بالاسم الموصول ﴿مَا أَخْفَى لَهُمْ﴾؛ لتفخيم الأمر وإبهامه، وحذف الفاعل في ﴿أَخْفَى﴾ للعلم به، فما دام المخلوقون جميعاً يجهلون هذا الذي أخفي لهم، فمعنى ذلك أنه لا يعلمه إلا الله.

وفي قوله سبحانه: ﴿جَزَاءٌ﴾؛ إيجاز حذف، والتعبير بـ ﴿كَانُوا﴾ دلالة على استمرار عملهم الخير في الدنيا.

### المجموعة الثالثة:

(الآيات ١٨-٢٢)

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا﴾ بعدما ذكر للفريقين من أوصاف، تحدثت الآيات عما بينهما من فروق، وعما لكل منهما من جزاء.

وفي قوله سبحانه: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا﴾؛ استفهام، ولكنه خرج عن معناه، فالغرض هنا إنكار أن يكونوا سواء، والتعجيب ممن يظنهما كذلك، فهو كقوله سبحانه: ﴿أَفَتَجْعَلُ الْيُسْرَىٰ كَالْيُسْرِىٰ كَالْيُسْرِىٰ﴾ [القلم: ٣٥]، وفي هذه العبارة الكريمة إيجاز ظاهر.

وقوله سبحانه: ﴿لَا يَسْتَوُونَ﴾؛ تصريح بعدم الاستواء، ومجيئها بأسلوب الفصل ظاهر؛ لأنها إجابة عن السؤال المتقدم.

وقوله سبحانه: ﴿أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا يَمَٰ كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١١) وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا؛ جملتان مؤكدتان بـ (أما)؛ كما عرفت في موضوع التوكيد، وسبب التأكيد هنا طمأنينة المؤمنين، وبخاصة في العهد المكّي، وإفساح المجال للآخر؛ ليقلع عن فسقه وكفره.



وأنعم النظر في التعبير القرآني عن الجزاء لكل من الفريقين، حيث قيل في جزاء المؤمنين: ﴿فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ﴾، وقيل في جزاء الفاسقين: ﴿فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾، ويعلم الله أنه الإعجاز:

أما أولاً: فقوله سبحانه: ﴿فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ﴾، حيث قدم الخبر: (لهم)، ففيه قصر، وتخصيص، أي: لهم لا لغيرهم.

وأما ثانياً: فقال: ﴿فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾، ولم يقل: فلهم النار. لنفي هذا التخصيص، ولو قيل: فلهم النار. لأفادت أنها لهم لا لغيرهم، والأمر ليس كذلك؛ لأن النار ستكون لعصاة المؤمنين كذلك، فالفاسقون في الآية هم الكافرون، بدليل المقابلة.

وفي قوله سبحانه: ﴿كُلَّمَا﴾ استمرار وتعميم.

وحذف الفاعل في قوله سبحانه: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾؛ لأنه لا فائدة من ذكره، وهو منسجم مع أحداث يوم القيامة التي يحذف فيها الفاعل غالباً، ويقال في ﴿كُنْتُمْ﴾ ما قيل في ما قبلها.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ﴾؛ جملة فعلية مؤكدة بالقسم أولاً، وهو ما تدل عليه اللام، وبنون التوكيد ثانياً، والداعي إلى التأكيد هنا إدخال الفرحة إلى قلوب المؤمنين، والجزع والهلوع لغيرهم، وفيه إيحاء لإقلاعهم عن ذلك، يدل عليه قوله سبحانه: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

وقوله سبحانه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾؛ استفهام معناه النفي، أي: لا أحد أظلم، والتعبير بـ (ثم) في قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾؛ لتراخي الرتبة بين التذكير والإعراض، فهم حينما أعرضوا؛ إنما أعرضوا عن قصد وسبق إصرار وتعمد، فشتان بينهم وبين الفريق الأول الذين قيل فيهم: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا دُكِّرُوا بِهَا﴾.

وتقديم قوله سبحانه: ﴿مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ على الخبر: ﴿مُتَنَقِمُونَ﴾، وإظهاره دون ذكر ضميره، وكان الظاهر أن يقال: إنا منهم؛ لبيان المسارعة في ذكرهم؛ لإدخال الحسرة عليهم، ولبيان علة الانتقام، حيث جمعوا بين الظلم والإجرام، ولو قيل: إنا منهم. لذهبت تلك الفائدة، وهي التنصيص على إجرامهم.

والتعبير بنون العظمة في قوله سبحانه: ﴿إِنَّا﴾؛ لشدة ما سيلاقون.

#### المجموعة الرابعة:

(الآيات ٢٣-٢٥)

وبعد أن بين الله جزاء الفريقين، انتقلت الآيات لتسلية النبي ﷺ، وثبیت فؤاده، فهو ليس أول نبي يلاقي العنت والتكذيب بل هناك أنبياء كذلك؛ قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾.

ولقد ابتدأت هذه الجملة بالتأكيد بالقسم أولاً، الذي دلت عليه اللام، وبكلمة (قد) ثانياً، وقد تتساءل عن هذا التأكيد ما سببه، والرسول ﷺ ليس بحاجة إليه؟ وهذا صحيح، فالتأكيد هنا ليس لإيتاء موسى الكتاب، ولكنه لمضمون الجملة التي سبقت من أجله، فالجملة -كما قلت- سبقت للتسلية والثبیت، تسلية الرسول ﷺ، وثبیت المؤمنين، ولهذا جاء التوكيد، فالهدف -إذن- التأكيد على انتصار الحق، وذهاب الباطل.

وقوله سبحانه: ﴿فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ﴾؛ إن كان الخطاب فيها خاصاً للرسول ﷺ؛ فالغرض من النهي الثبیت والدوام، وإن كان الغرض من الخطاب المسلمين؛ فالنهي على حقيقته<sup>(١)</sup>.

(١) اختلف المفسرون في الضمير في قوله تعالى: ﴿مِّن لِّقَائِهِ﴾، فالزخشي يرجعه إلى الكتاب، وغيره يرجعه إلى موسى، وقد اختلف هذان الفريقان في تأويل الآية، فارجع إليه، فليس غرضنا هنا تفسير السورة الكريمة. وتدبر قوله سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾، ومثله قوله تعالى: =

وقوله سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً﴾؛ التنوين فيه للتعظيم، وقد يفيد التقليل أيضاً، و(من) للتبعية، وفيه بشارة للمؤمنين بالنصر، بأن سيكونوا أئمة، والتعبير بالفعل المضارع (يهدون)؛ لاستحضار الصورة، فعند نزول القرآن الكريم لم يكن هؤلاء.

وقوله سبحانه: ﴿لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾؛ قدم الصبر؛ لأنه هو الأساس في تحمل التبليغ، وعبر بقوله سبحانه: ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾؛ لما عرفت قريباً في مثل هذا التركيب.

وإضافة الرب إلى ضميره ﷺ فيه مزيد تسلية وإيناس وتشريف، والضمير في قوله سبحانه: ﴿هُوَ يَفْصِلُ﴾ للتأكيد، وكونه هو الذي يفصل بينهم لا غيرهم، وفي الجملة إشارة إلى ما كان بين بني إسرائيل من خلاف.

### المجموعة الخامسة

(الآيات ٢٦-٣٠)

وبعد هذا البيان، وبعد التذكير بآيات الكتاب يذكرهم القرآن بآيات من نوع آخر، وهي الآيات الكونية، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾، والاستفهام إنكاري، أي: ألم يرشدوا ويبين لهم كثرة الذين أهلكوا من قبلهم من القرون الماضية؟ إن قلنا: إن الفاعل مضمون الجملة: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾، أو: ألم يرشدهم الله ويبين لهم؟ إن قلنا: إن فاعل يهدي هو الله<sup>(١)</sup>.

= ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكَتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الإسراء: ٢]، ولكنه عند الحديث عن القرآن قال: ﴿شَهْرَ مَضَانِ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، فانظر كيف كان القرآن هدى للناس جميعاً

(١) وفي معنى الآية خلاف بين المفسرين.

وقوله سبحانه: ﴿يَمْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ﴾؛ جملة جاءت بأسلوب الفصل، كأنه قيل: من أين عرفوا هذا؟ فقيل: يمشون في مساكنهم، وتنكير الآيات للتكثير والتعظيم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾.

ويقال في الآية الثانية: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ...﴾؛ ما قيل في هذه الآية. وفي قوله سبحانه: ﴿نَسُوقُ﴾؛ نوع مجاز، موضعه علم البيان.

وما يجب الوقوف عنده في هاتين الآيتين ما ختمت به كل منهما، فهو بحق دليل من أدلة إعجاز هذا الكتاب:

لما كانت الآية الأولى متصلة بالتاريخ والأخبار، والطريق لهذا كله السمع، ختمت الآية بقوله سبحانه: ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾، ولما كان إنزال الماء وإنبات الأرض يعتمد على الرؤية؛ ختمت الآية بقوله سبحانه: ﴿أَفَلَا يَبْصُرُونَ﴾، فسبحان من نزل هذا الكتاب رحمة وتبياناً.

وقوله سبحانه: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ﴾؛ استفهام غرضه الاستبعاد والإنكار، والفتح هو النصر، أو الفصل في الأمور.

وفي قوله سبحانه: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾؛ إيجاز، حيث حذف جواب الشرط أولاً، ومتعلق قوله سبحانه: ﴿صَادِقِينَ﴾ ثانياً.

وتقديم المفعول في قوله سبحانه: ﴿لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مسارعة في التنصيص على حسرة أولئك الكافرين.

قوله سبحانه: ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾؛ حيث قدم المسند إليه مسبوقاً بالنفي، وكان الخبر جملة فعلية، وفي هذا تخصيص كما عرفت من قبل.

وفي قوله سبحانه: ﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ وَأَنْظِرْ﴾؛ تسلية للرسول ﷺ، وقد قدم الإعراض على الانتظار.

وفي قوله سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ﴾ زيادة تهديد لهم.

فانظر كيف بدأت السورة بحكاية قولهم، وختمت بهذه النتيجة، فلهذا الحمد.

هذه عجالة لهذه السورة الكريمة؛ كتبتها على عجل، فلا تلمني إن ظهر لك  
تقصير وزلل، وأسأل الله أن يصرف عنا الهوى ويحببنا الخطل، وأن يكرمنا بحسن  
القول والعمل، وأن لا يقطعنا من الرجاء في رحمته وعفوه ومن الأمل، إنه نعم المولى  
ونعم النصير، وصلى الله على النبي الشفيع سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله  
وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

## فهرست

|   |    |
|---|----|
| مقدمة .....   | ٥  |
| تمهيد: النظم .....                                    | ٩  |
| الفصل الأول: أثر القرآن الكريم في اللغة العربية ..... | ١٣ |
| الكلمة .....  | ١٧ |
| الفصل الثاني: عناية العلماء بالدراسات القرآنية .....  | ٢٥ |
| المبحث الأول: جانب اللفظ .....                        | ٣٠ |
| أولاً: الغريب .....                                   | ٣٠ |
| ثانياً: النواذر .....                                 | ٣٦ |
| المبحث الثاني: مدلول اللفظ .....                      | ٤٤ |
| أ- المشترك اللفظي .....                               | ٤٤ |
| أولاً: الأضداد .....                                  | ٤٩ |
| ثانياً: الملاحن .....                                 | ٥٨ |
| ثالثاً: الوجوه .....                                  | ٥٩ |
| رابعاً: الأفراد .....                                 | ٦١ |
| ب- المشترك المعنوي .....                              | ٦٢ |
| ١- أبو هلال العسكري .....                             | ٦٤ |
| ٢- ابن فارس .....                                     | ٦٦ |
| ٣- السيوطي .....                                      | ٦٩ |
| ٤- الأستاذ مصطفى صادق الرافعي .....                   | ٦٩ |
| ٥- الأستاذ علي الجارم .....                           | ٧١ |
| ٦- الدكتور إبراهيم أنيس .....                         | ٧١ |
| ٧- الدكتور رمضان عبدالنواب .....                      | ٧٢ |
| ٨- الدكتورة عائشة عبدالرحمن .....                     | ٧٤ |
| المبحث الثالث: اللفظة من حيث الصيغة .....             | ٧٩ |
| الفصل الثالث: بلاغة الكلمة في كتاب الله تعالى .....   | ٨٥ |
| المبحث الأول: كلمات يُظنُّ أنها مترادفة .....         | ٨٦ |
| ١- الخوف والخشية .....                                | ٨٦ |
| ٢- جاء وأتى .....                                     | ٩١ |
| ٣- الفعل والعمل .....                                 | ٩٢ |
| ٤- القعود والجلوس .....                               | ٩٤ |
| ٥- الإعطاء والإيتاء .....                             | ٩٥ |

|     |   |
|-----|---|
| ٩٧  | ٦- الكمال والإتمام .....  |
| ٩٧  | ٧- الشك والريب .....  |
| ١٠٠ | ٨- السَّنةُ والعام .....  |
| ١٠٠ | ٩- كتاب وقرآن .....   |
| ١٠٢ | ١٠- كَتَبَ وَقَرَضَ .....   |
| ١٠٣ | ١١- الفلاح والفوز .....   |
| ١٠٣ | ١٢- جَبَلٌ وَعَلَمٌ .....   |
| ١٠٤ | ١٣- اليَمُّ .....   |
| ١٠٤ | ١٤- الحلف والقسم .....  |
| ١٠٦ | ١٥- الحمد والشكر .....  |
| ١٠٦ | ١٦- النَّأي والبعد .....  |
| ١٠٧ | ١٧- زوج وامرأة .....  |
| ١٠٨ | ١٨- الشح والبخل .....   |
| ١٠٩ | ١٩- النعيم والنعمة .....  |
| ١١٠ | ٢٠- يدع ويذر .....  |
| ١١٣ | المبحث الثاني: ألفاظ مختلفة جاءت في مواضع متشابهة، واختصاص كل موضع بما يلائمه ..... |
| ١١٣ | ١- الإلقاء والقذف .....   |
| ١١٤ | ٢- حاذَ وشاقَّ .....  |
| ١١٥ | ٣- التذكر والتذكر .....   |
| ١١٧ | ٤- هامة وخاشعة .....  |
| ١١٨ | ٥- يَقْلَعُ وَيَخْلُقُ .....  |
| ١١٩ | ٦- المؤمنون والمنافقون .....  |
| ١١٩ | ٧- المودة والحب .....   |
| ١٢٠ | ٨- وضع المضمر مكان الظاهر (يسألونك، يسألك) .....                                    |
| ١٢١ | ٩- الإغراء والإلقاء .....   |
| ١٢٢ | ١٠- الوليجة والبطانة .....  |
| ١٢٤ | ١١- الدثار والتزمل .....  |
| ١٢٤ | ١٢- جعل وخلق .....  |

|     |   |
|-----|---|
| ١٢٩ | الفصل الرابع: في الأفراد والثنية والجمع .....                 |
| ١٤٣ | كلمات قرآنية ورد لها أكثر من جمع واحد .....                   |
| ١٤٨ | جموع كثرة وقلة ظاهرة .....                                    |
| ١٤٨ | جموع كثرة وقلة تحتاج إلى تدبر .....                           |
| ١٥٣ | الفصل الخامس: رسالة الحرف في كتاب الله تعالى .....            |
| ١٥٥ | المبحث الأول: حذف الحرف وذكره .....                           |
| ١٧١ | المبحث الثاني: استعمال الأحرف المختلفة في أماكن متشابهة ..... |

|     |   |
|-----|---|
| ١٨٣ | ..... الفصل السادس: الجملة القرآنية       |
| ١٨٥ | ..... المبحث الأول: التأكيد               |
| ١٩٠ | ..... المبحث الثاني: الحذف والذكر         |
| ٢٠٢ | ..... المبحث الثالث: التقديم والتأخير     |
| ٢٠٣ | ..... الأنموذج الأول: المغفرة والرحمة     |
| ٢٠٤ | ..... الأنموذج الثاني: العلم والحكمة      |
| ٢٠٥ | ..... الأنموذج الثالث: المعرفة والحلم     |
| ٢٢٨ | ..... المبحث الرابع: القصر                |
| ٢٣٥ | ..... الفصل السابع: الفقرة القرآنية       |
| ٢٤٧ | ..... آية الدين                           |
| ٢٥٢ | ..... آية الموارد                         |
| ٢٦١ | ..... الفصل الثامن: السورة القرآنية       |
| ٢٦٣ | ..... سورة الفرقان                        |
| ٢٦٩ | ..... سورة الملك                          |
| ٢٧٢ | ..... سورة غافر                           |
| ٢٨٠ | ..... سورة الأحزاب                        |
| ٢٨٩ | ..... الفصل التاسع: بين السورة والسورة    |
| ٢٨٩ | ..... ١- بين سورتي النور والفرقان         |
| ٢٩٠ | ..... ٢- بين سورتي التحريم الملك          |
| ٢٩١ | ..... ٣- بين سورتي الحديد والمجادلة       |
| ٢٩٢ | ..... ٤- بين سورتي النبأ والنازعات        |
| ٢٩٣ | ..... ٥- سورتنا الضحى والشرح وما بعدهما   |
| ٢٩٩ | ..... الفصل العاشر: القرآن في مجموعه      |
| ٣٠٢ | ..... أولاً: البارزي                      |
| ٣١١ | ..... ثانياً: ابن سنان الخفاجي            |
| ٣١٤ | ..... ثالثاً: الزمخشري                    |
| ٣٢٣ | ..... الفصل الحادي عشر: أسلوب القرآن      |
| ٣٢٤ | ..... ١- الإقناع والإمتاع                 |
| ٣٢٦ | ..... ٢- الجزالة والعدوية                 |
| ٣٢٨ | ..... ٣- الإيجاز والإطناب                 |
| ٣٣٠ | ..... ٤- الإجمال والبيان                  |
| ٣٣٥ | ..... الفصل الثاني عشر: الفاصلة القرآنية  |
| ٣٤٧ | ..... حروف الفواصل إما متباعدة أو متقاربة |



|     |                                  |
|-----|----------------------------------|
| ٣٤٩ | الفصل الثالث عشر: التكرار        |
| ٣٥٠ | الأقدمون والتكرار                |
| ٣٥٠ | ابن قتيبة                        |
| ٣٥١ | الخطابي                          |
| ٣٥٣ | الزركشي                          |
| ٣٥٤ | تعريف التكرار                    |
| ٣٥٤ | المحدثون والتكرار                |
| ٣٥٤ | الرافعي                          |
| ٣٥٦ | عبدالكريم الخطيب - محمد قطب      |
| ٣٥٩ | المبحث الأول: آيات العقيدة       |
| ٣٥٩ | أولاً: آيات الألوهية             |
| ٣٦٤ | ثانياً: الرسالة                  |
| ٣٦٥ | ثالثاً: البعث                    |
| ٣٦٧ | ١ - طبيعة هذا اليوم              |
| ٣٦٧ | ٢ - أحداث اليوم الآخر            |
| ٣٦٩ | ٣ - الأدلة على اليوم الآخر       |
| ٣٧٣ | المبحث الثاني: القصص القرآني     |
| ٣٧٤ | اتساق القصة مع موضوع السورة      |
| ٣٨٠ | المبحث الثالث: جانب الألفاظ      |
| ٣٨٠ | في سورة البقرة                   |
| ٣٨٥ | في سورة آل عمران                 |
| ٣٨٦ | في سورة النساء                   |
| ٣٨٨ | في سورة المائدة                  |
| ٣٨٩ | آيات متفرقات                     |
| ٣٨٩ | في سورة الأنفال                  |
| ٣٩٣ | في سورة التوبة                   |
| ٣٩٣ | آيات متعددة                      |
| ٣٩٦ | في سورة الشعراء                  |
| ٣٩٦ | في سورة الرحمن                   |
| ٣٩٧ | في سورة المرسلات                 |
| ٣٩٩ | في سورة النبأ والتكاثف           |
| ٤٠١ | سورة الكافرون                    |
| ٤٠٥ | الفصل الرابع عشر: الزوائد والحذف |
| ٤٠٥ | تمهيد                            |
| ٤١٠ | أولاً: الباء                     |
| ٤١١ | ثانياً: من                       |
| ٤١٣ | ثالثاً: اللام                    |

|     |   |
|-----|---|
| ٤١٥ | ..... الفصل الخامس عشر: الزيادة                   |
| ٤٢٠ | ..... أولاً: الباء                                |
| ٤٢٦ | ..... ثانياً: من                                  |
| ٤٢٩ | ..... ثالثاً: عن                                  |
| ٤٣٠ | ..... رابعاً: لعل                                 |
| ٤٣٢ | ..... خامساً: إذا ما                              |
| ٤٣٧ | ..... الفصل السادس عشر: الحذف                     |
| ٤٣٩ | ..... أولاً: حذف حروف العطف                       |
| ٤٤٠ | ..... ثانياً: حروف الجر                           |
| ٤٤٢ | ..... مناقشة ما ذهبوا إليه                        |
| ٤٤٣ | ..... أولاً: حروف العطف                           |
| ٤٥٣ | ..... ثانياً: حروف الجر                           |
| ٤٦٣ | ..... الفصل السابع عشر: تحليل لبعض السور القرآنية |
| ٤٦٣ | ..... ١- سورة الزخرف                              |
| ٤٧٥ | ..... ٢- سورة المجادلة                            |
| ٤٨٢ | ..... ٣- سورة السجدة                              |
| ٤٨٤ | ..... المجموعة الأولى (الآيات ١-٩)                |
| ٤٨٨ | ..... المجموعة الثانية (الآيات ١٠-١٧)             |
| ٤٩٣ | ..... المجموعة الثالثة (الآيات ١٨-٢٢)             |
| ٤٩٥ | ..... المجموعة الرابعة (الآيات ٢٣-٢٥)             |
| ٤٩٦ | ..... المجموعة الخامسة (الآيات ٢٦-٣٠)             |